المرجع الديني
السيد محمد حسين فضل الله (دام ظله)

علي ميزان الحق

إعداد وتنسيق
صادق اليعقوبي

دار الملاك

الطبعة الاولى: قم ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م
الطبعة الثانية: بيروت ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بيــروت - لبنـان - حارة حريـك - قرب مستشفى الساحـل - هاتـف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ - ٠١/٤٥٠٧٦٩
ص. ب ١٥٨/ ٢٥ الغبيــري - Int: WWW. dar-almalak. com/Email: dam @ dar-almalak.com

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام علىٰ محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين

علي بن أبي طالب عليه السلام هذا العنوان الكبير لم يكن ليشغل مجالاً كبيراً في تاريخ الخلود فقط، وإنما زحفت شواطيء عطائه لتنعش رمال الحاضر والمستقبل.

ترى ما هو السرّ في هذه الشخصية العظيمة التي تجاوزت الزمن؟

إن نشأة علي عليه السلام في أحضان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وفي أجواء الوحي، وتشرّبه من ثقافة القرآن، عوامل حاسمة في تكوين شخصيّته المتماسكة، التي لم يدخل عليها طارىء قديم، أو جديد من خارج الإسلام، إضافة إلى كل ما حباه الله تعالى من لطف وعناية وعصمة.

وفي جهاده الثابت كان صورة ناطقة للحق الذي لم يعرف غيره، فجعل معرفته له كفاحاً مريراً من أجل إحقاقه، وكان الفَيْصَل في الحروب، حيث قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله في حقِّه وهو متوجّه إلىٰ عمرو بن عبد ود في معركة الأحزاب: «**برز الإيمان كلُّه إلىٰ الشرك كلِّه**»(١) وكان علي عليه السلام تجسيداً لكلّ قوة الايمان في موقفه، وكان عمرو تجسيداً لكلّ قوة الشرك في موقفه.

كان يريد أن تكون فكرة الحق الغاية والوسيلة، لإنشاء عالم أرضي سعيد للناس، هو مدخلهم إلىٰ الفردوس الإلهي.

لقد كان الحق قضيّته الجوهريّة، فنال الخلود من قِبَل البشرية الواعية،

١- البحار: ج٣٩، ص٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١٩، ص٦١.

لأنّها ترى في الحق قضيتها الأساسية، وأملها الموعود الذي تجاهد من أجل أن يتحقق.

كان في خياره الوحيد حكيماً، مكافحاً، حمل لواء الجهاد ضد الظلم، ومن أجل سيادة العدل، فقرن الحكمة بالتطبيق، والرأي بالفعالية، ولم يخدعه سلطان.

ولقد أعطى علي عليه السلام نفسه للحق، فحياته والحق متطابقان، ويقول في وصف نفسه: «**واللّٰه لأعترف بالحق قبل أن أُشهد عليه**» ويقول أيضاً: «**الذليلُ عندي عزيزٌ حتىٰ آخُذَ الحقَّ لَهُ، والقويُّ عنديَ ضَعيفٌ حتىٰ آخُذَ الحقَّ مِنْه**»[1] ويقول رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله في حق علي عليه السلام «**عليٌ مَعَ الحقِّ والحقُّ مَعَ عَلي يَدورُ مَعَهُ حيثُما دار**»[2].

كان الامام علي عليه السلام شديداً في تصميماته العادلة ضد الظلم والظالمين، وفي الوقت نفسه كان يفتح باب الحوار أمام الأفراد والجماعات حرصاً منه علىٰ حرية المجتمع وأسباب تطوّره، بمعنىٰ أنه لم يعزل الحرية الفردية عن الحرية العامة في مجرى قيادته لشؤون المجتمع الإسلامي.

وربّما من أصعب المحن التي مرّت بها خلافة الإمام علي عليه السلام تمسّكه المبدئي الصارم بالحرية، ورفضه الحاسم للإكراه من أيّ نوع كان، فقد رفض إكراه أحد علىٰ بيعته، فقال عن الذين بايعوه «**ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين**»[3].

فلم يكن حضوره في السلطة ـ خليفة ـ يمارس دوره الرئاسي المسؤول، بل وهو ـ قبل السلطة وأثناءها ـ صاحب الرسالة التربوية الكبرى، وهي الرسالة الموجهة إلىٰ البشرية كافة.

١- نهج البلاغة الخطبة ٣٧.

٢ـ بحار الأنوار: ج٣٨، ص٢٨. (رواه الفريقان).

٣- بحار الأنوار: ج ٥، ص١٣.

لقد كان المربي الكبير الذي يباشر مهماته مع الجماعة والأفراد، مع القبائل والشعوب، مع نفسه وأسرته، لأنه وهو يّربي الآخرين كان يتعهّد نفسه بالمراقبة والمحاسبة علىٰ طريق الحق والعدل رغم أنه المعصوم من كل دنس وشائبة، حيث يقول في دعائه لنفسه: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ**» وكان يقول:«**اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ وَلا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ وَلَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الإِصْلاَحَ فِي بِلاَدِكَ**»(١)

إنّ مدرسة الامام علي عليه السلام التربوية، والتي أراد لها أن تكون مدرسة البشر التأريخية، هي مدرسة جامعة لكلّ المباديء الهادفة إلىٰ إنموذج الإنسان النزوع إلىٰ الكمالات الممكنة، وهو الأنموذج الأمثل للإنسان.

وحين خذلته المحنة في زمنه، أنصفه التأريخ، فإذا بأفواج المحبين من رجال الفكر والكفاح الإنساني، والعدل والمعرفة، يتصلون به بحسب الفكر والإيمان، حيث أصبح حبّ علي بن ابي طالب عليه السلام حقيقة موضوعية يقرُّ بها المحب والمبغض، فأخذت الأقلام تسطّر ما تستوحي من هذا العنوان الكبير، ولقد تميزّت خطابات ومحاضرات سماحة المرجع الديني السيد محمد حسين فضل الله(دام ظله) بأسلوب البحث الموضوعي في قراءة تأريخ وسيرة أهل البيت عليهم السلام معتمداً في ذلك علىٰ ما ورد عنهم عليهم السلام من أحاديث وروايات ثابتة بشكل قطعي مطابقة سياق النص القرآني وهو المعيار الذي قدّمه رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام «**ما وافق كتاب الله فخذوه وما خالفه فاتركوه**»(٢).

يرى سماحته أنّ مثل هذه الدراسة تلتقي بآفاق جديدة في العلم والدين

١ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٢، ص١٣.

٢ـ بحار الأنوار: ج٢، ص٢٣٥.

والاخلاق والسلوك والنفس والمجتمع، كما أنها تستطيع أن تعطي الأُمة الإسلامية حلولاً كثيرة لما تواجه من مشاكل فكرية وروحية.

كما يرى سماحته أننا بحاجة إلى أن نُدخِلَ الأئمة في حياتنا العملية من خلال التأكيد على دورهم الرسالي في حياتنا، لنشعر بأنهم يتحركون معنا في مواقعهم القيادية على صعيد الخط الروحي والسياسي والاجتماعي في حركة الفرد والأُمة، مما يجعل من تأكيدنا للجانب الولائي لهم عليهم السلام، تأكيداً للخط الفكري والعملي المتمثل بفكرهم وسلوكهم.

وقد سبق أن صدر لسماحته عدة مؤلفات تتناول الكثير من الجوانب في حياة أهل البيت عليهم السلام، كان أهمها: كتاب في رحاب أهل البيت عليهم السلام بجزئين، كتاب الزهراء القدوة عليها السلام، كتاب حديث عاشوراء...، وغيرها.

وجاءت فكرة هذا الكتاب في جمع ما طرحه سماحة السيد حول الإمام علي عليه السلام مما لا يتسنى للقاريء الاطلاع عليه بأجمعه لتوزّعه ما بين محاضرة وندوة وحوار والتي تنتمي إلى فترات زمنية مختلفة تزيد على أربعة عقود من الزمن.

فعمدت إلى جمعه وترتيبه وتبويبه في كتاب أسميته **(عليٌّ ميزان الحق)**.

فجاء الكتاب في خمسة فصول ومدخل وخاتمة، حيث كان محتوى المدخل أبحاثاً مختصرة حول: قراءة التأريخ، قراءة سيرة أهل البيت عليهم السلام، ومفهوم الحق من خلال القرآن الكريم.

أما موضوع الفصل الأول فكان حول سيرة الإمام علي عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله بشكل اجمالي قبل الهجرة وبعدها، والأدوار المفصلية والحاسمة التي رافقت مسيرة الدعوة الإسلامية، ليُختم هذا الفصل برحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتوديع الإمام علي عليه السلام له.

ويتحدّث الفصل الثاني عن حادثة الغدير وبيعة المسلمين للإمام علي عليه السلام

بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولأهمية هذا المبحث فقد أفردته في فصل مستقل.

والفصل الثالث هو دراسة وتأملات للاحداث التي اعقبت رحيل النبي الاكرم صلى الله عليه وآله من غصب الخلافة والموقع الشرعي للامام علي عليه السلام ودوره في عهد الخلفاء، دوره وهو في الخلافة، الاحداث التي تزامنت مع الخلافة، حتى شهادته عليه السلام في محراب صلاته.

وجعلت عنوان الفصل الرابع (من مدرسة الإمام علي عليه السلام) حيث يتناول مواعظ ونصائح أمير المؤمنين عليه السلام في مختلف شؤون الحياة على طول الزمن.

وعنوان الفصل الخامس (موقع الفكر في كلمات الإمام علي عليه السلام).

وخاتمة الكتاب تحت عنوان (حب علي عليه السلام وبغضه).

ورأيت من النافع أن يكون هناك ذكر لبعض الأسئلة المهمة التي تتعلق بموضوع الكتاب والتي أجاب عليها سماحة السيد(دام ظله) في مناسبات مختلفة، وأخيراً رأيت أن أُزيّن الكتاب بثلاث قصائد شعرية من نظم سماحة السيد استلهمها من فيض عظمة حياة سيد الأوصياء أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام.

أدعوا إلى قراءة مطالب هذا الكتاب بموضوعية علمية، لأن طبيعة الموضوع تتصل بأهم جانب من العقيدة الإسلامية، ذلك هو إمامة أهل البيت عليهم السلام.

أسأل الله سبحانه أن يتقبل منّا هذا القليل، وأن يرزقنا شفاعة الإمام علي وأهل بيته عليهم السلام يوم الفزع الأكبر إنه سميع الدعاء.

والحمد لله ربّ العالمين

صادق هاشم اليعقوبي
رجب المرجب ـ ١٤٢٣هـ ق
ـ قم المقدسة ـ

المدخل

- كيف نقرأ التأريخ
- سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام
- قبسات قرآنية في معنى الحق

كيف نقرأ التاريخ

للتاريخ في حياة كلّ أمّة، تريد أن تتقدّم وتنطلق في الركب الحضاري الصّاعد، دوره الحيوي في نموها وتطّورها، كونه يجنّبها كثيراً من المزالق والمخاطر والأخطاء، بما يقدّمه لها من تجاربها الماضية في مراحل نموها الأولى، وما تحمله ـ تلك التجارب ـ من دروس عملية كثيرة، تستطيع بها أن تضع يديها ـ بوعي ـ علىٰ مواطن الضعف ومواطن القوة في شخصيتها الّتي عاشتها في تلك الأدوار. وهناك يكون الطّريق أكثر إشراقاً، وأرحب آفاقاً مما لو انطلقت فيه على غير هدى التاريخ.

أما إذا انعكست القضية، فحاولت أن تحتقر تاريخها، وترفضه ولا تنظر إليه إلاّ كما تنظر إلىٰ الآثار البالية، وانطلقت، بروح انفعالية حماسيّة تحاول التّمرد عليه والتحرّر منه، والتّحول إلىٰ حاضرها، لتجعل منه مبدأ نموها ومنطلق حياتها.. فإنها ـ لا شك ـ ستتعرى وتفقد شخصيتها الأصيلة لفقدانها الركيزة التي ارتكزت عليها حياتها، والمنطلق الّذي انطلقت منه. وبذلك فهي لا تملك ـ حينئذٍ ـ إلاّ التذبذب والاتكاء على تجارب الآخرين، وتناول فتات موائدهم.

ولا يجهل احد بعد هذا ما في ذلك من ضياع وانهيار لكيانها وشخصيتها الأصلية.

على ضوء هذه الفكرة، نحاول الانطلاق إلىٰ تاريخنا، فندرسه من خلال وجودنا الإسلامي، كأمّة إسلامية واعية أنشأت حضارة عظيمة تعتبر أمّ الحضارات الحديثة.

إننا نحاول الإنطلاق إلىٰ هذا التاريخ، لنقرأه علىٰ هدي من وعي وعمق

ومعرفة في هذه المرحلة الّتي نحاول فيها العودة إلىٰ الشّوط من جديد ـ بعد أن غبنا عنه مدة طويلة ـ لنحمل مشعل الكرامة والعدالة الإنسانيّة في رسالة السّماء إلىٰ الأرض.

وليست تلك المحاولة الّتي ندعو إليها، مجرّد ترفٍ ذهني، ودراسة مجردة وإنما هي ضرورة حتميّة، وواجب حيوي لمرحلتنا الحاضرة، بل نستطيع القول إنّه من أبرز الواجبات الملقاة على عاتق المسؤولين عن قضية الإسلام، بالنظر إلى أنّه سجّل للمعركة الّتي خاضها الإسلام ضد خصومه وأعدائه، وقد علق به، ما علق بكثير من مفاهيم الإسلام، من شوائب وألوان دخيلة بسبب ما حل بالمسلمين من ارتباك واضطراب.

ولذلك فقد وصل إلينا وهو يجر خطواته في وهنٍ وضعف.. حاملاً أثقال الفترة المظلمة، والعهود السّود.

وهذا ما ساعد كثيراً من متفلسفي التاريخ، على تلوينه بالالوان الكثيرة المختلفة، حسب اختلاف لون التفكير الّذي يعيشه أولئك المفكرون.. فأصبحنا نقرأ الأسلوب المادي للتاريخ الّذي يحاول أن يفلسف تاريخنا على أساس من الاقتصاد فحسب. كما بدأنا نسمع عن كثير من الحركات والدعوات الاشتراكية في تاريخنا، وعن دور الصّحابي الجليل أبي ذرّ الغفاري فيها، وعن ثورة صاحب الزّنج التقدميّة، وغير ذلك من الألوان الّتي انتشرت في البحوث التاريخيّة الّتي تتناول تاريخنا بالدرس، بأسلوب بعيد عن الجو الإسلامي وواقعه.

وهذا ما يجعلنا نتساءل عما يجب علينا عمله إزاء هذا الواقع الّذي يعيشه تاريخنا في عصرنا الحاضر، لنستطيع أن نقدّمه إلى الجيل المسلم الواعي في إطاره الإسلامي الخالص، بعيداً عن المفاهيم الغريبة عنه، ليعيش جيلنا الصّاعد في جو إسلامي نقي، كسبيل من سبل المحافظة على شخصيتنا الإسلامية المستقلة.

ملاحظات أولية:

١ ـ إنّ علينا ـ قبل كلّ شيء ـ أن نتخلّىٰ عن الهالة القدسيّة ـ باستثناء ما ثبت من سيرة الرسول صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام ـ الّتي نحاول أن نحيط بها هذا التاريخ بكل ما فيه من انحرافات وأخطاء، لأننا لن نحصل على فائدة من دراستنا له بدون ذلك.. بل القضية تكون عكسيّة، لأن هذا الأسلوب يؤدّي إلى تقديس الأخطاء، وفي هذا ما فيه من الانحراف عن الغاية الّتي نسعىٰ إليها، والهدف الّذي نهدف إليه.

إنّ تاريخنا ـ ككلّ تاريخ ـ كان حصيلة أدوار مختلفة من حياة الأمة بين ارتفاع وانخفاض، فهو الصّورة الّتي تنعكس عليها الحياة بما فيها من ارتباكات فإذا أردنا أن نفهمه على أساس واقعي، فيجب علينا تعريته عن كلّ لون من ألوان الخيال والدعاية والزّهو، وملاحظته كمادةٍ خام لدراسة عملية واقعية عميقة.

٢ ـ وشيء آخر يلزمنا ملاحظته عند دراستنا لهذا التاريخ، هو أنّ كثيراً من القضايا والملابسات، الّتي حدثت في الصّدر الأول في الإسلام والانقسامات التي ابتلي بها المسلمون، أثّرت علىٰ سير هذا التاريخ في عصر الرسالة، لأن تلك القضايا خلقت عندنا كثيراً من المؤرخين والمرتزقة، الّذين كانوا يعيشون علىٰ موائد الملوك، ليخلقوا لهم المآثر والفضائل والأحاديث، ويصّوروها بصورة جذابة تلفت الأنظار في أي موضوع شاؤوا وأرادوا، حسب الحاجة السّياسية والشّخصية.

ولذلك فلن نستغرب إذا قرأنا كثيراً من الوقائع التاريخية، في صورتين متناقضتين، تعكسان الانقسامات الموجودة بين المسلمين، وتبرز كلّ منهما الواقعة التاريخية على ضوء من اتجاهاتها وغاياتها، تماماً كما يحدث في

عصرنا الحاضر عندما تتضارب الصّحف السّياسية في تصوير بعض القضايا، الّتي نعيشها بأنفسنا نتيجة تضارب الرأي أو الاتجاه الّذي تمثّله هذه الصّحيفة أو تلك.

إنَّ على الباحث الإسلامي أن يراعي هذا الواقع الّذي عاش فيه التاريخ الإسلامي، ليسير في بحثه بهدوء وحذر ويقظة متناهية، لئلاّ يقع في الخطأ من حيث لا يعلم وينحرف عن الدرب من حيث لا يريد.

٣ ـ وناحية ثالثة يلزمنا الانتباه إليها وتأكيد شجبها، لأنها تمس جوهر الإسلام في الصّميم، فقد دأب كثير من الباحثين ولا سيما المستشرقين منهم على اعتبار كثير من التصرفات ـ الّتي تقوم بها الجماعات الّتي تدين بالإسلام ـ ممثّلة لوجهة النظر الإسلاميّة، مهما كان لون تلك التصرفات ومهما كان نوعها. وهذا خطأ.. فإن الجماعات الإسلاميّة والمسؤولين المسلمين ـ الذّين عاشوا في التاريخ الإسلامي ـ ليسوا إلاّ أناساً كبقيّة الناس، لهم أخلاقهم الخاصة، ولهم طباعهم وأذواقهم المعينة، ولهم أخطاؤهم البشرية كبقيّة البشر، وليست تصرفاتهم إلا كتصرفات بقية إخوانهم من بني الإنسان، وليس لها علاقة بالإسلام إلاّ بمقدار قربها من مباديء الإسلام ومفاهيمه. ولهذا فإننا لا نستطيع اعتبار أي تصرّف من تصرفات المسلمين ـ باستثناء المعصومين عليهم السلام ـ مرتبطاً بالإسلام إلاّ بعد مقارنته بالمفاهيم والمباديء الإسلاميّة، لنعلم مدىٰ موافقته لها.

إنَّ مباديء الإسلام ومفاهيمه هي المقياس الصّحيح الّذي نقيس به تصرفات المسلمين، لا العكس..

وهذه هي بعض النقاط الّتي حاولنا أن نعرضها ـ بصورة إجماليّة ـ في سبيل الوصول إلّى أفضل الطّرق لدراسة تاريخنا الإسلامي بروح علمية عميقة، على ضوء من هدى الإسلام وأسلوبه.

سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام

إن دراسة حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام من الأمور الّتي نحس ويحس كثير من المسلمين بضرورة العمل على تحقيقها بدقّة ووضوح، لأن لها صلة كبيرة بالجانب العقائدي من حياتنا، وبالجوانب الفكرية والروحية من ثقافتنا وديننا وتاريخنا.

ونستطيع أن ندرك جيداً مدىٰ ضرورة هذه الدراسة، ومدىٰ صلتها بحياتنا إذا لاحظنا: أن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام ـ في ما نراه ـ يمثلون الامتداد الرسالي للدعوة الإسلامية.

فقد كانت مهمتهم بعد اقصائهم عن موقعهم القيادي الذي وضعهم الله تعالى فيه توضيح القضايا الإسلامية الّتي اعتراها الغموض والإبهام بعد النبي صلى الله عليه وآله بسبب الظّروف والملابسات الكثيرة الّتي رافقت الإسلام في تلك الفترات، والقيام بدور الحارس الأمين للقيم والمفاهيم الإسلاميّة، حذراً من أن تُشوَّه أو تحرّف وفقاً لمقتضيات الأهواء السّياسية للحاكمين، الذّين تحيط بهم فئة من المرتزقة، تتملّق للحاكم في كلّ نزوة من نزواته وشهوة من شهواته، فتعد لها تفسيراً يتلاءم معهاومبرراً يستر فضائحها، على حساب المفاهيم العامة الّتي تشوّه وتحرّف كما يشاء الحكم، وكما يريد الحاكم.

وهنا نشعر بثقل المهمة الملقاة على عواتقهم وهم يتحدّثون عن كلّ هذه المؤثرات، وكل هذه العقبات، ليوجّهوا وليوضحوا وليحدّدوا تلك المفاهيم، فلا يبقى هناك مجال للتشويه وللتحريف.

كل ذلك بأساليب عديدة كانت الثورة منها، كما شاهدناه في نهضة الحسين العظيمة عليه السلام .. وكان الدعاء الموجّه من بعضها، كما رأيناه في حياة زين العابدين عليه السلام.

وكان التوجيه والتثقيف والبحث والمناظرة من جملتها، كما نقرأه في حياة الإمام الباقر وولده الصّادق وبقيّة الأئمة عليهم السلام، حسب الظّروف الزّمنية الّتي قد تسمح لبعضهم بأكثر مما تسمح به للبعض الآخر.

وقد اجتمع لدينا من ذلك كله ثروة علمية دينية، حصلنا منها على الشّيء الكثير في مختلف مجالات الحياة بفضل الدراسة الموضوعيّة الحرّة.

رسالة الأئمة عليهم السلام:

وكان الخلفاء من بني أمية ومن بني العبّاس، يتحيّنون الفرص للوقوف أمام الأئمة في تأدية رسالتهم، ويتفننون في اختراع أساليب الاضطهاد والتعذيب للأئمة وأصحابهم، حتّى كان أهون على الإنسان في بعض تلك الفترات أن يقال له يهودي من أن يقال عنه إنه يتشيع لأهل البيت عليهم السلام.

لماذا كان هذا؟ مع أن الأئمة عليهم السلام لم يعلنوا الثورة ضد أي شخص من هؤلاء، منذ ثورة الحسين عليه السلام.

ولو دققنا النظر، لعرفنا أنّ السّبب في ذلك يعود إلى أنّ الثورة الّتي حمل الحسين عليه السلام لواءها، تحولّت نتيجة الظّروف إلى ثورة فكريّة وروحيّة يقودها الأئمة عليهم السلام ضد الظلم والطغيان والتفسخ الخلقي الّذي كان يمثله الكثيرون من هؤلاء.

وتتمثّل هذه الثورة في الرسالة الّتي يحملها الأئمة من أهل البيت، وهي قيامهم بعرض الإسلام للناس بحقيقته وواقعه، بعيداً عن تحريف المحرّفين وتشويه المشوّهين.

الإسلام: الّذي يلعن الظلم والظالمين ويصرخ بهم مهدّداً ومتوعّداً، ويدعو إلى محاربتهم ومقاطعتهم ويلعن من يتعاون معهم.

الإسلام: الّذي يعتبر الأمة مسؤولة عن تولّي الظّالمين للحكم، لأنها تقدّم لهم الطاعة والمعونة على إدارة شؤون الدولة، مما يسهّل لهم مهمة التحكُّم في رقاب العباد ومقدراتهم. وإلاّ فما عسىٰ أن يفعل فرد أو جماعة أمام إرادة الملايين من أبناء الأمة، الذّين لو قاموا بمقاطعته فقط فلا يلبث حكمه أن ينهار ويتلاشى ليُفسح المجال أمام حكم عادل يعمل للمصلحة الإسلامية العليا، قبل كلّ شيء.

الإسلام: الّذي يقدّم العدالة الإجتماعية بأروع صورها للناس، متمثلة في مساواة الحاكم للمحكوم أمام القانون العادل.

ومن الطبيعي أنّ عرض الإسلام بهذه الصورة المضيئة يتعارض والمصالح الشخصيّة، لأولئك الذين كانت أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم معلّقة بكلمة تصدر منهم أو شهوة تعرض لهم، من دون أن يحاذروا رقيباً أو حسيباً بسبب الضغط والإرهاب، بالإضافة إلى ما دفعوا إليه المجتمع الإسلامي من الانحدار الخلقي والروحي والفكري.

لذلك كنا نجد كلّ فرد منهم، لا يكاد يتولّى الحكم حتّى يكون موقفه من الإمام الذي يعاصره أول ما يفكر فيه، وفي الطريقة التي يمكنه أن يقضي على الأصوات الخيّرة التي تنطلق من الدعوة الإسلامية الصّريحة، وعلى التفكير الثوري الذي كانت تعاليم الأئمة تركّزه في أعماق الأمة... فكان القتل بالسمّ وبغيره، وكان الاضطهاد، وكان التعذيب، وكان السّجن، وغير ذلك من الأساليب الّتي تعرَّض لها الأئمة عليهم‌السلام من جبابرة زمانهم.

ولكن... متى كانت هذه الأساليب تقتل فكرة أو تخنق ثورة، ومتى كان الظلم يستطيع أن يحجب الشّعاع الخيّر المنطلق من نفوس المصلحين وعقولهم مهما أثار من الغبار، ومهما حشد من الضباب.

نحن بحاجة ماسّة إلى دراسة حياة الأئمة من أهل البيت عليهم‌السلام ، لأنّ مثل هذه

الدراسة تلتقي بآفاق جديدة في العلم والدين والأخلاق، والسلوك والنفس والمجتمع، كما إنها تستطيع أن تعطينا حلولاً كثيرة لما نجابه من مشاكل فكريّة وروحية، وتبعدنا عن جو السطحية والسذاجة اللتين لا نزال نعالج مشاكلنا على أساسهما.

علينا أن نضع أيدينا على المعين الصافي الذي انطلق منه الإسلام وعاش فيهولن نجد إلاّ الريّ لظمأ المعرفة، الذي يملأ أرواحنا وأفكارنا، ولن نحصل إلاّ على الراحة والطمأنينة، والتخلّص من القلق النفسي الذي يعصف بحياتنا ويبعثر خطواتنا في دربنا الطويل.

الينبوع الصّافي:

ونجد أن من الإخلاص لحديثنا، أن نرجع قليلاً لحديث النبي صلى الله عليه وآله والملابسات التي تعرّض لها، لا سيما أنّ حديث الأئمة عليهم السلام يعتبر امتداداً لحديث النبي صلى الله عليه وآله ومتفرّعاً عنه ومستمدّاً منه، فإنهم أمناؤه على شريعته وخلفاؤه في أمّته يوضحون للناس دينهم، ويقربونه إليهم بأساليب متعددة، ومهما اختلفت فإنها لن تنفصل عن الينبوع الصّافي الذي يتفجّر من حديث النبي صلى الله عليه وآله وكلامه، ولهم من عصمة الله في ما يقولون وفي ما يفعلون، ما يرفع عنهم الخطأ في القول، أو الغفلة في الحكم.

وقد صرّحوا بذلك في ما روي عن الإمام الصّادق عليه السلام حيث قال: **«حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، وحديث رسول الله قول الله تعالى»**[1].

١ـ البحار، ج٢، ص١٧٨ رواية ٢٨، باب ٢٣ (منية المريد).

وكان أحمد بن حنبل إذا روى عن الإمام موسى بن جعفر قال: حدثني موسى بن جعفر، قال: حدّثني جعفر، قال: حدّثني أبي أبو جعفر، حدّثني أبي محمد بن علي، حدّثني علي بن الحسين، حدّثني أبي الحسين بن علي، حدّثني أبي علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثمّ قال أحمد: وهذا إسناد لو قريء على المجنون لأفاق[١].

وإذا عرفنا ارتباط حديثهم بالسنّة النبوية المطهّرة، عرفنا سرّ التشابه بين ظروف السُنّة وظروفه، في ما تعرّض له كلّ منهما من وضع وتحريف وتشويه.

أسباب التزوير:

وقيمة الحديث أو السُنَّة في حياتنا كبيرة وعظيمة، لأنها تتكفل بشرح المبادىء الإسلامية العامة الّتي نزل بها القرآن، وتخطيط المفاهيم الواسعة الّتي أجملها كتاب الله.

لذلك فلن يكون غريباً أن نرى المسلمين يدأبون على حفظه وضبطه، ولا سيما بعد اتساع رقعة الدين الجديد، واحتياج الناس إلى مبلّغين ومرشدين ليعلّموهم مبادىء الإسلام وتعاليمه، ولن يكون ذلك إلاّ عن طريق القرآن والسنة، وهنا بدأ المسلمون يتلمسون قيمة ما يحفظون وما يحدّثون.

وكان من بين الداخلين إلى الدين الجديد، مَنْ جذبته الرغبة في المغانم الّتي بدأ المسلمون يغتنموها من وراء الفتوحات، ومن كانت الرهبة والخوف من قوة هذا الدين هما الحافز له على الدخول فيه، وقد اندسّ هؤلاء بين الجماهير الواعية المخلصة، الّتي دخلت عن وعي وهدي وبصيرة، ليلعبوا ويخرّبوا ويعملوا على الإساءة إليه بكل ما أوتوا من قوة.

١ـ البحار، ج ١٠، ص٣٦٦، رواية ٣، باب ٢٠ (غير معصوم).

وكان من الطبيعي أن يستغل هؤلاء الراغبون، هذه الأهمية للحديث وهـذه الحاجة إليه، فابتدأت الأكاذيب، وابتدأ الوضع يـنتشر أمـام سـمع النـبيﷺ وبصره، وإذا بنا نسمع أحكاماً جديدة، ومفاهيم جـديدة مـا أنـزل الله بـها مـن سلطان، حتّى اضطر النبيﷺ إلى أن يتوعّد هؤلاء وكل إنسان تُسوّل له نـفسه الكذب على الله وعلى رسوله بعقاب النار، لأنّ ذلك يعرّض الإسلام ومـفاهيمه للارتباك والاضطراب والتشويه والتحريف، الأمر الّذي قد يهيىء لأعدائه فرصة الإجهاز عليه وهو في مهده.

ولبّى النبيﷺ نداء ربه، وبدأت أهمية الحديث تزداد، وبدأ المحدّثون عن النبيﷺ يتّخذون صفة الحَفظَة للـدين، والحـاملين له، والحـارسين للشـريعة وبدأوا يجنون ثمار ما حفظوه وما نقلوه فقد أصبح لهم على القائمين بالأمر حق المشورة في أمور الدين عندما تعرض مشكلة أو تحدث حادثة وليس فيها حكم واضح وصريح.

وتنفّس الوُضّاع الصّعداء، فقد اتسع لهم المجال بعد أن خفّت رقابة النبيﷺ عليهم، وتسللت الأحاديث المكذوبة إلى الناس وتداولتها الألسن، ولم يـمض زمان قليل حتّى أصبحت حديثاً يحدث به ليُحفظ، ورواية تروى لتنقل ويعمل بها، كما يعمل بأيّ حديث صحيح صادر من النبيﷺ.

وتوسَّع الأمر بعد أن بدأت الفتن الداخلية تغزو حياة المسلمين، وأصبح على الانتهازيين والوصوليين أن يُلفِّقوا الحديث ويضعوه لتأييد بعض المفلسين الّذين ليس لهم سابقة في إيمان ولا جهاد في الإسلام، مـمن استولوا عـلى مـقدرات المسلين ظلماً وعدواناً كمعاوية وأشباهه.

وكان أن دخلت إلى الحياة الإسلامية طائفة جديدة من الأحاديث ما لبثت أن نشأ عليها الأطفال وشاب عليها الكبار، بسبب السياسة الّتي اتبعتها السلطة الباغية آنذاك في تركيزها في نفوس المسلمين.

ولم تكن الفتن والحروب وما أخذ به المسلمون من أسباب اللهو والترف في حياتهم الجديدة، لتسمح لهم أو لتترك لهم مجالاً لأن يلتفتوا إلى هذا الزيف، فضلاً عن أن يحاولوا فضحه وإنقاذ الإسلام منه.

وهكذا اختلط الحابل بالنابل والجيد بالرديء ـ كما يقولون ـ وأصبح تمييز الحديث الصحيح من الفاسد والصادق من الكاذب يحتاج إلى علم وخبرة ودراية ووعي ديني عميق.

جلاء المفاهيم:

وبدأ الأئمة يعانون أشد المشاقّ والعقبات، في سبيل إنقاذ الإسلام من هذه التركة الثقيلة الّتي خلفتها الأوضاع الشّاذة التي قدّمنا الإشارة إليها، فقد كانت مهمتهم هي المحافظة على نصاعة الإسلام وإشراقه وجلاء مفاهيمه بوضوح مهما كلّفهم الأمر، وكانت الظّروف تشتدّ حيناً وتنفرج حيناً، وكانت لحظات الإنفراج أو فتراته، هي المجال الوحيد لنشر توجيهاتهم وبثّ تعاليمهم المقدسة.

وجاء عصر الإمام الصّادق عليه السلام في فترة إنفراج واسعة نسبياً. بسبب الظرف الذي كان فترة انتقال الحكم من الامويين إلىٰ العباسيين واشتغال كلا الطرفين بشؤونه وملكه من الاساءة للامام عليه السلام أو منعه عن ممارسة نشاطه في الدعوة إلى الحق وتعريف الناس، وبدأ الإمام عليه السلام ثورته التثقيفية بين المسلمين بأساليب متعددة تختلف حسب اختلاف عقلية السائلين والمجادلين.

وانتشرت أحاديثه انتشاراً هائلاً، وكثر الرواة لها في جميع الطّبقات من شيعته وغيرهم، لا سيما وقد أصبح الحديث والرواية علماً مستقلاً بذاته في ذلك الوقت.

وقد أفرد الحافظ أبو العباس أحمد بن عقدة الكوفي الزّيدي كتاباً فيمن روى عنه عليه السلام جمع فيه أربعة آلاف رجل وذكر مصنفاتهم، ولم يذكر جميع من روى

عنه. ويقول الحسن بن علي الوشاء في ما روي عنه (أدركت في هذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ تسعمائة شيخ كلٌّ يقول حدّثني جعفر بن محمد).

وأعطت هذه الثورة ثمارها، فقد بدأت المفاهيم الإسلامية تأخذ طريقها إلى الوضوح بسبب ما أثير حولها من جدل وسؤال، وبدأت الحركة العلمية تزدهر وتنمو، وبدأ الجمود الّذي سيطر على أذهان المسلمين وتفكيرهم يتلاشى تدريجياً. كلّ ذلك بفضل الحركة التي أثارها الإمام الصّادق عليه السلام في مجتمعه في تلك الفترة الإنتقالية في شتى الجوانب والقضايا في إطار إسلامي رائع.

مواجهة جديدة:

ولم يعجب ذوي النفوس المريضة هذا الإشراق الذي بدأت تتجلّى فيه المباديء الإسلاميّة، وهذا التفكير الجدي المرن الذي بدأ يغزو حياة المسلمين في طريق مستقيم لاحبٍ، ولم يرضَ الحاكمون أن يكون للإمام الصّادق عليه السلام، أو الأئمة بوجه عام، هذه المكانة وهذه المنزلة في نفوس المسلمين، أو يكون لحديثهم هذه المرتبة من القدسية والتقدير، ولم يكن في حياة الأئمة أي مغمز أو ملمز أو مجال ينفذون منه إلى أغراضهم وأهدافهم العدوانية تجاههم، إذ ليس في حياتهم عليهم السلام ما يؤاخذون به أو يُنقدون عليه، لأنها كانت المثال الحي للحياة الإسلامية الناصعة في مثاليتها وروحيّتها.

فلم يبق إلاّ الكذب... وبدأ الوُضّاع يختلقون الأحاديث عنه وينسبونها إليه مما يتنافى وأصول العقيدة الإسلامية، الأمر الذي سبب ارتباكاً واضطراباً للمخلصين الذين يحاولون المحافظة على قدسية هذا التراث ونصاعته، مما اضطرّ الإمام الصّادق عليه السلام لأن ينبّه المسلمين إلى خطر هذه الأكاذيب، وإلى أن يجعل لهم قياساً يقيسون به ما يأخذون عنه وما يدعون.

فقد جاءنا الحديث الصحيح عن هشام بن الحكم أن أبا عبد الله الصّادق عليه السلام

قال: «لا تقبلوا علينا حديثاً إلاّ ما وافق القرآن والسّنّة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد ـ لعنه الله ـ دسَّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنّة نبينا»(١).

وقوله عليه السلام لمحمد بن مسلم: «ما جاءك من رواية من برّ أو فاجر يوافق القرآن فخذ به، وما جاءك من رواية من بر أو فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به»(٢).

وفي كثير من الروايات عنه: «وما خالف قول ربنا لم نقله أو زخرف، أو باطل».

وهكذا التقى الأئمة عليهم السلام بجدّهم صلى الله عليه وآله في مشكلة الكذب والكذّابين والوضع والوضّاعين، فلم يكن منهم إلاّ تحذير المسلمين منهم ومن حبائلهم وكيدهم الذي يكيدون به للدين الإسلامي، وإرجاعهم إلى كتاب الله وسنّة نبيه، فإنهما المقياس الذي تُقاس به صحة ما ينسب إليهم وكذبه، لأنهم حفظة الكتاب والسنّة والقائمون عليهما، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون حديثهم مخالفاً لهما، بل هو مستمد منهما، وراجع إليهما في كلّ أمر من أمور الكون والحياة.

تنقية التراث:

إننا الآن أمام تركة ضخمة من الأحاديث الواردة عن نبينا صلى الله عليه وآله وعن أئمتنا عليهم السلام في شتى القضايا والشّؤون الخاصة والعامة، من تقييم لشخصيات إسلامية أو بيان لأحكام الإسلام وتعاليمه، أو شرح لمفاهيم الإسلام وموقف المسلم من حياته، وما يعرض فيها من حوادث وقضايا لا بدّ للمسلم أن يحدّد

١ـ البحار، ج٢، ص٢٥٩، رواية ٦٢، باب ٢٩.

٢ـ البحار، ج٢، ص٢٤٤، رواية ٥٠، باب ٢٩.

موقفه منها وأن يكوّن له نظرة فيها.

وفي هذه الأحاديث الكثير من الغثّ والسّمين، وفيها الكثير من الكذب والموضوع، فماذا سيكون موقفنا منها ؟

هل نقتصر على محاكمة الأحاديث التي تتعلّق بالأحكام الفقهية في الواجبات والمحرمات، فندقّق في صحتها من حيث سندها ومحتواها ـ كما فعلنا ـ ـ فقد أجهد الفقهاء رحمهم الله، أنفسهم في تمييز الصحيح من الضعيف من هذه الأحاديث في ما يتعلّق بالأحكام الشرعية، وما يحتاج الفقيه إليه في الاستنباط فأخذوا الصحيح وتركوا الضعيف.

ويعتذر الكثيرون عن ذلك وعن عدم التعرّض لأخبار الفضائل والمناقب والمواعظ وغيرها، بأنّ تلك ليست محلاً لأثر شرعي، فلا مانع من أن تبقى على ما هي عليه من دون تنقيب أو تفتيش.

ولكن يخطيء هؤلاء، عندما يظنون هذا الظّن أو يزعمون هذا الزّعم، فإنّ قيمة هذه الأحاديث لا تقلّ عن قيمة الأحاديث التي تتعرّض للحلال والحرام في بعض النواحي، لأنها تتصل اتصالاً وثيقاً بسلوك المسلم وتربيته وتوجيهه في مجاله العائلي والإجتماعي.

فربّ نظرة واحدة مدسوسة في بعض هذه الأحاديث تكون كافية لتهديم مجتمع كامل، لأنها توجّه هذا المجتمع إلى وجهة قد يكون نصيبه فيها الهلاك والدمار.

وربّ فكرة واحدة تُعرض على أنها فكرة إسلامية خالصة، تكون سبباً لتشويه الإسلام، وإظهاره بالمظهر السّيء في معالجته للمشاكل الحياتية وفي نظرته للكون والحياة، والإسلام بريء من ذلك كله.

إننا بحاجة ماسة إلى تنقية تراثنا الإسلامي الخالد من الطفيليات التي نشأت

في أحضان الدس والتحريف، وإلى التشدّد في محاكمة هذا التراث في كلّ ناحية من النواحي، سواء ما يتعلّق منها بالنواحي العقائدية أو العملية أو التربوية وغيرها، نظراً إلى أن التهاون والتساهل في ذلك يعرّض المصلحة الإسلامية العليا للخطر ويعرّض الإسلام للتشويه، من قبل الساذجين والمغرضين، الذين يهمهم قبل كلّ شيء أن يضرب الحديث على الوتر الحساس، ولا يهم بعد ذلك إن كان الحديث صادقاً أو كاذباً، أو كان مضراً بالإسلام أو غير مضر.

إنّ الأئمة عليهم السلام قد وضعوا لنا مقياساً نقيس به قيمة ما للحديث من صحة من حيث صدوره ومن حيث محتواه، فعلينا أن نراعيه في كلّ ما نقرأه ونراه، لنكون قد أدّينا رسالتنا كاملة بين هذه التيارات المتضاربة التي تحيط بالإسلام من جانب.

مقاييس تنقية التراث:

ونودّ أن نختم حديثنا بتوضيح المقياس الذي وضعه لنا الأئمة عليهم السلام، لتمييز الصّحيح من الفاسد، والمقبول من المردود من حديثهم وحديث جدهم الأعظم صلى الله عليه وآله، ونكتفي بعرض سريع للشروط التي يلزم توفّرها في الخبر لكي يكون مقبولاً ـ فيما إذا كان سنده ظنياً غير قطعي ـ وهي كما يلي:

١ ـ أن يكون متفقاً والضرورة العقلية.

فإذا اتّفق أن جاءنا حديث يصادم الدليل العقلي القطعي، فإننا لا نتوقف عن رفضه وطرحه أو تأويله، إذ لا يمكن بأن يتفوّه نبي مرسل أو إمام معصوم بما يصطدم والضرورة العقلية.

٢ ـ أن يتفق والمحتوى القطعي لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله أو لا يختلف معه ـ على الأقل ـ. أما إذا فقد هذا الشرط فإنه يطرح أو يلتزم بتأويله ـ فيما إذا كان هناك مجال للتأويل ـ وقد تقدّم عن الإمام الصّادق عليه السلام ما يدّل على ذلك.

٣ ـ أن يكون الراوي موثوقاً به، مأموناً من الخيانة والكذب، أو عدلاً على بعض الآراء، وربما يكتفي بعضهم بوثاقة الخبر بدون التفات إلى وثاقة الراوي فمتى فقد هذا الشرط كان الخبر غير معتبر أياً كان مضمونه ومحتواه.

٤ ـ أن لا يكون له معارض يكافئه في شروط الصحة ويصادمه في محتواه ومضمونه، وإلاّ فلا نستطيع قبولهما معاً، لأنّه التزام بالمتناقضين أو المتضادين وهو مما لا يمكن صدوره عن عاقل فضلاً عن النبي صلى الله عليه وآله والامام عليه السلام، ولا نتمكن من الأخذ بأحدهما بعينه، لأنّه ترجيح بلا مرجح وهو قبيح بحكم العقل.

٥ ـ أن يكون له أثر شرعي، فإذا كان الخبر الظنّي متعلقاً بأمور أخرى بعيدة عن أمور الشريعة، كما في الأخبار المتعلّقة بالسماء والعالم وغيرهما، فلا يقبل أن يحصل القطع بمضمونه أو بصدوره من جهة أخرى، إذ لا دليل لنا على الاعتناء بالظنّ في غير الأمور الشرعية.

هذه هي الشّروط ـ التي لا بدّ من توفرها في الخبر ليكون مقبولاً ـ نقدّمها لقرائنا الكرام، أملاً في أن تكون باعثاً للكثيرين، ممن يبحثون القضايا الإسلامية ورأي الإسلام في قضايا الحياة، كي يدققوا كثيراً في ما يقرأونه وفي ما يسمعونه من أحاديث منسوبة إلى النبي صلى الله عليه وآله أو الأئمة عليهم السلام، قبل أن يكوّنوا فكرة عن القضايا التي تعالجها هذه الأحاديث، أو الأشخاص الذّين تتحدّث عنهم.

وإلاّ، فإنهم يسيؤون إلى الروح العلمي المتّزن والفكر الإسلامي، وإلى المصلحة الإسلامية العليا، نظراً إلى أنّ إهمال هذه الناحية الحيوية قد يؤدّي إلى تشويه كثير من الآراء الدينية وتحريفها، والإساءة إلى فئات إسلامية لها قيمتها ولها وزنها في مجال العلم والدين، وبالتالي الإفساح في المجال أمام العدو ليمارس دوره المفضّل في تحطيم قوة المسلمين ووحدتهم كما حدث في الماضي البعيد والقريب.

قبسات قرآنية في معنى الحق

وَالوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ(١)

معاني المفردات:

﴿والوزنُ﴾ مقابلة أحد الشيئين بالآخر حتىّ يظهر مقداره، وقد استعمل في غير ذلك تشبيهاً به، فمنها وزن الشعر بالعروض، ومنه قولهم: يزن كلامه وزناً.

﴿الحَقُّ﴾: وضع الشي موضعه على وجهٍ تقتضيه الحكمة، وقد استعمل مصدراً على هذا المعنى وصفة كما جرى ذلك في العدل، قال الله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾(٢) فجرى على طريق الوصف.

والوزن يومئذٍ الحق:

لكل شيء وزن، يحدد حجمه ومقداره بحسب الوحدة التي تعيّن المقادير، وللوزن مقياسان؛ مادي ومعنوي. فأما المادّي، فهو الذي يعيّن مستوى الثقل في الأشياء في ما تعارف عليه الناس من الغرام، والكيلو، والطن، ونحو ذلك مما يختلف اسمه ونوعه حسب اختلاف البلدان واللغات... وأمّا المعنويُّ، فهو الذي يحدّد مستوى الثقل الفكري والعملي والاجتماعي والروحي للأشخاص وللمؤسسات، ليحدّد من خلال ذلك القيمة الفكرية والروحية والاجتماعية والعملية لها، ولتوضع ـ على أساس ذلك ـ القضايا السلبية أو الإيجابية المتصلة بحركة هذه الأشياء بما تحمل من علم أو تجيد من أمور، كما توحي به الكلمة

١ـ الاعراف ـ ٨. ٢ـ الحج: ٦٢.

المأثورة عن الإمام عليعليه السلام: «قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ»[١] وكما نستلهم من الآية الكريمة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُون ﴾[٢]. وقد يتحدثون عن الوزن الروحي بما تمثله الملكات النفسية، وعن الوزن الاجتماعي والسياسي بما يمثّله من حجم اجتماعي أو سياسي في حياة الآخرين. وهكذا يحس الناس بِخفّة الأشياء وثقلها، في ميزان تفكيرهم ومشاعرهم، وفي تقييمهم لما حولهم من أشخاص أو مؤسسات...

أما في يوم القيامة، فهناك الوزن الحقّ للأشخاص، في ما يملك الناس من خصائص وأعمال في الدنيا وما خلّفه الإنسان وراءه من مواقف، مما يمثل تاريخ الإنسان في علاقته بالحياة من خلال علاقته بالله، فإذا كان تأريخه مثقلاً بالأعمال الكبيرة المنسجمة مع حجم مسؤولياته في إيجابية الممارسة، كان وزنه ثقيلاً في ميزان القيمة عند الله، ممّا يمنحه، في قضية المصير، شهادة فلاح ونجاح بما قدّمه للناس من حوله من فرص الخير والعلم والحرية والهدى والإيمان، وبما أجهد فيه نفسه، وأتعب فيه بدنه. أما إذا كان تأريخه فارغاً من ذلك كله، لان همه في الحياة أن يأكل ويشرب ويلبس ويستمتع بمختلف شهواته ولذّاته، وأن يعيش الحياة في كسل واسترخاء من غير هموم ومشاريع كبيرةٍ تتجاوز نفسه إلى أمته، فإن أعماله لا تمثل وزناً في حجم المسؤولية. وإنسانٌ في هذا المستوىٰ من البعد عن الله وعن حركة الحياة، لا بد أن يكون ميزانه خفيفاً يطير في الهواء، لأنه لا يجد في مقابله شيئاً يقترب به من خطّ التوازن.

أنزل الكتاب بالحق والميزان:

﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ﴾ ليكون القاعدة الفكرية، والمنهج العملي

١ـ نهج البلاغة، ضبط نصه د. صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت ـ لبنان، ط: ١٩٨٢م، ص٤٨٢، حكمة: ٨١. ٢ـ الزمر: ٩.

الذي يريد للإنسان أن يتحرك فيه على أساس الحق، لأن الإنسان هو المخلوق الذي يعطي الحياة مضمونها الحركي، بما يخططه لها من نظامٍ واقعي، وبما يحركه فيها من مشاريع متنوعةٍ، وهو أمرٌ يتعلق بالتدبير التفصيلي لكل المخلوقات الجامدة والحية والنامية من حوله، باعتبار أنه هو من أوكل الله إليه أمر إدارتهاوسخرها له لكل انقياد وخضوع.

﴿والميزان﴾ الذي يزن فيه مقادير الأشياء، ويحدد مواقعها فيضع كلّ شيءٍ في موضعه، ويعطي كلَّ شخصٍ حقّه، ويطلق الكلمة التي تتناسب مع المواقع من جهةٍ، ومع الخط المبدئيّ من جهة أخرى.

وهكذا يكون الميزان هو المقاييس التي أنزلها الله في وحيه، لتربّي الوجدان الإنساني على التطبيق المستقيم للنظرية.

وهكذا أنزل الله الكتاب والميزان للناس، لتستقيم حياتهم على أساس رضى الله، عندما يأخذون بما وضعه لهم من نهج وشريعة طلباً لرضاه وتخلصاً من عقابه.. ولكن مشكلة الناس أنهم يستغرقون في الحياة حتىّ يتخيلوا امتدادها إلى ما لا نهاية. ويستبعدون مجيء الساعة التي يواجهون فيها لحظة الحساب بين يدي اللهأو ينكرونها، ويسخرون من حديث النبي عنها، وهذا ما أراد الله أن يثيره أمامهم في صورة الخطاب للنبي محمدﷺ كوسيلةٍ من وسائل خطاب الأمَّة.

ميزان فض المنازعات في الإسلام:

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ فقد يتنازع المؤمنون في قضاياهم الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ونحوها، فكيف يجب أن يعالجوا أمثال هذه المنازعات؟ ومن هو المرجع؟ إن الآية تحدّد لنا الميزان الذي يزن لنا الحقيقة فيعرّفنا الخط الفاصل بين الحق والباطل؛ فليرجعوا إلى الله من خلال كتابه المجيد الذي لا يأتيه

الباطل من بين يديه ومن خلفه، وليهتدوا بهدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسنته، في ما لا يستطيعون فهمه من القرآن؛ فهما المصدران المعصومان اللذان نستطيع من خلالهما الوقوف عند الحق لنعمل به، والانطلاق ضد الباطل لنجتنبه، وذلك هو دليل الإيمان بالله واليوم الآخر، في ما يفرضه على الإنسان من الالتزام بكتاب الله وسنّة نبيّه؛ لأن الإنسان الذي لا يسير على هذا الخط هو إنسان لا يعيش الانتماء إلى خط الله ورسوله، لما يعنيه الانتماء من الابتعاد عن كلّ خطّ آخر غيره، سواء كان من وحي نفسه أو من وحي الآخرين.

وربّما كان من الضروري لهذا الحديث، الإشارة إلى أن الآية توجهنا إلى السير في هذا الخط في اتجاهين: الاتجاه الفكري، والاتجاه العملي. فإذا اختلفنا في الخطوط الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يرتكز عليها نظام المجتمع، فيجب علينا الانطلاق إلى الله والرسول، لنرسم الخطة على أساس المفاهيم والأحكام والوسائل التي يتضمنها الكتاب والسنّة، لنحدّد الخط الإسلامي من غيره عندما تشتبك الخطوط أمامنا وتشتبه؛ فهذا هو الذي يحفظ للرؤية الإسلامية وضوحها وسلامتها من الانحراف والخلل وهذا هو الذي يؤكد للمسيرة الإسلامية اصالتها وثباتها وتوازنها ولهذا حضت الكثير من أحاديث المسلمين على ضرورة تقديم الأساس بين صحيح الحديث وباطله مما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام، بإرجاعه إلى كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله، مؤكدة هذه الروايات بأن «**كل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف**»[(١)] أو باطل، وما إلى ذلك من الكلمات التي تقترب من بعضها البعض.

وهذا ما ينبغي لنا مواجهته في ما يخوضه المفكرون المسلمون من صراعات فكرية، يتحرك بعضها في نطاق الإصرار على الرجوع إلى المصادر الأصيلة للإسلام في الفكر والتشريع والتخطيط وبناء الدولة وإقامة النظام، ويتحرك بعض

١- البحار، م ١، ج: ٢، ص: ٢٤٢، باب: ٢٩ رواية: ٣٧.

آخر، ليوفّق بين مفاهيم الإسلام القرآنية والنبوية، وبين المفاهيم الحديثة التي انطلقت في تفكير الفلاسفة الأوروبيين، وذلك من أجل المحافظة على تحديث الإسلام وعصرنته حتىّ ينسجم مع مسيرة العصر الحضارية، وربما يتحرّك في كلا الاتجاهين متطرفون هنا وهناك، ليتجمد هؤلاء على النص في لفظه بعيداً عن روحه، وليتحرر أولئك فيتركوا النص تماماً ليستلهموا روحه بطريقة مائعة، وقد أثار هذا الاختلاف جوّاً سلبياً في الساحة الإسلامية على مستوى الفكر والعمل.

والآية التي نحن بصددها ليست إلا نوعا من التذكرة، بأن النزاع في فهم الفكرة، وفي طبيعة الخط، قد يكون له مبرراته الداخلية والخارجية، ولكن ذلك لا يتأتى بطريقة ذاتية، بل بالرجوع إلى القواعد الفكرية القرآنية والنبوية لتكون هي الميزان في الفكر الإسلامي الصحيح،في مواجهة الفكر الزائف؛ فإن ذلك هو علامة الإيمان الحق. أما في الجانب التطبيقي الذي يحكم المسيرة، فالأمر لا يختلف عن الجانب الفكري؛ لأن قضية الإسلام ليست الإيمان بالفكرة على أساس المعرفة فحسب، بل العمل على خط الإيمان في حركة الواقع، فلا يكفي في سلامة المسيرة أن يكون الفكر صحيحاً، بل ينبغي أن يكون التطبيق سليماً لتتكامل الشخصية الإسلامية وتتوازن. وفي ضوء ذلك، لا بد أن تحل مشاكل الاختلاف في التطبيق على هدى القرآن والسنة، ليعرف الإنسان المؤمن أن حياته لم تبتعد عن فكره وإيمانه.

الأكثرية لا تمثل خطّ الهدى:

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ هناك اتجاه يقول: إن الأكثرية تمثل الحقيقة، أو الفكر الأقرب إليها، وبذلك اعتُبرت أساساً للتنظيم في جميع المؤسسات التي تحتاج إلى وضع القوانين وإصدار القرارات عندما يختلف الأعضاء بين رأي

موافق ورأيٍ مخالف فيكون رأي الأكثرية، ولو بزيادة واحد، هو الخطّ الفاصل بين الحق والباطل سواءٌ في ذلك على مستوى الجمعيات أو الأحزاب أو الشركات أو الحكومات، أو على مستوى الأمة كلها، والاتجاه الديمقراطي يرتكز على هذه القاعدة.

ولكن القرآن لا يوافق على هذا الاتجاه، بل يعمل ـ بدلاً من ذلك ـ على الإيحاء للإنسان بأن الحقيقة هي في الجانب المقابل، أي عند الأقليّة، ولذلك كثرت الأحاديث في الآيات الكريمة عن ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، أو ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[2]، أو ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ﴾[3] لأن الأكثرية ـ عادة ـ تمثل التيار الذي يحكم الحياة من جانبها السهل الذي يقف مع الرغبات الحسية وغير الحسية التي تنادي بها النفس الأمارة بالسوء، أمّا الأقليّة، فهم الذين يتعاملون مع الحياة من موقع المسؤولية الصعبة، ويمثلون الطليعة في كلّ مجتمع، ولهذا كانوا هم أتباع الدعوات الرسالية والثوريّة والإصلاحية، الذين حملوا الأعباء الكبيرة، وتحمّلوا الجهد العظيم وعاشوا في مواكب الشهادة، بينما كانت الأكثرية في الجانب المقابل من الرسالة والثورة والإصلاح، تحارب الأنبياء والثائرين والمصلحين بمختلف ألوان الحرب، وتبعثر خطواتهم على أكثر من صعيد، حتى إذا تقدمت الرسالة والثورة والإصلاح، وانتصرت، انطلقت الأكثرية لتسير مع الأجواء الجديدة، لتعمل على احتوائها وتوظيفها لمصلحتها ولتسلك أساليب اللف والدوران وفنون الخداع والنفاق، ولتعود ـ من جديد ـ لتحارب الرسل والثائرين والمصلحين، من موقع آخر، وبوسائل أخرى.. وهكذا تستمرّ الحياة في صراع الأكثرية السائرة مع التيار، مع الأقليّة المتحركة ضده.

١ـ هود: ١٧. ٢ـ الأعراف: ١٨٧. ٣ـ التوبة: ٨.

إن القرآن لا يعتبر الكثرة العددية أساساً للنتائج الإيجابية على مستوى الحقيقة، لأن للحقيقة أساساً ينطلق من الوحي الإلهي من جهة، ومن الفكر الهادىء الموضوعي العميق من جهةٍ أخرى، ولن يكون للأرقام الكثيرة أيّ تأثير في هذا المجال، لأنها لا تستطيع أن تتقدم خطوةً واحدةً إلى الأمام، ما لم تنطلق من موقع فكر ينضمّ إلى فكر: لتكون القضية قضيّة شورى يتداول فيها الناس الأفكار في جولة فكريّة تتحرك في خطّ الحوار، لتقدم ـ في نهاية المطاف ـ الرأي الأفضل، الذي لا يفرض نفسه على القيادة، بل يمنحها فرصة الاقتراب من الخط السليم، ولترى رأيها النهائي حول الموضوع سلباً أو إيجاباً.

إن الأرقام التي تتكاثر تبعاً لتكاثر الأطماع والشهوات والانفعالات، لا يمكن أن تمثّل حركة الإنسان نحو الحقيقة، لأنها تتعامل مع العاطفة التي تثير أمامه ضباباً كثيفاً يحجب عنه وضوح الرؤية للأشياء، ويبعده عن معرفة الساحة الحقيقية للشخص وللموقف وللمبادي، إلاّ من خلال ما يريده أولئك الذين يحركون الأطماع والشهوات والانفعالات في لعبة الباطل المتعددة الأساليب والأشكال والألوان.

وفي ضوء ذلك، لا بدّ من التمييز بين الأكثرية الواعية المفكرة المخلصة والأكثرية الساذجة المنفعلة المزيفة، ولا بد لنا ـ في نطاق ذلك ـ من تحديد المسألة التي تعيش فيها الأكثرية روح الشورى من أجل الوصول إلى الحقيقة، في مقابل الأكثرية التي تعيش روح التنافس والصراع من أجل الحصول على موقعٍ ما بعيداً عن قضية الحق والباطل في ساحة الصراع.

إن الإسلام يحدّد الدور القيادي الذي يعطي للحكم شرعيته، وللرأي لون الحقيقة، فقد تجد القيادة في الأكثرية سبيلاً إلى تحديد المصلحة ـ في قضايا الناس الحياتية من سياسةٍ واجتماع واقتصاد، باعتبارها النموذج الأمثل

للشورى، فتقرّره كأسلوب عمل في الساحة وقد تجد في رأي الأقلية من أهل الخبرة والمعرفة والإخلاص الشكل الأفضل للنظام، فتسير عليه، وفي جميع تلك الحالات، تبقى شرعية الأكثرية هنا، والأقلية هناك، مرتبطة بالهيكل التنظيمي الشرعي للقيادة الفردية أو الجماعية مما لا سبيل إلى بحثه الآن.

الحق يدفع الباطل:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ إذ يريد الله للحق أن يحتوي الحياة كلها من خلال ما أودعه فيها من أسرارها، وشرائع أنزلها على رسله، أو من خلال الفطرة الكامنة في أعماق الوجدان الإنساني، والعقل المرتكز في كيانه، فيعطي للحق معناه وفاعليته وقوّته، ويمنع الباطل أن يفرض نفسه على منطق الحياة والوجود، لأنه لا يملك عناصر البقاء في ذاته، بل يعيش القوة كحالة طارئة محكومة للأوضاع الخارجية المحيطة به. وبذلك، لا بد أن تنتهي حركة الصراع فيما بينهما بأن يُسقط الحق الباطل، فيفجره من الداخل، بضربةٍ قويّةٍ في نهاية المطاف، ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أمام الحجة القاطعة القوية التي لا تمنح الواقع الفرصة للخلود، وأمام تفاصيل الوجود التي لا يمكن للحق، معها أن يسمح للباطل بالنفاذ إلى عمق الوجود. وهكذا تكون النتيجة في النهاية لصالح الحق، كما كانت البداية له أيضاً، مما يجعل مسألة الجدية التي هي المظهر الأعلى للحق في معناه وحركته قانوناً ثابتاً في الكون. وبذلك كانت قضية المعاد، بما تمثله من الهدف الكبير لحركة الإنسان في الحياة، ضرورةً عقليةً وكونيّة، في ما أرسله الله من رسالات وبعث من رسل، بالرغم من كلّ الكلمات اللامسؤولة، والخيالات المنحرفة التي يثيرها الكافرون والضالون، ﴿وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[1] من كلمات الكفر والضلال المتمثلة بجحود أمر الرسالة والمعاد من دون حجةٍ ولا برهان.

١- الأنبياء: ١٨.

إن المسألة التي تفرض نفسها في صراع الحق والباطل هي أنَّ الحق يحمل في داخله عناصر البقاء من حيث انسجامه مع حاجة الحياة، وطبيعة الأشياء، بينما يمثل الباطل في حركته ووجوده، الظروف الاستثنائية الطارئة التي قد تتغذى من أكثر من جهة.

ولهذا فقد يكون من الضروري للعاملين في ساحة الصراع أن يحدّدوا العناصر المحقة الثابتة لأي موضوع، وأن يدرسوا الظروف المتصلة به من حيث علاقتها بالصورة والموقع والعمق والامتداد، لأنها ربما تغير طبيعة الأشياء، فمسألة الحق والباطل قد تكون نسبية في ما يتعلق بالواقع المتحرك للإنسان، إذ قد يكون الشيء حقاً في زمان أو في موقع، وباطلاً في زمان أو في موقع آخر، تبعاً لحركة المتغيرات من حوله، حتىّ لا نقع في سوء التقدير أو الفهم للقضايا عندما نواجه الأمور في دائرة المطلق، فيخيل إلينا أنَّ الحق باطل والباطل حق، لأننا لا نملك مقياس العناصر الثابتة والمتحركة في هذا المجال.

وقد ينبغي لنا أن نواجه الظروف الطارئة التي تمنح الباطل قوة على مستوى الأوضاع والساحات والأشخاص والأزمنة، لنعرف كيف نحرك الصراع في مواجهتها، من حيث النظرة إلى طبيعة الفكرة والظروف، حتىّ نحدِّد الأدوات التي نستعملها في هذا المجال أو ذاك، لئلا نخطيء من حيث نريد الإصابة، أو نعتبر الإصابة حركة في مواقع الخطأ.

وربما كان من مشاكل الساحة العملية، هذه النظرة المطلقة للحق والباطل مما يجعل المسألة في دائرة المثال، فيبتعد بنا عن الدائرة الواقعية التي تتغيّر فيها ملامح الأشياء تبعاً لتغير ملامح الظروف المحيطة بها؛ ثمّ هذا الاستغراق في عمق الباطل في النظرة بعيداً عن الأجواء والأوضاع المحيطة به التي تعطيه قوة في ذاته، أو تزيده قوة على قوة، قد يدفعنا إلى الكثير من الارتباكات والانحرافات

في التحرك نحو الأهداف الكبيرة في مواقع التحدّي في المعركة.

ومن خلال ذلك نستطيع أن نفهم كيف يمكن انتصار الحق على الباطل على أساس الأخذ بأسباب النصر، بما نفهمه من طبيعتها وأدواتها وأساليبها والمدى الزمني الذي يجب أن تقطعه، كما نعرف من خلاله الأسباب التي تكمن وراء الهزائم الكبيرة التي تصيب الحق وفي أكثر من موقع ابتعد فيه العاملون عن فهم الأسباب الحقيقية لعوامل الصراع.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

علي عليه السلام في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله

- النشأة
- في مدرسة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله
- الإمام علي عليه السلام والهجرة النبوية
- الإمام علي عليه السلام وبيت الزوجية
- الفَيصَل في الحروب
- علي عليه السلام عند وداع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

من خطبة للإمام علي عليه السلام

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صلى الله عليه وآله مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاَقِهِ عَلَماً وَ يَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَ الرِّسَالَةِ وَ أَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ»

النشأة

نقرأ في تأريخه عليه السلام أنه فتح عينيه أول ما فتحها على الحياة في الكعبة، فقد ولدته أُمّه في قلب الكعبة، وتوحي هذه الولادة التي تهيأت ضمن ظروف أراد الله لها أن تعطي الفكرة والإيحاء في مستقبل هذا الوليد أنه الإنسان الذي احتضنه بيت الله الذي أراد الله له أن يكون البيت الطاهر الذي يعطي الطهر للناس كلهم عندما يتعبّدون فيه وعندما يطوفون حوله.

حديث الإمام علي عليه السلام عن طفولته:

لنعيش مع الإمام علي عليه السلام حديثه عن طفولته، كيف كانت؟ ومَنْ الذي علّمه وربّاه؟ مَن الذي أعطاه علمه وروحه؟ من الذي وهبه كلّ عناصر الحق في شخصيته؟ من الذي فتح عقله على الله وفتح قلبه على المسؤولية وحرّكه في اتّجاه الحق؟ استمعوا إلى عليّ عليه السلام يتحدّث «**وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ** صلى الله عليه وآله **بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ**» وعمره آنذاك سنتان أو أقل «**وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ**»[1]، كان يحتضنه عندما ينام كما تحتضن الأمّ ولدها «**وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ**» ـ رائحته الزكية ـ وكان يمضغ الشيء عندما كانت أسنانه لا تزال في البداية «**وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ** ـ في كلّ ما تحدثت معه ومع غيره ـ **وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ**» ومعنى ذلك أنّ عصمته في طفولته عصمة وعي لأن بيئته كلّها كانت رسول الله، فهو لم يعش مع الأطفال ولم يتحرّك في طفولته ليكتسب عادة سيئة هنا أو عادة قبيحة هناك، بل كان رسول الله كلّ شيء عنده... كان مدرسته... كان بيئته

١ـ الخطبة ٢٣٤ من نهج البلاغة.

وكان مجتمعه بل كان رسول الله فكره وقلبه وروحه، ثمّ يحدثنا عن أُستاذه الذي ربّاه وعلّمه ليعرّفنا أنه أخذ كلّ أخلاقه من ينبوعٍ صافٍ يتدفّق من لطف الله ومن روح الله «وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ ۹ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً» ولاحظوا هذا التناسب فالنبي صلى الله عليه وآله منذ أن فطم عن الرضاعة تلقفته ألطاف الله، وعليٌّ عندما فطم عن الرضاعة تلقفه رسول الله صلى الله عليه وآله، لاحظوا هذه المسألة الدقيقة التي تعرّفنا لطف الله بالرسول صلى الله عليه وآله ولطف الله بأخيه عليّ عليه السلام «وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ ص مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ» كيف يسير فصيل الناقة خلف أُمّه، يقف عندما تقف ويتحرّك عندما تتحرّك «يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاَقِهِ عَلَماً وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ» ليس علماً نظرياً يدخل العقل، ولكنه علم عملي يتحرك في العقل وينزل إلىٰ القلب ويتحرّك في الجسد ليكون حياة تتحرّك ثمّ «وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ وَلا يَرَاهُ غَيْرِي» ومعنى ذلك أنه ليس هناكْ مع النبي إلاّ عليّ في عزلته التأملية، العبادية، الروحية التي يعيش فيها مع الله في ابتهالاته وفي تأملاته، وما شُغلُ عليّ إلاّ أنه كان يتأمّل من حيث يتأمّل رسول الله، ويبتهل من حيث ابتهل، ويعيش الروحانية من حيث عاش الروحانية «وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ ص وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا» ففي بداية الدعوة الإسلامية لم يكن هناك إلاّ بيت إسلامي واحد يضم رسول الله وخديجة وعليّاً، وكان هذا البيت يتحرّك بكلّه ليذهب إلى المسجد الحرام ليهدم كلّ عبادة الأصنام، ولقد كان رسول الله يصلّي وعليّ إلى جانبه وخديجة خلفهما حتىّ مرّ «أبو طالب» وقال لابنه «جعفر» يا بني صِلْ جناح ابن عمّك وكانت تلك أول صلاة جماعة في المسجد الحرام.

ويضيف عليّ عليه السلام: «أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ» هل كان شم عطر الجسد أو هو شم عطر الروح؟ إنه عطر الأخلاق وعطر العلم وعطرعناصر

شخصية رسول الله، حيث تتفاعل تماماً كما يتفاعل العطر الذي تشمه مع مسام جسدك. كان عطر الرسالة يتفاعل مع مسام روح عليّ عليه السلام وكان يقول وهو يصوّر لنا مجتمعه من أي قوم هو وأية جماعة جماعته «**وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لاَ تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ**» يقفون مع الحق في صلابة الموقف وينطلقون في خطّ المواجهة في شجاعة الموقع، ولا تأخذهم في الله لومة ما دام الله يريدهم أن يقفوا، فما قيمة الّلائمين، وما قيمة المعاتبين وما قيمة كلّ الناس ما دام الله يريد أن نقف.

في مدرسة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

تعهّده طفلاً:

لم تكن صدفة أن يختار النبي علياً عليه السلام في طفولته الأولى ليربيه، ولم يختر أخوته الآخرين، وقد كان له أكثر من أخ، فلقد اختار علياً من بين إخوته واحتضنه، وكان رفيقه في صباه يذهب حيث يذهب، ويجلس حيث يجلس وكان يلقي إليه منذ الطفولة في كلّ يوم خُلُقاً من أخلاقه ـ كما يقول عليٌّ نفسه عن تلك المرحلة ـ وكان يرّبيه على صورته، ونستطيع أن نفهم من صفتي الصدق والأمانة اللتين كانتا عنوان رسول الله صلى الله عليه وآله أنهما عنوان علي عليه السلام أيضاً.

ففي حديث الإمام الصادق عليه السلام وقد جاء أحد أصحابه وقال له: «**علّمني شيئاً أبلغ به الحظوة عندك**» قال: «**انظر إلى ما بلغ به عليّ من الحظوة عند رسول الله فافعله، فإنه بلغ ذلك بالصدق والأمانة**»[1]. كان يربيه ليكون على صورته، وكان يعلّمه أن يتأمّل كما كان صلى الله عليه وآله يتأمل وأن يتعبّد كما كان هو يتعبّد، وكان علي عليه السلام تلميذاً رائعاً وباراً حيث يقول «**كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ**»[2] فلا يبتعد الفصيل عن أمّه وإنّما يخطو بخطواتها، ولقد كان علي عليه السلام كذلك: يقتفي أثر النبي صلى الله عليه وآله إتّباعاً في الفكر واتّباعاً في التأمل والروح والخُلُق والعادات والسلوك.

إبنُ الإيمان:

لذلك نستطيع أن نقول بأنّ طفولة علي عليه السلام الواعية المنفتحة كانت صنع رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يؤمن عندما دعاه النبي صلى الله عليه وآله للإيمان إيمان الأطفال، كما يحاول

١ـ بحار الأنوار: ج٦٨، ص٥.

٢ـ الخطبة ٢٣٤ من نهج البلاغة.

بعض المؤرخين أن يقول بأنّ أول من آمن من الأطفال علي، فطفولة علي عليه السلام كانت طفولةً شابةً، فهناك من الأطفال مَنْ هم شبّان في وعيهم وعقلهم، وهناك من الشيوخ من هم أطفال في عقلهم ووعيهم، فالطفولة الجسدية لا تستتبع دائماً الطفولة العقلية، فمابالك والمعلم هنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وما أعظمه من معلّم.

فعندما دعا علياً إلى الاسلام كان الإسلام في عقله معنىً قبل أن يكون الإسلام ديناً بالمعنى الإنتمائي، لأن الإسلام كان يعيش في عقل رسول الله صلى الله عليه وآله وروحه وإحساساه وشعوره قبل أن يرسله الله برسالته، فلقد أعدّه الله تعالى للرسالة فجعل رساليته في عقله وإحساسه قبل أن يقول له: ﴿اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[١].

وهكذا نجد أنّ بعض رواة السيرة ينقلون أنّ علياً عليه السلام سئل (هل استشرت أباك عندما آمنت برسول الله) فيُقال إنّه قال: «**إنّ الله لم يستشر أبي عندما خلقني**»[٢]، فكيف استشير أبي وأنا أريد أن أؤمن بالله وبرسوله وبرسالته ـ إن هذا الكلام ـ على فرض صحة الرواية ـ يدلّ علىٰ وعي للمسألة في كلّ أبعادها الفكرية والروحية.

ثمّ انطلق علي عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله بعد الرسالة كمسلم مسؤول عن حماية رسول الله، كما جاء في بعض كتب السيرة، وكان الرسول صلى الله عليه وآله يرعاه في عملية الإعداد كما يحدّثنا عن نفسه، فما من آية تنزل إلاّ وعلي عليه السلام أول من يسمعها، وأول من تتلمذ على رسول الله في معناها وآفاقها ومجالاتها، فهو يذكر في بعض أحاديثه في (نهج البلاغة) أنه كان يسمع رنّة الوحي عندما كان يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، كما حدّث رسول الله عن ذلك بقوله لعلي «**إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى**»[٣].

١ـ سورة العلق، الآية: ١. ٢ـ البحار: ج ١٤، ص ٤٧٦.

٣ـ البحار: ج ١٤، ص ٤٧٦.

الإعداد المتعدّد الجوانب:

وكان الإعداد ثقافياً وروحياً حيث بقي علي عليه السلام ملازماً لرسول الله صلى الله عليه وآله فعندما كان النبي صلى الله عليه وآله يذهب إلى المسجد الحرام كان علي عليه السلام يصلّي خلفه عن يمينه وخديجة تقف خلفهما حتىٰ جاء أبو طالب وقال لجعفر: يا بنيّ صل جناح ابن عمّك، فلم يفارق عليٌّ عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله في عبادته، وكان يقول إنّ أول بيت في الإسلام هو البيت الذي ضمه وضمّ رسول الله وخديجة، وليست المسألة العائلية هي التي كانت تربط أفراد هذا البيت، بل هي المسألة الإسلامية التي يتحملّ الجميع مسؤولياتها: رسول الله صلى الله عليه وآله بالدعوة، وخديجة رضي الله عنها بمالها ورعايتها لرسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام بإعداد قوّته ليشهر سيفه دفاعاً عن الإسلام وعقله دفاعاً عن الحق، وحركته في الخط الذي ينطلق منه وإليه، ولقد عرفنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاه سرّه في الهجرة وأراده أن يعبّر عن إخلاصه وتضحيته ليغطّي علىٰ غيبته، فبات علي عليه السلام في فراشه بعد أن اطمأن لا إلى سلامته ولكن إلى سلامة رسول الله صلى الله عليه وآله .. وكان الوحيد الذي ائتمنه رسول الله صلى الله عليه وآله على أن يؤدي ودائعه إلى الناس.

تلميذ الرسول صلى الله عليه وآله:

وكان يتثقف على يدي رسول الله صلى الله عليه وآله حتىّ قيل إنّ نساء النبي صلى الله عليه وآله كنّ يغرن من علي لأنه كان يشغل رسول الله عنهن، عندما يتناجيان أو يتشاوران في أمر حتىٰ قال علي عليه السلام وهو يتحدّث عن وعيه الثقافي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وتتلمذه على يديه: «**علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كلّ باب ألف باب**»[١] وقد رعاه رسول الله صلى الله عليه وآله في عقله وروحه وحركته وزهده وإخلاصه

١ـ البحار، ج٢٢، ص٥٦٧.

للإسلام وإنفتاحه على الواقع الإسلامي كلّه لأنّه مكّنه من أن يرى ويسمع ما يسمع ويتحرك مع النبي صلى الله عليه وآله في كلّ التجارب التي مرّت عليه، وبهذا كان نفسه، لأنه كان صورة عنه، ورسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي صنع هذه الصورة على صورته، ونستطيع أن نستوحي ذلك من مسألة خاصة وهي أنّ النبي صلى الله عليه وآله عندما آخى بين المسلمين ترك علياً بلا أخ، فسأله علي عليه السلام عن ذلك فقال رسول الله: أمَا ترضى أن تكون أخي، وآخاه في الله، فكانت أخوتهما تعني أن ليس هناك من المسلمين من هو في مستوى أن يكون أخاً لرسول الله، ذلك أنّ الأخوة بينهما كانت أخوّة عقل وأخوة روح وأخوّة إخلاص وأخوّة لله ولرسوله وأخوّة انفتاح على الإسلام والمسلمين، وإذن فهو صنعته وهو صورته، وكان لطفُ الله الذي يفيض على رسول الله صلى الله عليه وآله يفيض على عليّ عليه السلام ليعيش الكمال كأفضل ما يكون الكمال، وهذا هو ملمحٌ من ملامح صورة الإعداد النبويّ لعلي عليه السلام.

الإمام علي عليه السلام والهجرة النبوية

مضى على هجرة رسول الله من مكة إلى المدينة أكثر من أربعة عشر قرناً، السّنة الإسلامية التي يؤرّخ المسلمون كلّ وقائعهم وكل حركة تاريخهم بها، لأنَّ قضية الهجرة تعني الخط الفاصل بين حركة الإسلام في ساحة الدعوة، وبين حركة الإسلام في ساحة الدولة، فقد أراد الله لرسوله صلى الله عليه وآله أن يعيش فترة من الزّمن بعد البعثة في مكة ليدعو الناس إلى الله بشكل يربّي فيه الأفراد علىٰ مفاهيم هذه الدعوة الجديدة، التي تمثّل دين الله، ليكونوا مشروع قيادات مستقبلية، وليستفيد من موقع مكة باعتبارها العاصمة الثقافية التي يلتقي فيها مثقفوا العرب من أجل أن يعرض كلّ واحد منهم ما لديه من نتاج أدبي علىٰ مستوى الشّعر أو النثر في سوق عكاظ.

كما كانت مكة العاصمة الدينية التي يحجّ إليها الناس منذ إبراهيم عليه السلام الذي يرتبط به الكثيرون من الناس في مكة برباط بقيت لديهم بقاياه، وكانت مكة إلى جانب ذلك عاصمة تجارية باعتبارها المركز الاقتصادي لقريش. وبذلك كانت مكة المكان الّطبيعي لانفتاح الدعوة على الناس، بأعتبار أنها لا تكلف الداعية الكثير من الجهد في قطع المسافات من أجل الانفتاح على العبادات العامة في المنطقة سواء كانت قيادات ثقافية أو كانت قيادات اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية، إذا كان لهذا المصطلح عرف في ذلك الزّمان.

وهكذا كان الرسول صلى الله عليه وآله يربي المسلمين أفراداً على مفاهيم الإسلام، وكان يذهب إلى الوافدين إلى مكة من شيوخ العرب ليتحدّث إليهم عن الإسلام ويدعوهم للدخول فيه ويطلب منهم مناصرته.

تحرك النبي صلى الله عليه وآله بشكل مكثّف بحيث شعرت قريش بخطواته وخطورتها على مصالحها.. وهكذا كانوا ينطلقون على أساس الشّعور بالخطر، وانطلقت الحرب النفسية التي تحاول أن تتحدّث عن النبي صلى الله عليه وآله بطريقة تفقده معنى القداسة في نفوس الناس...

تجرأوا وقالوا عن النبي صلى الله عليه وآله إنّه كاذب وهم يعرفون أنها كلمة تطير في الهواء لأنّه كان معروفاً بأنه الصّادق الأمين، ولكن الذين يعملون على إثارة الحرب النفسية في تشويه صورة الأنبياء وفي تشويه صورة العاملين في سبيل الله، أولئك يعيشون حالة الإرباك بحيث يتلفّظون بالألفاظ التي لا يمكن أن تتحرّك في حياة الناس، لأنّ الناس سيرفضونها عندما يواجهون الواقع بهذه الطّريقة، وقالوا عنه إنّه مجنون...

سقطت كلّ تلك الكلمات واندفع الناس إليه.. ثمّ مارسوا الضغوط عليه بكل الوسائل وسقطت كلّ الضغوط. ثمّ حاولوا أن يحاصروا دعوته ليقولوا للقبائل إنّ من يتبع محمداً ويناصره فإن قريشاً تتخذ منه موقفاً صلباً يسيء إلى مصالحه الاقتصادية أو غير الاقتصادية، حتّى يتجنب الناس محمداً صلى الله عليه وآله من خلال حرصهم على مصالحهم لدى قريش، كما يفعل الكثيرون من الناس في هذا العصر وفي غير هذا العصر.

ولكن النبي صلى الله عليه وآله استطاع أن ينفذ إلى قلوب الناس وإلى عقولهم وأن يخترق هذا الحصار.. واستطاع أن يؤسّس أول قاعدة للمجتمع الإسلامي في يثرب التي كان يأتي إليه الكثيرون منها ليبايعوه على السّمع والطّاعة، وعلى أن ينصروه بما ينصرون به أنفسهم وعيالهم وأموالهم.

بدأ المجتمع الجديد في يثرب ينمو، وبدأ النبي صلى الله عليه وآله يرسل الدعاة الذين يعلّمون الناس القرآن وأحكام الإسلام.

لقد استطاع النبي محمد صلى الله عليه وآله أن يفتح ساحة جديدة تملك قوة اقتصادية، كما تملك قوة عسكرية وثقافية، لهذا شعرت قريش بالخطر.

ماذا تفعل قريش؟ فهي مقتنعة بأنه لا يمكن أن يبقى محمد صلى الله عليه وآله في مكة يتصل بمن يشاء ويتحرك كيف يشاء.. اجتمعت قريش في دار الندوة، ويحدثنا الله عن ذلك: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1].

قال بعض الذين أعطوا الرأي: تعالوا نختر من كلّ عشيرة شاباً... عشرة أشخاص ليقفوا في موقع نومه بأسيافهم ثمّ يندفعوا بكل أسيافهم ليقضوا عليه، فلا يُعْرَفُ من قتله فيضيع دمه بين القبائل، ولا تستطيع بنو هاشم أن يواجهوا كلّ قبائل قريش، فيرضون بالفدية وتنتهي المشكلة.

ولكنهم وهم يمكرون عرّف الله نبيه بذلك، وأراد له أن ينسحب وأن يغطي انسحابه، لقد توقف عهد الدعوة في مكة إلى حين لأنَّ الدعوة سوف لن تستطيع أن تتحرك بحرية.

وهكذا رسم النبي صلى الله عليه وآله الخطة وجاء إلىٰ علي عليه السلام وهو ابن عمه، الذي ربّاه وعلّمه وأعدّه ليكون الانسان الذي يحمل الإسلام من بعده بكل قوة ووعي وانفتاح وامتداد، طلب منه أن يبيت في فراشه.

وهكذا انطلقت الهجرة وانفتح الإسلام على مجتمع المدينة، حيث انطلق هذا المجتمع ليؤسس أول قاعدة إسلامية تلتزم بالإسلام على مستوى الشريعة وتنفتح من خلال الإسلام على مستوى الدعوة، وتتحرك من خلال التحديات على مستوى الجهاد.

١ـ الأنفال / ٣٠.

كانت الهجرة تعني في أحد معانيها أنَّ المسلمين كانوا ضعفاء فصاروا أقوياء في الهجرة، كان المسلمون أذلاّء فصاروا أعزّة، وكانوا يعيشون الاستعباد من خلال واقع المستكبرين فأصبحوا الأحرار في قرارهم وفي حركتهم.

من هنا فإنَّ علينا في كلّ تاريخ نؤرخ به قضية أو أيّ حدث يمر بنا، يجب أن ننتبه للسنة الهجرية لتعطينا هذه السّنة إيحاءً دائماً قبل ١٤ قرناً كيف كانت المسألة؟ هل نتذكر الذّين سبقونا في الصّدر الأول من الإسلام؟ وكيف استطاعوا أن يحوّلوا ضعفهم إلى قوة؟ واستطاعوا أن يحولوا عبوديتهم إلى حرية.

لهذا نريد أن يؤكد المسلمون التاريخ الهجري في كلّ ما يكتبونه وفي كلّ ما يتحدثون به، أن يؤكدوه لا من موقع عصبية تريد أن تتعصّب لتاريخ ضد تأريخ ولكننا نريد أن نجعل من التاريخ إيحاءً يومياً يتحرك في وعينا وفي أعماقنا، لتتأصل فيه شخصيتنا الإسلامية على مستوى التأريخ، كما تتأصّل شخصيتنا الإسلامية على مستوى العقيدة وعلى مستوى المفاهيم.

فلسفة الهجرة في الإسلام:

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ والهجرة إلى الله ورسوله تتمثل في كلّ رحلةٍ يقوم بها الإنسان في خدمة الإسلام والمسلمين، وفي القيام بواجب شرعي من عبادةٍ ونحوها، وفي إنقاذ أية فئة محرومة أو مضطهدة من الفئات التي أوجب الله علينا إنقاذها. فمن خرج ليطلب العلم من أجل أن يرفع مستوى المعرفة لدى الناس، من خلال ما يقربهم من الله ويبعدهم عن الشيطان، وينمي لديهم القدرات العلمية التي تفتح آفاقهم على العزة والحرية والكرامة التي يحبها الله لعباده المؤمنين، فقد خرج مهاجراً إلى الله ورسوله؛ ومن خرج ليجاهد في سبيل الله، أو ليقضي حاجة مؤمن، أو ليغيث ملهوفاً، أو ليقوّي مستضعفاً، أو ليهدي ضالاً أو ليقوم بعملية إصلاح بين الناس، أو ليُدخل السرور على الناس، أو

ليشارك في حكم عدل، أو ليقوم بأي عمل من الأعمال التي يحبها الله ورسوله، أو ليحج بيت الله ونحو ذلك... فهو من المهاجرين إلى الله ورسوله. وهكذا تكون حياة الإنسان في سبيل كلّ الأهداف الرسالية الكبيرة هجرة إلى الله ورسوله،ولو كان واقفاً في مكانه، لأنَّ الهجرة ليست فكرة تخضع لحركة الإقدام من موقع إلىٰ آخر، بل تشمل حركة العمل التي تنقل المجتمع والحياة من مرحلةٍ متأخرةٍ إلىٰ مرحلةٍ متقدمةٍ، ومن حالةٍ شريرةٍ أو كافرةٍ، إلى حالةٍ خيّرة أو مهتدية، لأن القضية مرتبطة بالمضمون والهدف لا بالشكل والموقع... وإذا تحقق للإنسان مثل هذه الهجرة، بجميع أسبابها كانت حياته سائرة في خدمة الله، لأنه لا يعمل من أجل مطامحه الذاتية، بل من أجل رسالة الله العامة. فإذا أدركه الموت وهو في الطريق، كان موته في خط العمل، وبذلك كان أجره على الله. وهذا ما عبّرت عنه الآية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[1].

١- النساء: ١١.

الإمام علي عليه السلام وبيت الزوجية

وفي الحديث عن زواج علي عليه السلام بالزهراء عليها السلام كان علي الفقير كأفقر ما يكون الناس، ولقد خطب فاطمة عليها السلام الكبار من المهاجرين، وكان النبي صلى الله عليه وآله يقول كما تقول الرواية «أنتظرُ أمرَ ربّي» وقيل لعلي «لِمَ لم تخطب فاطمة»، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وحدّثه عن ذلك وانفرجت أسارير رسول الله صلى الله عليه وآله فكأنما كان ينتظر ذلك، وكأنه كان يُعدّ لذلك، وقال له ماذا عندك؟ وهو يعرف كلّ ما عنده، لأنه هو الّذي ربّاه، وهو الذي يعرف كلّ ميزانيته المالية كما يعرف كلّ فضائله العلميّة والروحيّة والحياتية، كان معه في بيته، ولم يكن له بيت منفصل عنه، وكان معه في الليل والنهار «وكم من سائل عن أمره وهو عالمٌ».

«ما معَك؟ قال مَعي دِرعي وسيَفي، وهذه الثيابُ التي ألبسُها، وأنت تعرِفُ ذلكَ، قال: «أمّا سيفُك فلا تَستغني عنه، لأنّه السيف الذي تذبُّ به عن الإسلام وعن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن أعطني دِرعَك»، وبيعَ الدرعُ بـ(٥٠٠) درهم، وكان ذلك مهر الزهراء عليها السلام، وعاشا كأفقر الناس، حتّى أن الزهراء عليها السلام كانت تعاني من الفقر ومن الجهد والتعب والمشقة في بيتها ما لم تعانه إمرأة سواها.

هنا نأتي إلى الحديث عن زواجهما عليهما السلام وعن قيمته، ففي «كشف الغمة»: روي عن أبي عبد الله عليه السلام جعفر الصادق، قال: **«لولا أنّ الله تبارك وتعالى خلقَ أميرَ المؤمنينَ عليه السلام لفاطمةَ ما كانَ لها كُفُوٌ على وجهِ الأرض»**، فلو كانت الكفاءة بالنسب فما أكثر أبناء عمّ النبي صلى الله عليه وآله، ولو كانت الكفاءة في هذا الجانب في الإسلام فما أكثر المسلمين، ولكن هناك سرٌّ في عليّ عليه السلام وسرٌّ في فاطمة عليها السلام، لا يعلمه إلاّ الله فهو شيء من غَيبه.

ولكن هناك شيء يلتقي به علي بفاطمة عليها السلام، وهو ما أشرنا إليه وهو أنّهما عاشا معاً مع رسول الله صلى الله عليه وآله علماً وروحاً وأخلاقاً بما لم يعش به أي صحابي أو صحابية لأنّ عليّاً وفاطمة كانا معه في اللّيل وفي النهار، وكانا يعيشان معه تماماً كما يعيش الإنسان الذي يستلهم كلّ ما عنده، وكان ينطلق هو أيضاً ليربّيهما على صورته استجابة لنداء الله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[1] وعندما انكفأت عنه عشيرته كان أقرب عشيرته إليه إيماناً وروحاً علي وفاطمة عليهما السلام، ولذلك فإنَّ ما يعيشه علي عليه السلام من روح ومن انفتاح على الله ومن معرفة بالله، كانت تعيشه فاطمة عليها السلام.

ومن هنا فإننا إذا درسنا عبادة علي عليه السلام ودرسنا عبادة فاطمة عليها السلام، فإننا نجد نفس القوة والجهد والانفتاح على الله سبحانه وتعالى، مما يعني أنهما يعيان معنى القرب إلى الله سبحانه وتعالى معاً، في هذه الدرجة من معرفة الله ومن الانفتاح على كلّ أسرار قدسه وعلى كلّ صفات غَيبه.

وروى «الصدوق» في «عيون أخبار الرّضا عليه السلام» بسنده، عن أبي الحسن الرّضا، عن أبيه موسى الكاظم، عن آبائه، عن علي عليه السلام، وهذه هي سلسلة السند الذي قال عنها الإمام «أحمد بن حنبل»: «إنّها لو وُضعت على المجنون لأفاق» لأنها من إمام إلى إمام إلى إمام إلى علي عليه السلام إلى رسول الله.

عن علي عليه السلام أنه قال: **«قالَ لي رسولُ الله صلى الله عليه وآله: ياعلي لقد عاتبني الرِّجالُ منْ قُريش في أمرِ فاطمةَ وقالوا خَطِبناها إليكَ فَمنعتنا وزوّجْتها عليّاً. فقال صلى الله عليه وآله: ما أنا منعتُكم وزوّجتُه بل اللهُ منعكم وزوَّجها، ليس الأمرُ أمرِي في ذلكَ ولكنّه أمرُ الله سبحانهُ وتعالى».**

عاشا عليهما السلام للإسلام:

قال علي عليه السلام: **«ما أغضبتها مدة حياتي معها ولم تغضبني ولم تعصِ أمري**

---

(١) الشعراء / ٢١٤.

مدة **حياتها معي**». كان الرضا يعيش معهما لأنهما عاشا رساليين، وكانت الرسالة أكبر همهما، تحدّثه ويحدّثها عن حركة الإسلام في حربه وسلمه، يتحدثان عن آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله هنا وآية نزلت هناك، وما هو امتداد الآيات في الحياة وما هي حركتها في الواقع، لأن الآية عندما تنزل لا تكون مجرد حروف تمثّل كلمة، ولا مجرد كلمة تتبعها كلمات، ولكنها أفق يفتح للإنسان الكثير من أبواب الروح وآفاق الإبداع، يجري مع كل جيل ويتحرك في كل زمان، كما قال الإمام الباقر عليه السلام: «**لو أنّ الآية نزلت في قوم ثم مات أولئك ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السموات والأرض**»، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «. **إن القرآن تأويله يجري كما يجري الليل والنهار وكما تجري الشمس والقمر**».

ولأن علياً وفاطمة عليهما السلام عاشا للإسلام وانطلقا مع الرسول صلى الله عليه وآله في كل آلام رسالته وانطلاقتها، لذلك وجدناه صلى الله عليه وآله يقضي أكثر وقته في بيتهما لما فيه من أجواء رسالية عابقة بالإيمان والأخلاق، فرغم أنَّ للرسول صلى الله عليه وآله أكثر من زوجة وبيت، لكنه كان يختار بيت فاطمة ليقضي فيه أكثر وقته، لأنه لم يجد عندهن ما وجده عند فاطمة من الأنس، وكان إذا سافر فآخر الناس به عهداً هو فاطمة وبيتها، وإذا عاد من سفره فأول الناس به عهداً هو فاطمة وبيتها، لماذا؟ هل هي عاطفة الأب؟ أو أم هو وعي الرسول لمعنى الرسالة المتجسد في بيت هذه الإنسانة التي لا يوجد مثلها قدوة تمثّل الطهر كله، لأنها الأنموذج الذي صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن صنعها الله سبحانه ليقدّمها قدوة للمرأة، فيكون الرسول صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام أسوة حسنة لكل الناس، وتكون الزهراء أسوة حسنة لكل النساء بل والرجال أيضاً.

تقاسم مسؤولية البيت:

كان علي وفاطمة عليهما السلام يتحسسان مسؤولية البيت فاقتسماها، وفي أحاديثنا

أن الزهراء عليها السلام تقاضت مع علي عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله ـ تقاضي المحبة ـ حتى يقسّم العمل بينهما، فصار الاتفاق أنّ الزهراء تطحن وتعجن وتخبز، وأن أمير المؤمنين يكنس البيت ويستقي الماء ويحتطب.

وفي ذلك درس للرجال والنساء معاً:

أما درس الرجال، فأن يتعلموا من علي عليه السلام أن لا يتكبروا على خدمة المنزل، فعلي عليه السلام كان يكنس ويستقي ويحتطب، والرجل منّا لا يرضى لرجولته أن يكنس ويستقي، لكن علياً عليه السلام وهو سيّد الرجال كان لا يرى بأساً في كنس البيت، لأن البيت بيته والزوجة زوجته، هي إنسان كما هو إنسان، والرجل مهما كان عظيماً ليس أكبر من أن يخدم أولاده وزوجته وأباه وأمّه وأخوته ومن هو مسؤول عنه.

والدرس نفسه ينبغي أن تتعلمه النساء، بأن لا يعتبرن أن العمل في البيت يمثل احتقاراً لهنّ، كما هي العقلية التي ولدت عند بعض النساء المسلمات مؤخراً فالزهراء عليها السلام كانت تعمل وتطحن وتخبز، ونحن وإن قلنا مراراً إن الله لم يفرض على المرأة، ابنةً كانت أو زوجةً، أن تخدم في البيت، بيت أبيها أو زوجها، بالمعنى الشرعي للإلزام، ولكن الله أراد للإنسان عندما يعيش في أي موقع يتطلب المشاركة، أن يندفع طبيعياً بحسب طاقته، حتى يشارك في هذه الطاقة ويفجرها، والإنسان الذي يقف في موقع المسؤولية ويهمل ما أحبّه الله له وإن لم يلزمه به، هو إنسان لا يعيش الإحساس بموقعه الإنساني تجاه الإنسان الآخر، فالله عندما لم يلزم المرأة بالعمل البيتي أو تربية الأطفال والإرضاع، لم يرد للمرأة أن تكون سلبيّة أمام ذلك، وإنما أراد لها أن تكون إنسانة العطاء لتقدّم من قلبها ومن طاقتها ومن جهدها بوعيها واختيارها، أن تقدّم ما لا يجب عليها عطاءً في سبيل الله صلى الله عليه وآله ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾، بحيث تشتغل في بيتها وتخدم أولادها لوجه الله، كما تصوم وتصلي لوجه الله وتضحي لوجه الله.

إن بعض الناس يفكرون في حركة مسؤوليتهم في الحياة بالحسابات المادية، ونحن كمؤمنين ومؤمنات لا بد أن نفكر بالحسابات الإلهيّة إلى جانب الحسابات الدنيوية، نحن عبيد الله ونريد أن يحبنا الله، والله يحبنا إذا فعلنا ما يرضيه، سواء كان ما يرضيه مما أوجبه علينا أو ممّا استحبّه لنا، وإن مما استحبّه للمرأة هو خدمة بيتها وزوجها، حتى أنّه اعتبر ذلك جهاداً، ولذلك فعندما قال النبي صلى الله عليه وآله: «**جهاد المرأة حسن التبعّل**»، فلأنه يعرف شدة المعاناة فيما تعيشه مع زوجها وفيما تصبر به على أذى زوجها، وما تتحمله من إحساساته التي قد تثقل إحساساتها، هذا إن لم تكن تعيش معه معاناة كبيرة، فإطلاق الجهاد على حسن التبعل لكون الجهاد يثقل المجاهدين حتى يأخذ منهم أرواحهم، وكذلك المرأة تعاني مع زوجها حتى تكاد تفقد روحها، فإذا صبرت صبر الواعي، وصبر الإنسانة التي تملك شرعاً أن تمتنع عن الخدمة، فإنها تُعتبر من المجاهدات في سبيل الله، ويكون لها أجر المجاهدين.

باختصار، إنَّ مسألة الخدمة ـ أن يخدم أحدنا الآخر في دائرة مسؤوليته ـ ليست مسألة تتصل بالكرامة لتعتبر المرأة أنَّ العمل في البيت احتقار لشخصيتها أو يعتبر الرجل أنّ مشاركتها في العمل احتقار له أيضاً، وإنما هي مسألة تتصل بالإنسانية، وقيمة الإنسان في هذه الدنيا أن يخدم الإنسان ويخدمه الإنسان الآخر، وليس هناك إنسان خادم بالمطلق، وليس هناك إنسان سيّد بالمطلق، كل إنسان منّا سيّد في دائرة وخادم في دائرة أخرى.

قصة خطبة علي عليه السلام ابنة أبي جهل:

ويهمنا هنا ونحن نتحدّث عن زواج علي عليه السلام بفاطمة عليها السلام وكفاءة أحدهما للآخر، أن نعرّج للتعليق على قصة ذكرها الرواة تتعلق بخطبة علي عليه السلام امرأة أخرى غير الزهراء عليها السلام ممّا أثار غضبها. وإليك القصة كما جاءت في بعض

الروايات المنسوبة إلى الإمام الصادقعليه السلام: «جاء شقي من الأشقياء إلى فاطمة بنت محمدصلى الله عليه وآله فقال لها: أما علمت أنَّ علياً قد خطب بنت أبي جهل، فقالت: حقاً ما تقول؟ فقال: حقاً ما أقول ـ ثلاث مرات ـ فدخلها من الغيرة ما لا تملك نفسها، وذلك أنَّ الله تبارك وتعالى كتب على النساء غيرة وكتب على الرجال جهاداً، وجعل للمحتسبة الصابرة منهم من الأجر ما جعل للمرابط المهاجر في سبيل الله، قال: فاشتد غمُّ فاطمةعليها السلام من ذلك، وبقيت متفكرة هي حتى أمست وجاء الليل، حملت الحسن على عاتقها الأيمن والحسين على عاتقها الأيسر وأخذت بيد أم كلثوم اليسرى بيدها اليمنى ثم تحوّلت إلى حجرة أبيها، فجاء عليعليه السلام فدخل في حجرته فلم ير فاطمةعليها السلام، فاشتد لذلك غمّه وعظم عليه، ولم يعلم القصّة ما هي، فاستحيى أن يدعوها من منزل أبيها، فخرج إلى المسجد فصلّى فيه ما شاء الله، ثم جمع شيئاً من كثب المجسد واتكأ عليه، فلمّا رأى النبي ما بفاطمة من الحزن أفاض عليه الماء ثم لبس ثوبه ودخل المسجد، فلم يزل يصلي بين راكع وساجد، وكلّما صلى ركعتين دعا الله أن يذهب ما بفاطمة من الحزن والغم، وذلك أنّه خرج من عندها وهي تتقلّب وتتنفس الصعداء، فلمّا رآها النبيصلى الله عليه وآله أنها لا يهنئها النوم وليس لها قرار قال لها: قومي يا بنيّة، فقامت، فحمل النبيصلى الله عليه وآله الحسن وحملت فاطمة الحسين وأخذت بيد أم كلثوم، فانتهى إلى عليعليه السلام وهو نائم، فوضع النبي رجله على رجل عليّ فغمزه وقال قم يا أبا تراب، فكم ساكن أزعجته..».

وتعليقاً على هذه القصة المروية في مصادر السنّة والتي تسربت إلى المصادر الشيعيّة، نقول إنها أسخف من أن يرد عليها، لأن أصابع الوضع والاختراع بادية عليها، ولكن مع ذلك نقول:

١ـ إن علياًعليه السلام الذي ارتفع بروحه وإيمانه ومحبته لله ورسولهصلى الله عليه وآله إلى أعلى مستوى من الارتفاع، والذي عرف الزهراءعليها السلام قبل أن يتزوجها، عرف قيمتها

وعظمتها في فكرها وروحها وكل خصالها ومناقبها وفي كل قربها من الله ورسوله، وعلي عليه السلام الذي عاش مع فاطمة وامتزجت روحه بروحها وقدّمت له كل ما يحتاجه ويريده، فلا يمكن أن يفكر في أية امرأة أخرى ما دامت الزهراء عليها السلام على قيد الحياة، لأن الزهراء عليها السلام كانت كفؤاً لعلي تملأ حياته بكل ما يحتاجه من محبة وسكينة واستقرار، وغير ذلك من الحاجات الروحية والمادية. لقد كانت الزهراء عليها السلام كل حياة علي عليه السلام، انصهرت روحه بروحها، ونستطيع أن نقرأ إحساس علي عليه السلام بمعنى الزهراء عليها السلام وقيمتها في كلمته التي أبّنها بها عندما فارقت الحياة، ولهذا لا يمكن لعلي أن يخرّب حياته وبيته بيده، لا سيّما إذا كانت الإنسانة الأخرى بنت أبي جهل عدو الله ورسوله.

٢ـ ثم لو سلّمنا بصحة الرواية، فلماذا تنزعج الزهراء عليها السلام وتغتمّ وتترك بيتها مع أولادها؟ هذا لا يمكن قبوله، لأن الزهراء عليها السلام أعظم من أن تتنكر للتشريع الإلهي الذي يسمح بتعدد الزوجات، وهي ليست إمرأةً كسائر النساء ليصدر منها موقف كهذا، بل هي سيدة نساء العالمين، وهي الإنسانة المعصومة التي عاشت كل حياتها لله وفي سبيله، فلا يمكن أن تخالف تعاليمه وأحكامه.

٣ـ ثم كيف ينزعج رسول الله صلى الله عليه وآله من علي عليه السلام مع أنه قام بعمل لا يخرج عن دائرة الشرع الإسلامي، بل هو موافق لنص القرآن ولفعل النبي صلى الله عليه وآله نفسه، حيث إنّه تزوج أكثر من امرأة، وإنْ خصّه الله بالزيادة على الأربع.

إنَّ هذه القصة المخترعة أريد بها الإساءة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أولاً وإلى الزهراء عليها السلام ثانياً وإلى علي عليهما السلام ثالثاً، لا سيما من الذين لم يرتاحوا إلى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وآله علياً على بقيّة الصحابة عندما خطبوا ابنته فاطمة عليها السلام، فردّهم وخصّ بها علياً عليه السلام. وفي ختام تعلقينا على هذه الرواية نقول: «**حدّث العاقل بما لا يليق، فإن لاق له فلا عقل له**»، ولأننا نملك عقولنا فلا نجد مناصاً من رفضها.

الفَيْصَل في الحروب

وجاء علي عليه السلام إلى المدينة وكانت التجربة الحربية في انتظاره: تجربة (بدر) وتجربة (أُحدٍ) و(الأحزاب) و(حنين) و(خيبر) وقد جعلته في الواجهة والصدارة في تلك الحروب، فكانَ له مالم يكن لغيره فيها من النتائج الكبيرة التي أعطت الفتح للإسلام وللمسلمين وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتحدّث عن جهاد علي عليه السلام في مواطن شتى، فنحن نقرأ هتاف «**لا فتىٰ إلاّ علي ولا سيف إلاّ ذو الفقار**» ونقرأ في معركة (الخندق) «**برز الإيمان كلّه إلى الكفر كلّه**»[1] ونقرأ «**ضربة علي خير من عبادة الثقلين**»[2] ونقرأ كذلك «**لاعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّار غير فرّار لا يرجع حتىّ يفتح الله على يديه**» مما يدلّ علىٰ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في كلّ معركة من معارك الاسلام يحاول أن يؤكدّ علىٰ دور علي عليه السلام الطليعي العظيم في عملية النصر.

مع علي عليه السلام في غزوة بدر الكبرى:

وهي الحرب التي كانت مثاراً لحملة ظالمة من قبل المستشرقين ضد الإسلام حيث يرون أنّها دليلٌ قاطعٌ علىٰ روح الإسلام العدوانيّة وبداية للعمل الحربيّ المنظم لادخال الناس في الإسلام قهراً وإكراهم على اعتناقه، كما حاولوا ان يجدوا فيها الطابع الذي كان يسود الحياة العربية في الجاهلية، وهو طابع الغزو من أجل السلب والنهب والحصول على الغنائم والاسلاب.. وذلك بسبب تعرّض المسلمين لتجارة قريش التي كانت تنتقل بين مكة والشام..

أما نحن فنحسب أنَّ هذه الصورة التي يعرضونها لحرب بدر لم تكن لتنسجم

١ـ البحار: ج ٣٩، ص ٣.

٢ـ البحار: ج ٣٩، ص ٢.

مع الواقع وإنما تلتقي مع الجهل ـ أو التجاهل ـ بالظروف العصيبة التي عاشها المسلمون في مكة، والموقف الذي تتخذه قريش ضد المسلمين وطبيعة الجو النفسي الذي يسيطر على واقع الحياة العربية التي ولد الدين الجديد في ظلّها آنذاك..

مبررات الحرب:

لقد عرفنا ـ من خلال آيات الجهاد في القرآن الكريم ـ مدى الظلم والاضطهاد والضغط المعنوي والمادي الذي مارسه المشركون ضد المسلمين، وأدركنا الخطر الذي يتهدد الدين الجديد، والدعوة الوليدة، من المشركين، بسبب الموقف العدائي الصريح الذي كانوا يقفونه من الإسلام، ولن نعدم الدليل التاريخي الذي يعطينا الفكرة الواضحة عن حقيقة موقف قريش من الإسلام، فقد تبلورت الروح العدائية التي يحملونها إلى شعور عميق حاقد بضرورة الدعوة المنظمة إلى حرب الإسلام والكيد له وتحشيد القوى العربية وغيرها ضدّه، بكل ما تملكه من وسائل القوة والاغراء، التي كانت تملك الكثير منه.

وهكذا كانت قوة قريش السياسية والمادية مصدر خطر دائم على الدعوة الوليدة. لأنها كانت تجد في هذه الدعوة خطراً محققا على نفوذها وتقاليدها. ومما كان يزيد الموقف دقة وحراجة هي النظرة التي حملتها قريش، والفكرة التي كونتها من تجاربها مع المسلمين في مكة، حول ضعف المسلمين وعدم قدرتهم على النهوض أمامها، الأمر الذي زاد ضراوة موقفها واستعدادها للقضاء على قوة هذا الدين في مهده.

أما الجو النفسي الذي كان يسيطر على الحياة العربية آنذاك، بشكل عام، فهو جو القوة ـ إذا صح التعبير ـ فقد كان تقديس القوة وتعظيمها، واحترام القوي هو الطابع الذي يميز تلك الحياة، ويلوّنها بلونه الخاص، بسبب التكوين الاجتماعي

الذي يسود الحياة العربية، فقد كانت القبيلة هي النظام المتبع السائد..

ومن الطبيعي لمثل هذا النظام الذي لاتحكمه قوانين الدولة ولا سلطة الحكومة، أن يعتمد القوة في حياته حيث تلتزم كلّ فرقة بالدفاع عن نفسها بنفسها، وتبقى السيادة للأقوى.

وإذا كان الأمر كما ذكرناه فكيف يمكن للدعوة الإسلامية أن تنفذ إلى هذه الجماعات وتسيطر عليها ما دامت قريش هي الجانب الأقوى في مجال الصراع وما دامت الجماعة الإسلامية هي الجانب الأضعف في الميدان.

ولهذا كان قيام المسلمين بحركة قوية ضد قريش، من الأمور التي تفرضها حاجة الدعوة إلى الحياة، وإلى الدفاع عن نفسها.. بطبيعة التجربة التي عاشها المسلمون مع قريش والجو النفسي الذي يسود الحياة العربية آنذاك.

كان لا بد من أن يلجأ المسلمون إلى القوة، وإلى ممارسة هذه القوة عملياً ولكن لا ليجربوا عضلاتهم، بل ليحطموا الحاجز المادي والمعنوي الذي يقف حائلاً بين دعوتهم وبين الآخرين.

وهكذا كانت واقعة بدر منطلقة من هذا الواقع وناشئة من هذه الأسباب، وهي أسباب لا ترتبط بإكراه الناس علىٰ الدخول في الإسلام ولا تتصل به من قريب أو بعيد.

لقد كانت هذه الواقعة بمقدماتها التي هيأت لها من التعرّض لأموال قريش تستهدف فتح الطريق بين المسلمين وبين قريش، للدخول في معركة فاصلة، يسترد بها المسلمون أموالهم التي صادرتها قريش، وديارهم التي أخرجتهم منها، وشخصيتهم التي ضاعت مظاهرها في جو الاضطهاد الذي تعرضوا له من قبل قريش.

وهكذا كان.. فقد شعرت قريش بقوة هذا الكيان الجديد، وشعر العرب معها

بأن قريشاً لا تمثّل ـ وحدها ـ مركز الثقل في تلك البلاد، والقوة الأولىٰ في ذلك المجتمع..

وهكذا شاركت هذه الحرب في تحطيم هيبة قريش، وإضعاف قوة الشرك وظهور القوة الإسلامية الجديدة التي ترتكز علىٰ الحق والعدل قبل ان ترتكز على الجاه والثروة. وبدأ العرب ـ منذ ذلك الحين ـ يتجهون إلىٰ المدينة حيث الرسول العظيم في دولته الجديدة، ينطلق لإعلاء كلمة الله.. فيدخلون في دين الله أفواجا.

أما السلب والنهب فهما أبعد شيء عن أهداف المسلمين الذين عرضوا لقوافل قريش، بل هما من قبيل المظهر البدائي للحرب الاقتصادية التي كانت من قبيل المعاملة بالمثل ولو أراد المسلمون ذلك، لكان بإمكانهم التعرض لغير قريش، من الكفار الذين يجاورونهم في المدينة من اليهود.. مع أنهم لم يعرضوا لهم وإنما عاهدوهم علىٰ حسن الجوار والمعاملة بالحسنىٰ والعيش معهم بسلام.. الأمر الذي يدّلنا علىٰ انَّ تخصيص قريش بهذا الاجراء كان مظهراً من مظاهر التحدي لقريش في سلطانها وعزتها وتحطيم كبريائها من أجل إزاحتها عن موقفها العدائي ضد الإسلام والمسلمين.

وعلى كلّ حال، انتصر المسلمون انتصاراً فوق العادة بفعل القوة الإيمانية لأنه لم يكن هناك توازنٌ بين قوة قريش من الناحية المادية وبين المسلمين، فلم يكن هناك توازنٌ بالرجال وليس هناك توازن بالسلاح، ما كان هناك توازن بالإمكانات المالية، فكان المسلمون جياعاً وعراة، أما أولئك فكانوا يملكون القوة، وانتصر الإسلام، وكان لعلي عليه السلام السهم الأوفر، فيقال إنَّ علياً عليه السلام وهو الذي لم يحمل سيفاً ولم يقاتل في ما سبق، قد قتل نصف القتلىٰ من المشركين وشارك بقيةَ المسلمين في قتل النصف الآخر، ولذلك يُقال إنّه سُمع جبرائيل يقول بين السماء والأرض «**لا فتى إلاّ علي ولا سيف إلاّ ذو الفقار**» لأن ما أبلى به عليٌ عليه السلام كان بلاءاً حسنا، وكان فيما ينقل في سيرة النبي صلى الله عليه وآله في بدر بأنَّ علياً كان ينطلق فيهجم وقلبه عند رسول الله ولذا كان يقول: كنت أقاتل وأرجع أطمأن

على رسول الله صلى الله عليه وآله وإذا به أجده ساجداً وهو يكرر كلمة (يا علي يا عظيم) ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله يشكو ضعفاً، بل كانت قوته المعنوية بالمستوىٰ الذي يُنقل فيه عن علي عليه السلام أنه قال: كنا إذا اشتد البأس (الحرب) لُذْنَا برسول الله، أي أنهم كانوا يأتون للنبي صلى الله عليه وآله كي يأخذوا منه القوة المعنوية الموجودة عنده، وهكذا انكفأ المشركون منهزمين أشد هزيمة، ورجع المسلمون بالانتصار.

علي عليه السلام في معركة الأحزاب:

مع سير المعركة:

لابدَّ لنا أن نتوقف أمام مفردات معركة الخندق فنلتقي في بداياتها بجو كان ينمو ويتكامل داخل مجتمع المشركين ولاسيما مشركي قريش، وداخل مجتمع اليهود بشكل أقل حدّة في الجانب الحركي، فقد لاحظنا أنَّ مشركي قريش جرّبوا أكثر من معركة من أجل أن يسقطوا بها هذه الحركة النبوية التي تتصاعد قوتها بحيث أصبح الناس في تلك المنطقة يتحدثون عن قوتين بعد أن كانوا يتحدثون عن قوة واحدة.

كان الحديث عن قوة قريش، وأصبح الحديث عن قوة قريش وقوة المسلمين من خلال انتصار المسلمين في بدر، ومن خلال حركية الحرب بين انكسار وانتصار في أُحد وفي غيرها، لذلك بدأت قريش تعيش القلق شبه المدمّر من تعاظم امتداد قوّة الاسلام والمسلمين، فلسوف تفقد قريش قراراتها ومواقعها وامتيازاتها واحدة بعد الأخرى، لأنها القوة التي بدأت تتآكل، بينما كانت القوة الإسلامية بالرغم من النكسات التي أصابتها بين وقتٍ وآخر تنمو وتتصاعد لذلك تشاور القرشيون المشركون فيما بينهم في أنه لا بد من القضاء علىٰ الإسلام كله في مهده، وفكرّوا كيف ينفّذون ذلك بالتخطيط له.

ويقول كتّاب السيرة النبوية إنَّهم ـ يعني المشركين ـ التقوا باليهود وكانوا

يريدون أن يأخذوا من اليهود اعترافاً بهم كفريق أهدى من فريق الإسلام، فجاءوا يسألون بعض علماء أهل الكتاب من اليهود وقالوا لهم أنتم من أهل العلم الأول فهل نحن أهدى أو محمدﷺ فقالوا لهم وهم يتزلّفون إليهم فيما حدثنا القرآن عن ذلك ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾[1] في الوقت الذي نعرف فيه أنَّ صاحب أيّ كتاب سماوي لا يمكن أن يفضّل الوثنيين على أهل دينٍ أياً كان، لأنَّ صاحب الدين يلتقي بصاحب الدين الآخر، ولكّنه الحسد والحقد وعقدة العداوة التي تجعل الإنسان يعيش عقدته في حالة مَرَضيّة بحيث تُخرجه عن توازن انتمائه وتوازن إيمانه.

لذلك أخذ المشركون من اليهود اعترافاً ولو بهذا المقدار، وهذا هو الذي جعلهم يخاطبون اليهود باعتبار أنهم الفريق الواحد ضد النبيﷺ بأن يكونوا معهم ضد النبيﷺ وكان اليهود قد دخلوا في معاهدة مع النبيﷺ في المدينة فعمد المشركون إلى أن يجمعوا كلّ أحلافهم ثمّ جاءوا إلى غطفان وبعض اليهود الذين هم خارج المدينة وعقدوا حلفاً بينهم وارسلوا إلى اليهود الذين هم في المدينة فحاولوا أيضاً أن يأخذوهم بطريقة وبأخرى، كما فصّلته كتب السيرة ولا نريد أن ندخل في التفاصيل، بحيث اجتمع اليهود والمشركون بأجمعهم فيما يحدّث عنهم التاريخ في عشرة آلاف شخص يضاف إليهم اليهود في المدينة على أساس أن يُطبقوا على المدينة إطباقاً واحداً وينتهي أمر الإسلام والمسلمين.

خطة المسلمين:

نقرأ في السيرة أن النبيﷺ شاور المسلمين في الأمر حتى يعطّلوا اندفاع

١ـ سورة النساء الآية ٥١.

المشركين في هجومهم ليتدبر المسلمون أمرهم، وأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق مما لم يألفه العرب آنذاك في حروبهم، وبدأ حفر الخندق، وكان النبي صلى الله عليه وآله يشاركهم في ذلك حتىّ قيل إنّه بلغ من جوعه إنَّه كان يربط حجر المجاعة على بطنه. وهكذا ثبت النبي صلى الله عليه وآله مع المسلمين الذين ثبتوا معه، وكان واعياً للمسألة كلها حتىٰ أنه صلى الله عليه وآله بدأ عملاً أمنياً عندما استدعىٰ بعض المسلمين الذين أسلموا حديثاً ولم يكشف نفسه وهو (نعيم بن مسعود) فقد قال له ابحث عن طريقة تدخل فيها بين هؤلاء لتخذّل بعضهم عن بعض، فذهب إلى بني قريظة من اليهود وقال لهم بما مضمونه، مما فصلته كتب السيرة: إنَّ عليكم أن تدرسوا الأمور بدقة فهؤلاء المشركون ربما يذهبون وينكفئون ويتركونكم وحدكم، فكيف لكم أن تأمنوا أنفسكم وقد نقضتم عهدكم مع رسول الله، فهؤلاء قد لا يربطون مصيرهم بمصيركم وقد يخذلونكم، قد يرحلون من دون أن يراعوا أوضاعكم، لذلك إذا جاءوكم فقولوا لهم أعطونا رهائن منكم حتىّ نطمئن أنكم سوف تفون لنا.

ثمّ ذهب إلى المشركين وقال لهم إن بني قريظة قد لا يخلصون لكم، وقد يطلبون منكم رهائن وربما يقتلونهم إذا انسحبتم أو حدث أي شيء. ثمّ تركهم بعد أن رتّب الخطة كاملة مما تتحدّث في تفاصيله كتب السيرة (كما في سيرة ابن هشام)، والمجال لا يسمح بأن ندخل في التفاصيل. ولقد جاء المشركون إلى بني قريظة فقال لهم بنو قريظة إنكم قد تخذلوننا، لذا أعطونا رهائن، فقالوا: صدق نعيم ابن مسعود، وعند ذلك بدأ التخلخل في التحالف فيما بينهم. ومن هنا نعرف أنَّ الإسلام يخطّط في معاركه للعمل الأمني كما يخطط للعمل العسكري، وأن ما لا يجوز في الأوضاع العادية قد يجوز في الأوضاع الأمنية إذا كانت مصلحة المؤمنين تقتضي ذلك، وحُفر الخندق وفوجيء المشركون به واستطاعوا أن يجدوا ثغرة، أن يجدوا مكاناً ضيقاً استطاعوا أن يقطعوه بخيولهم الأصيلة.

مقتل رأس الشرك:

ووقف (عمرو بن عبد ود) ويقال إنّه كان يُعَدُّ بألف فارس، وقف يتبجّح ويقول للمسلمين من ذا الذي يحب أن يذهب إلىٰ الجنة؟ أنتم تقولون من يقتل في المعركة يذهب إلى الجنة، من يشتهي الجنة فأنا أنقله إليها، والنبي صلى الله عليه وآله يقول، كما تقول كتب السيرة، «مَنْ لعمرو وقد **ضمنت له على الله الجنة؟**» فلا يقوم إلاّ علي عليه السلام ويقول أنا له، ويقول له الرسول صلى الله عليه وآله: **اجلس، ثمّ** ينادي: **من لعمرو وقد ضمنت له على الله الجنة**، ولا يقوم إلاّ عليّ عليه السلام، وفي الثالثة كذلك لا يقوم إلاّ عليّ لأن الآخرين بالرغم من إسلامهم أخذ منهم الرعب من عمرو كلّ مأخذ حتىٰ لم يستطيعوا القيام، أما عليّ عليه السلام فقد أنزل الله فيه قرآناً ليلة المبيت على فراش النبي صلى الله عليه وآله: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾[1]، فقيمة عليّ عليه السلام أنه باع نفسه لله، وليس لنفسه شيء من نفسه، كلّ نفسه لله، كلّ عمله، وكل روحانيته، وكل حركته، وكل حربه، وكل سلمه لله، لذلك كان ينظر أن يأمُره رسول الله ليتحرك، لا ليفكر أو يتردد لأنه يقرأ قول الله تعالى وقد كان يعيه، قبل أن ينزل الله كتابه وذلك من خلال إيمانه الذي رباه رسول الله صلى الله عليه وآله في عقله وقلبه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[2]، فلا مجال للتردّد والتفكير عندما يأمر الله ورسوله بشيء، بل عليك أن تنفّذ فقط، لأن المسألة هي أن تطيع الله والرسول.

وهكذا قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: أنت له، وتكلم بكلمتين، الكلمة الأولى تعني كم يمثل علي عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله، كم يملأ عقله ليكون شريك عقله، وكم يملأ قلبه ليكون شريك قلبه، وكم يملأ حياته ليكون حامي حياته ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ﴾[3]، إذا ذهب علي فليس معي أحد وإن كان

١ـ سورة البقرة، الآية: ٢٠٧. ٢ـ سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

٣ـ سورة الأنبياء الآية: ٨٩.

الآخرون معي، لأن لعليّ معنى لنفس رسول الله لم يبلغه أحد، هو ولده بالتربية وبالروح وبالعقل، لقد ربّىٰ رسول الله عقل علي منذ طفولته، وروح عليٍّ منذ طفولته وأخلاق عليّ منذ طفولته، حتىّ كان عليّ يقول وهو يفتخر: «**ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أُمه**»[1]، ثمّ قال ﷺ كلمة تجسد الواقع «**برز الإيمان كله إلى الشرك كله**»[2]، وكان عليّ عليه السلام هو تجسيد كلّ قوة الإيمان في موقفه، وكان عمرو هو تجسيد كلّ قوة الشرك في موقفه هذا.

حوار «علي» عليه السلام و «عمرو»:

وذكر ابن إسحاق أنَّ عمرو بن عبد ود كان ينادي من يبارز؟ فقال رسول الله ﷺ من لهذا؟ فلم يُجبه أُحد فقام علي عليه السلام وهو مقنَّع في الحديد، فقال: أنا له يانبي الله، فقال إنه عمرو، إجلس، ونادى عمرو: ألا رجل، وجعل يؤنبهم ويسبهم، ويقول أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها؟ فقام علي عليه السلام فقال: أنا له يا رسول الله، فأمره النبي بالجلوس رعاية لابنته فاطمة التي كانت تبكي على جراحات علي عليه السلام يوم أحد، ثمّ نادى الثالثة فقال:

ولقد بُححتُ من النـداءِ ... بجمعكم هل من مبارز؟
ووقفتُ إذ جَبُنَ المشجع ... موقف البطل المناجز
إنـي كـذلك لم أزل ... متسرعاً نحو الهزاهز
إن السماحة والشجاعة ... في الفتىٰ خير الغرائز

فقام علي عليه السلام فقال: يارسول الله أنا، فقال: إنه عمرو، وقال: وإن كان عمراً وأنا علي بن أبي طالب!! فاستأذن رسول الله ﷺ فأذن له، وألبسه درعه ذات

١ـ نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ص: ٢١٩، الخطبة: ١٩٢.

٢ـ البحار، ج: ٢٠، باب: ١٧، ص: ٢١٥، رواية: ٢.

الفضول وأعطاه سيفه ذا الفقار، وعمّمه عمامة السحاب على رأسه ثمّ قال له: تقدّم. فقال: «اللّهم أحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوق رأسه ومن تحت قدميه».

ثمّ قال: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله».

فمشى إليه وهو يقول:

لا تَـعجَلنَّ فَقَدْ أتاكَ مُجيبُ صوتِكَ غيرَ عاجِز
إنّي لأرجوَ أنْ أُقيمَ عَلَيْكَ نائِحَةَ الجنائِز
مِنْ ضَرْبَةٍ نَجْلاءَ يبْقىٰ ذِكْرُها عِنْدَ الهَزاهِز

ومازال رسول الله صلى الله عليه وآله آنذاك رافعاً يديه مقُمحماً رأسه إلىٰ السماء داعياً به قائلاً: «اللّهم إنك أخذت مني عبيدة يوم بدر وحمزة يوم أحد، فاحفظ عليَّ اليوم علياً، ربّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين»، فقال عمرو: من أنت؟ فأعلن عليٌ عليه السلام له عن اسمه، عندها أخبره عمرو أنَّ أباه كان صديقاً له.

ثم قال: فإني لا أحب قتلك! فقال علي عليه السلام: لكني أحب أن أقتلك! فقال عمرو: يا ابن أخي إني لأكره أن اقتل الرجل الكريم مثلك، فارجع وراءك خير لك، ما آمن ابن عمك حين بعثك إلي أن أختطفك برمحي هذا فأتركك شايلاً بين السماء والأرض لا حي ولا ميت!!

فقال له علي عليه السلام: قد علم ابن عمي أنك إن قتلتني دخلتُ الجنة وأنتَ في النار، وإن قتلتك فأنت في النار وأنا في الجنة.

فقال عمرو: كلتاهما لك يا علي؟ تلك اذن قسمة ضيزى!! فقال علي عليه السلام: إن قريشاً تتحدث عنك أنك قلت: لا يدعوني أحد إلى ثلاث إلاّ أجيب، ولو إلى واحدة منها؟ قال: أجل. قال: فإني أدعوك إلى الإسلام، وفي رواية: أدعوك إلى

شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله. قال: دع هذه!! ونَحّ هذا.

قال: فإني أدعوك إلى أن ترجع بمن يتبعك من قريش إلى مكة، فإن يك محمد صادقاً فأنتم أعلىٰ به عيناً، وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره. قال: إذن تتحدث نساء قريش عني: أن غلاماً خدعني وينشد الشعراء فيِّ اشعارها أني جبنت، ورجعتُ علىٰ عقبي من الحرب، وخذلت قوماً رأسوني عليهم. قال: فإني أدعوك إلى البراز راجلاً، فجمىٰ عمرو وقال: ما كنت أظن أحداً من العرب يرومها مني.

ثمّ نزل فعقر فرسه ـ وقيل ضرب وجه فرسه ففر ـ ثمّ قصد نحو علي عليه السلام وضربه بالسيف على رأسه، فأصاب السيف الدرقة فقطعها، ووصل السيف إلى رأس علي عليه السلام.

فضربه عليٌّ عليه السلام علىٰ عاتقه فسقط، وفي رواية: فضربه على رجليه بالسيف فوقع على قفاه، وثار العجاج والغبار، وأقبل عليٌّ عليه السلام ليقطع رأسه فجلس على صدره، فتفل اللّعينُ في وجه الإمام عليه السلام فغضب عليه السلام، وقام عن صدره يتمشىٰ حتىٰ سكن غضبه، ثمّ عاد إليه فقتله.

علي الإيمان كلّه:

وهكذا رأينا كيف يرتفع علي عليه السلام من حيث يرتفع الناس، وكيف لا يعيش عليٌّ عليه السلام حاجة نفسه ولكنه يعيش رسالة ربه وتلك عظمة عليٍّ عليه السلام في كلّ ما قاله وفي كلّ ما فعله، فلسنا نغلو فيه لنرفعه فوق البشر، ولكنه بشر مميّز عرف الله معرفة بحيث لو كشف له الغطاء ما ازداد إلاّ يقيناً، كما قال، ولأنه عرف الله في مثل هذه الرحابة، لذلك كان يتحدث والله أمامه ووراءه ومن بين يديه ومن خلفه كان لا يرى إلاّ الله، وكان يرى رسول الله من خلال الله وكان يرى كلّ الناس من حوله من خلال الله، ولم نجد هنالك من يقترب من علي عليه السلام فضلاً عن أن يساويه أو يتفوّق عليه، لم نجد أحداً يقترب من عليّ عليه السلام، لم نجد أحداً يساوي علياً إلاّ

عليّ، وتلك هي عظمة عليّ، ولذلك قال رسول الله ﷺ كما يرويها الفريقان: «ضربة علي يوم الخندق تعدل عبادة الثقلين»، ونزلت الآية لتقول: ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[1].

المدد الإلهيّ:

ويحدثنا الله عن ختام الواقعة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾[2] تجمعت من المشركين ومن حلفائهم من اليهود ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً﴾ بعد مقتل عمرو، وبعد أن هرب من معه، جاءت الريح عاصفة بحيث اقتلعت الخيام ولم يستطع أحد أن يرى صاحبه،قال أبو سفيان إنّ علينا أن نرحل ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾، ويطلق الله تعالى هذه الكلمة على الملائكة ولم يكلف الله الملائكة بقتال، ولكنه أراد أن يرفع الروح المعنوية للمسلمين في ساعات الشدة، ولذلك رأينا الله يحدثنا عن الملائكة في أجواء المعركة في موقعتين تعرّض فيهما الإسلام للخطر الأولى في بدر عندما قال ﷺ: «أن تهلك هذه العصابة لا تعبد»[3] قالها رسول الله ﷺ لأنَّ المسلمين كانوا يعانون ضعفاً يخاف عليهم فيه من السقوط، فأرسل الله الملائكة تثبت الذين آمنوا، والثانية في أجواء معركة الأحزاب ﴿وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾[4].

١ـ سورة الأحزاب، الآية: ٢٥. ٢ـ سورة فصلت: ٤٢.

٣ـ البحار، المجلسي، ج ١٩٠، باب: ١٠ ص ٢٢١. ٤ـ سورة الاحزاب آية ٩.

علي عليه السلام عند وداع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

لقد تحدّث الإمام علي عليه السلام عن هذه المناسبة وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله ليدلّل على مدى فداحة الخسارة التي أصيب بها المسلمون بانتقال رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى: **«بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ»** فرسول الله صلى الله عليه وآله كان خاتم الأنبياء لذلك اختلفت مرحلته عن المراحل التي مر بها الأنبياء من قبله لأنه كان إذا مات نبي فلا ينقطع خبر السماء بموته ولا تنقطع النبوة بموته لأن هناك نبياً يأتي من بعده. أما رحيل النبي صلى الله عليه وآله عن هذه الدنيا فإنه يمثّل الوفاة التي أنقطع بها خبر السماء عن الأرض وانتهت بذلك مرحلة النبوة والأنبياء.

ويقول عليه السلام **«خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ»**، انه يصف النبي صلى الله عليه وآله في خصوصيته، بما أعطاه الله من الميزات، وبما انفتح به على الواقع من حوله، بحيث استطاع أن يكون السلوى عمن سواه، لأنه ملأ الساحة كلها بما أعطاه الله سبحانه وتعالى من خصائصه التي لم يعطها لسواه.

«وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً» بحيث انه عاش الشمولية للناس وانطلق هؤلاء ليشعر كلّ واحد منهم بامتداد رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لا يختص به احد دون أحد. **«وَلَوْ لاَ أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ لأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّئُونِ»** والشؤون هي منابع الدمع من الرأس. **«وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً»**. أي لا يسرع بالشفاء **«وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً»**. أي أن الحزن يبقى ملازماً لنا، **«وَقَلاَّ لَكَ»** أي أنهما قليلان بالنسبة إليك، **«وَلَكِنَّهُ مَا لاَ يُمْلَكُ رَدُّهُ»** أي قضاء الله، **«وَلاَ يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ»**.

هذه هي كلمات الإمام علي عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله كما جاء في (نهج البلاغة). وهناك نقطة لا بد من التنبيه إليها وهي تأكيد أمير المؤمنين عليه السلام عن النهي عن الجزع والأمر بالصبر، فالرسول صلى الله عليه وآله كان قد نهىٰ عن الجزع ولو كان جائزاً فأية شخصية يعيش المؤمنون معنى مأساة فقدها أعظم من شخصية رسول الله، ولكنه صلى الله عليه وآله نهىٰ عن الجزع لأنه أراد للحزن أن يكون متوازناً وأن يكون إنسانياً، فلا يخرج الإنسان عن طوره ويبقى الحزن ـ مع ذلك ـ عاطفة إنسانية: «**تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما لا يرضى الله**» والصبر لا يُستثنى فيه موقف عن موقف ولا موقع عن موقع.

الفصل الثاني

الإمامة
امتداد المشروع الرسالي

- حادثة الغدير.
- علي عليه السلام المرجع الوحيد.
- الولاية للإمام علي عليه السلام من خلال القرآن.
- الغدير حقيقة خالدة.

قال رسول الله ﷺ :

«عليٌ مَعَ الحَقِّ والحَقُّ مَعَ عَليْ»

* * *

«أنا مَدِينَةُ العِلْمِ وَعَليٌّ بابُها»

* * *

«لأُعطِينَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحبُّ اللهَ وَرَسولَهُ ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسُولُهُ...»

* * *

«أمَا تَرضى بأنْ تكونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارونَ مِنْ مُوسى إلاّ أنّهُ لا نَبِيَّ بَعْدي»

* * *

«مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فهذا عليٌّ مَوْلاهُ ...»

* * *

حادثة الغدير

يمثّل يوم الغدير مرحلة مميزة بارزة في المسيرة الإسلامية باعتبار أنّه يمثّل مسؤولية قيادة الإسلام في قاعدته الفكرية وامتداداته الشرعية والمنهجية، وقيادة المسلمين من خلال التعقيدات الموجودة في داخلهم، والتحديات التي تحيط بهم في الخارج من كلّ جانب.

إن قيادة الإسلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله بحاجة إلى شخصية تملك الإسلام بفكره كله وامتداداته الثقافية والمنهجية والشرعية حتىّ تستطيع أن توحّد التصوّر الإسلاميّ من موقع القاعدة التي تحكم مفردات هذا التصوّر، حتىّ لا يختلف المسلمون في تصورهم للإسلام.

لذلك كان لا بدّ من شخصية تملك التصوّر المعصوم الواضح للإسلام بنفس القوة التي كان يملكها رسول الله صلى الله عليه وآله، لسبب بسيط جداً وهو أنّ المرحلة التي قطعها رسول الله صلى الله عليه وآله في مكة والمدينة كانت مرحلة مليئة بالحروب والتعقيدات الداخلية، مما ترك كثيراً من الضباب في أذهان البعض حول أكثر من مفهوم إسلامي، ومما عطّل الكثير من المبادرات لتحقيق الاستقامة في التربية الإسلامية بالمستوى الذي يلتقي عليه المسلمون، ونحن لا ننكر أنّ هناك إخلاصاً واضحاً لدى صفوة الصحابة الذين واجهوا التحديات في مكة بأقسىٰ ما تكون التحديات وبأوعىٰ ما تكون المواجهة. وواجهوا تحديات الحروب بأشرس ما تكون الحروب وبأقوى ما تكون المواجهة. ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى قد تحدّث عنهم كطليعة في قوله تعالى ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ**

﴿فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾(١) ولكن المرحلة لم تكن تسمح بالتعمق الثقافي والفكري، مما فرض أن تكون هناك قيادة تملك هذا المنهج في تعميق الإسلام وترسيخه في نفوس المسلمين وتأصيل الفكرة الإسلامية في مفرداتها كلها.

قصة الغدير:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(٢).

جمع رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين بعد حجة الوداع في مكان يقال له (غدير خم) ورفع يد عليّ عليه السلام حتّى بان بياض أبطيهما وقال: «**من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأدر الحق معه حيثما دار**»(٣).

وبعد أن قالها الرسول صلى الله عليه وآله، نزلت الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾(٤).

كان هذا الموقف خاتمة المواقف التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقدّم فيها عليّاً عليه السلام للناس، حتّى يجعله في ضمير كلّ مسلم كإنسان يعيش في مركز القيادة، كأكفأ ما يكون القائد. كان يريد أن يجعل المسلمين يشعرون بأن عليّاً عليه السلام يملك من العلم ما يستطيع أن يغني الساحة الإسلامية كلها، وفيما تحتاجه في مواجهة التحديات التي تأتيها من الخارج عندما يتسع الإسلام في العالم.

كان النبي صلى الله عليه وآله يريد أن يؤكّد للأمة، أنَّ الإسلام يحتاج إلى شخص يدرك العلم كأوسع ما يكون العلم، فكان يقول: «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها**»(٥).. وكان يريد أن يعّمق في وجدان الناس كلهم، أنَّ القائد ينبغي أن يكون في مواقع الحق

١ـ الفتح: ٢٩.　　٢ـ المائدة ـ ٦٧.

٣ـ الكليني، بحار الانوار، ج٣٣ ب ٢٠ ص٢٦٦. ح ٥٣٤.　　٤ـ المائدة ـ ٣.

٥ـ كنز العمال ١٢ / ٢١٢، البحار، ج١٠ ص١٢٠، روايه ٩، باب ٨.

بحيث لا ينفصل عن الحق مهما كانت الظروف، ومهما كانت الاوضاع، ومهما كانت التحديات. لأنَّ القائد يمثّل الأمة كلّها في مسيرتها، ويحفظ رسالتها ومبادئها.. ولأنَّ القائد هو الذي يحرّك الساحة بالطريقة التي تحفظ توازنها.. ويتحرك بالأمة نحو أهدافها الكبيرة.

كان النبيﷺ يريد أن يؤكد، أن علياًعليه السلام يمثل الحق علىٰ نحوٍ لا يبقى هناك للباطل أي دور في حياته، ولهذا فإنه إذا إنطلق، فسينطلق الحق معه، وإذا وقف فسيقف الحق معه، وإذا حارب فسيحارب الحق معه، وإذا عارض فسيعارض الحق معه، لأنه لن ينفصل عن الحق.. ولن ينفصل الحق عنه في أي مجال.

كان النبيﷺ يريد للناس أن يفهموا أن عليّاًعليه السلام هو الإنسان الذي يراه هوﷺ في أعلى موقع من مواقع الإسلام والرسالة.. كان يريد أن يؤهل عليّاً في ضمير الأمة ووجدانها، حتى نزلت الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، تلك هي قصة يوم الغدير.. يوم الولاية.

وهناك نقطة نود إثارتها وهي أننا عندما نتحدث عن يوم الغدير، فاننا لا نريد أن نتحدث عن حكاية للتاريخ، ليتحدث المتحدثون من خلال ذلك أن هذه قضية انتهت، وعلينا أن لا نحاول إثارتها من جديد، لأن إثارة مثل هذه القضايا ـ كما يقولون ـ قد تترك تأثيرات سلبية في واقع المسلمين، وفي وحدتهم التي يمكن أن تؤثر عليها مثل هذه الحساسيات التاريخية.

ولكننا نختلف مع كلّ هذا التيار، حيث نعتقد أن قضايانا الإسلامية التي تمثّل مفاصل أساسية في تراثنا الإسلامي، تعتبر خطوطاً عملية للمسيرة الإسلامية كلها فعندما نفكر بالإمام عليّعليه السلام ونؤمن بموقعه كرمز أول بعد رسول اللهﷺ للمسيرة الإسلامية، فإننا لا نستغرق في ذاته كشخص... ولا نتعصب له كشخص.. ولكننا عندما نثيره في وعينا كرمز أول للإسلام، فإننا ننطلق من أن الإمام علياًعليه السلام وعىٰ الإسلام كأفضل ما يعيه المسلم فقد وعاه من خلال التربية التي انطبعت فيها شخصيته بشخصية رسول اللهﷺ، فكان صورة حية عن شخصية

الرسول ﷺ، حيث عاش كلّ أجوائه الروحية.. وكل أجوائه النفسية.. وكل خطواته العملية، وعندما نريد أن نتحدث عن جهاد عليّ عليه السلام؛ فإننا نقرأ ذلك من خلال كلمة رسول الله ﷺ: «**برز الإيمان كله للشرك كله**»[١]. و «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»... ونتمثل وعي الرسول ﷺ لموقع عليّ عليه السلام منه، في كلمته التي دعا بها ربه عندما اندفع الإمام عليّ عليه السلام لمبارزة عمرو بن عبد ودّ، عندما قال الرسول ﷺ: «**ربّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين**»[٢]، قال هذا والمسلمون كلهم حوله.

وعندما نريد أن نتمثل خطّ عليّ عليه السلام في الواقع، تكفينا كلمة: «**عليّ مع الحق والحق مع عليّ**»[٣]، لنعرف منها أنه ليست هناك مسافة تفصل بين علي عليه السلام والحق، فهو يمثل التجسيد الواقعي للحق، كما يمثل الحق التجسيد الواقعي لكل منطلقات الإمام عليّ عليه السلام، ولكلّ واقعه في كلّ مجالات الحياة.

عندما نثير كلّ هذه القضايا في حياتنا، باننا نتوقف عند هذه الفكرة وهي: أنَّ قضية القيادة في الإسلام تفرض أن يكون هناك الإنسان الذي يتمرّس في وعي الفكرة التي تنطلق القيادة من خلالها.. وفي ممارسة الفكرة التي تتحرك القيادة في خطواتها أو في طريقها، لهذا لا يمكن أن يكون الإنسان الذي يقود المسلمين، جاهلاً بالإسلام.. ولا يمكن أن يكون الإنسان الذي يقود المسلمين، إنساناً لا يعيش روحية الإسلام ولا يعيش حركية الإسلام، ولا يعيش تقوى الإسلام في حياته، لأن القضية هي قضية قيادة المسلمين في إسلامهم لا قيادة المسلمين في أمورهم المادية بعيداً عن المبدأ... إنما قيادتهم في إسلامهم، ومن هنا لابدّ أن يعطيهم القائد من فكره، ومن قلبه ومن روحه، ومن عمله إسلاماً يملأ حياتهم، ويوجه كلّ حياتهم في طريق الإسلام.

لهذا فإن الإمام علياً عليه السلام هو الإنسان الذي تتمثّل فيه كلّ هذه العناصر، وبهذا

١ـ البحار، ج ٢٠ باب: ١٧، ص ٢١٥، رواية ٢. ٢ـ سورة الانبياء، الآية: ٨٩.

٣ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢، ب ٣٧. ص ٢٩.

كان القائد الأول للإسلام بعد رسول الله ﷺ . لا نقول هذا من موقع تعصب أعمى، ولا من موقع تمذهب تقليدي، ولكن من موقع الوعي لما هو الإسلام في فكره وفي حركته، والوعي لما هو الإمام علي عليه السلام في فكره وحركته، حيث نجد كلّ التطابق فيما بينهما.

وهناك نقطة أخرى نحتاج أن نترسمها في هذا الاتجاه؛ وهي أن لا نحصر المسألة في التاريخ فقط، بل نعممها إلى حياتنا العملية، بحيث لا يرتبط الفرد بعلي عليه السلام كخليفةٍ في الاطار الزمني الذي عاش فيه فحسب، إنما يرتبط به في اطار إمامته التي تقتحم الزمن، تماماً كما تنطلق النبوة.. ولا يمحوره في زمن خاص، بل ليتحرّك في نطاق الزمن كله، حتّى يرث الله الأرض ومن عليها.. فالإمامة التّي تمثّل خلافة عن النبوة، تعيش في تفسير أحكام النبوة وتخطيط مفاهيم الإسلام.

إن إمامة عليّ وإمامة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، تمثّل القيادة المعنوية التي نعيشها الآن في وعينا، لتقودنا إلى القيادة الفعلية التي تتحرك: «ألا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه فعلى العوام أن يقلدوه». وهكذا نجد أن الارتباط بالإمامة هناك، هو الذي يجعل الارتباط بالقيادة هنا... وهو الذي يجعلنا نتحرك في سلسلة تصلنا بالمبدأ لنتحرك في هذا الاتجاه، من خلال هذا نفهم أنّ قضية الإمامة ليست شيئاً يعيش في التاريخ ليتجمد فيه وإنما هو شيء يتصل بنا ليكون السؤال الذي نتمثله الآن:

من هو الذي نترسم كلّ فكره من خلال أنه فكر الإسلام؟ ومن هو الذي نتمثّل روحيّته، من خلال أنها روحيّة الإسلام؟

إن قضية إمامة عليّ عليه السلام هي قضية الارتباط بخط عليّ... وبفهم عليّ للإسلام.. وبحركيته في سبيل الإسلام، لنكون نحن امتداداً له في حركية الإسلام التي انطلقت منه. تلك هي الفكرة التي تجعلنا نرتبط بعليّ الخط... وبعليّ الإسلام... وبعليّ الرسالة.

علي عليه السلام المرجع الوحيد

حديث النبي صلى الله عليه وآله عن علي عليه السلام:

إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يتحدّث عن صحابيّ كما تحدث عن علي عليه السلام فهل المسألة عاطفية لأنّه ربّاه، أو لأنّه ابن عمّه وأبناء عمومته كثيرون ؟ أو لأنّه صهره، وإذا صحّ أنَّ لرسول الله بنات فعلي ليس الصهر الوحيد.

كما أنّ النبي صلى الله عليه وآله وبنصّ القرآن ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1] فليس لرسول الله صلى الله عليه وآله هوى بالمعنى الشخصي للهوى، بل إن هواه هو هوى رسالته وخطّه وإخلاصه لربّه وإنفتاحه على كلّ رضوان الله سبحانه وتعالى.

فلماذا إذن يؤكدّ رسول الله صلى الله عليه وآله على الحديث عن علي عليه السلام فيقول: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»[2] ويقول: «**أنت وليُّ كلّ مؤمن ومؤمنة**»[3] ويقول: «**عليٌّ مع الحق والحق مع علي**»[4] ويقول: «**أما ترضى بأن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي**»[5] ومنزلة هارون من موسى عبّر عنها القرآن بقولة تعالى ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ۝ هَارُونَ أَخِي ۝ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾[6].

فلماذا كلُّ هذا الحديث وأصحاب رسول الله كثيرون؟، فما هو تفسير هذه

١ـ سورة النجم، الآية: ٣.
٢ـ البحار، ج ٢٤، ص ١٠٧.
٣ـ البحار: ج ٢٨، ص ٤٥.
٤ـ البحار: ج ١٠، ص ٤٨٤.
٥ـ البحار: ج ٢، ص ٢٢٦.
٦ـ سورة طه: الآية: ٢٩.

المسألة، وهل أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أراد للمسلمين أن يحبوا علياً في الجانب العاطفي ؟ تلك مسألة لا تحتاج إلى كلّ هذا الجهد، فعليٌّ يمكنه أن يفرض حبّه على كلّ من عرفه، فبإزاء إمكاناته الروحية والثقافية والجهادية والحركية لا يملك الإنسان إلاّ أن يحبّه.

المحبوبُ لشخصه:

إننا لا نستطيع إلاّ نحبّ علياً.. كن شيعياً أو سنياً أو مسيحياً، كن أيّ شيء فإنك لا تملك إذا تطلّعت إلى علي عليه السلام في جميع آفاقه الروحية وإخلاصه وجهاده وعلمه إلاّ أن تخشع أمام هذه الشخصية التي من الصعب أن تجد شخصية بعد رسول الله تملك ذلك كلّه، ولذلك قال الشاعر المسيحي (بولس سلامة):

ياسماء اشهدي ويا أرض قُرّي　　　واخشعي إنّي ذكرتُ عليّا

فأنت تحبُّ علياً إذا كنت تملك عقلاً منفتحاً وقلباً منفتحاً ووعياً للإنسانية وهذا أمرٌ لا يحتاج إلى وصية قرآنية أو نبوية، فأنت تشعر بنفسك وقلبك ومشاعرك تتجه إليه لتحتضنه بكل عاطفة وحبٍّ، فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله يريد أن يحبّ الناس علياً (هكذا) ولغرض عاطفي، لأنّ الذين في قلوبهم مرض لا يحبّون رسول الله صلى الله عليه وآله بل ولا يحبّون الله، وأمّا من ليس في قلبه مرض فلابدّ أن يتجه نحو الحقيقة الصافية.

لهذا نفهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يريد أن يعدّ علياً عليه السلام في عقول المسلمين من خلال أنّه الشخص الذي يملك العلم كلّه، والذي ارتبط الحقُّ به إرتباطاً عضوياً بحيث لا يمكنك أن تجد أية ثغرة بين الحقّ وبين عليّ عليه السلام، مما يجعله تجسيداً للحق فكما يمكن أن تنظر لصورة الحق الفكرية بعقلك يمكنك كذلك أن

تنظر لصورة الحق العملية متمثلة بعليّ عليه السلام بعينك.

وبناءً على ذلك، فإنَّ بيعة الغدير أمرٌ طبيعيٌّ جداً، فلقد جاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[1] فقد أنزل إليك ـ يارسول الله ـ بلاغٌ من ربك أن تؤكد ولايته، فالولاية ليست حكماً شرعياً يمكن أن يؤجل أو يُنسىٰ بل هي قضية الإسلام كلّه الذي يراد له أن يتحرك في قيادة جديدة تكون في كل مجالاتها وآفاقها امتداداً للقيادة النبوية حتىّ تبقى المسيرة منطلقة.

احتياجُ الكلّ إليه:

فثمة فرق بين أن يكون أحد خليفة لحاكم يقود الناس بعده ليدبّر وضعهم الإداري أو الرسمي، فهذه مسألة ليست من المسائل التي تحتاج إلى شخص فوق العادة إنّما تحتاج إلى شخص له إمكانات مناسبة وغير استثنائية، أما في مسألة الدين الإسلامي فإنَّ الله أرسل رسوله بهذا الدين وأنزل عليه القرآن من أجل أن يدخل الإسلام في عقول الناس وفي قلوبهم وليقوم علي عليه السلام من بعده بنفس الصفاء الذي كان يعيشه رسول الله صلى الله عليه وآله وبنفس الفهم أيضاً، وبنفس الانفتاح والأفق الواسع وبنفس الأخلاق ليكمل المسيرة.

لذلك نلاحظ أنّ المشركين بمكائدهم وحروبهم لم يتركوا النبي صلى الله عليه وآله يمضي في تنفيذ خطته في توعية المسلمين وتعميق الاسلام في نفوسهم ونشر الاسلام في كلّ المجالات.

فلقد كان المطلوب أن يكون هناك قائد يملك أن يكمل حركة الرسالة، وأن يكون له العلم الذي يستطيع أن يجيب به كلّ أحد عن سؤاله، كما كان رسول

---

١ ـ سورة المائدة، الآية: ٦٧.

الله صلى الله عليه وآله يجيب كلّ سائل عن سؤاله، وأن يكون الإنسان الذي لا يحتاج في مواجهة التحديات إلى أحد بل يحتاج إليه كلّ الناس في المسائل الثقافية على الأقل، وهذا ما عبّر عنه (الخليل بن أحمد الفراهيدي) عندما قيل له لِمَ قدّمت علياً عليه السلام ؟ فقال «احتياج الكلّ إليه واستغناؤه عن الكلّ دليلٌ على أنه إمام الكل» فلم يعهد أنّ علياً سأل أحداً مسألة، بينما يعرف الجميع أنه حتىّ الخلفاء الذين تقدموه كانوا يحتاجون إليه.

فنحن نقرأ في التاريخ قول الخليفة الثاني «**لولا عليّ لهلك عمر**»[١] وقوله: «**لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن**»[٢] مما يرويه كلّ المسلمين.

إنّ الخلافة عن رسول الله عليه السلام تختلف عن أية خلافة أخرى، لأنّ المسألة ليست حكماً يتطلّب الإدارة، ولكنّها رسالة تتطلّب العمق والامتداد بما لم تسمح به الظروف للرسول عليه السلام أن يصل إليه، لأنّ المشركين شغلوه بالحروب والمشاكل والالغام التي زرعوها في طريقه، لذلك كان الواقع الإسلامي يحتاج إلى شخص هو كلّ رسول الله صلى الله عليه وآله ما عدا النبوّة، وليس هناك من تتوافر فيه هذه الصفّة سوى علي عليه السلام.

لذلك كان الأمر يحتاج إلى شخص يجسّد الاسلام عقلاً وروحاً وقوة وحركة وانفتاحاً وإخلاصاً، فلم يكن ثمة شخص بمستوى علي عليه السلام، لذلك كانت الولاية تتطلب أن يكون هناك إنسان هو نفس رسول الله صلى الله عليه وآله في كلّ ماتعيشه نفسه، ففي آية المباهلة ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾[٣]، فعليٌّ كان يمثل نفس رسول الله، لذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

١ـ البحار: ج ٤٠، ص٢٩٨. ٢ـ البحار: ج ٤٠، ص ٢٩٨.

٣ـ سورة آل عمران: الآية ٦١.

﴿الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فكأنك لم تصنع شيئاً بدون ذلك وهو الرسول الذي بلّغ كلّ الرسالة التي أُنزلت إليه، ولم يترك شيئاً، فلابدّ أن إهمال هذا الأمر يساوي عدم تبليغ الرسالة وتركها في مهبّ الريح.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الذين قد يقولون لقد ولّى ابن عمه وصهره مما يمكن أن يثيره المنافقون والكافرون يومذاك.

فَأَمر الناس، كما روى ذلك السنّة قبل الشيعة وصحّحه الكثيرون من علمائهم بالنزول في وقت قائظ شديد الحر، وكانوا يبلغون مائة ألف وأكثر، وقال لهم «**أيها الناس إنه يؤشك أن أدعى فأجيب**»[1] ثمّ قال «**ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم**» **قالوا: اللّهم بلى، قال: اللّهم اشهد**، وقوله (أولى بالمؤمنين) دليل حاكمية الرسول ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[2] فللنبي صفتان: صفة المبشر والنذير ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾[3]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[4]، وصفة الحاكمية التي أشارت إليها الآية السابقة، فما ذكره صلى الله عليه وآله إيحاء بحاكمية علي عليه السلام.

ثمّ قال: «**هل بلّغت اللّهم اشهد**» ثمّ بعد ذلك، قال: «**من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحقّ معه حيثما دار**»[5].

١ـ البحار: ج ٤٠، ص٢٩٨.

٢ـ سورة الأحزاب، الآية: ٦.

٣ـ سورة الغاشية، الآية: ٢١.

٤ـ سورة الإسراء، الآية: ١٠٥.

٥ـ المصادر السابقة نفسها

الولاية للإمام علي عليه السلام
من خلال القرآن

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾[1].

مناسبة النزول:

جاء في الدر المنثور: أخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن عمّار ابن ياسر، قال: «وقف بعلي سائل وهو راكع في صلاة تطوّع، فنزع خاتمه فأعطاه السائل، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله فأعلمه ذلك، فنزلت على النبي صلى الله عليه وآله هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ فقرأها رسول الله صلى الله عليه وآله على أصحابه، ثُمَّ قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه»[2].

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «أتى عبد الله بن سلام ورهط معه من أهل الكتاب نبيّ الله عند الظهر، فقالوا: يا رسول الله، إنَّ بيوتنا قاصية لا نجد من يجالسنا ويخالطنا دون هذا المسجد، وإنَّ قومنا لما رأونا قد صدّقنا الله ورسوله وتركنا دينهم، أظهروا العداوة وأقسموا أن

١ـ سورة المائدة: ٥٥ ـ ٥٦.

٢ـ الدر المنثور: ج٣، ص: ١٠٥.

لا يخالطونا ولا يؤاكلونا، فشقّ ذلك علينا، فبينما هم يشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إذ نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، ونودي بالصلاة، صلاة الظهر، وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المسجد والنَّاس بين قائم وراكع، فنظر سائلاً فقال: هل أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم، قال: من؟ قال: ذلك الرّجل القائم، قال: على أي حال أعطاكه؟ قال: وهو راكع، قال: وذلك عليّ بن أبي طالب فكبّر رسول الله عند ذلك وهو يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾[١].

وقد جاء في طرق أهل السنَّة أربع وعشرون رواية تتفق ومضمون هذا الحديث، وتسع عشرة رواية من طرق أهل الشيعة، كما جاء في كتاب منهاج البراعة نقلاً عن كتاب (غاية المرام)، وتجاوز عدد الكتب الّتي أوردت هذه الرّوايات الثلاثين كتاباً كلها من تأليف علماء أهل السنَّة.

خط الولاية الذي يجب التزامه:

وجاءت هاتان الآيتان لتحددا خط الولاية الذي يجب أن يلتزمه النَّاس بالنسبة لما يلتزمون به في العقيدة والشريعة والقيادة. فالله هو الولي الذي تتجه إليه قلوب العباد وأرواحهم بالطاعة والعبادة والإخلاص والنصرة والمحبّة، فبالإيمان به ينفتح درب الحياة، وبالالتزام بشريعته يستقيم خط العدل، وبالإنابة إليه يتصحح كلّ انحراف، وهو المرجع والملجأ في كلّ شيء، لأنَّه القادر على شيء، والمهيمن على كلّ وجود، والرسول هو الولي في الدعوة والرسالة والقيادة، فهو الذي يجب على الناس أن يستجيبوا له إذا دعاهم لما يحييهم من طاعة الله

١ـ م. س، ج٣: ١٠٥ ـ ١٠٦.

وعبادته، وهو الرسول الذي أراد الله للنَّاس أن يؤمنوا برسالته بما يوحيه الله من وحيه، وبما ينزل عليه من قرآنه، وهو القائد الذي جعله الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فيملك منهم ما لا يملكونه من أنفسهم، وله عليهم حقّ الطاعة في ذلك كله، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، والذين آمنوا هم أولياء المؤمنين، لأنَّهم يُمثِّلون الإخلاص لله في ما تُمثِّله الصَّلاة الّتي يقيمونها من روح الإخلاص وشعاره، وفي ما تُمثِّله الزكاة الّتي يؤتونها كتعبيرٍ عن روحيّة العطاء المنسابة من إنسانيّة الإيمان النابض في روح الإنسان المؤمن وقلبه، ولا سيما وأنَّهم يؤدونها وهم راكعون لله، كأسلوب من أساليب المزج العملي بين عبادة العطاء وعبادة الخضوع، في ما يوحيه ذلك من معنى العبادة الذي لا يتمثَّل في حركة الشكل التقليدي للعمل العبادي، بل يمتد ليتحوّل إلى عنصرٍ من عناصر الخير الفاعل في حياة النَّاس الآخرين المحتاجين للعطاء.

وربَّما كان الاقتصار على هاتين الصفتين في شخصيّة الولاية في المؤمنين، للإيحاء بأنَّهما في ما يعبران عنه من معناً داخلي روحي وعملي، يمثِّلان الانطلاقة الحيّة في الصفات العامّة والخاصة التي ينبغي أن تتوافر في ولي المؤمنين، في ما يتحدّث به المتحدِّثون من شروط الولاية، لأنَّ الإنسان الذي يُقيم الصلاة لله بمعناها الحقيقي، لا بُدَّ من أن يعيش الإخلاص والأمانة على رسالة الله وحياة عباده، كما أنَّ الإنسان الَّذي يؤتي الزكاة من موقع الخضوع لله والركوع بين يديه، لا بُدَّ من أن يحمل مسؤولية النَّاس الذين يتولى أمورهم بكل أمانة وإخلاص، وبذلك تجتمع له الاستقامة في خط العقيدة، والاستقامة في خط المسؤوليّة العمليّة.

ولاية الإمام عليّ عليه السلام من خلال الآية:

وقد جاء في أكثر من حديث، أنَّ الآية الأولى قد نزلت في عليّ بن أبي

طالب عليه السلام عندما تصدّق على الفقير الذي سأله الصدقة وهو في حالة الركوع، فأعطاه خاتمه. ولا بُدَّ من أن تكون لهذه الحادثة الدلالة التعبيريّة الإيحائية بالمعنى الروحي الذي تُمثِّله هذه الصدقة، من حيث علاقة الصَّلاة بروح العطاء في نطاق الصدقة، مما لا يجعل من ممارستها في أثناء الصلاة عملاً مختلفاً عن الصَّلاة، بل يعتبر منسجماً معها تمام الانسجام، لأنَّ كلاًّ منهما يُمثِّل رضا الله في ما يأمر به من جهة، ومن جهة أخرى، فإنَّ التركيز على الذين آمنوا الذين يمارسون هذا العمل، يوحي بأنَّ المسألة ليست منطلقةً من خلال هذا العمل كحالة طارئة من حالات التصدُّق، بل هي منطلقةً من حيث كونها مدلولاً إيمانياً عملياً، يتحرك في كيان الشخص، ليتحول إلى صفةٍ لازمةٍ لا تنفك عنه، مما يجعله من ملامح الشخصيّة الأصيلة. وقد نستوحي من نزولها في نطاق هذه الحادثة، في ممارسة علي عليه السلام، أنَّ الآية تريد أن تشير إلى النموذج الأمثل ليجد النَّاس فيه الفكرة بعمق، مما يراد لهم من خلاله أن يتطلعوا إلى النموذج الأمثل ليجدوا فيه عمق الدلالة على المعنى من حيث ملامحه الحقيقية، ولا يتوقفوا عند المدلول الساذج للصفة والحادثة.

وجاءت الآية الثانية لتؤكد على جانب الممارسة، بعد أن أكدت الآية الأولى على جانب الخط، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويتحرك في خط الولاية الصحيح فيلتزم به ويترك الخط المزّيف، فسيجد كلّ الخير والهدى والعدل والصلاح والقوّة والغلبة، في هذا الجانب الذي يُمثِّل حزب الله في كلّ ما يحمل من شعارات ويتجه إليه من أهداف، وإذا سار الناس في هذا الطريق، وعاشوا الانتماء إلى حزب الله، فسيكون لهم النصر والغلبة على الآخرين، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ بفكرهم، وإخلاصهم، وثباتهم، وصمودهم، أمام التحديات الصعبة في الساحة.

لمحة خاطفة عن المناقشات حول الفكرة:

كثرت أحاديث المتكلّمين والمفسرين حول دلالة هذه الآية على ولاية الإمام علي عليه السلام في ما تعنيه من معنى الحاكميّة الّتي تعطي صلاحيّة التصرّف في شؤون الناس، باعتبار اتحاد المراد من ولاية الله والرسول والذين آمنوا موضوعاً، لا أنَّ ولاية الله هي بالأصل والتكوين، وولاية الرسول والذين آمنوا بالتبع والجعل. وقد أثير حول ذلك الكثير من الجدل، بين من ناقش في سند الرِّوايات الّتي دلّت على نزولها في قصة تصدُّق عليّ عليه السلام بالخاتم أثناء الصَّلاة، كابن تيمية الَّذي اعتبرها من الموضوعات مدعياً على ذلك الإجماع، وبين من أقر صحتها كأكثر المفسرين والمتكلمين والرواة. وناقش بعضهم في دلالتها على النظرية الشيعية في الإمامة وأقرّ البعض الآخر، فإنَّ المراد بـ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ الخ، على هذا التقدير هو علي، ولا يساعده اللغة»[١].

وأجاب عن ذلك صاحب تفسير الميزان: «أنه فرّق بين إعطاء حكم كلي أو الإخبار بمعرف جمعي في لفظ الجمع لينطبق على من يصح أن ينطبق عليه، ثُمَّ لا يكون المصداق الذي يصح أن ينطبق عليه إلاَّ واحداً فرداً، واللغة تأبى عن قبول الأول دون الثاني على شيوعه في الاستعمالات»[٢]. وناقش بعضهم بأنَّ لازمها كون المراد بالزكاة هو التصدُّق بالخاتم ولا يسمى ذلك زكاة، وأجيب عنه ـ كما في تفسير الميزان ـ بأنَّ: «الزكاة من أفراد الصدقة، وإنما سميت زكاة لكون الصدقة مطهرة مزكية مطلقاً، وقد غلب إستعمالها في الصدقة المصطلحة»[٣]. والإطلاقات القرآنية التي تحدثت عن الزكاة في الشرائع السابقة الّتي تختلف عن المعنى

١ـ تفسير الميزان: ج:٦، ص: ٩. ٢ـ م. ن.، ج: ٦، ص: ٩.

٣ ٦ ١١

المصطلح تؤكد ذلك، وهناك أبحاث كثيرة مفصلة في كتب التفسير وعلم الكلام، فليراجعها من أراد ذلك.

الغدير حقيقة خالدة

إن مسألة الغدير من المسائل الحيوية في المسيرة الإسلامية، ولا سيما بلحاظ ما ورد في كتب التفسير، مما رواه أكثر من راوٍ بما يطمئن له من صدور هذا التفسير في أسباب النزول، من أنّ النبي صلى الله عليه وآله عندما وصل إلى موقع غدير خمّ نزلت الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[1]. وإن كان هناك بعض المفسرين ممن يرى أنها نزلت في مجال آخر، ولكن لم يستطيعوا أن يوازنوا بين المناسبة التي يدّعونها وبين طبيعة الآية، لأنّ الآية لم تنزل في بداية الدعوة ليقال إنّها أمرٌ للنبي صلى الله عليه وآله بالإنذار بالتبليغ، وإنّما نزلت في نهاية الدعوة، لأن النبي صلى الله عليه وآله في ذلك الوقت كان قد بلغ كلّ ما أنزل إليه من ربّه، ولم يعهد أنّه صلى الله عليه وآله خاف من تبليغ أيّ حكم من الأحكام، بل كان قوياً في إبلاغ الوحي مهما كانت طبيعته، ومهما كانت ردود الفعل المترتبة عليه ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2]. فالنبي صلى الله عليه وآله لم يحسب ـ في إبلاغه للرسالة ـ أيّ حساب لردود الفعل، لأنّه كان يقوم بعملية تأسيس الفكر والروح والمنهج، ولذلك فقد كانت ردود الفعل السلبيّة كلّها منتظرة ومتوقعة. وقد انطلق النبي صلى الله عليه وآله بكلّ قوة في هذا المجال، حتىّ أنّه عندما كان يتألم فإنه يتألم لأن الناس في قلبه، وكان يرى أن الخلاص هو في اتباع الناس للرسالة، ولذلك كان يتألم لهم ولم يتألم منهم.

وعلى هذا، فإن هذه الآية تؤكد بأنّ هناك شيئاً مهمّا ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ

١ـ المائدة: ٦٧. ٢ـالكهف: ٢٩.

رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[١]. لأن الأمر مما يدور فيه الجدل باعتبار خصوصيته وليس ذلك إلاّ الولاية لعلي عليه السلام. وعندما بلّغ النبي صلى الله عليه وآله الرسالة بقوله **«ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟! قالوا : اللّهم بلى . قال : من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه»**[٢]. نزلت الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[٣]. لأنّ هذه الثغرة هي الوحيدة التي بقيت في الخط الإسلامي التشريعي، فعندما سدّت هذه الثغرة اكتمل البناء، وأتمّ الله نعمته على المسلمين ورضي الإسلام ديناً للناس كافة.

الانكفاء عن خط الولاية:

هنا، قد يتساءل بعض الناس: كيف نفسّر هذا النوع من الانكفاء عن خط الولاية ؟ وكيف نفسّر أن النبي صلى الله عليه وآله عندما انتقل إلى الرفيق الأعلى احتجّ الأنصار وقالوا: **«منا أمير ومنكم أمير»**[٤]. وانطلق بعض الصحابة لاستلام زمام المبادرة وليسارعوا بالبيعة بنحو ارتجاليّ استعراضي من دون أيّ تشاور ؟ وكيف لم تنطلق هناك أية معارضة بعد أن كان النبي صلى الله عليه وآله قد بيّن ذلك ؟!

ربّما يفسّر هذا الموضوع بما ألمح إليه المرحوم **«السيد عبد الحسين شرف الدين»**، (صاحب كتاب المراجعات). وهو أن الذهنية السائدة آنذاك، ما عدا بعض الصحابة، لم تكن متعمّقة ثقافياً في هذا الأمر، فلقد كانت البيعة هي التي تحكم الناس، فهم ـ حتىّ قبل الإسلام ـ كانوا إذا بايعوا التزموا، ولذلك فربما كانوا قد فهموا مراد كلام النبي صلى الله عليه وآله الذي كان واضحاً في كلامه، لكنّ أمراً ما كان يتحرك في الواقع الإسلامي، وكان يخطط لغير ما أراده صلى الله عليه وآله. لكننا نلاحظ أن

١ـ المائدة: ٦٧. ٢ـ الكليني: بحار الأنوار. ج٣٣. ب٢٠. ص٢٦٦. ح ٥٣٤.

٣ـ المائدة: ٣. ٤ـ الكليني: بحار الأنوار. ج٢٨. ب٤. ص ٢٢٠. ح٩.

النبي صلى الله عليه وآله قد رأى انحسار هذا التأثير عن الذهنية العامّة للناس بفعل بعض التعقيدات التي قد تكون من قبيل «**غسل الأدمغة**». عندما قال: «**ائتوني بدواة وكتف أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً**». فالنبي صلى الله عليه وآله هو الذي يتحدّث وليس أي شخص آخر، وهو إنّما يتحدث بكامل عقله ووعيه وإرادته، فلم يعهد الصحابة قبل هذه الكلمة أية كلمة أخرى قالها النبي صلى الله عليه وآله في حالة هجر أو غيبوبة، فلقد كان يعيش معهم بحضوره كله، يحدّثهم ويحدّثونه، ومن الطبيعي فإنه صلى الله عليه وآله عندما يقول لهم: اكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً لا يقصد أبداً كتاباً بديلاً عن كتاب الله فإن كتاب الله هو النور في نفسه ولغيره، فلابدّ أن تكون هناك قضية تستدعي الاهتمام، ويحتاج النبي صلى الله عليه وآله إلى تأكيدها بحيث لا يدع بعده لأحدٍ المجال في التلاعب بالألفاظ.

فما هي ياترى المناسبة أن يقول شخص: «**حسبنا كتاب الله**»؟ هل أن النبي صلى الله عليه وآله كان يريد أن يقول لهم إنّ كتاب الله ناقص؟! وما معنى «**حسبنا كتاب الله**». والله تعالى يقول: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[1] فالسنة مكمّلة للكتاب وشارحة له. ومعمّقة لمفاهيمه، فماذا أراد القائل بهذا القول؟! ثمّ ما الداعي إلى القول: «**إنّ النبي ليهجر**». في رواية، وفي رواية أخرى «**إنّ النبي قد غلب عليه الوجع**»[2]. فلم يعهد عن النبي صلى الله عليه وآله في حياته كلها، بل حتىّ في حالات مرضه، أنّه يهجر عندما يغلبه الوجع أو يقول ما لا يعي تحت تأثير المرض. هذا مع ملاحظة تتصل بالنبوة، فلا يمكن أن يتكلم النبي هجراً وهو في الموقع الرسالي الذي يخاطب فيه المسلمين بأمر يتصل بمسؤوليته عن قضية تتصل بمستقبل الرسالة في خط الهدى والضلال لما اتفق المسلمون على عصمته فيه.

١ـ الحشر: ٧.

٢ـ الكليني: بحار الأنوار. ج١٦. ص١٣٥. ح٧٥.

فحقيقة الأمر هي أنه أريد بذلك عدم السماح للنبيﷺ أن يعطي الوضوح الكامل لقضية الولاية ليعيد بما يكتبه تأكيد الفكرة التي أكدها في أكثر من مناسبة ولذلك عندما جاء بعض الناس بدواة وكتف اختلف القوم، مما يعني أنهم لم يرتضوا هذه الكلمة، وربما كان البعض منهم يؤكدون هذه الكلمة، فحينما بادروا بجلب الدواة والكتف، أو قالوا للنبيﷺ هل نأتيك بهما ؟ قال لهم: «**أفبعد الذي قلتم**».

ثمّ إننا نلاحظ أنّ النبيﷺ أراد من كبار الصحابة أن يخرجوا مع جيش أسامة لكنهم تخلفوا عنه. وثمة سؤال آخر، فما معنىٰ قول القائل: «**إنّ رسول الله لم يمت**» ؟! ما ذاك إلاّ أن هناك من كان غائباً عن المسرح وأريد له أن يحضر حتى تتم المسألة.

الدراسة التحليلية النقدية للتأريخ:

فلابدّ أن ندرس المسألة ـ عندما نريد قراءة التاريخ قراءة جديدة، دراسة تحليلية نقدية، بعيداً عن كلّ تهاويل القداسة التي انطلقت من خلال التراكمات التأريخية للأشخاص. وقد تحدّث عليعليه السلام في (الخطبة الشقشقية) التي حاول البعض أن يثير حولها بعض علامات الاستفهام متهماً (الشريف الرضي) بأنّه هو الذي وضعها، علماً أنّ أسلوب الشريف يختلف عن هذا الأسلوب،كما أنّ هناك من رواها قبل الرضي بمئات السنين.

إنّه عندما يتحدّث عن حقه يقول «**أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلاَ يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ**». إلى أن يقول «**بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا**». أي أن كلّ واحد أخذ ضرعا ليحلب منه، بمعنىٰ أنه كانت هناك شراكة في أمر الخلافة، ومحاولة حثيثة لمنع أي صوت يرتفع ليتحدث عن المسألة في أصولها، فلقد أصبحت أمراً واقعاً مفروضاً

تحركت الأجواء السياسية من أجله. وكان علي عليه السلام الأوعىٰ، فلقد درس المسألة، ومع أنه كان يدرك تماما أنه صاحب الحق والأعلم والأتقى، لا من ناحية ذاتية، بل من خلال شعوره أنَّ الإسلام لا يتحمّل معركة تمزّق الصف في تلك المرحلة، ولذلك قال: «**فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا**». وعندما جاءه أبو سفيان ومعه العباس ليبايعاه رفض ذلك، ونبّه إلى الفتن التي قد تنشب والظروف التي لا تسمح بمثل ذلك، لأنَّ القضية لم تكن طموحاً بالنسبة لعلي عليه السلام ولكنها كانت رسالة، وللرسالة ظروفها التي تحركها في الواقع، فإذا كان الواقع يحمل الكثير من السلبيات التي قد تهدم الرسالة ليبقى العنوان، فإنَّ صاحب الرسالة لا بد أن يتحرك بالرسالة في اتجاه آخر ليضحّي من أجل أن تبقى الرسالة ولهذا أعطى علي عليه السلام علمه كله وخبرته كلها، وقلبه المفتوح كله وعقله المفتوح كله للإسلام الذي أصبح يقوده أناس آخرون لا يملكون علمه ولا خبرته ولا وعيه، إنْ علىٰ المستوى الثقافي أو علىٰ المستوى الإداري. ومما نرصده في ذلك الواقع أنّ الخلافة لم تُطرح بعد النبي صلى الله عليه وآله كمفهوم، بل طرحت من قبل الأنصار علىٰ أساس عشائري بقولهم «**منا أمير ومنكم أمير**». ولم تكن المسألة تتعلق بالمقياس المعتمد لاختيار الشخصية التي تتحمّل المسؤوليّة القيادية للأمة بمعنى أنَّ المسألة لم تُطرح فى خطوطها الاسلاميّة العريضة، ولم يُذكر الأشخاص الذين رُشِّحوا للخلافة بالصفات التي تؤهلهم علمياً وادارياً وجهادياً لتبوّأ هذا المنصب، وللأسف عندما ذُكِر عليٌّ عليه السلام فإنَّ البعض تحدّث أنّه لا يزال في سن الشباب، والبعض الآخر رفض جمع النبوة والإمامة في بني هاشم.

مناقشة أطروحات الخلافة:

ففي دراستنا للأطروحات التي قُدّمت في تلك المرحلة لا نجد طرحاً ثقافياً منهجياً إسلامياً بالمستوى الذي نشعر فيه بوجود وعي الخلافة في الخطوط

الإسلامية الأصيلة، فكأنّ المسألة هي أن النبيﷺ مات وعلينا أن نأتي بشخص للقيادة كيفما كان. ولعلّ هذه الـ(كيفما كان) هي التي حكمت التأريخ الإسلاميّ كله. لأن القضية بزعمهم ليست قضية منهج يفرض الشخص ولكنها كانت قضية شخص يفرض المنهج. ولذلك قال الإمام عليعليه السلام «حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ فَيَا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ». فما هي ياترى المميزات التي تميّز هؤلاء الأشخاص ؟ وما هو علمهم ؟ وما هي ثقافتهم ؟ وما هو جهادهم ؟ وما هو قربهم الفكري والروحي من رسول اللهﷺ ؟! فعندما ندرس المسألة من الناحية العلمية الموضوعية فعند ذلك نجد صدق ما كان يقوله عليعليه السلام أين أنا وأين هم ؟!

وقد سمع الناس جميعاً آنذاك رسول اللهﷺ يهيىء لعليعليه السلام هذا الموقع الذي يعرفه كما لم يعرفه أحد «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»[١]. «علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار»[٢]. «من كنت مولاه فهذا علي مولاه». «يا علي أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي»[٣] والله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٤]. ويقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٥]. ويقول ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾[٦].

لذلك كان عليعليه السلام يتألم لا لنفسه بل للإسلام، وفي آخر الخطبة الشقشقية يقول في المرحلة الثالثة «فَصَغَى رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ وَمَالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ مَعَ هَنٍ

١ـ الكليني: بحار الأنوار. ج١٠. ص١٢٠. ح١. ٢ـ نفسه: ب ٢٦. ص ٤٣٢. ح١٢.
٣ـ نفسه: ب٢٦. ص٤٣٢. ح١٢. ٤ـ الاحزاب: ٣٣. ٥ـ المائدة: ٥٥.
٦ـ البقرة: ٢٠٧.

وَهَنٍ». وعندما وصل الأمر إليه «فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ». كانت الألغام مزروعة في الطريق «نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَقَسَطَ آخَرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١] بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا». ثمّ يؤكد موقفه «أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْ لاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[٢].

من أين نأخذ المنهج ؟!

من خلال كلّ هذه التجربة التي مضت ولم يبق منها شيء في حركة الواقع في معنىٰ السلطة، سوى الخط فإنه باقٍ، نرى أنَّ قضيتّنا مع يوم الغدير في امتداداته في خط عليعليه السلام هي: من أين نأخذ المنهج ؟! إنّ الآخرين لم يتركوا كياناً تقافياً، ولكن الوحيد من بين كلّ الصحابة الذي استطاع أن يترك للمسلمين في مدى الزمن ثروة ثقافية تتسع للإسلام كله وللإنسان كله والحركة والحياة كلها هو علي بن أبي طالبعليه السلام. حتىّ أننا عندما نقرأ علياًعليه السلام الآن فإننا نقرأه كما لو كان يحدّثنا عن مرحلتنا هذه، لأن فكر عليعليه السلام اخترق الزمن ولم يتجمّد في مرحلة معيّنة.

لذلك فإنّ الالتزام بعليعليه السلام هو الالتزام بمنهجه الذي هو منهج الإسلام. وإنّ الالتزام به هو الالتزام بالموضوعية في مواجهة القضايا التي يختلف فيها الناس لا بالعصبية، فقد كان عليعليه السلام من بين كلّ المسلمين الإنسان الأول في الموضوعية

١ـ القصص: ٨٣.
٢ـ نهج البلاغة: الخطبة الشقشقية.رقم ٣. ص ٩ ـ ١١.

فعندما انتفض عليه الخوارج بدأ الحوار معهم، وافسح المجال كيما يقولوا كلّ شيء، وكان يواجههم بالمنطق وبالحجّة.

إنّ الالتزام بعليعليه السلام هو الالتزام بالوحدة الإسلامية بمعنى أن الواقع الإسلامي إذا واجه التحديات الكبرى التي لا تتحمّلها التعقيدات، لا بدّ لنا أن نلتقي جميعاً أمام القضايا الكبرى رغم الخطوط المختلفة، أي لا بد أن يتحرك كلّ من موقعه لا سيما في مرحلتنا هذه.. فعندما نواجه التحديات الكبرى من قبل الاستكبار العالمي والكفر العالمي، والتحديات ضد المنطقة بأجمعها فإننا نشعر أنّ المسألة تستدعينا أن نرفع اللافتة التي رفعها عليعليه السلام في تلك المرحلة «**لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً**»[(١)]. فالمسألة إذاً هي كيف تسلم أمور المسلمين السياسية والاقتصادية والاجتماعية. لقد كان قلب عليعليه السلام مملوءاً بالحب لكل الناس حتىّ الذين اختلفوا معه، وكان من وصاياه «**احْصُدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ**»[(٢)].

لقد أُسيء إلى عليعليه السلام كما لم يسيء إلى أحد، ولم يكن في عليعليه السلام رغم ذلك كله شيء من الشرّ، فلا يجوز أن نحمل الحقد للمسلمين، وإن كنا نختلف معهم ونتبادل الاتهام بالخطأ، لكن علينا أن نلتقي على حبّ الله ورسوله وحب الإسلام ومن هذا الحب أن نتحاور بالمحبّة وليس بالحقد، وأن نتحاور للوصول إلى الحقيقة بالأسلوب الموضوعي لا ليسجّل أحدنا النقاط على الآخر.

درس الغدير:

لقد ورثنا من عهود التخلف أسلوب الحوار علىٰ طريقة الجدل البيزنطي، فليست القضية هي البحث عن أسلوب الإقناع، ولا هي البحث عن الحقيقة لأنَّ

١ـ نهج البلاغة: ج ٧٤. ص ٥٦. ٢ـنهج البلاغة: رقم ١٧٨. ص٣٩٢.

كلّ واحد منا يعتبر نفسه هو الحقّ المطلق..

التخلف.. الجهل.. العصبية، هذا هو طابع الواقع الإسلامي، ولكننا لا نتحدث عن سلبيات مطلقة، فهناك إيجابيات، ولكننا نحاول دائماً أن نخنق هذه الإيجابيات بما نثيره من السلبيات.

لا بد أن ندرس تجربة الإمام علي عليه السلام جيداً.. كيف كانت رحابة افقه؟ وكيف كانت سعة صدره؟ وكيف كانت قوة صبره؟ وكيف كان يحمل مسؤولية الإسلام على كتفيه؟ ومسؤولية المسلمين في عقله وقلبه؟

هل تريدون الاحتفال بعيد الغدير؟ كما ينبغي أن يحتفل به، فالغدير هو الثروة الثقافية والروحية لعلي عليه السلام فينبغي أن يكون المناسبة التي ينطلق فيها العلماء والمثقفون والمفكرون والأدباء من أجل أن يضعوا المنهج لدراسة تراث علي عليه السلام كله ليأخذ مكانه في العقيدة والشريعة وفي السياسة وفي الاجتماع وفي فهم الكون ليدخل إلى عقولنا وإلى قلوبنا وإلى حياتنا.

فما زال علي عليه السلام عندنا مجرد نبضة قلب، فمتى ـ يا ترى ـ يكون علي عليه السلام انطلاقة فكر؟! ونحن أمة تحتاج إلى المزيد من الفكر، وفكر علي عليه السلام هو الذي تخطّىٰ الزمن لأنه فكر الحياة.

إنَّ الانتماء لعلي عليه السلام مسؤولية فمن اراد أن يحسب نفسه مع علي عليه السلام فعليه أن يعيش علياً عليه السلام في عقله وفي قلبه وفي حياته، لأنَّ علياً عليه السلام عاش الله تعالى في عقله وقلبه وحياته وعاش رسولَ الله صلى الله عليه وآله كله في عقله وقلبه وحياته، وعاش الإسلام كله في عقله وقلبه وحياته، فتعالوا إلى علي عليه السلام لتجدوه معنا وليس في التأريخ، لأن شخصيَّةً مثل علي عليه السلام لا يمكن أن يضمها التأريخ في مغاراته وكهوفه. إنَّه يطل علينا مع الشمس في كلّ صباح.

الفَصلُ الثَّالِثُ

علي عليه السلام بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله

- الإمام علي عليه السلام وقيادة الأمة.
- علي عليه السلام وفراق فاطمة عليها السلام.
- المسؤولية الرسالية في حياة الإمام علي عليه السلام.
- اسلوب الحكم عند الإمام علي عليه السلام.
- ادارة الخلافة فى خط المعارضة.
- الإمام علي عليه السلام والخوارج.
- الشهادة والوصية الخالدة.

من كلام للإمام علي عليه السلام

«فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلاَنٍ يُبَايِعُونَهُ فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلاَمِ يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دَيْنِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلاَمَ وَ أَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلاَيَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلاَئِلَ يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ فَنَهَضْتُ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وَ زَهَقَ وَ اطْمَأَنَّ الدِّينُ وَ تَنَهْنَهَ»

***

«ووَاللَّهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً»

***

«فَيَا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا»

***

«لَوْ لاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ وَ قِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَ لاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»

***

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ وَلاَ الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ وَ لَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الإِصْلاَحَ فِي بِلاَدِكَ فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ وَسَمِعَ وَأَجَابَ لَمْ يَسْبِقْنِي إِلاَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالصَّلاَةِ»

***

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَئُوا إِنَائِي وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقّاً كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي وَقَالُوا أَلاَ إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ فَاصْبِرْ مَغْمُوماً أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ وَلاَ ذَابٌّ وَلاَ مُسَاعِدٌ إِلاَّ أَهْلَ بَيْتِي فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى وَجَرِعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَارِ»

الإمام علي عليه السلام وقيادة الأمة

ترك اجتماع السقيفة تأثيراً شديداً على مسيرة الإسلام لانها أوجدت حالة عميقة من الخلافات بين المسلمين بحيث تطورت الى بروز خطين في المنهج الاسلامي، وهى ما يسميه بعض الباحثين المعاصرين مدرسة الامامة، ومدرسة الخلافة. والمسلمون في عصر الخلافة كانوا أقرب الى المواجهة الواقعية لمثل هذه المشكلة. بعدها عاش المسلمون اوضاعاً حادّة ومع ذلك كان الامام علي عليه السلام، وهو صاحب القضية؛ يتعاون مع الخلفاء، ويعطيهم المشورة، والنصح بالرغم من رفضه للمسألة.

وقد عاش علي عليه السلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله تجربة من أقسى التجارب، فكان يشعر أنه وحده.. يفكّر وحده.. ويتألّم وحده.. ويواجه التحديات وحده.. وكان يشعر أن محلّه محل القطب من الرحىٰ وليس للرحىٰ سوىٰ قطب واحد.. ينحدر عنه السيل لأنه في القمة، ولا يرقى له الطير لأنَّ قمته لا يقترب منها أحد.

وبعد أن دارت الدائرة لم يعتزل لمجرد أنّه لم يستلم خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله فالمسألة لم تكن مجرد خلافة يُمَنع من حقّه فيها، بل كانت مسألة رسالة حمّله الله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وآله المسؤولية فيها، وعندما نُحِّيت الخلافة عنه كان يحدّق بالرسالة وعندما منعه بعض الناس من حقّه كان يحدّق في الواقع الإسلاميّ كلّه وبالمسلمين كلّهم، فكانت كلماته كما في الكلمة التي خاطب فيها أهل مصر من خلال كتابه الذي حمله عامله عليها (مالك الاشتر) ولم يصل إليهم لأنّه وقع في أيدي أعوان معاوية الذين اغتالوه: «**فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلاَنٍ يُبَايِعُونَهُ**» ويقصد أبا بكر «**فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ**

الإِسْلاَمِ يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دَيْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَخَشِيتُ» وانظروا إلى هـذا الجـانب العاطفي الذي يشدّ علياًعليه السلام إلى الإسلام تماماً كما يتحدّث الإنسان عن كـارثة تصيبه في نفسه وفي أهله، والعاطفة هنا أعمق عند عليعليه السلام لأنّ الإسلام عـنده فوق كلّ شيء «إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلاَمَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ». وما أعمق كلمة «المصيبة» هنا، فهي تبكي وتفيض دماً فـي المأسـاة «أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلاَيَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلاَئِلَ يَزُولُ مِنْهَا مَا كَـانَ كَـمَا يَزُولُ السَّرَابُ أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ فَنَهَضْتُ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهْنَهَ»[١].

وقال عليه السلام في حالة من أروع وأندر حالات نكران الذات وأرقاها: «لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَـاصَّةً»[٢]. فـلا مشكـلة عندي في أن أُظلَمَ، ولكن المشكلة في أن يُظلَم المسـلمون. وقـال عليه السلام مـؤكداً مسؤوليته في تلك الظروف العصيبة: «لَوْ لاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَـالِمٍ وَلاَ سَـغَبِ مَـظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ». وقال لابن عباس الذي دخل عليه فرآه يخصف نعله «مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ فَقُلْتُ لاَ قِيمَةَ لَهَا فَقَالَ عليه السلام وَاللَّهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ». وكان في كرسيّ الخلافة آنذاك «إِلاَّ أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلاً». فَمَن مثلُ عليعليه السلام وهو يملك الدنيا كلّها من دون ان تملكه؟

وكان يشعر بعلمه الفيّاض الذي لم يجد من ينتفع به، وكان يتألم لذلك: «إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً». ولم يكن يبحث عن

١ـ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ٦، ب٩، ص٩٩.

٢ـ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ١٦٠، باب٣، ص١٨٤.

الحمَلَة لأجل أن يعطي علمه عنفوانه، ولكنه أرادهم حتىٰ يعطي علمه امتداده.

لذلك عاش علي عليه السلام غريباً في قومه، فمشكلة علي عليه السلام أنه عاش في مجتمع لم يفهمه جيداً «فَيَا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا»(١).

ولقد عاش التجربة الصعبة كأقسىٰ ما تكون، ولم يكن يبحث عن نفسه فيما كان يريده من الولاية، ولكن كان كلُّ همه الإسلام، ولذلك كانت المشكلة عنده أنه كان يرى أنَّ الإسلام يضيع وينحرف، وربما رأى في حركة الإسلام آنذاك حركة قوة امتدّ بها الإسلام في العالم، ولكنه كان يبحث عن امتداد الإسلام في وعي الإنسان في العمق، وكانت طبيعة المرحلة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله هي أن يمتدّ الإسلام في الناس «من قال لا إله إلاّ الله محمد رسول الله حقن بها ماله ودمه وعرضه» ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(٢) وكانت الخطة في عهد النبي صلى الله عليه وآله أن يحيّد الناس عن الشرك ليدخلهم في المجتمع حتىٰ يتنفسوا الإسلام ولو بعد حين.

١ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١، باب٣، ص١٨٤. ٢ـ الحجرات ١٤.

عليعليه السلام وفراق فاطمةعليها السلام

لقد عاش عليعليه السلام مع فاطمةعليها السلام مدة قصيرة في حساب الزمن، ولكنها كبيرة في معنى القيم، فقد كانت تناغي بروحها روحه، وتضم عواطفها إلى عواطفه، وتعطيه المحبة وتشاركه الهموم وتخفّف عنه الأحزان، كانت سلوته الوحيدة في الزمن الذي عزّ فيه الصديق وغدر فيه الزمان وقلّ فيه الناصر والمعين، كانت تجسّد رسول الله أمام ناظريه في كل أقوالها وأفعالها، فكيف كان حال عليّعليه السلام وهو يراها مسجّاة أمامه وقد فاضت روحها الطاهرة إلى بارئها؟ كيف كانت مشاعره وعواطفه وهو يوسّدها في ملحودة قبرها؟

لقد كان عليعليه السلام يشعر بالسكينة والاطمئنان وهو إلى جانب رسول اللهصلى الله عليه وآله، فلمّا غاب الرسولصلى الله عليه وآله بقي يعيش السكينة والطمأنينة الروحيّة مع الزهراء البتول، فلما غابت الزهراءعليها السلام وأفل نجمها، شعر عليّعليه السلام بالغربة وأحسّ بالوحدة وامتلأ قلبه بالحزن الكبير، لا من جهة فقد قرابة هنا أو قرابة هناك، بل لأنه لم يعد يوجد إنسان يعيش معنى عليعليه السلام ويعيش عليعليه السلام معناه، لم يعد يوجد إنسان يلجأ إليه عليعليه السلام كما كانت فاطمةعليها السلام، لأنها كانت كفؤاً لعليعليه السلام، كما كان عليعليه السلام كفؤاً لها، كان عقلها عقله وقلبها قلبه، فهما صنيعتا رسول اللهصلى الله عليه وآله وتلميذاه اللذان نهلا من معين علمه. ولهذا أحسّ عليّعليه السلام بفقدها أنه فقد كيانه، ومن يفقد كيانه فلا بدّ أن يشعر بالغربة عن هذا العالم.

ونستشعر وقع هذه الغربة وأليم الحزن ولوعة الفراق التي أصابت علياًعليه السلام بفقد الزهراءعليها السلام من الكلمات الحزينة التي قالها في تأبين الزهراءعليها السلام ووداعها، فقد روى الشريف الرضيرحمه الله في نهج البلاغة عن الإمام الحسينعليه السلام، أنّ مما ودّع به عليعليه السلام زوجته فاطمةعليها السلام قوله: «**السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ**». وهذه إشارة إلى أنه دفنها إلى جوار رسول اللهصلى الله عليه وآله

«وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ قَلَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي». فقد قال عليه السلام ذلك فيما كان يتحسّسه من ألم الفقد وإلاّ فإن علياً هو الصابر الذي لا صبر كصبره «وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي». لقد هزَّ فقدُها كلَّ كياني «إِلاَّ أَنَّ فِي التَّأَسِّي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ». فلقد فارقتك وأنت الأعظم والأكبر والأحب والأقرب «وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ». لأننا فقدنا بفقدك الوحي الذي ينزل علينا من السماء بألطافه كلها. «فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ». لأنه هو عليه السلام الذي قام بدفن رسول الله صلى الله عليه وآله والقوم مشغولون عن ذلك. «وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ». فلقد كان يحتضنه أثناء لفظ أنفاسه «فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ» وكانت فاطمة الزهراء عليها السلام عند علي عليه السلام الذي حافظ عليها أعظم محافظة «وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ». فلقد كانت الرهينة عند رسول الله صلى الله عليه وآله «أَمَّا حُزْنِي» الذي يعيش في القلب.. الحزن الرسالي.. الذي يتحسس معنىٰ مَنْ فقد «فَسَرْمَدٌ» أبدي «وَأَمَّا لَيْلِي» حينما أفتقدك يارسول الله يا من كنت أنس ليلي، وأفتقد الزهراء عليها السلام التي كانت أنس ليلي «فَمُسَهَّدٌ» فلا أستطيع أمام هذا كله أن أملك عيني لتنام لأن ذكرياتكما تفرض عليّ اليقظة كلها. «إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ» فأنا وحدي.. أعيش في الليل وحدي وأسير في النهار وحدي وإن كان الناس كلهم معي لأن العلاقة العميقة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام هي علاقة ليس مثلها علاقة، فرسول الله صلى الله عليه وآله هو أبو علي بالتربية ومعلمه ومرشده وأخوه ورفيقه، لذلك نَمَتْ بين رسول الله صلى الله عليه وآله بالنسبة لعلي عليه السلام وبالنسبة لفاطمة عليها السلام العلاقة التي لا فراغ فيها قط «وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا». فيما ظلمت به «فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ» والإنسان عندما يفارق شخصاً وتحدث بعده مشاكل فانه يحاول أن يحفي السؤال أي يكثره «وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ هٰذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ». فقد عشنا ذكراك وما تركه عهدك لنا من ذكرى.. «وَالسَّلاَمُ عَلَيْكُمَا سَلاَمَ مُوَدِّعٍ لاَ قَالٍ وَلاَ سَئِمٍ فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلاَ عَنْ مَلاَلَةٍ وَإِنْ أُقِمْ فَلاَ عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ» ليس جزعاً أن أقف على قبرك فلست أتنكّر لقضاء الله وقدره.

المسؤولية الرسالية
في حياة الإمام علي عليه السلام

كان غياب النبي صلى الله عليه وآله عن المسرح الاسلامي يفرض أن يأتي شخص يعيش رسول الله صلى الله عليه وآله بكلّه في معنى الإسلام في شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله في العقيدة والعاطفة والحياة، ويفرض أيضاً أن يكون هناك شخص في مستوى القاعدة وليس سوى علي عليه السلام من هو مؤهل لذلك، فهو الذي يمكن أن يجيب عن كلّ سؤال ويخطط لكلّ مرحلة، ويفتح أكثر من أفق. وهذا ما عشناه من خلال بعض ما وصلنا من تراث علي عليه السلام ولم يصلنا إلاّ القليل، لأنّ ماجمعه الشريف الرضي رضي الله عنه. أنه كان يستهدف الأسلوب الأدبي في (نهج البلاغة) ولم يستهدف المسألة الثقافية المتنوّعة في النهج، لذلك اختصر الكثير من الخطب والكلمات، وكان يريد أن ينهج البلاغة لكنّ الأمة كانت بحاجة إلى أن ينهج ثقافة علي عليه السلام كلها، لأنه حرام أن تضيع كلمة من كلمات علي عليه السلام ذلك لأن كلّ كلمة كانت تحمل فكرة وتشير إلى خط وإلى درب في منهج الإسلام.

وكان دوره في عصر الخلفاء أعظم دور لأن الإمام كان يعتبر نفسه أنه أمير المؤمنين خارج الخلافة كما هو أمير المؤمنين داخل الخلافة، وأنه مسؤول عن الإسلام كلّه سواء كان هو على رأس المسؤولية أو لم يكن.

ولذلك وقف الإمام علي عليه السلام مع الذين أبعدوه عن الخلافة وغصبوا حقه وقف أمامهم ليعطيهم المشورة كلّها والنصيحة كلّها وليحلّ لهم المشاكل التي تواجههم

من دون أية عقدة، لأنّ الفرق بين الإمام عليعليه السلام وبين الآخرين هو أن علياً كان إسلاماً كلّه وكانت مسئووليته عن الإسلام كمسؤولية الرسول صلى الله عليه وآله من دون نبوّة ولذلك قال «لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً». ولهذا نجد أنه نصح كلّ الخلفاء الذين تقدّموه. ويُنقل أنه دافع عن عثمان وأرسل ولديه للدفاع عنه، وليس معنى ذلك أنه ترك أو تنازل عن حقه ولكنه كان يراعي مصلحة الإسلام العليا.

لذلك عندما تتأمل علياًعليه السلام فإنك سوف ترى أن علياًعليه السلام لا يقارن بأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وحرام أن يوضع إلىٰ جنب عليعليه السلام أي شخص في موقع التفاضل ولا نقول ذلك عاطفة ولا حباً ولا عصبية، ولكننا نقولها حقيقة لا تشوبها شائبة، لأنك لا تجد في المسلمين كلّهم منَ تَمثّلَ الإسلامَ كلَّه فيه إنْ في عقله أو في قلبه أو جهاده أو روحانيته أو تواضعه أو في كلّ ما يرتبط بالإسلام من قريب أو بعيد سوى الإمام عليعليه السلام، وليس هناك من يقترب من عليعليه السلام فضلاً عن أن يساويه.

مشورة الإمام عليعليه السلام لعمر بن الخطاب:

ولننطلق إلىٰ أفق آخر يعطينا أسلوب الإمام عليعليه السلام وعظمته وروعته وسموّه عندما يستشيره الإنسان الذي قاد كلّ الحركة في إبعاد عليعليه السلام عن حقّه لأنّه انطلق إلىٰ السقيفة ليحرّكها في غير خطّ عليعليه السلام الذي عيّنه رسول الله صلى الله عليه وآله خليفة له بأمر الله، ففي كلام له عليه السلام لعمر بن الخطاب وقد استشاره في الشخوص لقتال الفرس بنفسه عندما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس وبين المسلمين، فقد جمع عمر المسلمين واستشارهم في الرسالة التي جاءت من قائد المعركة الذي طلب منه أن يأتي ليقود المعركة بنفسه ليكون ذلك أقوىٰ لجانب المسلمين في

معركتهم، وأشاروا عليه بذلك، وجاء إلىٰ علي عليه السلام يستشيره والإمام عليه السلام لو كان يحمل حقداً وضغينة كما هو حال بعض السياسيين لقال إنّها الفرصة المواتية للخلاص من عمر، ولكن علياً عليه السلام كان رجل الإسلام، وكان يفكّر بالإسلام لا بالشخص، وهو القائل «لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً»[1] فلو أُظلم لوحدي فلا مشكلة إذ لابدّ للإسلام أن يقوى وللمسلمين أن تسلم أمورهم، فمن منّا يفكّر بهذا أو يعمل به؟ وهو القائل لابن عباس «لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ وَيَحْزَنُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ فَلاَ يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ وَلَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ أَوْ إِحْيَاءُ حَقٍّ»[2] فأين علي عليه السلام وأين نحن؟! فنحن لا نرى منه سوى قتله لمرحب وعبد ودّ ولم نر كيف قتل الباطل ونصر الحقّ.

قال لعمر بن الخطّاب «إِنَّ هَذَا الأَمْرَ» وهو الإسلام «لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلاَ خِذْلاَنُهُ بِكَثْرَةٍ وَلاَ بِقِلَّةٍ» فقد نصرنا الله ببدر ونحن أذلّة وقد نصرنا الله بالأحزاب، وقد جاءت كلّ الأحلاف لتقضي علينا في المدينة وقد نصرنا الله في أحد ثمّ خذلنا عندما تركنا أسباب النصر، وهكذا في حنين ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[3]. فالقضية ليست قضية كثرة ولا قلّة.

«إِنَّ هَذَا الأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلاَ خِذْلاَنُهُ بِكَثْرَةٍ وَلاَ بِقِلَّةٍ وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ» وهذا قوله تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[4]. «وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ» وهذا قوله تعالى ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾[5].

١ـ شرح نهج البلاغة: ج٩. ب٧٧. ص١٩٣.

٢ـ شرح نهج البلاغة: ج٤. ب٢٤. ص٣٢٤.   ٣ـ التوبة: ٢٥.

٤ـ التوبة: ٣٣.   ٥ـ المائدة: ٥٦.

«حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ» وهو قوله تعالى ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1].

١ـ محمد: ٧.

اسلوب الحكم عند الإمام علي عليه السلام

ونبقى مع عليّ عليه السلام صوت العدالة الإنسانية، لنلتقط من نهج بلاغته بعض الكلمات التي توضح لنا كيف كان أسلوبه في حكمه، وفي علاقته مع بعض الذين يتولّون جانباً من شؤون حكمه، وكيف كان خطابه لبعض الذين انتفضوا عليه ونكثوا عهده وواجهوا خطّته، لأنّ هذا الجانب ليس واضحاً عند الكثيرين، ولأنّ مثل هذه الملامح الإسلامية العلوية تعلّمنا. سواء كنّا على مستوى المسؤولية أو على مستوى الواقع الشعبي كيف نحرّك أساليبنا مع الذين نعارضهم ويعارضونناأو الذين يتحرّكون معنا في مسؤولياتنا.

فنحن نلاحظ في أسلوب عليّ عليه السلام وهو الخليفة، أنّه عندما كان يرسل كتبه إلى عمّاله، أو الذين يتولّون بعض شؤون الناس من قبله، لم يكن يستخدم اللغة الرسمية مما اعتاد الخلفاء أو المسؤولون في الدول أن يوجهوها إلى من هم تحت مسؤوليتهم، لأنّ عليّاً عليه السلام كان ينطلق من خلال خطّين في المسؤولية: الخطّ الأول هو الخطّ الرساليّ، لأنّه كان مسؤولاً عن تربية النّاس على الإسلام، تماماً كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله مسؤولاً عن ذلك. والخطّ الثاني، وهو خطّ تنفيذ الإسلام في حياة النّاس من خلال حركة الحكم في إقامة العدل وحفظ النظام الأمني.

خطاب الافتتاح:

لنستمع إلى الإمام علي عليه السلام في أول خطاب له في مفتتح خلافته، كيف بدأ خطابه؟ وكيف قدّم نفسه للناس لاسيما الذين يجهلونه؟ وكيف عمّق معرفته بالنسبة للذين يعرفونه؟

يقول عليه السلام «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ» فلقد أعطى الفكرة للناس أنّ خلافته تبدأ من حيث القرآن، وسوف تمتدّ في ممارسته لتكون قرآناً يتجسّد، لأنّ علياً عليه السلام كان قرآنا يتحرّك، ولذلك قال للناس إنّ المسألة في حكمه هي أن ينطلق الحكم في خطوط الكتاب، فالله أعطى الهداية بالكتاب حيث ميّز بين الخير وبين الشرّ، ومن خلال ذلك أراد للناس أن يتبعوه في حكمه.

«فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا» إقرأوا الخير في القرآن في مفاهيمه العقيدية والشرعية والمنهجية والحركية كلّها فإنّ القرآن يهديكم إلى نهج الخير « وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا» أي أنكم تصلون إلى خطّ الاعتدال بإعراضكم عن خط الشرّ، لأنّه يركز للإنسان الخطوط العامّة التي توضّح له مواقع الخير وامتداداته في شؤونه الفكرية والعملية.

«الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ» ثمّ يؤكدعليه السلام على ما يؤكد الله تعالى عليه مما لا رخصة فهي، بقطع النظر عن الطواريء التي تحيط بالإنسان مما قد يملك فيه الاختيار، فهناك فرائض فرضها الله عليكم في عباداتكم، وهناك فرائض فرضها عليكم في معاملاتكم، وأخرى فرضها عليكم في علاقاتكم، وهناك فرائض فرضها عليكم في مواقفكم «أَدُّوهَا إِلَى اللَّهِ» فهي أمانة الله تعالى عندكم ﴿إنَّ الله يأمُرُكُمْ أنْ تَؤَدّوا الأماناتِ إلى أهلِها﴾[1]. وأهل الفرائض هو الله، فإذا قمتم بها «تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ» فهي تسير بكم إلى الجنّة، فإذا عشتم مع الفرائض بكلّ حدودها وخطوطها فإنّها تفضي بكم إلى الجنّة لأنّها مواقع رضا الله، وعندما يقف الإنسان في هذه المواقع فإنّها سوف ترتفع به إلى مواقع القرب منه سبحانه وتعالى. لأنها تمثل الأعمال المنطلقة من خط الإيمان والمتحرّكة في خطوط حركته في العقل

١ـ النساء: ٥٨.

والروح والقلب والحياة، فتقرّب الإنسان إلى الله وتوحي له بكلّ القيم الروحية التي ترفعه إليه.

«إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ» فالله تعالى تحدّث إليكم عن المحرّمات، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[1]. وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[2]. وقوله ﴿لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾[3]. وقوله ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[4]. وقوله ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[5]. إلى غير ذلك من المحرّمات فهي واضحة بيّنة وعليكم أن تجتنبوها لتطيعوا الله في ذلك. «وَأَحَلَّ حَلاَلاً غَيْرَ مَدْخُولٍ» فهو حلال واضح ليس فيه أي خلل ﴿اليَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[6]. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾[7] ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾[8] إلى غير ذلك من الآيات.

حرمة المسلم:

«وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرَمِ كُلِّهَا» وهنا تتجلّى عظمة الإسلام الذي أراد

١ـ المائدة: ٩٠. ٢ـ الحجرات: ١٢. ٣ـ الحجرات: ١١. ٤ـ هود: ١٣.
٥ـ الأسراء: ٣٢. ٦ـ المائدة: ٥. ٧ـ الأعراف: ٣٢.
٨ـ النساء: ٢٤.

للناس كلّهم أن يحترموا إنسانية الإنسان المسلم بحيث يكون أعظم حرمة من كلّ المقدسات المكانية، وقد ورد في الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه كان جالساً في المسجد الحرام وكان إلى جانبه شخص من أصحابه. فقال له: «**أترى إلى حرمة هذه الكعبة؟ قال: بلى، قال: إن حرمة المسلم عند الله أعظم من حرمة الكعبة سبعين مرّة**»[١]. فما بالكم بمن يهين الكعبة أو يهدمها؟ إنّ من يهدم المسلم في نفسه وفي عرضه وفي حياته، وإن من يهينه ويذلّه ويحطّم كرامته، يقوم بعمل أعظم وأشنع من تحطيم كرامة الكعبة، فنحن نقدّس البناء الذي تمثله الكعبة، والله تعالى أراد لنا أن نحترمه، ولكنّه أراد لنا أن نحترم الإنسان الذي يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أكثر مما نحترم الكعبة، وهي مسألة نسيها المسلمون، ولهذا فإننا في حياتنا العملية نتحرك على أساس موازين القوة والضعف، فالقوي يهين الضعيف ويسقطه على أساس المواقع الاجتماعية والسياسية وما إلى ذلك. ولذلك أراد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في موقفه في أول خلافته أن يقول للناس إنّ برنامج الحكم عندي هو احترام كلّ المسلمين، فعلى الخليفة أن يحترمهم، وأن يكون البرنامج العملي الذي يأخذ به هو أن يحترم المسلمون بعضهم بعضاً، وهذا هو المنهج الذي ينبغي أن يأخذ به كلّ حاكم إسلاميّ، بأنّ يضع في حساباته تأكيد احترام المسلمين في حكمه. وعلينا أن نعرف حقيقة أنّ الله سبحانه وتعالى وضع الدين لخدمة الإنسان ولم يضع الإنسان لخدمة الدين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢]. فالله سبحانه وتعالى والرسول صلى الله عليه وآله في دعوتهما المؤمنين لِمَا يحييهم أرادا أن يمنحاهم الحياة الفكرية والروحية والعملية في أبعادها الاجتماعية والسياسية والأمنية وما إلى ذلك، فالدين جاء لخدمة الإنسان وليس العكس، فالإنسان لم يكلّف بخدمة الدين وإنّما

١ـ بحار الأنوار. ج١٣. ب١. ص٣٠٠. ح١٢.
٢ـ سورة الأنفال: ٢٤.

كلّف بالسير عليه حتىّ ينهج نهجه وينفتح على مفاهيمه.

«وَشَدَّ بِالإِخْلاَصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا» أي مواضعها من الذمم، بأن يجعل حقوق المسلمين متحركة في حركة الإخلاص والتوجيه الذي يريد للمسلمين أن يأخذوا حقوقهم في مواقع التعاقد بين الله وبين خلقه وبين الخلق أنفسهم. ثمّ يؤكّد مسألة من هو المسلم؟ هل هو الذي يشهد الشهادتين؟ ذلك هو المدخل الذي يدخل به الانسان إلى الإسلام، ولكن عندما يدخل في الإسلام فأيّ موقع يؤكّد إسلامه؟ «فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلاَّ بِالْحَقِّ» فهو الذي لا يأتي للمسلمين منه إلاّ الكلمات التي تحترم إنسانيتهم وإسلامهم، ولا يصدر عنه إلاّ العمل أو الممارسة التي تحفظ كرامتهم وتحترم أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، «وَلاَ يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلاَّ بِمَا يَجِبُ» فلا يحلّ لكم أن تؤذوا المسلم، أي مسلم كان، فلا يحلّ لك أن تؤذي زوجتك أو أباك أو أمك أو ولدك أو جارك أو أي مسلم من المسلمين إلاّ بما يجب، فإذا اقتضى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذلك فبحدوده، وإذا كان لك حق تطالب به فبحدوده، وما عدا ذلك فلا يجوز لك أذى أي مسلم مهما كانت علاقتك به، ومهما كانت موازين القوّة والضعف بينك وبينه، ولاحظوا كيف أنَّ الإمام يضع البرنامج في أول خلافته مخاطباً المسلمين بأن كلّ من آذى مسلماً فأنا خصمه لأنَّ أذى المسلم لا يجوز إلاّ بما يجب.

«بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ» أي الخطّ الذي يشمل الناس في مصيرهم وهو الموت، لأنّ الإنسان عندما يضع الموت أمامه فإنه يضع المسؤولية نصب عينيه، لأنّ الموت في حساب الدين ليس هو العدم المحض الذي ينفيك تماما، لكنّه الجسر الذي يربط بين حياتين: حياتك في الدنيا وحياتك في الآخرة ليقول لك دائماً إنّ حياتك في الدنيا هي حياة المسؤولية وحياتك في

الآخرة هي حياة حساب نتائج المسؤولية «اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»[١]. ﴿يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[٢]. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[٣].

« فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ» انظروا إلى المسيرة البشرية التي كانت تتحرك قبلكم، فأين هم أجدادكم وآباؤكم؟ إنّهم تقدموا لتلتحقوا بهم. «وَإِنَّ السَّاعَةَ» وهي الأجل الذي تشرفون من خلاله على القيامة «تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ» أي أنّ الإنسان يمشي والموت يسير وراءه «تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا» تخفّفوا من أثقال خطاياكم تلحقوا المسيرة، لأنّ الإنسان الذي يكون خفيف الظهر من أثقال خطاياه يستطيع أن يلحق بالداخلين إلى الجنّة دون أن يؤخّره ثقل الحساب «فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ» فالمسيرة تسير والأول ينتظر الآخر في ساحة المحشر.

«اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلاَدِهِ» والتقوى هي الخط الذي أراد الله للإنسان أن يأخذ به ليكون زاده ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الألْبَابِ﴾[٤]. ﴿وَسَارِعُوا إلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ۝ وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٥].

﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾[٦]. فلكلّ إنسان تعيشون معه حقّ عليكم، ومن التقوى أن تؤدّي إلى كلّ ذي حقّ حقه، كما أنّ لكم حقوقاً على الناس وعليهم أن

١ـ بحار الانوار: ج٥٣ـ ب٢٥، ص٩٩، ح١٣. ٢ـ الإنشقاق: ٦.
٣ـ الزلزلة: ٧ ـ ٨. ٤ـ البقرة: ١٩٧.
٥ـ آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٥. ٦ـ الشعراء: ١٧٩.

يؤدّوا ما لكم عليهم من حقّ.

وللبلاد حقوق عليكم فاجعلوا التي تعيشون فيها أرضاً للإيمان لطاعة الله وللإسلام وللتقوى، حاولوا أن تزرعوا فيها غراس الإسلام لتنمّوها بالإسلام من خلال ما تزرعونه في أنفسكم من الإيمان، وفي حياتكم من العمل الصالح، وفي أولادكم فيما تبنونه في قلوبهم وعقولهم وحياتهم من أسس الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ﴾(١). ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(٢). ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(٣). فلا تمكّنوا أحداً من أن ينشر الفتنة في بلادكم، لأنّ البلاد التي تخضع للفتنة سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو دينية، تسقط عند الفتنة ويسيطر عليها الظالمون. وحاولوا أن تعطوا بلادكم الحرية، ولا تمكّنوا أحداً من أن يستعبدها لأنّ استعباد الأرض يؤدّي إلى استعباد الإنسان، فالأرض الحرّة تحتضن الإنسان الحرّ، والإنسان الحرّ هو الذي يصنع للأرض حريتها كما يصنع للأرض إنسانيتها ليؤنسنها، بأن نعطيها نبض عقولنا ونبض قلوبنا. «فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ» فالله سيسألكم عن البقاع التي عشتم عليها أو كانت من ضمن مسؤولياتكم، فكيف تصرّفتم فيها؟ كيف نظّمتموها؟ وكيف حرّكتموها؟ «وَالْبَهَائِمِ» فأنتم مسؤولون حتىّ عن البهائم أن تسيروا بها وتتعاملوا معها بما أراد الله، ومن هنا تأتي مسألة الرفق بالحيوان، فإنّه يجوز لك بما رخّص الله لك أن تذبح الحيوان الذي يحلّ لك أكله، ولكن لا يجوز لك أن تعذّبه، ولا أن تؤذيه، ولا أن تجرّب عضلاتك فيه، ومن هنا فإنّ كثيراً ممّا يستعمله الناس الآن في عمليات مصارعة الثيران والديكة ومهارشة الكلاب وما إلى ذلك مما استحدثته الوثنيات الغربية في السابق وبقي حتىّ الآن غير جائز إسلامياً، فإنّ الله لا يريد الظلم

١ـ التحريم: ٦. ٢ـ طه: ٣٢. ٣ـ الشعراء: ٢١٤.

للحيوان كما لا يريد الظلم للإنسان، وتعذيب الحيوان ظلم، ولولا أنّ الله أجاز لنا أن نذبحه لتستمر الحياة من خلال ذلك، أو أنّ نقتله لندفع عن أنفسنا ضرره، لما جاز لنا ذلك.

«أَطِيعُوا اللَّهَ وَلاَ تَعْصُوهُ» فالخطّ هو خطّ طاعة الله وعدم معصيته. «وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ» أي تلمّسوا الخير في كلّ مكان.. تابعوه.. حدّقوا في مواقعه.. سواء كان الخير عندكم في بلادكم، أو كان عند الآخرين، «وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ». فكما بدأ الإمامعليه‌السلام بالخير والشرّ في أول خطابه فإنّه انتهى بهما أيضاً داعياً للأخذ بالخير من أي مكان انطلق وفي أي مجال سار، وتَرْكِ الشر أينما كان وكيفما كان.

كتاب الإمام عليعليه‌السلام إلى عماله على الخراج:

من كتاب لهعليه‌السلام إلى عمّاله علىٰ الخراج، والخراج هو عنوان للضرائب الإسلامية التي كانت تُفرض علىٰ الناس من خلال ما تملكه الدولة من الأراضي التي يأخذها الناس منهم ليزرعوها ويستثمروها. ومن الطبيعي فإنّ موظفي الضرائب غالباً ما يتميزون بالقسوة وبعدم مراعاة ظروف الناس ما يجعل هؤلاء ينظرون إليهم بطريقة سلبية، لذلك فإنّ علياًعليه‌السلام يحاول في هذا الكتاب أن يستثير إنسانيتهم في التعامل مع المكلّفين بدفع الضرائب بأسلوب إنساني.

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ» يبدأ كتابه بصفة العبودية لله لأنّه ـ كما كان رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله ـ يعيش العزّة والكرامة في معنىٰ عبوديته لله، فالإنسان كلّما كان عبداً لله أكثر كان حرّاً أكثر، ذلك لأنّك كلّما انفتحت على عبودية الله في معنىٰ الوحدانية، فإنك بذلك تكون حرّاً أمام العالم كلّه والناس كلّهم، ولذلك روي عنهعليه‌السلام في دعائه لله «**كفىٰ بيَ عزّاً أنّ أكون لك عبداً وكفىٰ بي فخراً أن تكون لي**

رباً أنت كما أحبّ فاجعلني كما تحبّ»(١). وعظمة علي عليه السلام أنّه اعتبر عبوديته لله سبحانه وتعالى مسؤولية، مما جعله يتحرّك ويفكّر دائماً أنّ عليه أن يتعامل مع الله تعامل العبد مع سيده، فالله عزّ وجل أراد له أن يجاهد فخضع وسار في خطّ الجهاد، وأراد له أن يقوم بمهمة الدعوة فدعا إلىٰ الله في خطّ هداية الناس إلى الحق، واراد له أن يصبر على ما واجهه من تحديات أبعدته عن حقّه، وعقّدت له موقعه، وواجهت مخططاته «فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا أَرَى تُرَاثِي نَهْباً»(٢) وعاش عبوديته لله الذي أراد له أن يحرّك فكره من خلال ما أعطاه من عقل، فأعطىٰ للإنسانية كلّها العقل الذي لا يزال الإنسان يتعلّم منه، وفرّغ قلبه من كلّ حقد فأحبّ الناس، وقال لكلّ إنسان يستمع إليه: «احْصُدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ»(٣). ليكن صدرك عامراً بالخير كلّه، مملوءاً بالحبّ كلّه للناس كلّهم ليجتذب قلوبهم إلى مواقع الإسلام كلّها.

الافتتاح بالموعظة:

ونعود إلى كتابه إلى عماله: «مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ»(٤) فهو يقول لهم إنني في موقع الخلافة والإمارة ولكنّني وأنا أمارس دوري فيها فما أنا إلاّ عبد من عبيد الله أطيعه فيكم وفي مسؤوليتي كلّها.

«إِلَى أَصْحَابِ الْخَرَاجِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا». ويبدأ كتابه بالموعظة فيقول إلى عمّاله إنَّ عليكم أن تفكروا في مصيركم بعد مسيرتكم هذه التي مهما أمتدت فإنّها لابدّ أن تبلغ شاطيء الآخرة

١ـ بحار الأنوار. ج٧٧. ص٤٠٢. ح ٢٣. ب ١٥.

٢ـ شرح نهج البلاغة: ج١. ب٣. ص١٥١.

٣ـ شرح نهج البلاغة: ج١٨. ب١٨٠. ص٤١١.

٤ـ نهج البلاغة: الكتاب ١٥.

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[١]. وعليكم أن تحذروا ما تصيرون إليه لأنّ هناك سؤالاً وثواباً وعقاباً، ولذا فمن لم يدرس أموره كلّها وأقواله وافعاله، وعلاقاته التي يفترض به أن يجعلها في الموقع الذي يرضي الله فإنّه لن يقدّم لنفسه ما يربح به نفسه بل ما سيخسرها ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ﴾[٢].

«وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ يَسِيرٌ وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ» مما أمر الله به ونهاكم عنه مقارناً بما رخّصه لكم في المباحات، فإنّكم ستجدون أنّ ما كلّفكم به يسير وأنّ ثوابه كبير، فلماذا تخسرون الكثير بعدم إتيان اليسير؟

«وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لاَ عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ» فهو يحاول بأسلوبه الاقناعي أن يفتح قلوب الناس على الطاعة، فهو يقول لهم لو افترضنا أنّ الله لم يعاقبكم على فعل ما نهاكم عنه لكنّه حدّثكم عن الثواب في اجتناب وترك ما نهاكم عنه، فلماذا تتركون هذا الربح في ثوابه الذي يمنحكم إياه على ترك ما نهاكم عنه مع أنّ فِعْلَ ما نهاكم عنه فيه عقاب؟ فلماذا تُنزل بنفسك العقاب وتخسر الثواب على ما اجتنبته من منهيات ومحرّمات، فبعض الناس يترك ذلك لأنّ فيه عقاباً، على طريقة ذلك الشاعر:

والعَبْدُ يُقْرَعُ بالعَصىٰ والْحُرُّ تَكْفِيهِ الإشارَةُ

فذهنيّته بعضنا هي ذهنية العبد الذي لا يتحرّك إلاّ والعصىٰ فوق رأسه، فلو لم يكن هناك عقاب علىٰ فعل ما نُهيت عنه لكان هناك ثواب في ترك ما نُهيت عنه وهذا بحدّ ذاته مدعاة إلى اجتناب المعاصي. وقد ذكر علي عليه السلام في عالم الطاعة لله قوله «لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللَّهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ» أي لو ترك الله الحبل للإنسان على غاربه

---

١ ـ الإنشقاق: ٦.   ٢ ـ الزمر: ١٥.

لكان حقّاً عليه أن يشكره «لَكَانَ يَجِبُ أَلاَّ يُعْصَى شُكْراً لِنِعَمِهِ». فالإنسان الذي يعيش إنسانيته بشكل سليم هو الذي يشكر المنعم، فلو خدمك شخص فهل يمكن أن تؤذيه؟ فكيف تفعل ذلك مع الله الذي لا تعدّ نعمه ولا تحصىٰ؟! ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾(١).

وقد قيل لرسول الله ﷺ لِمَ ترهق نفسك بالعبادة والصلاة وقد غفر الله من ذنبك ما تقدّم وما تأخّر؟ فقال «أفلا أكون عبداً شكوراً؟!» فالصلاة هي الشكر لله ولذا فإنّ من لا يصلّي لا يعيش معنىٰ إنسانيته لأنّه لا يشكر المنعم عليه، وأي منعم أعظم من الله الذي أعطاك وجودك وكلّ ما تستمر به في هذا الوجود.

إنصاف الناس:

«فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» قبل أن تقفوا للحساب أمام الله، فإذا كان للناس حق عليكم فلا تنتظروا الناس أن يطالبوكم به بل حاولوا أن تعطوهم ما لهم من حقّ من خلال محاكمتكم لأنفسكم بأنفسكم «وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ» فإذا أثقلكم الناس بحوائجهم فلا تجزعوا ولا تستثقلوا ذلك «فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ» لأنّكم تخزنون أموال الأُمّة في بيت المال لتُنفق في مصالحها، فبيت المال ليس ملكاً للخليفة ولا لأقربائه ولا للموظفين بل هو ملك للأُمّة كلّها ويُنفق في مصالحها، فهم يطلبون منكم ما يستحقونه من هذا البيت «وَوُكَلاَءُ الأُمَّةِ» أي أنّها جعلتكم وكلاء على ذلك لأنّها ولّت الخليفة وهو الذي ولاّكم على هذه المهمّة. «وَسُفَرَاءُ الأَئِمَّةِ» إلى الناس.

«وَلاَ تُحْشِمُوا أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ» أي لا تقعطوه «وَلاَ تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ» فإن كان له مطلب فأعطوه مما يستحق منه، فالإمام عليه السلام يعالج ظاهرة موجودة، فعمّال

١ـ النحل: ٥٣.

الضرائب يأتون للمكلّف بالضرائب فيطالبونه بدفع الضريبة وقد لا يكون معه شيء فيجبرونه على بيع فراشه أو أثاثه أو ما يحتاجه من الضروريات ليتُرك من دونها فكيف عالج الإمام ذلك ؟

«وَلاَ تَبِيعُنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاءٍ وَلاَ صَيْفٍ وَلاَ دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا وَلاَ عَبْداً» فلا تجبروا الناس على أن يدفعوا لكم ما فيه خدمة لهم «وَلاَ تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ» فإذا كان في ذمته شيء فلا يحقّ لعامل الضريبة أن يضربه ليعطي المال «وَلاَ تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مُصَلٍّ وَلاَ مُعَاهَدٍ» أي طالب الناس ولا تأخذ من أموالهم بالإكراه والأمر في ذلك سواء بين المسلم وبين المعاهد الذي أعطاه المسلمون العهد والذمّة والميثاق في أن يحموه فيما يحفظ المسلمون به أنفسهم.

«إِلاَّ أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلاَحاً يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الإِسْلاَمِ» فإذا وجدتم في عهدتهم خيلاً أو سلاحاً يمكن أن يستعمل ضد الإسلام فهذا عنوان ثان غير الخراج فانتزاعه فيه دفاع عن الإسلام والمسلمين «فَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الإِسْلاَمِ» ففي السياسة الإسلامية لا يجوز للمسلم أن يبيع سلاحاً أو ما يشبه لأعداء الإسلام مما يتقوّون به على المسلمين أو أن يبقي ذلك في أيديهم ما أمكنه ذلك، وهذه هي مشكلتنا مع تجار السلاح عندنا فهم لا يفهمون هذا المعنى ولذلك تراهم يبيعون السلاح لأعداء الإسلام ليستقووا به على المسلمين. «فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ» على الإسلام.

«وَلا تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً» أي حاولوا أن توجهوا النصيحة لأنفسكم «وَلا الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ» فلا تدخروا حسن السيرة مع الجنود الذين يدافعون عن الإسلام و«وَلا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً» فلا تدخروا معونة الناس «وَلا دِينَ اللَّهِ قُوَّةً» فإذا وُجدت عندكم قوة تبذلونها في دين الله فلا تحبسوها عنه «وَأَبْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا

اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ» أي في كلّ طريق يصل بما يحبّه الله ويرضاه ولا سيما في الجهاد «فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا» أي أن الله طلب منا أن نشكره في قبال صنيعه معنا بأن نبذل جهدنا في سبيل مرضاته، فإنّ كلّ إنسان يبذل قوته وطاقته وجهده وخبرته فيما يريده الله سبحانه وتعالى من آيات وأهداف فإنّ ذلك يمثل شكراً عملياً له «وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ». ولاحظوا كيف يتعامل عليعليه السلام مع عماله في أداء مسؤولياتهم ووظائفهم بأن يعظهم كيما يفتح قلوبهم على الله وان يحذّرهم الآخرة وأن يعيشوا إنسانيتهم في إنسانية الناس وأن لا يضطهدوا إنسانية أحد من مسلم أو معاهد، وهذه هي رسالته إلى كلّ عمّاله وإلى كلّ الموظفين، فأين الموظفون من رسالة عليعليه السلام ؟

خطاب الإمام عليعليه السلام لقادة الجيوش:

ومن كتاب لهعليه السلام إلى أمرائه على الجيوش، نجد كيف كان يخاطب قادة الجيوش التي يبعثها للقتال: «مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ» وأمير المؤمنين هي الصفة الرسمية، أمّا صفة العبودية لله سبحانه وتعالى فهي من أجل أن يوحي إليهم أنّه يعيش عبوديته لله حتىٰ وهو يحكم الناس ويمارس الإمارة عليهم، حتىّ لا يتصوّر النّاس أنّ الإمارة ترتفع به عن مواقع العبودية كما الكثيرون من النّاس الذين إذا تأمّروا على النّاس وحكموهم فقدوا إحساسهم بمعنىٰ عبوديتهم لله، فخيّل إليهم أنّ لهم شيئاً من الألوهية بحيث يعيشون أرباباً للناس لا أخواناً لهم واما كلمة «أمير المؤمنين» فهو الموقع الذي يجعله مسؤولاً عنهم ويجعلهم مسؤولين أمامه لأنه إذا كان أميرهم فهذا يعني انه مسؤول عن رعايتهم وحفظ نظامهم وإذا كان الأمر كذلك فعليهم أن يطيعوه وهذا ما بيّنه لهم.

«إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ» مواقع السلاح ومسؤولي حركته في خطّ المواجهة «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ حَقّاً عَلَى الْوَالِي أَلاَّ يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ» أي أن لا يتكبر ولا يتجبر ولا ينظر إلىٰ رعيته من فوق، بل عليه أن يعتبر ولايته مسؤولية بحيث يشعر بثقلها أكثر مما يشعر بشرفها. فالولاية علىٰ الناس هي مسؤولية وتكليف وليست تشريفاً يضخّم للإنسان ذاته، «وَلا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ» والطَول هو القوّة والامتداد في السلطة «وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً مِنْ عِبَادِهِ» بحيث كلّما أعطاه الله نعمة أكثر وقوة أكثر، قرب من النّاس أكثر، لا أن يبتعد عن النّاس كما يبتعد الذين يعيشون في الأبراج العاجية عندما يملكون سلطة أو غنى أو ما إلى ذلك «وَعَطْفاً عَلَى إِخْوَانِهِ» أي أن ينطلق الوالي والحاكم والأمير ليعيش العطف على النـاس، ولاحظوا كيف يعبّر عليه السلام عن النّاس الذين يتحمّل مسؤوليتهم بأنّهم إخوانه، وهذا الخطّ لا يقتصر في إيحاءاته الإسلامية الأخلاقية على من يملك السلطة العليا، بل إنّه يتحرّك في أية سلطة يملكها الإنسان علىٰ الآخرين سواء في الدائرة الصغيرة أو الوسطىٰ أو القضايا الإدارية والسياسية والاجتماعية والعسكرية، بأن تعيش في نفسك الإحساس بأخوّة النّاس الذين هم في مواقع مسؤوليتك وأن تـعطف عليهم.

وقد صوّر لنا سبحانه وتعالىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا العمق الإنساني في إحساسه بالمؤمنين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ـ كما تحرص الأمّ علىٰ أولادها ـ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1] وهذا ما تعلّمه عليّ عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله، فإذا بلغت بك الدنيا موقعاً عالياً فلا تبتعد عن النّاس بل اقترب منهم، بحيث لو أنّهم لم يصلوا إلىٰ ما أنت فيه فعليك أن تتنازل لتصل إليهم.

١ـ التوبة: ١٢٨.

ولعلّنا نستوحي هذا المعنىٰ من بعض الأدعية، ألا نقرأ: «**فإن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فرحمتك أهل أن تبلغني وتسعني لأنّها وسعت كلّ شيء**» فقد لا أكون يا ربيّ في مستوى أعمالي بحيث أصعد إلى رحمتك لألتصق بها، ولكنّ رحمتك التي وسعت كلّ شي تفيض وتمطر على كلّ النّاسُ كما ينطلق المطر من الأعالي على الأرض ليعطيها الخصب والرخاء.

«**أَلاَ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلاَّ أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرّاً إِلاَّ فِي حَرْبٍ**» أي سوف لن أتعامل معكم بطريقة المخابرات بحيث لا تعرفون من أمر الدولة شيئاً وأنتم المسؤولون في بعض مواقعها، بل لكم عليّ أن أتعامل معكم في شؤون الدولة خاصّة في ما يتعلّق بمسؤولياتكم الخاصّة على قاعدة الوضوح في الأمور المتعلّقة بها بحيث تتعرّفون خفاياها وأسرارها، وأمّا أسرار الحرب فلأنّها تفرض الكتمان في بعض الخطط حتىٰ بالنسبة للمسؤولين عنها وأنّ كشفها قبل أن يأتي وقتها قد يعطّل الخطّة.

« **وَلا أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً**» فالأمور مبسوطة كلّها بين أيدكم « **إِلاَّ فِي حُكْمٍ**» لأنّ الحاكم سواء كان في موقع القضاء أو في موقع إدارة الدولة لا بُدَّ له أن يحافظ على السرية في أوضاع النّاس الذين يتنازعون ويختلفون وتتحرّك الإدارة في مواجهة قضاياهم، ولذلك ففي هذه الحالة قد أحتجز بعض الأمور عنكم حفاظاً عليها، وأمّا خارج هذا النطاق فلا أطوي دونكم أمراً إلاّ في حكم «**وَلا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مَحَلِّهِ**» بل تأخذون حقوقكم كلّها في مواقع الحق كلّها من دون تأخير «**وَلا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ**» أي دون الحدّ الذي أقطع به أن يكون لكم بل أقف فيما لكم من حقّ عند مقاطع الحقّ ومفاصله «**وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً**» فلا طبقية، فالعسكر في ذلك سواء القائد والضابط والجندي، فعندما تكون المسألة مسألة حق فإنّ الله لا يميّز أحداً عن أحد في الحقّ، فصاحب الحقّ يأخذ حقّه سواء كان صغيراً أو كبيراً، ولذا ورد في كلام عليّ عليه السلام عندما تحدّث في أول

خلافته «القويّ العزيز عندي ضعيف ذليل حتىّ آخذ منه الحق، والضعيف الذليل عندي قويّ عزيز حتى آخذ له بحقّه» فالحقّ أقوى من كلّ أشكال الطبقية والدرجات العليا.

«وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ» لأنّ النّاس عندما يعيشون مع إمام عادل ومع نظام يتحرّك بالعدل ويحترم إنسانية النّاس فلابدّ لهم أن يشكروا نعمة الله، فأيّة نعمة أعظم من أن يعيش الإنسان في دولة ينتشر فيها العدل والأمن ويعيش النّاس فيها إنسانيتهم، ويتعاونون من خلالها علىٰ طاعة ربهم؟.

«وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ» ولا حظوا كيف يجعل الإمام عليه السلام المسألة متبادلة بين الراعي والرعية، فالوالي لا يطلب من الرعية أن تطيعه إلاّ بعد أن يأخذ علىٰ نفسه الميثاق والعهد بأن يقوم بكلّ مسؤولياته فيما لهم من حقوق، ولذا قال: «فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ» أي إذا لم أفعل فلا حقّ للطاعة عليكم.

«وَأَلاَّ تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ» أي أن لا تتراجعوا عن دعوة أدعوكم إليها في الخطّ الذي ذكرته لكم «وَلا تُفَرِّطُوا فِي صَلاَحٍ» فيما يصلح أمر الأمّة من خلال مسؤولياتكم فيما يصلح أمركم. «وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ» أي أن تتحملّوا الأثقال والمصاعب وأنتم سائرون إلى الحقّ، فالحقّ لا يقوم إلاّ علىٰ يد الذين يجاهدون في سبيله ويتحملّون المشاق والآلام في سبيله.

«فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا» أي أنّكم إذا أخذتم السير في خطّ الانحراف وتركتم خط الاستقامة «لِي عَلَى ذَلِكَ» على ما أردته منكم من الطاعة «لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ مِنْكُمْ». وهنا نلاحظ كيف أن الإمام الذي يريد أن يتحمّل المسؤولية في قمع كلّ الانحرافات التي تُسقط الدولة وتوقع النّاس في حالة الارتباك والاضطراب، يتكلّم بلغة القوّة «ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ» فالقضية ليست

قضية شخصية «وَلا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً» فسأطبّق عليه القانون مائة في المائة فلا أرخّص لأحد منكم أو من غيركم في مخالفة النظام العام تحت أيّ اعتبار من اعتبارات المداهنة والمجاملة، لأنَّ المسألة هي مسألة حدود الله ومصالح النّاس وموقع المسؤولية عندي.

«فَخُذُوا هَذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ» أي طالبوا أمراءكم بهذا البرنامج «وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ وَالسَّلاَمُ».

كتاب الإمام علي عليه السلام إلى الحارث الهمداني:

كان الإمام علي عليه السلام يتحسّس مسؤوليته عن توعية الناس، فلم تكن علاقته بأصحابه أو بولاته في فترة حكمه علاقة رسمية، بل كانت علاقة رسالية، ولهذا فإننا نجده عندما يعيش مع جمهوره يغتنم كلّ فرصة ليخطب فيهم، وليتناول كلّ القضايا التي تتحرك بشكل ضبابيّ في المجتمع ليعالجها بوحي من مسؤوليته الرسالية، وليحلّها عندما تتحوّل إلى مشكلة. وكان يكتب إلى ولاته وإلى أصحابه ليرفدهم في كلّ ما يمارسونه من ولايتهم عنه في حكم الناس لينقد أنحرافاتهم إذا انحرفوا وليبلور لهم الفكرة عندما تشتبه عليهم الأمور، وليتابعهم في قضاياهم كلّها ليخطّط لنظام إداري هنا، أو لخطوط حركية هناك حتىّ يكونوا صورة عنه في الرفق بالأمّة، وبالعدل فيها يحكمون.

التمسّك بالقرآن:

يقول عليه السلام مخاطباً الحارث: «وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ»[1] كما يتمسّك كلّ إنسان بالحبل عندما يريد أن يثبّت نفسه في مواقع السقوط والاهتزاز، وقد عبّر

١ـ نهج البلاغة: الكتاب ٦٩.

رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين عن القرآن بقوله: «إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي». فالقرآن حبل ممدود من السماء إلى الأرض لأنّه وحي الله من السماء التي تمثّل موقع العلو، وإلاّ فالله تبارك وتعالى لا تحويه سماء ولا أرض لأنّه فوق الزمان والمكان.

فالإمام عليه السلام يوصي الحارث بأن يتخذ القرآن القاعدة التي يرتكز عليها فيقول له انفتح عليه وليكن تمسكك بالقرآن بأن يمثل لديك القاعدة الفكرية التي يمكنك أن تنفذ إلى كلّ جذورها وأسسها من أجل أن تصنع لنفسك الفكر الذي ينفتح عليه عقلك، لأنّ الله أودع في هذا القرآن قاعدة الفكر للإنسان بحيث يتحرّك من خلاله إلى كلّ تفريعاته.

«وَاسْتَنْصِحْهُ» فإذا عشت مشكلة فافتح القرآن وأنظر كيف ينصحك في حركة الحلّ لهذه المشكلة، وعندما تريد أن تدخل في مشروع أو تسلك طريقاً أو تؤيّد شخصاً أو جهة أو ترفضهما، وعندما تطلب النصيحة فيما يطلبه الناس من الناصحين، فالقرآن خير ناصح فاستنصحه في آياته كلّها ففيه كلّ النصيحة بشرط أن تعيَ القرآن وعي تدبّر وتعمّق لا وعي استهلاك سطحي كما يفعل الذين يستهلكون القراءة القرآنية ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١].

«وَأَحِلَّ حَلاَلَهُ وَحَرِّمْ حَرَامَهُ» فالقرآن هو كلمة الله، وهو شريعته، ولذلك فإن عليك أن تلتزم القانون القرآني بأن تحلّ ما أحلّه وأن تحرّم ما حرّمه، وأن لا تلجأ إلى شريعة أخرى غير القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٢].

١ـ محمد: ٢٤. ٢ـ الاحزاب: ٣٦.

التصديق بالحقّ:

«وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ». لأنّ الله سبحانه وتعالى إنّما أكّد الحقّ في رسالته لأنّ الحق هو الثبات الذي يمثل الرسالات كلّها، فهي ـ أي الرسالات ـ لا تختلف في الحقّ الذي يجمعها إن في حق التوحيد أو في حقّ اليوم الآخر أو في حق المفاهيم التي تؤصّل للإنسان إنسانيته وتفتح له الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، ولكنّ الفرق بين رسالة ورسالة هو فرع هنا وفرع هناك ﴿وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[1]. كما جاء على لسان عيسى عليه السلام: و«إنّما بعثت لأتممّ مكارم الأخلاق». كما جاء على لسان الرسول صلى الله عليه وآله. ولذلك فإنّ القرآن ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[2] و﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[3]. لأنّ كلّ رسول جاء بالحقّ.

الإعتبار بالماضي:

«وَاعْتَبِرْ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا» فإذا أردت أن تفهم الدنيا فيما تستقبل فانظر إليها فيما مضى عنك لأنّ السنن التأريخية التي أودعها الله في حركة المجتمعات من هزيمة وانتصار ونجاح وفشل وحياة وموت هي السنن الثابتة فيما أقام الله عليه الدنيا، ولذلك فقد يختلف المستقبل عن الماضي في بعض التفاصيل ولكنّهما ينطلقان من قاعدة واحدة وسنّة واحدة في القواعد العامّة التي تحكم حركة الإنسان في الزمن ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[4]. ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾[5].

«فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضاً وَآخِرَهَا لاَحِقٌ بِأَوَّلِهَا». وهكذا نرى كيف تنطلق

١ـ آل عمران: ٥٠. ٢ـ الأنعام: ٩٢. ٣ـ البقرة: ٢٨٥.
٤ـ الأحزاب: ٦٢. ٥ـ فاطر: ٤٣.

المسيرة الإنسانية.. جيل يمضي وجيل يأتي وما يجري على الجيل الآتي فيه الكثير مما جرى على الجيل الماضي.

«**وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ**» أي أن كلّ ما في الدنيا زائل وهو مفارق الناس الذين يعيشون فيه.

تعظيم لفظ الجلالة:

«**وَعَظِّمِ اسْمَ اللَّهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلاَّ عَلَى حَقٍّ**». فلا تبتذلوا اسم الله، ولا تجعلوا اسم الله عرضة لأيمانكم، فإنّ الحلف بالله يمثل عنواناً من أخطر العناوين، لماذا؟ لأنّ معنى أن تحلف بالله على خبر تنقله، أو تحلف به على شيء تفعله هو أنّك تجعل الله شاهداً على ما تخبر به، فإذا كان ما تخبر به زوراً وباطلاً فإنّك تأتي بالله شاهد زور، وإذا كنت لا تقبل أن يؤتى بك كشاهد زور لأنّ ذلك يمثل انتهاكاً لحرمتك وإسقاطا لموقعك فكيف بك وأنت تأتي بالله شاهد زور سواء كنت تخبر عن شيء في غير حالة الشهادة أو كنت تخبر عن شيء في موقع الشهادة. وقد ورد في الحديث «**إنّ اليمين الكاذبة تضع الديار بلا قع**»أي قفراء، فيما تنتجه هذه الشهادة من نتائج سلبية على الإنسان وعلى الآخرين وكأنّك فيما تحلف بالله تغري الآخر أن يثق بك باسم الله، وكأنّك تقول بأنّ الله يشهد عليّ أنني سأفعل ذلك، فإذا كنت عازماً أن لا تفعل فكيف تأتي بالله لتوثّق التزامك بعهدك ووعيك باسم الله؟ إنّ ذلك يمثّل نوعاً من عدم التعظيم لله سبحانه وتعالى، حتىّ أنّ بعض الآثار الدينية تقول: «**لا تحلف بالله صادقاً ولا كاذباً**».. وينقل عن إمامنا الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام أن امرأة من نسائه طلّقها ولم تكن في مستوى المسؤولية فادّعت عليه مالاً ولم تكن لديها بيّنة وقدّمته إلى القاضي وأقتضت الدعوى أن يحلف الإمام عليه السلام على نفي ما طلبته وهو مئتا دينار، فقال لولده الإمام محمد الباقر عليه السلام: يا بني أعطها مائتي دينار، فقال: يا أبتاه ألست صادقاً في نفي ذلك؟ فقال: بلى: ولكنّي «**أجللت الله أن أحلف به يمين صدق**». أي لا أريد أن أقحم الله

سبحانه وتعالى في نفي ما تدّعيه هذه المرأة وإن كان ذلك يوجب خسارتي، فإنني أريد أن أشهد الله بأنّني أكرم اسمه فلا أقحمه في هذه الدعوى.

الإكثار من ذكر الموت:

«وَأَكْثِرْ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ». فهل يريدنا الإمامعليه‌السلام في هذه النصيحة أن نموت قبل أن نموت؟ وهل يريد منّا أن يضع كلّ واحد منّا قبره وأجله أمامه ليعيش حالة اليأس من الحياة أو الإحساس بأنّه سوف يموت اليوم أو غداً فيمنعه ذلك من الانفتاح على الحياة في قضاياها وصراعاتها ومشاريعها؟

إنّ الإمامعليه‌السلام فيما نفهمه من كلامه لا يريد ذلك لأنَّه يعرف ـ وهو الذي علّمنا مما علّمه الله ورسوله ـ بأن الحياة مسؤوليتنا، وأنّ علينا أن نندفع إلى الحياة في نطاق المسؤولية لنبنيها على ما أراد الله سبحانه وتعالى الذي جعل الإنسان خليفته في الأرض من أجل أن يحقق هذا الهدف، والإمامعليه‌السلام يقول: «**اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**». أي اعمل لدنياك كما لو لم يكن هناك موت أبداً، وخطّط لمشاريعك على أساس الاستمرار من دون انقطاع، ووازن بين المسؤولية وبين الحركية، بأن تكن حركيتك منفتحة على الزمن كلّه في التخطيط لنجاح مشروعك، وفي نطاق إحساسك بالمسؤولية في كلّ خطوة تخطوها، فالإمام عليعليه‌السلام يريد الإكثار من ذكر الموت وذلك بأن نعيش المسؤولية في حياتنا، لأنّ الإنسان عندما يعيش طول الأمل وينسى الموت فإنّه يفقد إحساسه بالمسؤولية في الحياة، وقد ورد عن النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله «**إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: الهوى وطول الأمل، أمّا الهوى فيصدّ عن الحقّ وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة**».

ويقول في حديث آخر: «**إنّ القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد، قالوا: يا رسول الله وما جلاؤها، قال: قراءة القرآن وذكر الموت**» كلّ ذلك من أجل أن

يستعدّ الإنسان لما بعد الموت وهو لا يزال على قيد الحياة.

ويمضي الإمام عليه السلام قائلاً: «وَلا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إلاَّ بِشَرْطٍ وَثِيقٍ» فلا تتمنّ الموت عندما تضغط عليك الحياة، ولا تتمناه عندما تزحف إليك عناصر الفشل والإحباط، إلاّ إذا كنت تملك الحجّة لنفسك أمام الله في يوم القيامة، فإذا عرفت بأنّ كتابك مليء بالحسنات، وأنّ السيئات لا تمثّل شيئاً كبيراً في كتابك عندما يقول لك ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[١].

وعندما تقف أمام الله لتقدّم حسابك ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾[٢]. عند ذلك يمكن أن يرحّب الإنسان بالأجل، ولذلك فقد تحدّى الله اليهود في سورة (الجمعة) لأنّهم كانوا يعتبرون أنفسهم أولياءه وأحبّاءه، فقال لهم ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[٣].

وقد ورد في دعاء (مكارم الأخلاق) عن الإمام زين العابدين عليه السلام «**وعمّرني ما كان عمري بذلة في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ، أو يستحكم غضبك عليّ**»[٤] ويقول عليه السلام في دعاء (يوم الثلاثاء): «**واجعل الحياة زيادة لي في كلّ خير والوفاة راحة لي من كلّ شرّ**». ويقول الشاعر:

ولو أنّـا إذا مـتنا تُـرِكنْا ... لكانَ الموتُ راحة كلِّ حيِّ
ولكـنّا إذا مِـتنا بُـعثِنْا ... ونُسألُ بعدَهُ عَنْ كلِّ شـيءٍ

١ـ الإسراء: ١٤. ٢ـ النحل: ١١١. ٣ـ الجمعة: ٦ ـ ٧.
٤ـ الصحيفة السجادية: ص٨٢. د٢٠. دعاؤه في مكارم الأخلاق: س٦ ـ ٨.

إجعل نفسك ميزاناً:

«وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ وَيُكْـرَهُ لِـعَامَّةِ الْـمُسْلِمِينَ». فـربما يرضى بعض الناس لأنفسهم أعمالاً معينة لأنّها تعطيهم فـرصاً للـحياة ومكسـباً وربحاً ولكنّه لا يريد لعامّة المسلمين أن يحصلوا على ذلك، وهذه هي الأنانية التي تجعل الإنسان يعيش في سجن ذاته ويفصل نفسه عن المسـلمين فـي تـمنياته وأحلامه وتطلّعاته وكلّ ما يخطّط له، وهذا ليس مـن شأن المسـلم. «لا يـؤمن أحدكم حتىّ يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه ويكره له ما يكره لها». ويقول علي عليه السلام في وصيتّه لولده الحسن عليه السلام: «يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفسِكَ وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا».

حاذر من الأعمال المخجلة:

«وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ وَيُسْتَحَى مِنْهُ فِي الْعَلاَنِيَةِ». والإنســان غالباً ما يلجأ إلى الأعمال السرية القبيحة والمنحرفة فيما يخجل من القيام به في العلانية، ولا يملك أن يقدّم عذراً ولا حجّة عليه، لذلك يقول الإمام عليه السلام لا تعمل الأعمال القبيحة التي لو ظهرت إلى الناس لخجل صاحبها منها، ولتكن علانيتك وسّرك في العمل الذي تعمله بمنزلة سواء.

«وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ أَوْ اعْـتَذَرَ مِـنْهُ». فـلا تـعمل الأعمال التي يُعتذَر منها لأنّك بذلك تضع نفسك في مواقع الذلّ. وقـد ورد فـي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام «إنّ الله فوّض إلى المـؤمن أمـوره كـلها، ولم يفوّض له أن يذل نفسه. قالوا: وكيف يذلّ نفسه؟ قال: يدخل فيما يعتذر منه». لأنّ موقف المعتذر وهو موقف الندم يمثّل موقف الذلّ أمام الآخرين، وقد ورد في الحديث في الفرق بين المنافق وبين المؤمن «إنّ المـنافق يسـيء ويـعتذر وأنّ

المؤمن لا يسيء ولا يعتذر». لذلك كلّه جاء النهي في الحديث عما يُعتذر منه «إيّاك وما يُعتذَر منه».

صن عرضك:

«وَلا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضاً لِنِبَالِ الْقَوْلِ» فالعرض يمثّل كرامة الإنسان وسلوكيته وكلّ معنى الكرامة في حياته، فلا تعمل الأعمال السيئة التي تجعلك هدفاً لسهام ونبال الناس باعتبار أنّها الأعمال التي تغري الآخرين بالنقد والانتقاص منك، أي أنَّ ذلك كناية عن جعل النفس في موقع العمل الذي لا يملك أحد أن ينقده بلحاظ العناصر السلبية الموجودة فيه.

لا تحدّث بكل ما تسمع:

«وَلا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِباً» فالإنسان يسمع في كلّ يوم، من الناس أو الإذاعات، كلاماً كثيراً، ولكن ليس كلّ ما يسمعه هنا وهناك صدقاً، فقد يحدّثك الناس بالكذب، وقد تحدّثك الأجهزة الإعلامية بالكذب فحاول أن تغربل ما سمعته وتحدّث الناس بما ثبت لك صدقُه ولا تحدّثهم بكلِّ ما سمعت لأنّ بعض ما سمعت قد يكون كذباً، وبذلك يكون حديثك حديث الكذب ولو ببعض مفرداته.

تكذيب كلّ المسموعات جهل:

« وَلا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلاً». فقد يحدّثك الناس بالكثير من أمور السياسة والاجتماع والاقتصاد والأمن وغيرها، وربّما يبادر البعض من الناس إلى تكذيب كلّ ما يسمعه، وهذا جهل، فليس من الضروري أنّ كلّ ما يحدّثك به الناس كذب كلّه، فقد يكون فيه بعض الصدق، فلابدّ لك أن تدقّق في أحاديثهم فقد ترى فيها بعض الصدق وربما ترى فيها بعض

الكذب، لتصدّقهم فيما ثبت لك صدقه ولتكذّبهم فيما لم يثبت لك صدقه، فقبل أن تحكم على ما سمعت دقّق فيه لتميّز الصادق من الكاذب ولا تشمل في التكذيب كلّ ما حدّثك الناس به فلعلّ فيه بعض الصدق.. كن الدقيق في حكمك ولا تنطلق في أحكامك من موقع انفعالاتك أو هواجسك، ولا تكن الإنسان الذي يصدّق كلّ شيء يسمعه، أو يكذّب كلّ شيء يسمعه.

كظم الغيظ:

«وَاكْظِمِ الْغَيْظَ» لأنّ ذلك يمثّل قوة الإرادة على ضبط انفعالاتك، فالغيظ عندما يفور في نفسك ويتفجّر فقد يقودك إلى ما لا تحمد عقباه، وقد يجعلك تتحرك من موقع غريزتك لا من موقع عقلك، لأنّ الإنسان إذا ثار غيظه سكت عقله ذلك، لأنّ الغيظ يمنع العقل من الانفتاح، وقد جعل الله كظم الغيظ من صفات أهل الجنّة ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

التجاوز عند المقدرة:

«وَتَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ» فلا تجعل نفسك تتعقّد بالغيظ بل حاول أن تعفو فالتجاوز عند المقدرة يمثّل قوة الموقف، فعندما تعفو من موقع القدرة فإنّ الآخر لا يعتبر عفوك ضعفاً بل يعتبره حلماً.

الحلم عند الغضب:

«وَاحْلُمْ عِنْدَ الْغَضَبِ» فإذا غضبت فليتسع صدرك، وكن حليماً تنفتح على

١ـ آل عمران: ١٣٣.

القضية من موقع التفكير الهادىء الذي يتلقّى الأمور بصدر رحب ليعالجها بحكمة ورؤية.

الصفح من موقع السلطة:

«وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ» والدولة كناية عن السلطة والقوة، فإذا كنت صاحب سلطة فحاول أن تصفح عندما يمثّل الصفحُ الخطَّ الأخلاقي الذي ينسجم مع مصلحة المجتمع، «تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ» الحسنة. فالذين يعفون ويصفحون لابدّ أن ينالوا النتائج الطيبة عند الله وعند الناس.

استصلاح النعم:

«وَاسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللَّهُ عَلَيْكَ» فإذا أنعم الله عليك بأي شيء سواء كان مالاً أو جاهاً أو علماً أو عافية، فحاول أن تحافظ على هذه النعمة ولا تهملها، بل حاول أن تستصلحها وتنمّيها وأن تعمل على تقوية عناصرها كلّها.

«وَلا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عِنْدَكَ» بل حافظ عليها لأنّها تمثّل كرامة من الله لك، وعليك أن لا تضيّع كرامة الله، وعليك أن تعمل على تحريكها فيما يريده الله ولا سيما أن هناك نقطة تجدر ملاحظتها وهي أنّ كلّ نعمة وضع الله إلى جانبها المسؤولية، وكلّ نعمة ينعم الله بها على الفرد تكون أمانة عنده للجماعة لأنّ الجماعة ليست شيئاً مستقلاً، فالمجتمع ليس شيئاً معلّقاً في الفضاء، فهو أنا وأنت والآخرون، والأمّة هي أنا وأنت والآخرون، فقوّة الأمة هي في قوة أفرادها كلّهم وطاقة المجتمع في طاقات أفراده، فعليك أن لا تعتبر أنّ ما أعطاك الله من مال أو عمل أو قوة هي ملكك الذي تتصرف به كما تشاء، بل هي ملكك وملك المجتمع الذي أنت جزء منه، فلست حرّاً أن تحبس علمك عن المجتمع، ولا أن تحبس ما

فَضُل من مالك ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[١]﴿وآتوهُمْ مِنْ مالِ الله الذي آتاكُمْ﴾[٢]. ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[٣]. فعلمك لك وللأمة، وطاقتك لك وللأمة، وجَاهُك كذلك.

«وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ»[٤] فالله يحب لك أن تحدّث بنعمه ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٥]. لتظهر نعمة الله عليك دون خيلاء ودون تكبّر ودون استعراض يقهر الآخرين في نفسيّاتهم، كما فعل قارون مع قومه حينما خرج عليهم بزينته فتمنّى بعضهم أن يكون لهم مثل ما لقارون من مال.

العناية بالأهل:

«وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ». أي أن تجعل من أهلك الخلية الاجتماعية التي تنفع الناس.. ربّهم على الخير والعلم والوعي والتقوى والعطاء والصلاح كلّه، فإنّ ذلك يمثّل أفضل ما تقدّمه من خلال نعمة الأهل التي وهبك الله إيّاها، لأنّك مسؤول عن أن تهيأ من أهلك للمجتمع ما يحميه وينفعه، فإذا أهملت ذلك فقد تُقدّم للمجتمع مجرماً، وذلك عندما يتطوّر إهمالك لأهلك إلى أن يصل إلى مستوى التحرّك في طريق الإجرام، وقد تُقدّم للمجتمع كافراً أو ضالاً أو منحرفاً، وقد ورد في الحديث «إن ابن آدم إذا مات انقطع الاّ من ثلاث: صدقة جارية وورقة علم يُنتفع بها وولد صالح»[٦]. وربّما تتسع كلمة الصلاح هنا إلى الأخ الصالح والقريب الصالح والزوج الصالح، والزوجة الصالحة،

١ـ الذاريات: ١٩. ٢ـ النور: ٣٣. ٣ـ الحديد: ٧.

٤ـ الكتاب ـ موضوع المحاضرة ـ من (نهج البلاغة) إصدار (رابطة أهل البيت عليهم السلام الإسلامية العالمية (وابل). ص١٢٩ (من كتاب عليه السلام إلى الحارث الهمداني).

٥ـ الضحى: ١١. ٦ـ أصول الكافي: ج٢. ص١٥٦. ب٢٣. ح٩.

لأنّ الله أراد لنا أن نصلح الخلية العائلية في كلّ مفرداتها، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ﴾[١]. وقال تعالى ﴿وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عَلَيْها﴾[٢]. وقال لنا إذا أصلحتم أهلكم: الأب والزوجة والولد فإنّه سوف يجمعنا غداً في دار قدسه ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[٣].

وقد ورد في الحديث «عن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله عليه السلام: مر عيسى بن مريم عليه السلام بقبر يعذّب، فقال: يا ربّ مررت بهذا القبر عام أول فكان صاحبه يعذّب ثمّ مررت به العام، فإذا هو ليس يعذّب» يا ربّ هذا لم يعمل عملاً صالحاً فإذا كان يستحق العذاب فكيف رفع عنه؟ وإذا كان لا يستحقه فكيف عذّب؟ «فأوحى الله عزّ وجل إليه يا روح الله إنه أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً وآوى يتيماً فغفرت له بما عمل ابنه»[٤] فأن تقدّم من أهلك، أن تجعلهم عناصر خير للمجتمع.

تقديم المال:

وأمّا أن تقدّم من مالك فأن تنفق ما يَفْضُل منه على من يحتاج إليه مما جعله الله حقّا لازماً، أو مما جعله الله حقّاً مستحبّاً ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ﴾[٥]. ﴿وآتوهم من مالِ الله الذي آتاكم﴾[٦]. ولذلك فإنّ الإمام عليه السلام يجمع المسؤولية للإنسان الذي يريد أن يرتفع إلى الأعالي فيقول له إنّ

١ـ التحريم: ٦. ٢ـ طه: ٣٢. ٣ـ الرعد: ٢٣ ـ ٢٤.
٤ـ بحار الأنوار: ج٦. ص٢٢٠. ح١٥. ب٨. ٥ـ الذاريات: ١٩.
٦ـ النور: ٣٣.

الارتفاع إلى الدرجات العليا ينطلق من إحساسك بالناس في كلّ قضاياهم، وأن لا تعيش في زنزانة نفسك لتتصوّر أنّ ذاتك تختصر العالم كلّه، ولكن عش مع الناس وفكّر كيف تستطيع أن تجعل من حياتك حركةً تنفّس عن همومهم وتقضي حاجاتهم.

وهناك حديث للإمام علي بن موسى الرضاعليه السلام حيث سأله شخص: «**مَنْ أحسن الناس معاشاً؟**» ولو طُرح هذا السؤال علينا لأجبنا أنّه ذاك الذي يملك بيتاً وزوجة وأولاداً ووظيفة وسيارة وصحّة وعافية، فالتفكير ينصبّ على المسائل المادية والحاجات الذاتية، ولكن الإمامعليه السلام ككلّ أئمة أهل البيتعليهم السلام وكما هو رسول اللهصلى الله عليه وآله وكما هو القرآن في تعاليمه كلّها يقول: «**مَنْ حَسُن معاشُ غيره في معاشه**» فأحسن الناس معاشاً هو من إذا عاش مع الناس ازدادوا علماً من علمه، ومالاً من ماله، وحركة من حركته وحرية من حريته، وجهاداً من جهاده، بحيث يكون واقع الأمة قبل دخوله الحياة على صورة ما، وبعد أن يدخلها تتبدّل إلى ماهو أرفع وأعظم. «**قال: ومن أسوأ الناس معاشاً؟ قال: من لم يعش غيره في معاشه**». أي ذاك الأناني الذي يعيش لنفسه ولا يعيش للآخرين.

إعرفوا أهل البيتعليهم السلام:

وثمة تعليقة على الهامش، فإذا أردتم أن تعرفوا أئمة أهل البيتعليهم السلام في آفاقهم كلّها وإنسانيتهم المنفتحة على الإنسان كلّه.. إعرفوهم من خلال هذه الكلمات، حيث ورد عن الإمام الرضاعليه السلام نفسه قوله: «**أحيوا أمرنا رحم الله من أحيا أمرنا، قيل وكيف يُحيي أمركم؟ قال: يتعلّم علومنا ثمّ يعلّمها للناس، فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لا تبعونا**»(١). وعندما تزورونهم لا تقفوا فقط عند

١ـ بحار الأنوار: ج٧٤. ص٣٥١. ح٢٠ ب٢١.

حدود الزيارة المكتوبة بل عليكم أن تزوروهم بكلّ ما تحفظونه، من كلماتهم وأن تقفوا أمام أضرحتهم لتسترجعوا سيرتهم وحياتهم ووصاياهم، وبذلك تكون الزيارة زيارة ثقافية وفكرية وروحية وعملية لا أن تخرجَ من الزيارة كما دخلتَ أي مجرد أن تطلب الحسنات من دون أن يدخل في عقلك وقلبك شيء من نور عظمتهم.

فعندما نزور السيدة زينب عليها السلام التي رزقنا الله جوارها وزيارتها فعلينا أن نتصوّر بطولتها الروحيّة والسياسيّة والفكريّة حتىّ يمتلأ عقل الزائر بالسيدة زينب عليها السلام لا أن يقرأ زيارة مفجعة ليبكي قليلاً، وإن كان للبكاء معناه، ولكنّ البكاء ينبغي أن يكون على واقعك وعلى نفسك، فلقد عاشوا عليهم السلام المأساة من أجل أن يجنّبوك الانحراف الذي عاشه أولئك الذين قال عنهم الفرزدق «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»[(١)].

فإذا كنتَ تقدّم عطاءك من نفسك وأهلك ومالك فأنت الأفضل في الدرجة الإيمانية عند الله «فَإِنَّكَ مَا تُقَدِّمْ مِنْ خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ» وذلك قوله تعالى ﴿المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[(٢)]. ويقول عزّ وجل ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾[(٣)].

«وَمَا تُؤَخِّرْهُ» أي ما تبخل به من مالك عمن أراد الله أن تعطيه من هذا المال، أو تبخل في علمك على من أراد الله أن تعطيه من علمك، وهكذا في طاقتك التي كان يمكن أن تجعلها قوة للآخرين، فإذا بخلت بذلك كلّه وبقي علمك في داخل

١ـ بحار الأنوار: ج٥. ص١٥٣ ح١٢. ب٦. ٢ـ الكهف: ٤٦.
٣ـ البقرة: ١١٠.

ذاتك فقد يتحوّل إلى تراب حينما تغادر هذه الحياة الدنيا ولم تنفع به أحدا، وأمّا مالك فللوارثين الغُنْمُ منه وعليك الغُرْمُ فيه. «وَمَا تُؤَخِّرْهُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ».

مواصفات الصحبة الصالحة:

ثمّ ينطلق الإمام عليه السلام ليحدّثنا عن مَنْ نصاحب «وَاحْذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ» أي يضعف رأيه، فعندما تريد أن تصاحب فانظر إلى من يملك قوة الرأي وعمق الفكر لأنّ الصاحب يتأثر بصاحبه، فعندما يكون أصحابك سطحيين فإنّ السطحية سوف تزحف إلى عقلك من خلالهم، وعندما يعيشون ضعف الرأي فإنّ ذلك سوف يترك تأثيره عليك في ضعف رأيك لأنّك، عندما تصاحب صديقك ويصاحبك، وتحادثه ويحادثك فإنّه ينقل لك ما يفكّر فيه ليدخل في عقلك فيربكه تماما كدخول الطعام غير الناضج في داخل جسمك الذي يربك معدتك، «وَيُنْكَرُ عَمَلُهُ» باعتبار أنّه يتحرّك في عمله في خطّ الفكر الذي أراد الله للناس أن يتركوه «فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ» قل لي من تصاحب أقل لك من أنت، وكما قال ذلك الشاعر:

صاحب أخا ثقة تحظى بصحبته فالطبع مكتسبٌ من كلّ مصحوبِ
والريح آخذةٌ مما تمرُّ به نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

أي المساكن أفضل ؟:

وهناك سؤال يمكن أن نطرحه على الإمام عليه السلام وهو: أين نسكن يا أمير المؤمنين ؟ فقد يفضّل بعضنا السكن في القرى المغلقة والمجتمعات المتخلّفة التي قد تتمظهر في لون واحد، والعدوى بين الناس منتشرة، فالجاهل يبيع جهله للآخرين، والمتخلّف ينقل تخلّفه للآخرين، ولكنّ علياً عليه السلام يقول في الجواب على سؤالنا «وَاسْكُنِ الأَمْصَارَ الْعِظَامَ». والأمصار العظام هي المدن الكبيرة لما

فيها من مزايا، ولكن ذلك يتبع ظروف الإنسان. « فَإِنَّهَا جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ». أي أنّ هذه المدن ـ وهي في البلدان الإسلامية تحديداً ـ مراكز لتجمّع المسلمين، وعندما يجتمع المسلمون في تنوعاتهم في العلم والتقوى والخبرة وكلّ الصفات التي يختلف الناس فيها فإنّك تملك حرية الاختيار، فعندما تتنوّع الساحة في نماذجها كلّها الخيّرة منها وغير الخيّرة فعند ذاك تستطيع أن تتخيّر المجمع الذي يبني لك عقلك وقلبك وروحك وتقواك بينما لا تستطيع ذلك في مواقع أخرى يعيش الناس فيها لوناً واحداً ودائرة مغلقة.

«وَاحْذَرْ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ» عن الله سبحانه وتعالى «وَالْجَفَاءِ وَقِلَّةَ الأَعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ» سواء في المدينة أو في القرية أو في الصحراء، فلا تنزل منزلاً تسيطر عليك فيه الغفلة عن الله، ولا تسكن المنازل التي يعيش فيها الناس الجفاء والقسوة والغلظة فلا ينفتحون في إنسانيتهم على إنسانية الإنسان الآخر، وعليك أيضاً أن لا تسكن في المواطن التي يقلّ فيها الأعوان على طاعة الله لأنّك بذلك تفقد الحيوية التي يحتاجها الإنسان في التشجيع على أعمال الخير من الداخل ومن الخارج لأنّ الإنسان يتأثر بمجتمعه.

لا تتدخل في شؤون الآخرين:

« وَاقْصُرْ رَأْيَكَ عَلَى مَا يَعْنِيكَ» فأنت إنسان تعيش حياتك ولك اهتماماتك التي تتصل بعقيدتك فيما تعتقده، وبشريعتك فيما تلتزمه، وبتطلّعاتك في الحياة فيما توجّه فيه حياتك، وبكلّ القضايا التي ترتبط بأهدافك وبمسؤولياتك، فحاول أن توجّه رأيك سواء من خلال تفكيرك الذاتي أو من خلال الشورى التي تشاور فيها أرباب الآراء والعقول. فليس من الضروري أن تتدخّل في شؤون الآخرين إذا لم يكونوا ضمن مسؤوليتك، وليس من الضروري أيضاً أن تطلق رأيك في

القضايا التي لا علاقة لها بكلّ ما تؤمن به وتعيشه وتتحرّك فيه كالكثير من الناس الذين يتناقشون ويتجادلون ويتحاقدون في عناوين لا دخل لها في عقيدة ولا شريعة ولا حياة، بل هي مجرد أفكار آمن بها الإنسان أو لم يؤمن بها فإنّه يبقى في الخط المستقيم. وهذا ما تعيشه مرحلتنا سواء في الحوزات أو في غيرها، حيث يثير الكثير من الناس عناوين يتحاقدون من خلالها، ويكفّرون بعضهم بعضاً، ويضلّلون بعضهم بعضا، من دون أن يكون لذلك أية مدخلية فيما يسأله المَلَكان في قبرك أو فيما تقف فيه مسؤولاً أمام ربك.

ولذلك يقول الإمام عليه السلام إنّ لك مسؤوليات في نفسك تتصل بحياتك وبمصيرك وبموقفك أمام ربّك، فعليك أن تقصر رأيك، عندما تنضّجه وتنتجه وتنفتح من خلاله، على ما يعنيك، فلا تتحرك بما لا يعنيك فتلقى ما لا يرضيك.

التحذير من الجلوس في الأسواق:

«وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ الأَسْوَاقِ» فالأسواق أماكن العمل، وبعض الناس قد يكون لديه صديق تاجر أو صاحب محل وترى التاجر مشغولاً بشغله في حين أنّ هذا الصديق لا عمل لديه فيأتي ليجلس عنده، والإمام عليه السلام يقول إنّ الذين يجلسون تلك المجالس يعيشون الكثير من المشاكل والنزاعات والخلافات، فقد تجد شخصاً يسبّ آخر أو شخصاً يغتاب آخر، وقد تجد الكثيرين ممن يتاجرون بأعراضهم أو بما لا يرضي الله، فإذا حضرت هذه المحاضر السيئة فربما تتأثر بذلك. « فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ وَمَعَارِيضُ الْفِتَنِ» فالشيطان يحضر في كلّ موقع من المواقع التي تختزن في داخلها المشاكل، وينفذ من الأبواب العريضة للفتن التي تعتبر هذه الأماكن تربتها الخصبة.

انظر إلى من فضّلت عليه:

«وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ» فلا تنظر إلى

من فوقك ولكن انظر إلى من تحتك من أجل أن تتحسّس نعمة الله عليك، لأنّك إذا نظرت إلى من فوقك فعند ذلك تستهين بنعمة الله عليك، فقد ترى من يقول إنّ الله أعطى فلاناً ولم يعطني شيئاً، وبذا فهو يستهين بنعمة الله عليه ويكفر بها، وقد يتحوّل إلى حسد لمن أنعم الله عليه، بينما إذا نظرت إلى من فُضّلت عليه فإنّك تحمد الله عندما تدخل في مقارنة بينك وبينه، وترى أنّ الله أعطاك ما لم يعطه وبذلك تشعر بنعمة الله عليك، ولذلك فإنّ من آداب الإسلام أنّك إذا نظرت إلى شخص مبتلى بعقله أو في جسده أو في بعض أوضاعه الاجتماعية، فقل «**الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به غيري ولو شاء لفعل**»». وبذلك تشعر بنعمة الله عليك فيما أعطاك مما منعه عن هذا الإنسان أو ذاك بحكمته.

اشهد الجمعة:

« وَلا تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ» أي في صباحها «حَتَّى تَشْهَدَ الصَّلاَةَ» فإنّ الله أراد للمسلمين في يوم الجمعة أن يحضروا الصلاة، ولم يهتم بصلاة كما أهتمّ بصلاة الجمعة. «إلاَّ فَاصِلاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أي إلاّ إذا أردت أن تسافر إلى الجهاد وكان وقت الجهاد في يوم الجمعة، أو في أمر تعذر به فإن الله يعذرك عند ذلك.

طاعة الله في كلّ شيء:

« أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ وَأَطِعِ اللَّهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا» ولتكن طاعة الله هي طابع شخصيتك بحيث لا تفرّق بين صغير من الطاعات أو كبير لأنّ الله أرادنا أن لا نحقّر الذنوب ولا نحقّر الطاعات..فلا تستصغرنّ معصية فلربما أدخلتك النار، ولا تستصغرنّ طاعة فلربما أدخلتك الجنّة، فأيّ موضع من مواضع طاعة الله عليك أن تفعله ولو كان صغيراً، وأي موقع من مواقع معصية الله عليك أن تتركه ولو كان صغيراً لأنّ الله أخفى رضاه في طاعته وأخفى سخطه في معصيته.

المخادعة في العبادة:

«وَخَادِعْ نَفْسَكَ فِي الْعِبَادَةِ» أي لا تقهر نفسك على ما تريده من العبادات المستحبّة بل حاول أن تخادعها في أوقات التعب والارهاق، فإننا إذا صلينا هذه الصلاة المستحبّة فإننا سنحصل على الثواب عند الله.. تكلّم مع نفسك كلام المخادع الذي يريد أن يأخذ عفوها ونشاطها من حيث لا تشعر لأنها فرص الاستزادة من التقرّب إلى الله سبحانه وتعالى.

« وَارْفُقْ بِهَا وَلا تَقْهَرْهَا وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا» أي استغل أوقات فراغها وارتياحها إلى العبادة. وقد تحدّث الإمام علي عليه السلام في بعض كلماته عن ذلك فقال: «**إنّ للقلوب اقبالاً وادباراً فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض**». وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله «**إنّ هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق**». فالدخول في الشيء الصلب ينبغي أن يكون برفق وإلا انكسر «**ولا تُكرّهوا عبادة الله إلى عباد الله**» بالالحاح عليها وقهرها وإجبارها على ما لا تريد من المستحّبات «**فتكونوا كالراكب المنبتّ الذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى**» أي ذاك الذي يواصل سيره بلا انقطاع بحيث يُهلك دابته ولا يصل إلى مبتغاه، ويروي الإمام الصادق عليه السلام عن عبادته في شبابه: «**اجتهدت في العبادة وأنا شاب فقال لي أبي: يا بني دون ما أراك تصنع فإن الله عزّ وجلّ إذا أحب عبداً رضي منه باليسير**». واستشهد بالحديث المذكور. وفي حديث آخر «**ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله**».

« إِلاَّ مَا كَانَ مَكْتُوباً عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ فَإِنَّهُ لاَ بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا وَتَعَاهُدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا» فهي الفريضة الواجبة التي لا يجوز التفريط بها أو التهاون في أدائها عند أوقاتها المعلومة.

«وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا». والعبد الآبق

هو الذي يهرب من مولاه، والإمام عليه السلام يقول عندما يأتيك الموت فعليك أن تكون في مواضع طاعة الله ورضاه ولا يراك مبتعداً عنه في طلب الدنيا، وهذا هو الذي عبّر عنه الإمام زين العابدين عليه السلام بقوله: «**وعمّرني ما كان عمري بذلّة في طاعتك فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ أو يستحكم غضبك عليّ**».

النهي عن مصاحبة الفسّاق:

«وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ». وكما حذّر عليه السلام هناك من الصاحب الضعيف الرأي يحذّر هنا من الصاحب الفاسق الذي لا يطيع الله في أموره وهو الذي لا يصلّي ولا يصوم ويزني ويلعب القمار ويشرب الخمر ويظلم الناس ويرتكب الموبقات، والفاسق يجسّد الشرّ في أخلاقه وسلوكه فإذا صاحبته فإنّك ستلحق به وسيزحف شرّه إليك فتصبح إنسان الشرّ كما هو إنسان الشرّ، ولذا قيل إنّ الطبع يسرق من الطبع.

«وَوَقِّرِ اللَّهَ» أي عظّمه في لسانك وفي مواقع طاعته ورضاه.

«وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ» لأنّ إخلاصك لله يفرض عليك أن تخلص وأن تحبّ أحبّاءه، كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «أَصْدِقَاؤُكَ ثَلاَثَةٌ وَأَعْدَاؤُكَ ثَلاَثَةٌ فَأَصْدِقَاؤُكَ صَدِيقُكَ وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ وَأَعْدَاؤُكَ عَدُوُّكَ وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ وَصَدِيقُ عَدُوِّكَ».

إحذر الغضب:

« وَاحْذَرِ الْغَضَبَ فَإِنَّهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ». لأنّ الغضب كالسيل الجارف يكتسح كلّ شيء في طريقه، فإذا انطلق فَقَدَ الإنسان عقله وانفتحت غريزته وكلّ رواسب الشرّ في نفسه وبذلك فإنّه يتحرّك بدون قاعدة، فالغضب حسب تعبير الإمام جندي كبير بل ضابط من ضبّاط الشيطان، فكيف تسلّطه

عليك ؟ فقد ورد في الحديث «**من لم يملك غضبه لم يملك عقله**». وقد ورد عن الإمام الباقرعليه السلام «**أي شيء أشدّ من الغضب إنَّ المرء ليغضب فيقتل النفس المحترمة**». فحينما ندرس جرائم القتل نرى أنّها غالباً ما تأتي في حالات الغضب المستشيط، ولقد قال الشاعر وهو يصوّر كيف أنَّ الغضب يفضح أسرار الإنسان:

أغضب صديقك تستطلع سريرته   للسرّ نافذتان السكر والغضب

ما صرّح الحوض عمّا في قراراته   من راسب الطين إلاّ وهو مضطرب

فما دام مزاجك هادئاً فإنّك تتكلم بكلام موزون وتحافظ على أسرارك، لكن إذا جاء الغضب وخبط عقلك وغريزتك وكلّ شيء فيك فعند ذلك سوف تفضح نفسك ولذلك كانت وصية النبيصلى الله عليه وآله لمن استوصاه هي: «**لا تغضب**» قال زدني يا رسول الله، قال: لا أزيدك، أي أنك لو اكتفيت بهذه النصيحة لكفتك.

«والسلام»[1]

كتاب الإمام عليعليه السلام إلى أهل مصر:

من كتاب لهعليه السلام الى أهل مصر لما ولّى عليهم الأشتر «**مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلَّهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ**»[2] فالإمامعليه السلام كان يواكب الأحداث وكان يريد أن يؤكّد هذا الخطّ وهو خطّ المعارضة لكلّ سلطة تعصي الله في الناس فتفسد حياتهم وتتحرك بالظلم فيهم، وكان يريد للناس أن يغضبوا لذلك وأن لا يسكتوا ولا يقفوا على الحياد، بل أن يواجهوا الظلم لاسيما إذا كان متمثلاً في المعصية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من خلال انحرافه عن البرنامج الذي وضعه الله للعدل في الناس.

١ـ نهج البلاغة، اصدار رابطة أهل البيتعليهم السلام الإسلامية العالمية (من كتاب له عليه السلام إلى الحارث الهمداني).
٢ـ نهج البلاغة: ج٣، ص٦٣.

«وَذُهِبَ بِحَقِّهِ» أي أنّ أهل مصر غضبوا لحقّ الله في العدل، فالله يأمر بالعدل، وقد أقام الحياة كلّها على أساس الحقّ والعدل «فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ» والسرادق مثل الخيمة وهو الغطاء الذي فوق صحن البيت، وهذا هنا كناية عن سيطرة على المقيم في البلد والضاعن عنه أي المسافر «وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ فَلاَ مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ» فقد تركت السلطة المعروف الذي يطمئن الناس ويسكنون إليه «وَلا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ».

تلك كانت الصورة في السلطة (الإسلامية) التي كانت تسيطر على مصر قبل أن يرسل إليها الإمامعليه‌السلام مالك الأشتررضي‌الله‌عنه «أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ اللَّهِ» يعيش العبودية لله من خلال إيمانه به وطاعته له وجهاده في سبيله «لاَ يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ» فلا يبتعد عن الخوف لينجو بنفسه ولكنّه يقتحم الخوف في مواقعه ويواجهه بكلّ قوة من أجل أن يطرد شرّه عن الناس، والمقصود بأيام الخوف تلك الأيام التي يسيطر فيها الظلم ويخاف الناس فيها سطوة الظالم وسيطرته، «وَلا يَنْكُلُ عَنِ الأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ» أي لا يجبن في ساعات الصراع والشدّة والقتال «أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ» من خلال قوته وبأسه «وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ». وهذه نقطة على غاية من الأهمية، فنحن نعرف أن مالكاً هو من أصحاب عليعليه‌السلام المميّزين ومع ذلك فإنّه عندما أرسله إليهم قال هذه الكلمة «وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ» أي لم يطالبهم بالطاعة المطلقة له، بل قال ادرسوا ما يأمركم به وينهاكم عنه فإنّ الرجل يتحرك في الحقّ، ولكنّه إذا أخطأ الحقّ فلا تطيعوه ولا تسمعوا له، وليكن الحقّ الأساس في علاقاتكم بالوالي وبالحاكم كمنطلق ونهج عام، ونستفيد من هذه الفكرة على المستوى الديني والسياسي والاجتماعي، أنّ الإنسان المسؤول عندما يرسل مندوباً عنه فعليه أن لا يعطيه الثقة المطلقة بحيث يطلب من الناس إطاعته بشكل مطلق، بل يطالب بذلك من خلال ثقته به بشرط، أن يكونوا واعين

لما يأمرهم وينهاهم ليقارنوا بين ذلك وبين ما يعرفون من الحقّ، فإذا كان مع الحقّ ساروا معه، وإذا لم يكن معه لم يسيروا معه، وهذا ما نلاحظ خلافه لدى بعض المسؤولين سواء كانوا من الدينيين أو السياسيين أو الاجتماعيين أو الحزبيين فهم يعطون الثقة المطلقة ويطلقون يد مندوبهم أو المسؤول المرسل من قبلهم على الناس، فإذا ما أخطأ الحقّ كانوا معه ضد الناس وكأنّه لا يخطىء، وهذه هي العصبية العمياء الطائفية منها والعائلية والحزبية، ونحن أمّة العصبيات. ولكنّ علياً عليه السلام كان مع الحق وكان الحقّ معه وما ترك له الحقّ من صديق حتى من أقرب الناس إليه.

سيف الله:

«فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ» وهذا هو الوسام الرائع العظيم أن تقول عن شخص إنّه سيف من سيوف الله، فإنّ ذلك لا يصحّ إلاّ إذا كان شاهراً سيفه في ساحة الحرب وسيفه (أي مواقفه) في ساحات السلم، أي يتحرك في خط الله ويستقيم في محبته مهما اختلفت الأمور ولا يشهره في غير هذا الاتجاه. فهذا تقييم كبير وكلمة رائدة لم يقلها علي عليه السلام لأحد «لاَ كَلِيلُ الظُّبَةِ» والضبّة هو حدّ السيف والسنان، والكليل الذي لا يقطع فهو ليس من قبيل السيوف التي لا تقطع فإذا توجّه إلى موقع فإنّه يقطعه أي أنّه سيف بتّار «وَلا نَابِي الضَّرِيبَةِ» ونبا الشيء إذا ارتفع، فمالك الأشتر إذا توجّه إلى شيء لا يرتفع ولا يبتعد عنه بل يواجهه ويقع فيه.

« فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا» لأنّه يعرف كيف يوجه الأمر بالحرب فيما يصلح الناس، وكيف يوجه الأمر بالقعود فيما يصلح أمرهم «فَإِنَّهُ لاَ يُقْدِمُ وَلا يُحْجِمُ وَلا يُؤَخِّرُ وَلا يُقَدِّمُ إِلاَّ عَنْ أَمْرِي» أي يريد أن يقول إن موقف مالك هو موقفي، فإذا أمركم بالنفير فأنا الذي آمركم به، وعندما

يأمركم بالإقامة فهذا هو أمري، وعندما يحجم عن الانطلاق في أي طريق فإنّي أنا الذي أحجم، وعندما يقدم فإنّي أنا الذي أقدم، إنّه يمثّل موقفي في كلّ ما يقف فيه من مواقف.

« وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي» فأنا احتاجه للرأي وللحركة وللدفاع وليحوط لي ما أريد حياطته من المجتمع، لكنني عندما درست أوضاعكم وأدركت أن مصر تمثّل الثغر الذي لابدّ من رعايته وحمايته وتقويمه لذلك بعثت لكم هذا الرجل الشديد في الله. «لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ» فلقد جاءكم ناصحاً «وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ» والشكيمة هي الحديدة المعترضة التي تضبط الفرس من الانطلاق، وهذا كناية عن قوة النفس وشدّة البأس. «والسلام».

إدارة الخلافة في خطّ المعارضة

عند ما نهض الإمام عليعليه السلام بالأمر، كانت المشكلة التي تواجهه تتنوّع من قبل الذين عارضوه، وكانت الأرض مزروعة بالألغام، فلو أنّه تسلّم الخلافة بعد رسول اللهصلى الله عليه وآله حيث كانت الأرض مفروشة بالإسلام الذي زرعه رسول اللهصلى الله عليه وآله وأينع في عهده، لحملهم على المحجّة البيضاء، لأنّ المحجّة التي انطلقت في خطّ رسول اللهصلى الله عليه وآله هي التي راحت تنطلق في خطّ عليعليه السلام لأنّه نفس رسول اللهصلى الله عليه وآله لكنهم لم يتركوا له الفرصة من خلال خلافات هنا وتعقيدات هناك، وعصبيات هنا ومشاكل هناك، وجاء إلى الخلافة والأرض مزروعة بالألغام، والطامحون أخذوا من سبقهم بعض ما يرتفع بطموحاتهم «**جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ فَيَا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ**»[1].

فالمشكلة كانت تتحرك في دائرتين: الدائرة الأولى: وهي دائرة الطامحين للخلافة والذين حاولوا أن يسلكوا إليها في أسلوبين: أسلوب (طلحة والزبير) اللذين كانا يريدان مشاركة عليعليه السلام بالخلافة، وأسلوب معاوية بن أبي سفيان الذي كان يريد لعليعليه السلام أن يطلق يده في مصر والشام ليحكمهما من دون ضوابط كما كان سابقاً، وإلاّ فإنه سيطالب بدم عثمان. وكانت مشكلة عليعليه السلام مع هذه الفئة وتلك هي مشكلة الذين يريدون أن يحدثوا الخلل في نظام الأمّة.

والدائرة الثانية: وهي دائرة الخوارج الذين لم تكن مشكلته معهم كمشكلاته مع الطامحين للخلافة مشاركة أو استقلالاً، بل كانت مشكلة فكرية حيث كانوا

١ـ شرح نهج البلاغة: ج٤. ص ٧٨. ح١٢.

يفهمون الإسلام بطريقة متخلّفة ويعتبرون تخلّفهم مقدّساً ولذلك كانوا يكفّرون كلّ من لا يلتقي بهذا التخلّف. فكيف عالج علي عليه السلام هاتين المشكلتين ؟

كان الخط البياني العريض في كلّ هذه المشاكل التي أحاطت بعلي عليه السلام من طلحة والزبير ومعهما أم المؤمنين عائشة ومعاوية والخوارج. هو الخط الإسلامي الذي آمن به، والذي انفتح القرآن به على الناس، هو أن لا يقمع في البداية أية معارضة سواء كانت معارضة سياسية أو فكرية ولا سيما في الساحة الإسلامية وكانت المسألة عند علي عليه السلام هي أن يفتح قلوب هؤلاء على الحقيقة وأن يقيم الحجّة عليهم ما دامت القضية قضية معارضة في الخطّ أو في الفكر.

فلو درسنا كتب الإمام عليه السلام في (نهج البلاغة) إلى طلحة والزبير، أو في حديثه المباشر معهما، وفي كتبه إلى معاوية، وفي حواره مع الخوارج، لرأينا علياً عليه السلام ذلك الإنسان الذي يحرّك الفكرة مع خصومه بكلّ إنسانيته وكلّ روحية القائد الداعية الذي يريد للآخر أن ينفتح على الحقّ، ولم نجد في أي كتاب من كتبه أو أي حوار من حواراته عنفاً إلاّ إذا كان العنف هو الوسيلة التي يردّ بها عنف الآخر، فكان لا يبدأ بعنف في الكلمة، فلقد كانت كلمته رقيقة، وكان يتواضع لمحاوره حتىّ لتحار كيف أنّ علياً عليه السلام ذلك البطل العظيم الذي جاهد من أجل الإسلام وكان شديداً على الكفّار والمشركين، يخاطب الناس الذين عارضوه بهذه الطريقة ؟! ولذلك فإنّه أعطانا نهج مدرسته التي هي مدرسة الإسلام، وهي أنّك إذا اختلفت مع فئة من الناس سواء كنت حاكماً أو حزباً أو مرجعاً أو مثقفاً، فإنّ عليك أن لا تُسقط إنسانيته بل أن تحترمها، وأن لا تعيش عقدة الذات في خصومتك معه، فعندما يطرح فكراً إطرح فكرك في مواجهته وأقنعه أو أقم الحجّة عليه، وعندما يحرّك خطاً إرسم خطاً في مقابله، فالفكرة تحاور الفكرة، والعقل يحاور العقل، والقلب ينفتح على القلب، والساحة تتسع للجميع حتىّ إذا وصلت المسألة إلى نقطة اللارجوع كان للحديث مجال آخر. وقد علّمنا الله سبحانه وتعالى مما لم

نتعلّمه في واقعنا الإسلامي، حيث يقول ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهي الكلمة الطيّبة والأسلوب الطّيب والمناخ الطيب والروح الطّيبة ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾. لأن الظالم ليس إنسان الحوار بل يريد أن يقمعك ويصرعك ويصادرك. وعلّمنا مما لم نأخذ به ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1]. أي تعالوا إلى مواطن اللقاء.

إننا نحاول أن نلتقط بعض رسائل علي عليه السلام لنعرف كيف كان يدير مسألة الخلافة في الخطّ السلبيّ مما كان يواجهه في معارضة المعارضين وفي الخطّ الإيجابي.

كتاب الإمام علي عليه السلام إلى طلحة والزبير:

ونقرأ في كتاب له عليه السلام لشخصين كانا من أوائل المنتقضين عليه وأعلنا الحرب عليه بعد أن بايعاه وهما (طلحة) و(الزبير) هو ابن عمّته وقد حملا معهما أم المؤمنين عائشة بعد أن اقنعاها بأن تنطلق معهما لتعطل مسيرة علي عليه السلام في تنفيذ مخططاته الاصلاحية في واقع المسلمين بحجّة الثأر لدم عثمان، وكانت أم المؤمنين تثير الناس وتؤلّبهم ضد عثمان، وكان طلحة والزبير ينقمان على عثمان أموراً كثيرة ومع ذلك كان علي عليه السلام بريئاً من دم عثمان براءة الذئب من دم يوسف، ويعرفان انَّ علياً أرسل ولديه الحسنين عليهما السلام ليدافعا عنه، وأنّه قام بنصيحته وتحذيره مما وصل إليه، ولاحظوا أسلوب علي عليه السلام في الحديث معهما: «أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ عَلِمْتُمَا وَإِنْ كَتَمْتُمَا»[2] لأنّ كثيراً من الناس الذين يعلمون الحقّ قد

١ـ العنكبوت: ٤٦.

٢ـ نهج البلاغة: ج٣، ص١١١. وذكره أبو جعفر الاسكافي في كتاب المقدمات.

يكتمونه «أَنِّي لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي» فمع أنّي أحق الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ وذلك هو قوله عليه السلام «إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ» إلى أن يقول «فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ» وقال «وَاللَّهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً»(١). فحينما أُبعدت عن الخلافة لم أدخل في صراع حولها وإن كنت صاحب الحق فيها، ولم أتنازل عن حقّي ولكنني جمّدته لمصلحة الإسلام.

«وَلَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي وَإِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي وَإِنَّ الْعَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ وَلا لِعَرَضٍ حَاضِرٍ» فقد يبايع الناس شخصاً رغبة ورهبة وانتم تعرفون أنني لست من يخيف الناس، بل كنت وما أزال اخيف الكافرين، ولو كنت أريد اخافتهم لدفعت بالواقع الإسلامي منذ البداية نحو الفتنة، وهو الذي قال لاخيه عقيل بن ابي طالب «والله لو تضافرت العرب على قتال أخيك ما ولّى عنها هارباً».

« فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعَيْنِ فَارْجِعَا وَتُوبَا إِلَى اللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ» فأنا لم أجبركما على بيعتي، ولذا فلي الحجّة عليكما باظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية «بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقِّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمَانِ»، فإذا قلتما إننا فعلنا ذلك تقية فاني أعرف أنكما لستما من الجبناء ولا خائفين « وَإِنَّ دَفْعَكُمَا هَذَا الأَمْرَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْخُلاَ فِيهِ كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ». فلو كنتما منذ البداية رفضتما بيعتي كما فعل عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص اللذان اعتزلا ولم أجبرهما على مبايعتي، فهذا أفضل من أن تبايعا

١ـ شرح نهج البلاغة. ج١٣. ب١٥٠. ص٢٥٠.

وتنكثا البيعة. «وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمَانَ» وأنكما خرجتما للمطالبة بدمه «فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» فلو كنتما تدّعيان شيئا لا شاهد عليه فقد يكون الأمر محل جدال ولكن هؤلاء أهل المدينة يشهدون أنني بريء من دم عثمان. «ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ» فالشهود موجودون ويعرفون من الذي دفع ضد عثمان؟ ومن قتله؟ ومن الذي خذل عنه؟ «فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا فَإِنَّ الْآنَ أَعْظَمَ أَمْرِكُمَا الْعَارُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَجَمَّعَ الْعَارُ وَالنَّارُ» لأنكما إذا سرتما في هذا الخط، وسفكتما دماء المسلمين، وأثرتما الفتنة، وأبعدتما صاحب الحق عن حقه، فإنكم ستواجهون العار بالهزيمة والنار عند الله سبحانه وتعالى، فلاحظوا هذا الأسلوب الإنساني العقلاني الذي لم يتحدّث فيه الإمام علي عليه السلام بأية كلمة نافرة أو حادة بل كان يحاول أن يعالج الأمور معهما بالحق. وهذا ما ينبغي لنا أن نتعلّمه عندما نبتلى بمثل هذا أو ما يقرب منه، أن لا نتحدث حتىّ مع خصومنا بغرائزنا بل أن نجعل العقل هو الذي يؤكد الحديث ويركزه.

كتاب الإمام علي عليه السلام إلى أهل الكوفة:

من كتاب له عليه السلام عندما سار من المدينة إلى البصرة، فلقد كتب إلى أهل الكوفة، وكان أبو موسى الاشعري الذي كان والي علي عليه السلام على الكوفة يخذل الناس عن نصرة علي عليه السلام ولاحظوا هذا السمو في علي عليه السلام عندما يخاطب الرعية أو الشعب:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِّي هَذَا» والحي موطن القبيلة «إِمَّا ظَالِماً وَإِمَّا مَظْلُوماً» فهل يعقل أن يكون الإمام علي عليه السلام ظالماً في سيره لمقاتلة الذين خرجوا عليه؟ وإنما استعمل هذا الأسلوب ليفتح للشعب وللأُمّة الحرية في أن تفكر بالموضوع من دون ضغط «وَإِمَّا بَاغِياً» معتدياً «وَإِمَّا مَبْغِيّاً عَلَيْهِ» معتدى

عليه «وَإِنِّي أُذَكِّرُ اللَّهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا» ؟ أي أجعلوا الله في حسابكم عندما تحكمون على الأشياء «لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِناً» أي ليفكر كلّ واحد منكم في طبيعة الموقف الذي وقفته بموضوعية وحياد، وفي المسيرة التي سرتها بمسؤولية شرعية، فإذا كنت محسناً «أَعَانَنِي وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئاً اسْتَعْتَبَنِي» أي نبهني وحذرني منه، فأي حاكم يتكلم مع شعبه بهذه الطريقة سواء من الحكام المسلمين أو غير المسلمين ؟

هذا هو منطق علي عليه السلام المنطق الإنساني الذي يريد للأمة أن تدرس مسؤوليتها من خلال ذِكرها لله واخلاصها له، وبذلك يعطيها حرية أن تنقد الحاكم وتحاسبه فأي حاكم بهذا المستوى ؟! ولكن علياً عليه السلام يعلو حيث ينزل الناس ويرتفع حيث يسقط الناس.

هذا هو علي عليه السلام فلنقترب منه، إنَّ حب علي عليه السلام يكلّف كثيراً، وإنَّ ولايته تتعب كثيراً «أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ» عن الحرام «وَاجْتِهَادٍ» في طاعة الله «وَعِفَّةٍ» عما يغضب الله، «وَسَدَادٍ» في القول والعمل والرأي، هؤلاء هم جماعة علي عليه السلام.

فالولاية ليست نبضة قلب ولا خفقة شعور بل هي موقف، فإذا أردتم أن تكونوا مع علي عليه السلام فقفوا معه لأنه مع الحق والحق معه يدرو حيثما دار، ولن تجدوا إلى جانب علي عليه السلام شيئا من الباطل الذي تتحركون به أحيانا في بيوتكم أو أسواقكم أو مجتمعاتكم، لذلك قال علي عليه السلام «**ما ترك لي الحق من صديق**» فهل نصبح من شيعته لمجرد أننا نهتف باسمه.. إنه يريدنا أن نهتف باسم الله سبحانه وتعالى وباسم رسول الله صلى الله عليه وآله وباسمه في خط الولاية التي تتحرك بالإسلام وباسم الإسلام.

الإمام علي عليه السلام الروح السمحاء:

وعندما انطلق في صفين، فإنّه لم ينطلق بروحية القائد الذي يريد أن يسفك الدم، ولكن بروحية الإمام والخليفة والقائد الذي يعتبر الحرب وسيلة ضغط، وهذا ما عبّر عنه عليه السلام كما في (نهج البلاغة) عندما استبطأ أصحابه إذنه بالقتال لهم، فقالوا: «أكان ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ؟» أي هل كره علي عليه السلام الموت لأنّ العمر قد تقدّم به، كما جاء في الحديث المأثور «إذا شاب ابن آدم شبّ فيه خصلتان الحرص وطول الأمل»[١]. أي لم يعد يحبّ الموت «شَكّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ؟» وكان علي عليه السلام لا يتعقّد من نقد، بل كان يطلب من الناس أن ينقدوه في حكمه وإن كان هو فوق مستوى أن يُنقَد، فقال لهم برحابة صدر «أما قولكم إن ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ فَوَاللَّهِ مَا أُبَالِي دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ فَوَاللَّهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلاَّ وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلاَلِهَا وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا»[٢]. فأنا لست محارباً أعيش الحرب كمزاج ولكنّي رسالي يحرّك الحرب في خطّ الرسالة.

وعندما سمع قوماً من أهل العراق وهم جنده يسبّون أهل الشام، قال «إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ». فليس من خُلُق المسلمين أن يعالجوا مشاكلهم بالسبّ لأنّ السبّ ينطلق من عقدة وليس من روحيّة. «وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ» وهذا هو منهج الإسلام في النقد والتقييم الذي يريدك عندما تختلف مع إنسان وتريد أن تقدّم القضية التي تختلف فيها معه أن لا تسبّه بل أن تصف أفعاله «وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ». من الاستقامة أو الانحراف «كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ». فالإمام عليه السلام لا يريد لجنده أن يحقدوا على المسلمين حتىّ وهم في حالة

١ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٢. ب١٢. ص٨.

٢ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٤. ب٥. ص٢٥٣.

حرب معهم، ولا يريد للمسلم أن يعيش روحاً تدميرية ضد المسلم الآخر الذي يختلف معه، بل كان يريد له أن يعيش رحابة الصدر حتىّ وهو يختلف مع المسلم الآخر «وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلاَلَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ»[١]. فالمشكلة ليست ذاتية ولكنّها مشكلة الصراع بين الحق والباطل، ونحن ندعو الله تبارك وتعالى أن يهديهم إلى الحقّ وأن يفتح عقولهم عليه.

من هنا فقد ملأ علي عليه السلام مرحلته إسلاماً كلّها، وكان كما قال بعض أصحابه «يجيبنا إذا سألناه ويبتدأنا إذا سكتنا». لأنّه كان يعيش مسؤولية العلم «إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً»[٢]. وكان يقول «مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا»[٣].

ونفهم من سيرة علي عليه السلام كلّها أنّ على الذي يتسلّم قيادة المواقع الفكرية والاجتماعية والسياسية للإسلام أن يملأ كلّ فراغ المسلمين بما يحتاجونه في حقل التوعية الإسلامية، بحيث يجيب على أسئلتهم كلّها، ويتحرّك من أجل تطلّعاتهم كلّها، لا سيما عندما تنتشر البدع، فلا نكتفي بجانب واحد من المعرفة خاصّة في عصرنا الذي تحرّكت فيه التحديات الفكرية والروحية والاخلاقية والسياسية والاجتماعية والأمنية لتربك الواقع الإسلامي بحيث يبدو المسلمون كما في وصف الله تعالى للناس في يوم القيامة ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾[٤] ولكنّ التحديات كبيرة.

١ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٢. ب٤٦. ص١٣٦.

٢ـ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج٨. ب٩. ص٢٥.

٣ـ شحر نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١. ب٣. ص٩٩.

٤ـ الحج: ٢.

الإمام عليعليه السلام والخوارج

كان عليعليه السلام هو صاحب الحقّ، فلندرس كيف مارس الأسلوب الحكيم في الدفاع عن حقّه ؟ وكيف أدار الحوار في مواقع الصراع ؟ ولندرس موقف عليعليه السلام من الخوارج لأنّ مواجهتهم تتصل بالموقف الإسلامي في خطّ عليعليه السلام في الجانب الفكري، فكيف ينظر عليعليه السلام إلى الذين يختلفون معه في الفكر والذين يكفّرونه وهم الخرارج، وكيف حاورهم ؟ ولماذا قاتلهم ؟ هل قاتلهم لأنّهم رفضوه ؟ هل قاتلهم لأنّهم كفّروه ؟ أم قاتلهم لأنّهم عاثوا في الأرض فساداً وقتلوا الأبرياء؟

ونحاول هنا أن ندرس بعض النصوص التي جاءت في (نهج البلاغة) في حديث عليعليه السلام مع هؤلاء. فكيف بدأت قصة الخوارج ؟

لقد خاض عليعليه السلام الحرب مع معاوية في صفين وكانت حرباً من أعنف الحروب وقد امتدّت وقتاً طويلاً، وفي نهايتها كان عليعليه السلام يشارف على الانتصار، وكان (مالك الأشتر) قائد الحرب آنذاك يخوض الجولة الأخيرة، وقد شعر معاوية ومستشاره (عمرو بن العاص) كما يقول (الطبري)، أنّ علياًعليه السلام سوف يربح الحرب وسوف يسقط مُلْكَ معاوية، فاستشار معاوية عمرو بن العاص قائلاً: ماذا نفعل ؟ قال له: إنّ أفضل وسيلة هي أن نطرح أمراً يبقينا في وحدتنا ويجعل جماعة علي تتفرّق.

اقترح عمرو بن العاص على معاوية رفع المصاحف، وقال نتنادى قائلين: مَن لثغور العراق غير أهل الشام ومن لثغور الشام غير أهل العراق ؟! فتعالوا إلى

كتاب الله ليحكم بيننا. وهنا انطلقت السذاجة الثقافية والسياسية والعسكرية في بعض جيش الإمام عليه السلام وقالوا له: لقد دعانا القوم إلى كتاب الله ونحن جميعاً مسلمون فعلينا أن نستجيب لكتاب الله، وإلاّ كيف نقول إنّنا نؤمن بكتاب الله ونعمل به؟ وقال لهم علي عليه السلام: أنا قاتلت هذين (معاوية وعمرو) على كتاب الله ليؤمنا به، ونحن نقاتلهما الآن على حركيّة كتاب الله في الواقع، فهما لم ينفتحا على القرآن كما ينفتح المسلمون عليه، فلقد دخلا في الإسلام رغبة أو رهبة، ولذلك فإنّ هذه الدعوة ليست دعوة صادرة من إيمان ولكنّها دعوة صادرة من لعبة سياسية يراد من خلالها أن تدبّ الفُرقة بينكم، وأن يحصلوا على النصر بفرقتكم ما داموا لم يحصلوا على النصر من خلال الحرب.

وقالوا لعلي عليه السلام إبعث إلى الأشتر لينسحب حتىّ نعقد الصلح على أساس التحكيم، وإلاّ فعلنا بك ما فعلناه مع عثمان، وأرسل علي عليه السلام إلى مالك بالإنسحاب، وصاح الأشتر: أتركني وقتاً قصيراً وسوف أدخل الشام، ولكنّ القوم ألحّوا على إيقاف القتال، فذهب الرسول إلى مالك وقال له: إذا لم تنسحب فقد تربح الحرب ولكن يُقتل إمامك.

فالغوغائيون ـ كما هم عندنا وكما هم في كلّ مرحلة يضعف فيها الوعي أو يتسطّح ـ قد يسيطرون على الساحة من خلال الشعارات الفضفاضة التي تختزن الباطل في عمقها، وإن كانت تُظهر الحقّ في صورتها، واضطر مالك الأشتر تحت ضغط هذا الواقع إلى الانسحاب، «فأقبل الأشتر، فصاح: يا أهل الذلّ الوهن، أحين علوتم القوم فظنّوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله فيها وسنّة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم أمهلوني فواقا ناقة فإنّي قد أحسست بالفتح، قالوا: لا، قال: فأمهلوني عَدْوَالفرس، فإنّي قد طمعت في النصرة، قالوا: إذن ندخل معك في خطئتك. قال: فحدّثوني عنكم،

وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم متى كنتم محقّين حيث كنتم تقتلون أهل الشام فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون أم الآن محقّون فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم، كانوا خيراً منكم في النار! قالوا: دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم في الله وندع قتالهم في الله، إنّا لسنا نطيعك فاجتنبنا، قال: خدعتم والله فانخدعتم ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب الجباه السود كنّا نظنّ أنّ صلاتكم زهادة في الدنيا وشوق في لقاء الله، فلا أرى فراركم إلاّ إلى الدنيا من الموت ألاّ قبحاً يا أشباه النيب. ما أنتم برائين بعدها عزاً أبداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون»، فسبّوه وسبّهم وضربوا بسياطهم وجه دابته وضرب بسوطه وجوه دوابهم فصاح بهم علي فكفّوا.

ولمّا كتبت صحيفة التحكيم دعي لها الأشتر ليوقّعها فيمن وقّعها بصفته قائداً عسكرياً «فقال: لا صحبتني يمينٌ ولا نفعتني بعدها الشمال أن كتب لي في هذه الصحيفة اسم على صلح أو موادعة، أو لستُ على بيّنة من ربي ويقين من ضلالة عدوّي، أو لستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الخور؟ ـ فقال له رجل: إنّك والله ما رأيت ظفراً ولا خوراً هلمّ فاشهد على نفسك وأقرّ ربّما في هذه الصحيفة فإنّه لا رغبة بك عن الناس. ـ قال: بلى والله إنّ لي لرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة، ولقد سفك الله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندي ولا أحرم دماً، ثمّ قال: لكن رضيت بما صنع أمير المؤمنين، ودخلت فيما دخل فيه وخرجت عما خرج منه فإنّه لا يدخل آلاّ في هدى وصواب».

فأنا لست مقتنعاً بهذا التحكيم، وأنا أعلم أنَّ علياً عليه السلام ليس مقتنعاً بذلك لكنّ هناك ضغطاً مورس عليه، وعليّ عليه السلام أميري وأنا مستعدٌ أن أسير خلفه معصوب العينين لأنّه مع الحق والحقّ معه، ولذا فأنا أطيعه. وهذا الموقف يبيّن مدى إخلاص الأشتر فهو القائد الذي يطيع الله من خلال إطاعته وليّه.

وبدأت المفاوضات، وطرح موضوع التحكيم واختار علي عليه السلام عبد الله بن عباس فلم يقبلوا به واختار جماعته أبا موسى الأشعري الإنسان المعقّد من علي عليه السلام والساذج الذي تنطلي عليه اللعب السياسية، واختار معاوية عمرو بن العاص الداهية المعروف، والتقيا وخدع عمرو أبا موسى، وقال له: إنّ المشكلة هي بين علي وبين معاوية فقال أبو موسى لنخلع علياً ومعاوية وليختر المسلمون شخصاً آخر وسكت عمرو أو تظاهر بالموافقة، وعندما اجتمعا مع الناس قدّم عمرو أبا موسى ليعلن الاتفاق: فقال: اتفقنا على أن نخلع صاحبينا وها أنذا أخلع صاحبي، فقال عمرو لقد خلع صاحبه وأنا أثبت صاحبي وتسابّا وانفرط الجمع.

وحدث ما أراده معاوية وعمرو من اختلاف المسلمين، وهنا انطلق المتخلّفون ثقافياً والمقدسون عبادياً، فهم أصحاب الثقافات الساذجة، فقالوا لعلي عليه السلام: كيف حكّمت الرجال في دين الله؟ لا حكم إلاّ لله، فعلّق الإمام عليه السلام بعدة أحاديث. فمن كلام له عليه السلام قال للخوارج وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة (أي التحكيم) وقالوا له: لقد كفرت يا علي وعليك أن تسلم من جديد لأنّك حكّمت الرجال في دين الله ولا حكم إلاّ لله.

الاحتجاج على من شهد صفين:

«أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ فَقَالُوا مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ قَالَ فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً حَتَّى أُكَلِّمَ كُلاً مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ وَنَادَى النَّاسَ فَقَالَ أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عليه السلام بِكَلَامٍ طَوِيلٍ مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عليه السلام أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً وَمَكْراً وَخَدِيعَةً إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا اسْتَقَالُونَا وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ

وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ فَقُلْتُ لَكُمْ هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بَنَوَاجِذِكُمْ وَلا تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْفَعْلَةُ وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا وَاللَّهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا وَلا حَمَّلَنِي اللَّهُ ذَنْبَهَا وَوَاللَّهِ إِنْ جِئْتُهَا إِنِّي لَلْمُحِقُّ الَّذِي يُتَّبَعُ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الآْبَاءِ وَالأَبْنَاءِ وَالإِخْوَانِ وَالْقَرَابَاتِ فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلاَّ إِيمَاناً وَمُضِيّاً عَلَى الْحَقِّ وَتَسْلِيماً لِلأَمْرِ وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْجِرَاحِ وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الإِسْلاَمِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالاِعْوِجَاجِ وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللَّهُ بِهَا شَعَثَنَا وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا رَغِبْنَا فِيهَا وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا»

لقد أجاب الإمام عليه السلام عن ذلك بقوله: «أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ فَقَالُوا مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ قَالَ فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً حَتَّى أُكَلِّمَ كُلاًّ مِنْكُمْ بِكَلاَمِهِ وَنَادَى النَّاسَ فَقَالَ أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلاَمِ وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ». والأفئدة هنا العقول، أي لتكن عقولكم حاضرة حتىّ تعي ما أقول «فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عليه السلام بِكَلاَمٍ طَوِيلٍ مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عليه السلام ـ لم ينقله الشريف الرضي بأجمعه ـ من جملته أنه قال: «لَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً وَمَكْراً وَخَدِيعَةً إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا اسْتَقَالُونَا» أي طلبوا منّا الإقالة من الحرب «وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ فَقُلْتُ لَكُمْ هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ» فالمسألة ليست هي ما يتكلّم به الآخرون، بل هي ما يضمره الآخرون وما يريدون أن يصلوا إليه، وهذا ما نفهمه من علي عليه السلام وهو أنّه لا يكفي أن يقول إنسان كلمة حقّ لنتبعه، بل لابدّ أن ندرس خلفياته لنرى ماذا يريد من

كلمة الحقّ ؟ هل يريد بها الحقّ ؟ أو يريد أن يجعلها وسيلة إلى الباطل من خلال بعض المناخات القلقة التي تحيط بالمسألة ؟

ثمّ يعلّق على قرار رفع المصاحف بقوله: «وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ» وهو كتاب الله فأيّ رحمة أعظم من هذه ؟ «وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ» لأنّ جماعة معاوية يستغلّون كتاب الله من حيث ما يؤولونه ومن حيث طبيعة الطرح الذي يراد منه شقّ الصف وإثارة الفرقة «فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بَنَوَاجِذِكُمْ» أي أنني قلت لكم أكملوا المعركة فالقوم ليسوا بمؤمنين «وَلا تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْفَعْلَةُ وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا وَاللَّهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا» فلو امتنعت عن ذلك ما كنت مسؤولاً «وَلا حَمَّلَنِي اللَّهُ ذَنْبَهَا وَوَاللَّهِ إِنْ جِئْتُهَا إِنِّي لَلْمُحِقُّ الَّذِي يُتَّبَعُ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي» فأنا صاحب القرآن، وأنا الذي أفهمه حقّ الفهم، وأنا الذي قاتلت من أجل أن يكون للقرآن موقعه وامتداده ووعيه « مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ وَالإِخْوَانِ وَالْقَرَابَاتِ فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ» من خلال ما تفرضه الحرب «وَشِدَّةٍ» من خلال ما نعيشه من شدائد «إِلاَّ إِيمَاناً وَمُضِيّاً عَلَى الْحَقِّ» فلا نتراجع «وَتَسْلِيماً لِلأَمْرِ وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْجِرَاحِ» فالمؤمن في النكبات وقور يسلم أمره إلى لله سبحانه وتعالى.

فالمشكلة هي أن القضية بالأمس كانت واضحة، فلقد كان هناك كفّار ومشركون «وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الإِسْلاَمِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالاعْوِجَاجِ» فالإمام علي عليه السلام لم يخرج هؤلاء عن الإسلام بالرغم من أنّهم حاربوه وقاتلوه، بل عبّر عنهم بإخواننا في الإسلام لكنّهم زائفون اختاروا طريق الانحراف «وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ» أي دخلت إليهم بعض الشبهات وحملوا الكلام على غير ظاهره «فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللَّهُ بِهَا شَعَثَنَا وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ

فِيمَا بَيْنَنَا رَغِبْنَا فِيهَا وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا» فطالما طُرح هذا الأمر وأفهمتكم نواياه فلم تفهموا ذلك، كان علينا أن نخضع له.

تحكيم القرآن:

استمعوا إلى علي عليه السلام في رحابة أفقه وسعة صدره، قال لهم «إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ» بصفتهم الشخصية، ولم نقل لأبي موسى الأشعري ولعمرو بن العاص أحكما بما تريانه من خلال اجتهادكما الشخصي، بل قلنا لهما لقد أُطلق شعار الرجوع إلى كتاب الله فضعا هذا الكتاب بين أيديكما، وحاولا أن تطبّقا الخطوط العامّة فيه على هذا النزاع لتحكما من خلال ذلك: هل الحق مع علي أم مع معاوية؟ فنحن لم نحكّم الرجال «وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ» ولكن كيف نحكّم القرآن «هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ» فهو كلمات وحروف مكتوبة «لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ» ليحدّد لنا بطريقة ناطقة هل الحق لهذا أم لذاك «وَلا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ» أي من مفسّر يفسّره في خطوطه الفكرية العامّة وتطبيقاته على الواقع «وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ» الذين يفهمونه ويتدبّرونه ويعرفون مصادره وموارده «وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى» فلسنا الذين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أعرضوا عنه، كما تحدث الله عن ذلك في آية أخرى ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[1]. فلسنا من هؤلاء، لأننا قاتلنا من أجل تحكيم القرآن في حياة الناس، وفي كلّ ما يأخذون به من مفاهيمهم وعقائدهم وأحكامهم، «وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾[2]» وقد خضعنا لذلك، ولكن ما معنى أن نردّ الأمر إلى الله وإلى

١ـ النور: ٤٨. ٢ـ النساء: ٥٩.

الرسول عندما نتنازع في أي أمر من الأمور ؟ «فَرَدُّهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ» وذلك بأن نقرأ كتاب الله ثمّ نحاول أن نفهمه لنعرف كيف ينطبق ما جاء في هذا الكتاب على ما نتنازع حوله في الواقع.

الردّ إلى الرسول صلى الله عليه وآله:

«وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ» بأن نقول: ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله فإذا عرفنا أنّ الحديث حديثه وليس موضوعاً أو منسوباً إليه فإننا نجعله الحكم في كلماته التي تمثّل الشريعة الفقهية والفكرية لنطبقها على ما نحن فيه «فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ» فإذا فرضنا أن الحكم حكم بما هو الصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس به لأنّنا القائمون على كتاب الله ولأننا المسؤولون عن تفسيره وتطبيقه وقيادة الناس من خلاله، لأننا نملك الشرعية من خلال ما جعله الرسول صلى الله عليه وآله في شرعية الخلافة. «فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ص فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلاَهُمْ بِهَا» ومن أحقُّ الناس برسول الله صلى الله عليه وآله من أهل بيته ولا سيما من ابن عمه وتلميذه وصهره الذي كانت نفسُه نفسَه، والذي عاش معه بكلّه، فكان عقله عقل رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان قلبه قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وكانت حياته حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ؟!

تأجيل التحكيم:

«وَأَمَّا قَوْلُكُمْ لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً فِي التَّحْكِيمِ» أي لماذا لم تقل لهم: احكموا الآن ؟ ولماذا أعطيتهم أجلاً إلى فترة معينة ؟ «فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ وَيَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ» حتىّ نعطي الفرصة للجاهل ليفهم الحقيقة عندما يبحث عنها، وللعالم الذي يحتاج إلى دراسة وتدقيق في الأمور ليتثّبت من ذلك. «وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ» وكأنّه يقول لهم أنا لم أخض الحرب

حبّاً بالحرب وإنّما خضتها من أجل إصلاح أمر المسلمين، ولأجل أن أمارس ضغطاً على هؤلاء المنحرفين لعلّهم يرجعون إلى خط الاستقامة، ولذلك فإذا كانت هناك فرصة للإصلاح فأنا أول من يأخذ بهذه الفرصة. «وَلا تُؤْخَذَ بِأَكْظَامِهَا» أي لا يؤخذ بخناقها بما يؤدّي إلى الاختناق «فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ وَتَنْقَادَ لأَوَّلِ الْغَيِّ» فنحن نريد إعطاء الأمة فرصة حتىّ تستطيع أن تتبّين الحق وأن ترتدع عن الغي، ونستوحي من ذلك أنَّ عملية الإصلاح العام للأمة قد تبرّر الأخذ بأنصاف الحلول إذا كانت الحلول الحاسمة الكلية غير واقعية في المرحلة التي يختلف فيها المسلمون بفعل الفتنة التي يثيرها المنافقون والمنحرفون في الواقع الإسلامي، فيكون امتداد النزاع خطراً على المصلحة الإسلامية العليا، وبهذا نكتشف الشرعية للحلول السياسية القائمة على التسويات في نطاق الظروف الممتدة.

أفضل الناس:

«إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ» وهو الإنسان الذي يلتزم الحقّ في فكره وفي قلبه وفي كلّ حركته بالحياة، سواء كان متصلاً بذاته أو بالآخرين في علاقاته معهم، والإمام هنا يريد أن يطرح قاعدة عامّة في من هو الأقرب والأفضل عند الله؟ «وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ» وان كان العمل بالحق يوجب خسارة أو مشكلة شخصية بالنسبة له فإنّ العمل بالحقّ يبقى أحبّ إليّ «مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً وَزَادَهُ» أي أن الحقّ أقرب إليه من الباطل حتىّ لو كان في الباطل ربح وزيادة، لأن مسألة الالتزام بالمبادىء لاسيما إذا كان ذلك في خط الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والالتزام بشريعته ـ تفرض على المؤمن أن يعمل على أساس إخضاع حياته وتحريك التجربة في حياة الآخرين لحركة الخط المستقيم للإيمان والالتزام، لأن النتائج الإيجابية في ذلك أعظم من السلبيات الجزئية على الذات والواقع.

«فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ» إلى أين أنتم ذاهبون ؟ «وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ» هل انطلقتم من قاعدة الحق الذي يمثله فريقكم من موقع قيادة الحق التي عرفتم التزامها بالحق في تاريخها وفي وقتها في الإخلاص لله ورسوله ؟ أو أنكم انطلقتم من موقع الأهواء الضالّة والانحرافات المضلّة. إن ذلك كلّه يفرض عليكم التفكير في العواقب التي تقبلون عليها مما يعرّضكم إلى سخط الله بفعل إثارتكم الفتنة في الأمّة.

ثمّ يقول لهم بعد أن انتهت الحرب وتبيّنت خيانة القوم الذين رفعوا المصاحف «اسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لاَ يُبْصِرُونَهُ» لأنَّ الحرب قد تكون النافذة التي يطل منها الآخرون على الحقّ من خلال الضغوط التي قد تثيرها في الساحة مما يدفعهم إلى التفكير في الأمر، ويدخلهم في أكثر من تجربة تتيح لهم فهم الأمور بطريقة واضحة. وهذا هو ما تحدّث به الإمامعليه السلام في موقف آخر وذلك في قوله: «مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلاَّ وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي» أي إلى جماعة معاوية الذين لا يبصرون الحق، فلنسر إليهم حتىّ نهديهم ونضيء لهم طريق الحق «وَمُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لاَ يَعْدِلُونَ بِهِ» أي ملهمين بالظلم الذي سيطر عليهم فلا يعدلون عنه إلى العدل «جُفَاةٍ عَنِ الْكِتَابِ» أي انحرفوا عن الكتاب «نُكُبٍ عَنِ الطَّرِيقِ» أي يعدلون عن الطريق الصحيح إلى غيره.

ثمّ يعيش الإمامعليه السلام نفثة الصدر من الذين ابتلاه الله بهم «مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا» فلستم أنتم الفئة التي يستوثق الإنسان بها عندما يدخل ساحة الصراع «وَلا زَوَافِرِ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا» والزوافر هم العشيرة والأنصار. «لَبِئْسَ حُشَّاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ» ففي الحرب لن تكونوا الحطب الذي به يشعل نارها، وهذا كناية عن أنهم جبناء مهزومون «أُفٍّ لَكُمْ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً يَوْماً أُنَادِيكُمْ وَيَوْماً أُنَاجِيكُمْ فَلاَ

أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ وَلا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ» وهذه هي مصيبة عليعليه السلام في بعض من اتبعه ثم تخاذل عن نُصرته.

ونلاحظ رحابة صدرهعليه السلام تتسع لأكثر من ذلك في حواره. ونحن إذ نقرأ تجربة عليعليه السلام فإنّا نريد أن نتعلّم الدرس، سواء كنّا في موقع الحكّام بالنسبة للمعارضة، أو كنّا في موقع المرجعية بالنسبة لمن نختلف معهم، أو كنّا في موقع الأحزاب عندما تختلف الأمور فيما بينهم، وفي أيٍّ من مواقع المسؤولية، أن نتعلّم أنّ على المسؤول أن يحاور الذين يعارضونه، وأن يدخل معهم في دراسة حول القضايا التي هي محل الخلاف لا أن يضطهدهم لمجرد أنّهم يختلفون معه في الفكر، وأن لا يخرجهم عن الإسلام لأن لهم رأياً يختلف عن رأيه. والاختلاف هنا مع من؟ مع عليعليه السلام الذي هو كلّ الإسلام بعد رسول اللهصلى الله عليه وآله ومع ذلك فالملاحظ أنه لم يُخرج الخوارج عن الإسلام حتىّ عندما كفّروه، بل وتعامل معهم كمسلمين.

الاحتجاج على تجاوزات الخوارج:

فلنقرأ هذه الوثيقة الحوارية التي لا أعتقد أن أحداً من المسؤولين، في جميع المستويات، يستطيع أن يتحدث بهذا الأسلوب الحواري المنفتح، لكنّ علياًعليه السلام يرتفع حيث يتضع الناس. «**فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ**» فأنتم تقولون إنّي أخطأت في التحكيم وإنّي ضللت عن الخط المستقيم، فإذا لم تسمعوا كلامي ولم تقبلوا عذري وبياني لكم أني لم أقبل التحكيم وأني لم أحكّم الرجال وإنما حكّمت القرآن ولكنّ الحكمين ابتعدا عن القرآن، فلتحاسبوني إذاً أنا شخصياً ولا تعتدوا على المسلمين الذين لا ذنب لهم «**فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍصلى الله عليه وآله بِضَلاَلِي**» فالخوارج عندما تحولوا إلى معسكر معارض راحوا يقتلون

الرجال والنساء والأطفال «وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي». فإذا كنت أنا المذنب ـ وعلي عليه السلام فوق ان يُذنب ـ فَلِمَ الاعتداء على الآخرين وأخذهم بجريرة غيرهم ؟! ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1] تعالوا اقصدوني دونهم.

«سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ» أي للمذنب وللبريء «وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ» أي أصبح المسلمون عندكم جميعاً بلا استثناء كفاراً، فالخوارج يعتقدون أن مرتكب الكبيرة كافر، ولمّا كان المسلمون قد قبلوا التحكيم فإنّهم ارتكبوا الكبيرة فأصبحوا كفّاراً، وربّما ينسب إليهم بعض الباحثين أنهم يرون أن كلّ من أذنب فهو كافر، فالإمام عليه السلام يريد أن يبيّن لهم أنهم ما زالوا يؤمنون برسول صلى الله عليه وآله ويشهدون الشهادتين، فلنر كيف تعامل رسول الله صلى الله عليه وآله مع الذين ارتكبوا الكبائر ككفّار أم تعامل معهم كمسلمين ؟

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ» أي عامله كمسلم، خاصّة وأن زنا المحصن كبيرة، ومع ذلك فقد صلّى عليه والصلاة لا تجوز على الكافر وإنّما على المسلم، فهذه المعصية لم تُخرج الزاني من الإسلام. والكافر لا يرث المسلم وإنما المسلم يرث المسلم، الأمر الذي يعني أن الزاني لم يعامل ككافر. «وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ» فأهل القاتل مسلمون وهم يرثون ابنهم القتيل وهو مسلم فالقتل لم يخرج القاتل عن الإسلام «وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ» أي أعطاهم رواتبهم وأعطياتهم من بيت المال، رغم أن هذه كلّها كبائر «وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ» أي تزوّجا منهن «فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بِذُنُوبِهِمْ وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ» بالحدّ الذي أجراه عليهم «وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الإِسْلَامِ» أي تعامل معهم كمسلمين

١ـ الأنعام: ١٦٤.

ودفع إليهم حصصهم من المال «وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ» أي من بين أهل الإسلام.

وبعد أن أقام الحجّة البالغة عليهم، وقال لهم إنكم مخطئون في فهمكم العقيدي للإسلام، فالكبيرة لا تُخرج المسلم من الإسلام بدليل سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله فعلى أي أساس تقتلون المسلمين وتكفّرونهم ؟! يقول عليه السلام: «ثُمَّ أَنْتُمْ شِـرَارُ النَّـاسِ» لأنكم تتحركون بالذهنية العدوانية المتعصّبة لا بالروحية الإسـلامية المـتسامحة التي تفكر بالخير وتخطّط للوصول إلى مواقعه بالحوار بالتي هي أحسن مما يدلّ على روح الشر المتأصلة في نفوسكم التي تدفعكم إلى العدوان على البلاد والعباد.

«وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ» أي رماهم الشيطان بعيداً فضلّوا عن الطريق «وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ» أي سلك به في بوادي الضلال التي يتيه فيها الإنسان.

الموقف من علي عليه السلام:

ثمّ ركّز الإمام عليه السلام موقف الناس منه. «وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِـنْفَانِ مُـحِبٌّ مُـفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ» أي هذا الذي يرتفع بي إلى ما يقرب من الإلوهية وقد نقل لنا التاريخ أنَّ هناك من أدّعى الألوهية لعلي عليه السلام في حياته وقد قـتلهم إحراقاً بالنار. «وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَـيْرِ الْـحَقِّ»، أي ذاك الذي بخس علياً عليه السلام حقّه «وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالاً النَّمَطُ الأَوْسَطُ فَـالْزَمُوهُ» أي الذيـن يلتزمون بي كما أراد الله ورسوله من أنني خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه، وأنني مع الحق وأنني بشرٌ كما أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله بشر. «وَالْزَمُوا السَّوَادَ الأَعْظَمَ» فالخوارج كانوا خارج نطاق الجوّ الإسلامي الذي كان مع علي عليه السلام «فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِـلشَّيْطَانِ» أي الذي يـبتعد عـن الجـماعة السائرة على غير طريق الحق، كما هو الشاذ من الغنم الذي يخرج عن قطيعه فهو

للذئب يفترسه، فكذلك الشاذ عن الجماعة هو للشيطان يفترسه.

«أَلاَ مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ» أي شعار (لا حكم إلاّ لله) وشعار الفرقة والتمزّق «وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ وَإِحْيَاؤُهُ الاِجْتِمَاعُ عَلَيْهِ وَإِمَاتَتُهُ الاِفْتِرَاقُ عَنْهُ فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمُ اتَّبَعْنَاهُمْ وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا فَلَمْ آتِ لاَ أَبَا لَكُمْ بُجْراً» أي لم آت شراً أو أمراً عظيماً ولا أذنبت ولا ارتكبت كبيرة «وَلا خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ» فما كنت خدعتكم عن أمركم «وَلا لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ» أي لم أخلط الأمور حتىّ تشتبه عليكم، فلقد كنت واضحاً أشد الوضوح. «إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ» فلم أكن راضياً لا بأبي موسى الاشعرى ولا بعمرو بن العاص لكنّكم ضغطتم عليّ بعد أن كنت قد اخترت عبد الله بن عباس وهو حبر الأمة، وهو يعرف كيف يخوض المعركة، فيما أن أبا موسى ليس معي وهو ساذج وبسيط «أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلاَّ يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ فَتَاهَا عَنْهُ وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا» فلقد إستثنينا عليهما ذلك ولكنهما لم يلتزما به.

ونقرأ أيضاً نصاً آخر لنعرف أن مصيبة الإمام علي عليه السلام هي أعظم من مصيبة الحسين عليه السلام فلقد كانت كربلاء معركة خاضها الحسين عليه السلام كأقسى ما تكون المأساة، ولكن علياً عليه السلام كان يتقطّع في كلّ يوم قطعة قطعة منذ توفي رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن استشهد عليه السلام.

قام إليه رجل من أصحابه فقال: «**نهيتنا عن الحكومة**» ففي البداية قلت إنّ جماعة معاوية ليسوا أهل كتاب فلا تقبلوا بالتحكيم «**ثمّ أمرتنا بها**» فحين أطبق الناس على ذلك قلت لا بأس «**فلم ندر أي الأمرين أرشد؟**» أحين نهيتنا أم حين أمرتنا؟ «**فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى**، وقال: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ»

أي ما حصل عليه التعاقد. «أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ لَكَانَتِ الْوُثْقَى» فلقد كان يمكنني ذلك بالضغط وبالقوة.

شكوى علي عليه السلام المريرة:

«وَلَكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ» فبمن أصول؟ وإلى من أتجه؟ «أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي» فهل يُداوى المرضُ بالمرض؟ وهذا يكشف عن مدى معاناة الإمام عليه السلام من قومه «كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ» كذاك الذي يرد إزالة الشوكة بالشوكة «وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا» أي أنها جارحة «اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هَذَا الدَّاءِ الدَّوِيِّ» أي الذي يتمثّل في جماعتي، فلقد ملّ الأطباء منه لأنّ علاجه أعياهم «وَكَلَّتِ النَّزْعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِيِّ» والأشطان هي الحبال والركي هو البئر «أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الإِسْلاَمِ فَقَبِلُوهُ وَقَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَهِيجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلَى أَوْلاَدِهَا وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً وَصَفّاً صَفّاً بَعْضٌ هَلَكَ وَبَعْضٌ نَجَا لاَ يُبَشَّرُونَ بِالأَحْيَاءِ» فلو بقي شخص منهم حياً فإنّهم يسعون بالبشارة له فإنّ أفضل الأشياء عندهم هو القتل في سبيل الله لأنّه أكرم القتل والبرّ الذي لا برّ فوقه. «وَلاَ يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى» لأنهم يعتبرون الذي يموت في سبيل الله لا يعزّى به بل يفرح له لأنّه كرامة من الله. «مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ» فهؤلاء الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله قد فسدت عيونهم من كثرة البكاء من خشية الله «خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ ذُبُلُ الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ صُفْرُ الأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ أُولَئِكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ وَنَعَضَّ الأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ».

وهناك نصوص قصيرة خاطب بها الخوارج ومنها قوله «أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ» وذلك بعد أن اعتزلوا الحكومة وتنادوا أن: «لا حكم إلاّ لله» «وَلاَ بَقِيَ مِنْكُمْ آثِرٌ»

أي أنه يدعو عليهم بأن لا يبقى منهم لشخص أثر، أي يُمحقوا ويُبادوا جميعاً «أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللَّهِ وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ؟» أي تريدون مني أن اعترف بأنّي كفرت ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إذاً وَمَا أنَا مِـنَ الْمُـهْتَدِينَ﴾[1]. إذا فعلت ذلك «فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ» أي ارجعوا شرّ رجعة «وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الأَعْقَابِ أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي» وهنا يحدثهم عن مستقبلهم «ذُلاًّ شَامِلاً وَسَـيْفاً قَـاطِعاً وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً» وهكذا تفرّق الخوارج ولم تبق منهم إلاّ القلة القليلة.

مناقشة (لا حكم إلاّ الله):

وهناك نصّان آخران في الاتجاه نفسه، يحاول الإمامعليه السلام من خلالهما أن يردّ على شعار (لا حكم إلاّ لله) فهو صحيح من خلال قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾[2]. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3]. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[4]. ولكنّ القضية ليست أن تطلق الشعار بل كيف تطبّقه على الواقع؟ وكيف تحرّكه في مواقع الخلاف والنزاع؟ لذا أراد الإمام عليعليه السلام أن يعالج المشكلة معالجة فكرية ويعطينا من خلالها خطّاً للعمل سواء في خط المعارضة أو في خط الموالاة، إذا صح التعبير.

قالعليه السلام لما سمع قول الخوارج (لا حكم إلاّ لله): «كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ» فليس المهم أن تقول كلمة الحق بل ما هو هدفك من قولها؟ هل هو أن تقيم الحق أو أن تستغل الكلمة في غير مجالها لتركّز الباطل باسم الحق؟ «نَعَمْ إِنَّهُ لاَ حُكْمَ إِلاَّ

١ـ الأنعام: ٥٦. ٢ـ المائدة: ٤٤. ٣ـ المائدة: ٤٥.
٤ـ المائدة: ٤٧.

لِلَّهِ وَلَكِنَّ هَؤُلاَءِ يَقُولُونَ لاَ إِمْرَةَ إِلاَّ لِلَّهِ» فهناك فرق في المعنيين، فالحكم لله يعني أن نأخذ بما حكم الله به في كتابه، لكنّ الحكم كإجراء تنفيذي يحتاج إلى أمير ومسؤول وحاكم، والله لا يحكم بشكل مباشر، أي أنه لا يعطي المظلوم حقه من ظالمه مباشرة، بل لابدّ من حاكم يحكم بين الناس بحكم الله ليقتصّ من الظالم لحساب المظلوم وليرجع الحق إلى صاحبه، فلابدّ أن يكون هناك حاكم «وَإِنَّهُ لاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ» أي أن المجتمع لا بدّ له من نظام يرتكز عليه، فلا يمكن له أن يعيش الفوضى، فالأصل أن يكون هناك أمير برّ يحكم بحكم الله ويعدل بين الناس بالحقّ، فإذا لم يكن فلابدّ من أمير فاجر من أجل أن يحفظ نظام المجتمع الذي إذا لم يكن له أمير أو حاكم أو مسؤول أو رئيس دولة فإنّ الفوضى تدبّ في أوساطه وبذلك يضيع الناس ويفقدون الأمن بحيث يأكل القوي الضعيف «يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ» على قاعدة التعايش مع الباطل وعدم الاعتراف بشرعيته «وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ وَيُبَلِّغُ اللَّهُ فِيهَا الأَجَلَ وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ» أي ميزانية الدولة «وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ» أي أن تكون هناك شرطة وجيش ورجال أمن حتىّ يحافظوا على أمن الطرق من استغلال قطّاع الطرق وعلى البلد من العدوان الخارجي «وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ».

وفي رواية أخرى قال عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال: «حُكْمَ اللَّهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ وَقَالَ أَمَّا الإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ وَأَمَّا الإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ».

فالإمام عليه السلام حلّل مضمون الشعار الذي أطلقه الخوارج تحليلاً دقيقاً، فالفرق واضح بين أن تقول (لا حكم إلاّ لله) وبين أن تقول (لا إمرة إلاّ لله) فالله يحكم ولكنه يحكم من خلال الناس ولا يحكم بشكل مباشر، وإذا دار الأمر بين الفوضى

وحكم الحاكم غير الحق فلا إشكال أن حكمه يقدّم على الفوضى. نعم، إذا دار الأمر بين الحاكم الحق وبين الحاكم الباطل فلا بد أن نقدّم الحاكم الحق على الحاكم الباطل.

وعي الشعار:

ولابدّ من أن نأخذ من هذه الكلمة درساً في القضايا السياسية والدينية والاجتماعية من خلال ما يطلق من شعارات فضفاضة تجتذب مشاعر الناس وعواطفهم. فعليك عندما تسمع الشعار أن لا تنجذب إليه بل تدرس خلفياته وحركيته في الواقع حتىّ تستطيع أن تتعرّف على اتجاه مضمون هذا الشعار بحسب الواقع ؟ وإلى أين يتجه بحسب الخلفيات ؟ لأننا نعرف أنه منذ زمن الخوارج وفي مدى التاريخ الإسلامي أو التأريخ الحاضر الذي سيطر فيه الغرب المستعمر على مقدرات المسلمين، أنّ الناس يتحرّكون خلف شعارات برّاقة فضفاضة تلتقي مع غرائزهم ومع أحاسيسهم ولكنّ الذي يطلق الشعار ربّما يكون قد خبّأ في خطته العناصر التي تحاول أن تصل به إلى ما يريد من السيطرة على الناس.

ولذا يريدنا الإمام علي عليه السلام أن نكون الواعين لمرامي الشعارات لا أن تجتذبنا الشعارات، وأن ندرس من يطلق الشعار ؟ وإلى أين يتجه ؟ وما هي خلفياته ؟. فمشكلتنا هي في هذه السذاجة الدينية والسياسية والاجتماعية التي تجعلنا نخضع للإشاعات والشعارات وكلّ الخطط التي تتحرّك هنا وهناك.. واذكر في هذا المجال كلمة للإمام الصادق عليه السلام يردّ فيها على من يقولون بأن المؤمن بسيط طيب ساذج أي يمكن أن تنطلي عليه اللعب والأحابيل «**المؤمن حسن المعونة**» أي يعين غيره وليس أنانياً «**خفيف المؤنة**» لا يثقل نفسه على الآخرين «**جيد التدبير لأمر معيشته**» أي لا يغلب في التجارة والحصول على المعيشة «**لا يلدغ من جحر مرتين**». فإذا خاض تجربة فاشلة فلا يكرّرها في موضع الفشل.

الدقّة في التشخيص:

وهناك كلمة للإمام علي عليه السلام ترسم خطاً فكرياً في هذا المجال، فبعد أن قاتل الخوارج أعطاهم حقهم في الفيء، وإنّما قاتلهم لأنهم قطعوا طريق المسلمين وصاروا مفسدين في الأرض، فقاتلهم من أجل حماية النظام، ولذا قال «لاَ تُقَاتِلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ» فالفرق بين الخوارج وبين معاوية أنّ الخوارج متدينون ولكنهم متدينون جاهلون ولن ينفعهم دينهم في الآخرة، وفي الحديث: «**قصم ظهري اثنان عالم متهتك وجاهل متنسك**»[1] يتعبّد بشتى العبادات لكنّه يفهم القضايا بشكل مقلوب. فالإمام علي عليه السلام ينهى عن مقاتلتهم ويدعو إلى محاورتهم لأنّهم أرادوا الحقّ وأخطأوا، فمن يطلب الحق قد يمكن التفاهم معه بمجرد أن يفتح عقله، لكن معاوية طلب الباطل وهو يعرف الحقّ وانحرف عن الحق عمداً فأدرك الباطل.

فعندما نعيش الاختلاف في دوائرنا المذهبية أو الطائفية أو السياسية نرى أنَّ هناك أناساً يطلبون الحقّ ولكنّهم يخطئون الطريق إليه لأنّهم لم تتوفّر لديهم البيئة التي تعطيهم مناخ الحقّ، ولم تتوفّر الوسائل التي يفهمون بها الحقّ ويصلون إليه فلا يصحّ مقاتلة ومقاطعة هؤلاء، بل علينا أن نواصلهم ونبقى في حوار معهم. أمّا الذي يطلب الباطل وهو يعرف الحق فنقاتله لأنّ الحوار معه لا يجدي نفعاً فالقضية ليست قضية خلاف فكري بل هي خلاف على الواقع، ولذا يقول الله تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[2] وهم الذين يريدون أن يفرضوا القوة عليكم ويصادروا حرياتكم وواقعكم، فهؤلاء لا يريدون الحوار إطلاقاً.

هذا هو علي عليه السلام الذي ارتفع حتىّ لم يبق مجال للارتفاع، وقد قال:

١- بحار الأنوار: ج١. ص ٢٠٨. ح ٨. ب ٥. ٢ـ العنكبوت: ٤٦.

«**لوكشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً**»[١] هل تريدون أن تكونوا مع علي عليه السلام

إنّ السير مع علي عليه السلام متعب متعب متعب، لأنّ علياً عليه السلام مع الحق والحقّ مرّ وكريه مطعمه، حتىّ قال «**ما ترك لي الحق من صديق**»[٢]. لذلك علينا أن نكون مع علي عليه السلام في كلّ الإسلام الذي جاهد في سبيله، وفي كلّ الإسلام الذي شرحه وفسّره وعرّفه.. علينا أن نحمل فكر علي عليه السلام وثقافته وخطه حيث نستطيع أن نقدّم للعالم صورة علي الذي يمثّل الإسلام الحضاري الذي إذا انطلق في العالم عرف أنّه يمكن أن يحلّ مشكلة الإنسان المعاصر...

علي الحوار.. علي الأفق المنفتح.. علي الإنسان الذي عاش إنسانية الناس من حوله، وأراد أن يرفعهم إلى الله، وأن يبعدهم عن الوحول التي يتخبّطون فيها وتلك كلمته «**وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لأَنْفُسِكُمْ**»[٣].

١ـ شرح نهج البلاغة: ج٧. ب١١٣. ص٢٥١.

٢ـ شرح نهج البلاغة: ج٤. ب١٩٨. ص٣٠٢.

٣ـ النصوص التي وردت في أصل المحاضرة مأخوذة عن (نهج البلاغة) الخطب (١٣٥، ١٢٧١٣١، ٥٨، ٤٠، ٣٥).

الشهادة والوصية الخالدة

في التّاسع عشر من شهر رمضان، وفي محراب مسجد الكوفه، ضرب عبد الرحمن بن ملجم، الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على رأسه الشريف، وهو يصلّي في محرابه.

وكانت نهاية المطاف كبدايته في بيت الله، فلقد وُلِد في بيت الله وأطلق الصرخة فيه عندما جاءته الضربة وهو في المحراب «**بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله**» وكان الفرح الروحي يملأ قلبه عندما هتف «**فزتُ ورب الكعبة**» لأنه عرف أنّ حياته كانت لله ومع الله، في المسجد وفي الكعبة، وكانت حياته كلها مسجداً يعبدالله فيه بالجهاد وبالعلم وبالزهد وبالرأي يعطيه وبالحركة وبالصلة حتى عاش ذلك الفوز الروحي.

بقي الإمام عليه السلام ثلاثة أيّام وهو يعاني من جرحه، حتىّ كانت شهادته في الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك، وقد أراد الإمام في هذه الأيام الثلاثة أن لا يحرم أمته من وصاياه، فلم تشغله جراحاته عن التفكير في شأن الامة، ليربطها بالله، ويربطها بكلّ القواعد الأساسيّة في علاقاتها مع بعضها البعض، في وصيّته التّي أوصى بها عليه السلام ولديه الإمامين المعصومين الحسن والحسين عليهما السلام، وأنّ المقصود بالوصية الامة الإسلامية.. قال عليه السلام في هذه الوصّية:

«أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللَّهِ وَأَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا».

المبدأ الأول:

«أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللَّهِ»

أن تراقبا الله في كلّ شيء، وأن تعملا على أن تحسبا حساب الله في كلّ شيء وان لا تطلبا الدنيا حتىّ لو جاءت الدنيا لتقدّم نفسها إليكما... ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما.

عندما تخسرون شيئاً من الدنيا في مال أو غير مال فإنّ عليكم أن لا تعيشوا روح الأسف والألم والحسرة على فوات ذلك، بل اعتبروا أنّ الدنيا حسب طبيعتها تعطيكم شيئاً اليوم وقد تسلبكم أيّاه غداً، قد تعطيكم شيئا من جانب وتسلبكم إيّاه من جانب آخر.

فعلى الإنسان أن يتقبّل الدنيا بشكل طبيعي، بحيث انّه لا يفرح بما آتاه الله من الدنيا، ولا يأسف أو يتألّم على مافاته من الدنيا، بل يتقبّل ما آتاه من الدنيا بشكل طبيعي، ويتقبّل أيضاً ما خسره من الدنيا بشكل طبيعي، ويعتبر أنّ قضيته في الدنيا هي أن يطيع الله سبحانه، وليست قضيّته أن يحصل على مال لِيحقِّق ربحاً أو يعوض خسارة...

المبدأ الثاني:

«وَقُولاَ بِالْحَقِّ»

وهذا المبدأ يعني أن يعمل الإنسان على أن يتحدَّث بالحقّ والصدق، وأن يلتزم أيضاً بالحقّ والصدق، فلا يقول الكذب في كلّ موقع من مواقع حياته، ولا يلتزم الباطل في أي موقع من مواقع حياته.

هكذا كانت سيرة علي بن أبي طالب عليه السلام حتىّ قال: «**ما ترك لي الحق من صديق**». كانت قولة الحق في كلّ القضايا هي شعاره في كلّ مجالات حياته. وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في تأكيده علاقة علي بالحق وعلاقة الحقّ بعلي أنّه قال:

«**علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيث ما دار**».

فإذا كنّا نريد أن نكون شيعة علي عليه السلام وأتباعه، في الدائرة الإسلامية الّتي التزمها علي عليه السلام فعلينا أن نعمل على أساس أن نبحث عن الحّق أينما هو، سواء في حياتنا الخاصة، في داخل بيوتنا، أو حياتنا العامة في كلّ مجتمعاتنا، وأن لا نُصدر حكماً في أي جانب، ولا نتبنّى موقفاً في أي جانب، إلاّ إذا عرفنا أنّه الحق.

يجب أن لا تكون العداوة والصداقة هي الأساس في تأييدنا للمواقف، بل يكون الحقّ هو الأساس في التزامنا بالمواقف، فإذا قال عدوّنا الحقّ وكان الحقّ معه، فعلينا أن نقول الحق معه، وإذا كان صديقنا مع الباطل، فعلينا أن نواجهه لنكون ضدّه في هذا المجال.

تلك وصيّة علي بن أبي طالب عليه السلام لأننا إذا خسرنا شيئاً على أساس الحقّ فاننّا سنربحه في مجال آخر.

قد يرى بعض الناس أن الحق يعرّضهم للخسارة، ولكن الواقع أنّ الحقّ يكسبهم الربح في الدنيا وفي الآخرة.

المبدأ الثالث:

«وَاعْمَلاَ لِلْأَجْرِ».

وفي كلّ عمل من أعمال الإنسان يجب أن يفكّر هل هناك أجر من الله على هذا العمل، أو ليس هناك أجر، إنّ الله يريد الإنسان المسلم دائماً، في كلّ موقع من مواقع حياته، أن يفكّر برضا الله سبحانه وتعالى، وأن يفكّر بثواب الله، فالله لا يريد للإنسان أن يقوم بأي عمل على أساس العبث، أو على أساس المزاج.

إنّ الإنسان عندما يعمل في أي موقع من مواقع العمل، ليجلب الرزق لعياله فإنّه إذا أتى بالعمل قربة إلى الله، وسار على أساسه في طريق الله، فإنّ الله سيجعل عمله في سبيل عياله عبادة.

وعندما يزور الإنسان مؤمناً من رفقائه، أو من أقاربه، فإذا قصد وجه الله في زيارته له وإدخال السرور عليه، فإنّ ذلك يعتبر عبادة تقرّبه إلى الله، سبحانه وتعالى.

المبدأ الرابع:

«وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً»

هذا المبدأ يشمل الجانب الاجتماعي في علاقات الناس ببعضهم البعض، أو الجانب السياسي في علاقة الحاكم بالمحكومين، والمحكومين بالحاكم، وعلاقة الناس ببعضهم البعض.. أن يكون الأساس في أن يعاون الإنسان شخصاً على شيء، أو أن يكون ضد شخص على شيء، هو أن يكون الشخص الذي تعاونه مظلوماً، وأن يكون الشّخص الّذي تقف ضده ظالماً.

ولهذا لابدّ للإنسان دائماً أن يحدّد في مستوى الحياة الاجتماعية، من هو الظالم ومن هو المظلوم، وذلك بالتدقيق فيما يعمله هذا ويعمله ذاك، وفيما يقوله هذا ويقوله ذلك، لا أن يكون تحديدنا للظالم والمظلوم، منطلقاً من الإشاعات، أو من الكلمات غير الموثوقة، أو من القضايا التي تحمل أكثر من وجه، بل أن نحدّد الظالم من موقع اليقين، ومن موقع الثقة، ومن موقع الاطمئنان، حتىّ نواجهه على أساس متين، لا على أساس منهار.

وهكذا عندما نريد أن نحدّد المظلوم، أن لا يكون تحديدنا للظالمين والمظلومين ناشئاً من هوى النفس، أو ناشئاً من العاطفة، أو ناشئاً من الصداقة، أو القرابة أو المزاج. فبعض النّاس، يعتبر كلّ شيء يتحرّك ضد بعض أقاربه، فيعتبر أقاربه مظلومين على طول الخط، ويعتبر أنّ البعيدين عنه ظالمون على طول الخط.. لا بد لنا أن نحدّد مسألة المظلوميّة والظالميّة من غير جهة العداوة والصداقة

ومن غير جهة القرابة والبُعد، ومن غير جهة التحزّب.

المبدأ الخامس:

«أُوصِيكُمَا وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى اللَّهِ وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ».

عندما نستمع إلى وصيّة الإمام علي عليه السلام في آخر أيامه، فنحن معنيّون بهذه الوصية، لأنّ الإمام يقول كلّ من سمع هذا الكتاب فأنا أوصيه بهذه الوصيّة، وعليه أن يتحمّل مسؤوليته في تطبيق هذه الوصيّة، على واقعه وواقع النّاس من حوله.

تقوى الله هي الأساس، لأنّ تقوى الله هي مراقبة الله، وكلما راقبنا الله أكثر كلما ضبطنا مواقع خطواتنا في الحياة أكثر. يقول الإمام علي عليه السلام: أوصيكما بتقوى الله ونظم أمركم.

إن الإمام عليه السلام يخاطب النّاس ـ من خلال مخاطبة ولديه ـ: حاولوا أن تنظّموا أموركم وعلاقاتكم ووضعكم في القضايا التي تختلفون فيها، وأن تنظّموا وضعكم في القضايا التي تتّفقون فيها حتىّ تستطيعوا أن تواجهوا علاقاتكم ببعضكم، من موقع التنظيم الواعي لأموركم، في كلّ ما تلتقون عليه، وفي كلّ ما تفترقون فيه.

وهذا هو الأساس في سلامة كلّ مجتمع من المجتمعات، هو أن تكون علاقاته ببعضه، علاقات ترتكز على أساس القواعد التي تنظّم للمجتمع دوره، في حركة افراده، ودوره في علاقات أفراده ببعضهم البعض.

وهذه هي المشكلة التي لا يزال المسلمون يعيشون فيها على مستوى مجتمعاتهم، فإنّهم يتحرّكون كأفراد، ولا يتحرّكون كمجتمع، بحيث أنّ فريقاً يتصور نفسه كلّ شيء أو كلّ شخص يتصوّر نفسه أنّ الحياة له، وليس لاحدٍ حقّ الحياة معه، وأنّ الساحة له وليس لأحد غيره.

هذا على مستوى الأفراد، وعلى مستوى العشائر، وعلى مستوى الأحزاب

وعلى مستوى الطوائف.. الكل يريد أن يلغي وجود الطرف الآخر وبذلك يتصرّف كما لو كان الطرف الآخر ليس موجوداً.

نحن والإمام علي عليه السلام:

هناك أشياء كثيرة تتغيّر بتغيّر الزمان، فيما يتحدّثه الناس من طريقة اللباس والأكل والشرب، والتدفئة والتبريد، وطريقة الحياة وطبيعة العلاقات التي يتحرّك فيها النّاس، هذه أمور تتغير.. هذا ما يؤكّده الإمام علي عليه السلام عندما قال:

«لا تخلّقوا أولادكم بأخلاقكم، فإنّهم خُلِقوا لِزَمان غير زمانكم».

ليس من الضروري للأب أن يعوّد ابنه على كلّ عاداته وطريقته وعمله.

فالإنسان لديه طريقة في اللباس وفي الاكل، لأنّه عاش في زمن يحتاج إلى ما هو فيه، ولكن ولده يحتاج إلى طريقة مختلفة في الكلام والتخاطب، وفي العلاقات وفي الحياة. ليس من الضروري أن يكون الأبناء على صورة آبائهم في الأشياء المتحرّكة في الحياة.

لكن الأمر يختلف مع المباديء، لأنّ المباديء لا تتغيّر، فحرام الله لا يتغّير لأنه لم ينطلق من حالة زمنية محدودة، حتىّ إذا تقدّم الزمن انتهت تلك الحالة، وكذلك الحلال لم ينطلق من حالة زمنية محددة، حتىّ إذا تغيّر الزمان تغيّرت تلك الحالة.

يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة:

«وَلا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرّاً».

يجب على الإنسان أن يؤكّد حريّته كشيء يعيش في ذاته، مما لا حقّ أن يتنازل عنه لأحد، أن يتمسّك بحريّته أمام كلّ النّاس، إلاّ الناس الذين أراد الله

سبحانه وتعالى أن يتنازل الإنسان عن حريتّه لارادتهم، لانّ إرادتهم مستمدة من إرادة الله.

من لا يكون حرّاً لا يكون شيعياً، لأنّ الحريّة هي عمق خطّ علي عليه السلام في حركة الواقع السياسي، فيما هو الإنسان الحرّ في الحياة.

وعندما يقول الإمام علي عليه السلام: «**قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ**».

فهذا يعني أنّ قيمة كلّ إنسان بمقدار ما يكون صاحب فكر وعلم ووعي وثقافة.

إنّ الإمام عليّاً عليه السلام يريد لشيعته أن تكون، الجماعة التي تتحرّك في خط تصاعدي مع كلّ حركة التطّور العلمي، لا يريد لشيعته أن يكونوا الجاهلين الذين يلتقطون فتات موائد الآخرين فيما يريدون أن يأخذوه أو يتعلّموه.

قيمة الإنسان بمقدار ما يُحسن، وبمقدار ما يعلم، لذلك يعتبر الشيعي العِلم عنواناً له، ويعتبر العِلم خطّاً له في كلّ ما يتحرّك فيه من الحياة، هذا هو المفهوم الذي يختزنه معنى التشيّع فيما يختزنه التشيّع من معنى الإسلام.

أن يكون الإنسان شيعياً فمعناه أن يحمل في قلبه الإسلام من خلال ما عاشه علي عليه السلام فيما فهمه من القرآن.. ومن خلال ما عاشه علي عليه السلام فيما فهمه من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن يتحرّك معه في خط جهاده.

لهذا يجب تحديد خط التشيّع حتىّ لا يكون التشيّع، مجرّد التزام بشخص ورفض شخص، بل يكون التشيّع التزاماً بنهج ورفض نهج، التزاماً بخطّ ورفضاً لخطّ. أن تكون حركة الإنسان في داخل التشيّع حركة تشمل الحياة كلهّا، حتىّ لا تتجمّد الرموز في التأريخ.. أن لا تكون شيعياً يعيش في قلب التأريخ دون أن يسحب التشيّع إلى حركة الحاضر.

الإنتماء للإمام علي عليه السلام مسؤولية:

إنّ انتماءنا لعلي عليه السلام يفرض علينا أن نكون الصادقين، أن نكون الأمناء، وأن نكون المحقّين، الذين يتحرّكون مع أهل الحق.

فعلي عليه السلام ليس كلمة نهتف بها، بل هو موقف ورسالة، لا بد أن نلتزمها ونتبعها.

وعلى هذا الأساس، فإذا أردنا أن نقف مع علي عليه السلام فلا بدّ أن نواجه الباطل كلَّه، كما واجه الباطل كلَّه.

لقد واجه علي عليه السلام الباطل في الكفر، فوقف ضد الكفر، وحارب الكافرين. وواجه علي عليه السلام الباطل في داخل المسلمين، فوقف ضد أهل الباطل منهم، في ما كانوا يتحرّكون فيه من فكر، ومن ممارسات ومناهج...

وقف علي عليه السلام ضد ذلك كله، فكيف يمكن أن يكون موقفنا في كلِّ ما يُثار حولنا من قضايا، وفي كل ما يتحرك عندنا من أوضاع؟

الفصل الرابع

من مدرسة الإمام علي عليه السلام

- الهدف من الحياة.
- التوازن الإجتماعي.
- خصال أهل الإيمان وأهل الضلال.
- القرآن في حياة الإمام علي عليه السلام.
- أدعية الإمام علي عليه السلام

من مواعظ الإمام علي عليه السلام

«فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ وَظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لأَمَانِهِ وَ تَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ وَسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلاَتُ الْغُرُورِ وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الأُمُورِ»

***

«وَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ»

***

«عِبَادَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ»

***

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ وَأَكَلَ قُوتَهُ وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ»

***

«مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالإِجْلاَلِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ»

***

«النَّاسُ ثَلاَثَةٌ فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ»

***

«وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ وَ لاَ أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ وَ لاَ أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاَوَتِهِ وَلاَ أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ لاَ فِي الْبِلاَدِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَلاَ أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ»

***

«فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ فَلاَ يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِلاَّ بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ»

***

«يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا وَ لاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ»

***

«لاَ يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لاَ يَشْكُرُهُ لَكَ فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لاَ يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ»

***

«أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الإِخْوَانِ وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ»

***

«أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا»

***

«أيُّها الناسُ لولا كراهيةِ الغدْرِ لكُنْتُ منْ أدهى الناسِ ألا إنّ لكلّ غِدْرةٍ فجرة، ولكلّ فجرة كفرة، ألا إنّ الغدر والفجور والخيانةِ في النار»

***

«فَإِنَّ الْمَرْءَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ وَيَحْزَنُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ فَلاَ يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ وَلَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ أَوْ إِحْيَاءُ حَقٍّ»

❊ ❊ ❊

«خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ»

❊ ❊ ❊

«أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»

❊ ❊ ❊

الهدف من الحياة

ونبقى مع الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام لندخل إلى مدرسته، ولنتعلّم منه مفاهيم حركتنا في الحياة، لأنّ علياً عليه السلام في كلماته كلّها كان يريد للإنسان أن يعيش في وضوح من الرؤية لكلّ مفردات حركته في الحياة بحيث أنه عندما يدخل في أيِّ موقع من المواقع أو يخرج منه، فلابدّ أن ينطلق من قاعدة ومن مفهوم واضح وهو أن لا يتحرّك من خلال مزاجه، لأنَّ المزاج الشخصي غالباً ما ينشأ من تعقيدات ومضاعفات البيئة التي يعيش فيها الإنسان، ولعلّ هذا من الأمور التي يعرفها كلّ إنسان عندما يرجع إلى نفسه. ونحن فيما نحب وفيما نبغض وفيما نؤيّد وفيما نرفض وفيما نتحرّك فيه في بيوتنا وفي نوادينا وفي مجتمعاتنا نجد أنّنا في الغالب لا ننطلق من خط إسلامي فكري واضح، وإنّما من خلال المؤثرات النفسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة التي غالباً ما تكون غرائزية، وبذلك كانت حركتنا في كثير من شؤون السياسة والاجتماع وحتى في الدين حركة لا تنطلق من وضوح في الرؤية للمفهوم الإسلامي الذي يفترض أن نلتزمه التزامنا بالإسلام.

كتابه عليه السلام في معنى الزهد:

من كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس حبر الأمّة، الذي قال عن أثر هذه الكلمات القصيرة في نفسه «**ما انتفعت بشيء من كلامه كما انتفعت بهذا الكلام**» لأنه يمثّل وجهة نظر الإسلام في رؤية الإنسان المسلم للحياة في عالم الرخاء والبلاء وبرنامجاً للعمل: «**فَإِنَّ الْمَرْءَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ**» فالناس

يفرحون عندما يربحون وينجحون وعندما يرزقهم الله ولداً، وعندما يحصلون على فرصة تلبّي حاجاتهم وتروي ظمأ شهواتهم. والإمام عليه السلام يقول إنّ هذا الشيء الذي تفرح به هو شيء تفرضه طبيعة الأسباب في الحياة، فأنت تُرزَق حيث يتحقّق سبب الرزق، وأنت تنجح حيث يتحقّق سبب النجاح، وأنت تُرزَق ولداً حيث تتحقق أسباب ولادة الولد. ولذلك فإن عليك أن تتلقّى كلّ ما يأتيك كما تتلقّى أيّ شيء طبيعي في الحياة لأنّ الشيء إذا تحقق سببه تحقّق.

« وَيَحْزَنُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ»، فأنت تخسر لأنّ سبب الربح لم يتحقّق، وتفشل لأنّك لم تأخذ بأسباب النجاح، وتفقد ولدك لأنّ سبب الحياة لم يمتدّ به، كما أنّك تحزن على الشيء الذي لم تكن لتصيبه، ولكن لماذا تحزن ؟ فهذا الشيء لن تصيبه ولن تحصل عليه لأنّ سببه لم يتحقّق، وقد استوحى الإمام علي عليه السلام هاتين الكلمتين من قوله تعالى في القرآن الكريم وعلي عليه السلام تلميذ القرآن ومفسّره ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[1]. فلا تتألم لما فاتك لأنه لن يحصل بحسب الظروف الطبيعية لحصول الأشياء، ولا تفرح بما آتاك لأنّه سوف يحصل على كلّ حال، فلا تتقبّل الخسارة بطريقة غير طبيعية، ولا تواجه الربح بشكل غير طبيعي، فالخسارة والربح يشبهان تعاقب الليل والنهار، فلو جاء النهار فهل نقيم له احتفالاً ؟ كلاّ، لأنّه أمر طبيعي، فالشمس تشرق في كلّ نهار، وعندما يأتي الليل ويذهب النهار فهل نقيم حفلة تأبينية لرحيل النهار ؟! إنّه كذلك أمر طبيعي، فالليل يأتي بسببه، والنهار يأتي بسببه وهكذا شؤون الحياة الأخرى ولذلك فهذه النظرة القرآنية تقول للإنسان إنّ عليك أن تتقبّل الحياة بطريقة طبيعية فلا يطغيك الربح ولاتسقطك الخسارة فللربح أسبابه وللخسارة أسبابها.

١ـ الحديد: ٢٣.

وقد استوحى الإمام علي عليه السلام من هاتين الفقرتين في القرآن مفهوم الزهد فقال كما في (نهج البلاغة) «الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ». أي تقبّل الحياة كما هي، فإذا جاءت الدنيا فتقبّلها بشكل طبيعي ولا تطغى ولا تنتفخ ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[1] ولا تشعر بأنّك أصبحت أكثر من حجمك، وإذا خسرت الدنيا فلا تسقط ولا تتعلق بها بحيث ترى نجاحها هو النجاح وسعادتها هي السعادة، أو ترى فشلها هو الفشل وشقاءها هو الشقاء، فلا تتألم لما فاتك ولا تفرح بما آتاك ولتكن في حالتيك سواء، وهذه هي النظرة الإسلامية الموضوعية للحياة التي تجعل الإنسان متوازناً أمام الربح والخسارة لأنّه يُرجع الأشياء إلى طبيعتها وعند ذاك يمكنك أن تواجهها بشكل عاديّ.

هدف الحياة:

فالإمام عليه السلام في هذه الكلمة يرصد الحالات الشعورية للإنسان فيما يستقبل به من الربح والخسارة، وهنا يأتي التوجيه «فَلاَ يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ» فلا يكن طموحك وقضيتك وخطتك التي تشعر من خلالها أنّك حصلت على ما تريد أن تشفي غيظك ممن أغاظك أو مما أغاظك فتفجّره عنفاً وانفعالاً وغضباً شديداً، أو إذا بلغت لذّتك فلا يكن أفضل ما نلت في دنياك ذلك، لماذا ؟ لأنّ اللذة تمثّل حجم اللحظة وادرسوا لذاتكم كلّها لتروا أنها قصيرة الأمد، فلذّة الطعام هي مجرد دوران اللقمة في الفم، ولذة الشراب بمجرد أن يرويك، ولذة الجنس بمجرد أن تنطفىء الرغبة، فكم هو إحساسكم باللذة ؟ إنّها لحظة، فهل يكون أفضل ما نلت في دنياك في حجم اللحظة بحيث تختصر

١ـ العلق: ٦.

حياتك كلّها في هذه اللحظة ؟ وهذا ما عبّر عنه عليعليه السلام في تجربته الخاصّة «مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لاَ تَبْقَى»[١] فهو يقول لنفسه: هل يكون حجمي هو حجم لذّة تأتي ثمّ تذهب؟ وهل يكون حجم عقلي وقلبي وطاقتي وإنسانيتي مجرد نعيم أتقلّب فيه للحظة ثمّ يفنى ولا يبقى من لذّته شيء؟

فلا تكن طموحاتك أن تبلغ لذّتك وتشفي غيظك. فما هو إذن ـ يا أمير المؤمنين ـ العنوان الذي يكون هدفنا في الحياة؟ وما هو طموحنا الذي نسعى إليه؟ «وَلَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ أَوْ إِحْيَاءُ حَقٍّ» فلتكن صاحب رسالة في الحياة كلّها للإنسان كلّه، فهناك باطل لابدّ أن تسقطه فهو يرهق حياة الإنسان ويسقط إنسانيته، وهناك حقّ يرتفع بالإنسان ويسمو به ويحقّق للحياة نتائجها الإيجابية، فهذا هو الذي يبقى حتىّ لو فارقت الحياة لأنّك بذلك تترك للحياة شيئاً من الحق في عقلك، ومن المحبّة شيئاً في قلبك، ومن الخير شيئاً في طاقتك، ومن العدل شيئاً في سلوكك فإنّك قد تموت ولكنّك تبقى حيّاً في الحقّ، وتلك هي المسألة. وقد كان طموح عليعليه السلام الحق ولا شيء غير الحق، حتىّ قال رسول اللهعليه السلام «**علي مع الحق والحقّ مع علي يدور معه حيثما دار**»[٢] وقال لنا وهو يروي مأساته في مسيرته التي عاشها بعد رسول اللهصلى الله عليه وآله «**ما ترك لي الحقّ من صديق**»[٣].

ثمّ يقول عليه السلام: «فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ» لآخرتك ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾[٤] ﴿وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[٥] وفي الحديث «إذا مات ابن آدم تقول الملائكة: ما

١ـ شرح نهج البلاغة: ج١٢. ب١٣. ص١٤٩.
٢ـ شرح نهج البلاغة: ج١٨. ب١٢. ص١٧٦.
٣ـ شرح نهج البلاغة: ج١. ب١٩. ص٣٥.
٤ـ البقرة: ١١٠.
٥ـ الكهف: ٤٦.

قدّم ؟ ويقول الناس : ما أخّر؟». «وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا» من فرص فاتتك، ومن سيئات عملتها وأثقلت ظهرك ودخلت في كتاب أعمالك. «هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ» لأنّ همّك في حركة الحياة من حولك هو همّ لا عمق له لأنّ الحياة تزول والهمّ يزول ولكن الآخرة هي الخلود «والهمّ فيما يخلد» إذا لم تحرّكه في إعطائه فرصة من أجل أن يتحوّل إلى عمل في خط النجاح فإنّك ستبقى في همّ دائم وأيّ همّ أعظم من أن تصل إلى يوم القيامة فيقال ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾[1].

وهذه الكلمة هي برنامج عمليّ لأنّها تركّز لنا موقفنا من الحياة وأهدافنا فيها ومشاعرنا تجاه ما نواجه من أعمال ومسؤوليات.

كتابه عليه السلام في التحذير من الدنيا:

وفي كتاب له في الموعظة إلى سلمان الفارسي وقد كتبه له قبل أيام خلافته ولنلاحظ كيف أن سلمان الذي بلغ الدرجة العليا من القرب لرسول الله صلى الله عليه وآله من خلال قربه لله والتزامه بالإسلام حتىّ قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله «**سلمان منّا أهل البيت**»[2] عندما يتحدّث معه عليّ عليه السلام ويكتب له فإنّه يكتب له كتاب موعظة يصف له فيه الدنيا وهشاشتها، ونتعلّم من ذلك أنه ما من إنسان إلاّ وهو بحاجة إلى موعظة لأنّ القلوب قد تقسو، ولأنّ الحياة قد تُدخل الإنسان في مداخل لا يشعر إلا وقد استسلم فيها للنفس الأمّارة بالسوء، ولأنّ الوسواس الخنّاس يأتي للصغار وللكبار، ولذلك فالإنسان مهما علا شأنه وكبر موقعه فهو ليس أكبر من أن يُوعَظ، وقد حدّثنا الله عن بعض الناس الذين وصلوا إلى مواقع اجتماعية أو سياسية وشعروا بأنّهم أكبر من أن يوعظوا وأعظم من أن يأمرهم أحد بالتقوى، ألم تسمعوا

١ـ الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢. ٢ـ بحار الأنوار: ج١٢. ب١٣. ص١٨٧. ح١٩.

قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهو يتحدّث بالوعظ والإرشاد وكلمات الحق ﴿وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ ويقول الله على ما أقول شهيد ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ﴾ فهو في واقعه وثقافته وخلفياته من الذين إذا دخلوا في ساحة الصراع كان المخاصم الألدّ والأشد عداوة وخصاماً، ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ فما دام خارج السلطة والولاية والمسؤولية فإنّه يستسقى به الغمام في كلامه ﴿سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَـرْثَ وَالنَّسْـلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ فإنه يرفض ذلك بشدة إذ كيف يقال له اتقِ الله وهو يعظ الناس بالتقوى. وهذه ظاهرة موجودة ونحن لا نتحدث بالمطلق ـ فإذا كبر موقع الإنسان الاجتماعي أو الديني أو السياسي فإنَّ شخصيته تتضخّم بحيث يرى الوعظ تنزيلاً من مقامه، وحطّاً من قدره، وأنه لا يناسبه ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ﴾[1].

ولذلك استمعوا لعلي عليه السلام كيف يخاطب سلمان الفارسي رضي الله عنه وهو مَنْ هو «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا قَاتِلٌ سَمُّهَا»[2] فالدنيا إذا أفرغت سموم الغواية في الإنسان فإنّه يموت روحياً وإن لم يمت جسدياً والموت الروحيّ هو أخطر من الموت الجسدي.

«فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا» أي لا تلتفت إلى زخارفها وزبارجها وإلى ما يعجبك من مواقعها ودرجاتها ولذّاتها وشهواتها «لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا» لأنّ كلّ هذه الأمور تلازمك وقتاً محدوداً ثمّ تفارقك، وعملك هو الوحيد الذي يصحبك. «وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا» فلا تهتم بالدنيا لأنّك قد تواجه فيها مشكلة فقر أو مشكلة مرض أو خوف أو مواقع تنتقص من موقعك وما إلى ذلك. فلا تبتئس وواجه المسألة بصدر رحب، لأنّ الهمّ الذي يفرض على الانسان أن

١ـ البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

٢ـ نهج البلاغة، الخطبة ٦٨.

يعيش ثقله هو الهمّ الذي يبقى، أمّا همّ الدنيا فإنّك سوف تفارقه ولا يبقى منه شيء وتتصرّف حالاتها فلا الرخاء يدوم ولا البلاء يبقى ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾[1]. فهي لا تبقى على أية حال، «وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا» جانباً، فلا تدخلها عقلك لتثقله، ولا تدخلها قلبك لتثقله، ولا تدخلها حياتك لتؤخّر مشاريع الحياة التي تريد أن تنطلق بها عندما تحيط بمشاريعك فلا يتبقّى لك ما تتوجّه به أو ما تعيشه منها «لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَرُّفِ حَالاَتِهَا وَكُنْ آنَسَ مَا تَكُونُ بِهَا أَحْذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا» فعندما يواجهك شيء من سرورها فلا تستسلم له سواء كان سرور نجاح أو ربح أو حصولك على فرصة أو شهوة أو لذّة «فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ عَنْهُ إِلَى مَحْذُورٍ» فبينما تكون ضاحكاً يأتيك البكاء في قلب الضحك «أَوْ إِلَى إِينَاسٍ أَزَالَتْهُ عَنْهُ إِلَى إِيحَاشٍ». وقد تقبّل سلمان كلمة علي عليه السلام لأنّ علياً عليه السلام عندما يتكلّم فإنه ينطلق من عين صافية هي عين الحقّ، وينفتح على أفق رحب هو أفق الله سبحانه وتعالى.

اشاعة المحبة والأُلفة:

في كلمة له عليه السلام هو يدّلنا كيف نجتذب الآخرين للحب فيقول: «قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ»[2] ولا يقصد أمير المؤمنين عليه السلام من الرجال المعنى المذكور للكلمة، بل يريد الإنسان، بمعنى أن كلّ إنسان لا علاقة بينك وبينه فإنه يستوحش منك، لأن كلّ إنسان لا يعرفك ولاتربطه بك علاقة، فإن الشك يطوف به حول ماتفكّر فيه تجاهه أو حول طبيعة عناصر شخصيتك، وهل هي عناصر تتحرّك في مصلحته أو لاتتحرّك في مصلحته؟ لذلك فإنّ من الطبيعي أنك عندما تلتقي إنساناً لاتعرفه، فإنه يعرض عنك ولايُقبل عليك، فإذا أحببت أن يُقبل

١ـ آل عمران: ١٤٠. ٢ـ بحار الأنوار. ج ٧٤ ص ١٧٨ ب ١١ ج ١٩.

عليك فحاول أن تتألفه أن تقوم بالوسائل والأساليب التي تجعله يألفك، بالابتسامة ـ مثلاً ـ وهي التي تمثّل رسالة القلب إلى القلب. ولذلك كان من صفات رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه دائم الابتسام، وكان ذلك من صفات الائمة عليهم السلام كذلك، وهذا ماعبّر عنه الفرزدق في قصيدته التي يمدح بها الإمام علي بن الحسين عليه السلام عندما قال:

يُغضي حياءً ويُغْضَى من مهابته فلا يُكَلَّمُ إلاّ حين يبتسمُ

على احتمال إرجاع الكلام إليه وأنه لايتكلم إلاّ وهو يبتسم، فكانت بسمته تسبق كلمته. والابتسامة رسالة القلب إلى القلب، لأنَّ معنى أن تبتسم للشخص هو أنك تقول له إنّ علاقتي بك هي علاقة الفرح، ومعنى أن تسلّم عليه فذلك رسالة أخرى. ولذلك كان من أخلاق الإسلام إفشاء السلام، وكان من صفات رسول الله صلى الله عليه وآله أنه يبتدأ من يلتقيه بالسلام، وقد أراد الله لنا أن نعيش تحية الإسلام، حيث ورد في الحديث «**للسلام سبعون حسنة تسع وستون للمبتدىء وواحدة للراد وإن أحسن فعشر**»[١]، لأنَّ كلمة السلام هي الكلمة التي تعبّر للآخر أنَّ علاقتك به علاقة الحبّ والسلام لاعلاقة الحرب. ولهذا أراد الله سبحانه وتعالى لنا أن نعيش ذلك فسمَّى جنته دار السلام في قوله تعالى ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[٢]، وجعل تحية أهل الجنة السلام كما في قوله تعالى ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾[٣]. ويقول تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[٤] فأراد الله لنا أن نتدّرب على السلام، بأن نعطي السلام لكلّ الناس، فيوجب ذلك الألفة. وكذلك الكلمة الطيبة عندما ترسلها إلى الإنسان الآخر الذي تلتقيه، فإنَّها رسالة أخرى تفتح قلبه، وهكذا في كلّ مايمكنك أن تحتوي به الإنسان الآخر. وهذا

١ـ بحار الأنوار. ج ٧٨ ص ١١٩ ب ٢ ج ٢. ٢ـ الأنعام: ١٢٧.

٣ـ إبراهيم: ٢٣. ٤ـ الحجر: ٤٧.

ماأشار إليه الإمام عليه السلام في قوله: «قُـلُوبُ الرِّجَـالِ وَحْشِـيَّةٌ فَـمَنْ تَـأَلَّفَهَا أَقْـبَلَتْ عَلَيْهِ»[(١)].

ثمّ عليك أن تدرس الناس من حولك، فإذا كنت تريد أن تجتذب إنساناً إليك، فادرس عناصر شخصيته، وتعرّف مايحبّ ومايبغض، وادرس كلّ نقاط ضعفه وكلّ نقاط قوته، وحاول أن تحرّك ذلك كلّه، فإذا عاش الانسجام معك من خلال هذه الوسائل التي تنسجم مع أفكاره ومشاعره وأحاسيسه، فإنَّ من الطبيعي أن يتحوّل هذا القلب الوحشيّ الى قلب أليف، وعلي عليه السلام وهو يقول «قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ». ومن تلك الوسائل ما أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله «احْصُدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ»[(٢)]. بمعنى هل تريد أن ينفتح الآخر عليك بالخير؟ انفتح عليه إذاً بالخير، فرّغ صدرك من كلّ إحساس بالشرّ للناس، واجعل قلبك ينبض بالخير، فستنطلق هذه النبضات التي تحمل الخير في قلبك إلى صدور الآخرين لتنزع الشرَّ منها، لأنَّ الآخرين إذا رأوا منك ومن سلوكك معهم ـ الذي يكشف عن كلّ ماتختزنه في نفسك ـ مايوحي بالحب انجذبوا إليك، لأنَّ الإنسان عندما يشعر بالنبضات الإنسانية في الإنسان الآخر تتحرّك نبضاته الإنسانية بذلك.

وهكذا نجد الإمام علياً عليه السلام يحدّثنا في هذا المجال فيقول: «مَوَدَّةُ الآبَاءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ الأَبْنَاءِ»[(٣)] فعندما يكون آباؤكم أصدقاء وأودّاء لأبناءهم ممن حولكم، فإنَّ المودة المتبادلة بين الآباء هي نوع من القرابة بين الأبناء، إذ تسهم هذه المودة بخلق مودة جديدة بين أبنائهم تصل إلى حد القرابة. بل إنّ القرابة لولا المودة

١ـ بحار الأنوار. ج ٧. ب ٢٣ ب ص ١٢٣. ج ٦.

٢ـ شرح نهج البلاغة. ج ٩. ب ٢. ص ٢٣٤.

٣ـ شرح نهج البلاغة. ج ٤. ب ٣. ص ٣٤.

لاقيمة لها، ولذلك يقول عليه السلام «وَالْقَرَابَةُ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَحْوَجُ مِنَ الْمَوَدَّةِ إِلَى الْقَرَابَةِ»(١) لأنَّ القرابة مجرد علاقة في الدم، أما المودّة فهي علاقة القلب بالقلب، والروح بالروح، والإحساس بالإحساس، وكي تتعمّق القرابة لابد أن تُعبّأ بالمودة، فالقرابة بحاجة إلى المودة، والقرابة أحوج إلى المودة من المودة إلى القرابة، لأنّ المودة هي التي تربط الإنسان، في عناصر إنسانيته، بالإنسان الآخر في عناصر إنسانيته، فأي حاجة إلى الدم أن يرتبط بالدم مادامت الروح ترتبط بالروح؟!

دروس في المخالطة:

وهكذا يتابع الإمام علي عليه السلام المسألة في طريقة معاشرة الناس، ومخالطتهم، ولابد للإنسان أن يختلط بالإنسان، لأنه المدني والاجتماعي بطبعه، وفي نفس كلّ إنسان فراغ يملأه الآخر، ليس فقط بين المرأة والرجل في إحساس المرأة بالفراغ للرجل وإحساس الرجل بالفراغ للمرأة، بل الرجل بحاجة إلى الرجل الآخر، حاجته إلى صداقته ومودته وحاجته إلى التعاون في الحياة كلها، وكذلك حاجة المرأة إلى المرأة في كلّ ذلك. ولذلك يوجهنا عليه السلام إلى أسلوب المخالطة فيقول «خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ»(٢) بحيث تكون مخالطتكم لهم ملأى بالحب والخير والتعاون والمساعدة. فيشعرون بوجودكم الأساسي في الحياة بحيث لو متم لشعروا بالفراغ الكبير والضياع، لغياب هذا الحب وهذا الخير وهذا التعاون، لأنكم كنتم تملأون حياتهم بكلّ هذا الزخم من المشاعر الصادقة والطاهرة. «وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ» وإذا غبتم عنهم حنّوا إليكم لأن الإنسان يحنّ إلى من يحب، ويحن إلى مايملأ فراغ نفسه. وهكذا يقول الإمام عليه السلام في وصيته

١ـ شرح نهج البلاغة. ج ٤. ب ٣. ص ٣٤.

٢ـ شرح نهج البلاغة. ج ٣. ص ٢٤٥. ب ٩.

إلى الإمام الحسن عليه السلام: «يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ» فعندما تريد أن تتصرف مع الآخرين فكّر كيف تحب أن يتصرف الآخرون معك في هذه الحال أو تلك الحال. «فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَـهَا وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ» لأنَّ عليك ان تكره الظـلم كـله، فكـما تكـره ظـلم الآخرين لك اكره ظلمك للآخرين، لأن الإنسان الذي يـرفض الظـلم لابـد أن يرفضه كمبدأ، ولايعيش الأنانية في مسألة الظلم، «وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ»[1] فارضَ للناس في كلّ أمورهم بما ترضاه للناس من نـفسك فـي المعاملة. وهو يقول عليه السلام «كَفَاكَ أَدَباً لِنَفْسِكَ اجْتِنَابُ مَا تَكْرَهُهُ مِنْ غَيْرِكَ»[2] بمعنى اقتصر على ماتملك ثقافته ولا تتكلم بما لا تملك علمه لتحصل على ثقة الناس واحترامهم لك في انسجام كلامك مع الفكرة المرتكزة عـلى العـلم الذي تـملك عناصره الفكرية في ثقافتك بينما تمثّل الكلمات الناتجة عن عدم وعي المـعرفة للفكرة احتقارهم لك، «وَلا تَقُلْ مَـا لاَ تُـحِبُّ أَنْ يُـقَالَ لَكَ» فـلا تـبادر النـاس بالكلمات التي لاتحب للناس أن يـبادروك بـها. ومـن الطـبيعي أنَّ مـثل هـذه المفردات الأخلاقية التي تجمعها كلمة العدل مع الناس، تشعر بأنّ للـناس حـقّاً عليك تماماً كما أنَّ حقاً لك على الناس وأن تُوازن بينهما، وقد بلغ كلام رسـول الله صلى الله عليه وآله القمة في ذلك وهو يربط بين أن تكون مؤمناً وبين هذا المعنى إذ يقول عليه السلام «لا يؤمن أحدكم حتىّ يحب لأخيه مايحب لنفسه ويكره له مايكره لها»[3].

ويقول علي عليه السلام في كلمة له أيضاً: «إِذَا حُيِّيتَ بِتَحِيَّةٍ فَحَيِّ بِأَحْسَنَ مِنْهَا» وهذا من عناصر اجتذاب الناس إليك وتمتين علاقتك بهم، وهذا منهج قرآني، كما في

١ـ شرح نهج البلاغة. ج ١١. ص ١١١. ب ٣.

٢ـ شرح نهج البلاغة. ج ٧. ص ٣٠٥. ب ٢.

٣ـ شرح نهج البلاغة. ج ٦. ص ٩٩. ب ٣.

قوله تعالى ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾(١)، فلا تهملوا التحية فإن لم تحيّوا بالأحسن فلا أقل بالمساوي. فمن قال لك (السلام عليك)، فقل (السلام عليك ورحمة الله وبركاته)، ومن قال لك (صباح الخير)، فقل له (صباح الخير أهلاً ومرحباً بك)، ليشعر أنَّ تحيتك له من روحك ومن قلبك ومن أعماقك. يقول عليه السلام: «وَإِذَا أُسْدِيَتْ إِلَيْكَ يَدٌ فَكَافِئْهَا بِمَا يُرْبِي عَلَيْهَا»، فإذا قدّم لك أحد خدمة فلتكن مكافئتك له بما يزيد عليها ويبقى الفضل للبادىء. فإنَّ الذي حيّاك بتحية إنما بادلك الحب والتكريم وهو صاحب الفضل لكونه البادىء، وهو الذي فتح قلبك، ولذلك يقول عليه السلام: «وَالْفَضْلُ مَعَ ذَلِكَ لِلْبَادِئِ». وقال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض كلماته، «مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أَخْلاَقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ» بمعنى أنَّ مقاربة الناس تعود عليك بالفائدة أيضاً فضلاً عن الصداقة، لأنك إذا انفتحت على الناس في اجتذاب اخلاقهم لأخلاقك، أو اجتذاب أخلاقهم إليك، فإنّك تأمن من مشاكلهم، لأنَّهم إن أحبوك فإنّه لايمكن أن يأتي الشرّ إليك منهم. وفي مقابل هذا الجانب الإنساني المضيء ثمة جانب سلبي يشير إليه عليه السلام بقوله «مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ قَالُوا فِيهِ بِمَا لاَ يَعْلَمُونَ» فمن كان من الناس سريعاً في فعلٍ أو قولٍ مكروهٍ في الناس فإنَّهم سيقولون فيه ماليس فيه، وذلك كردّ فعل على طريقته في الحديث وتناول الناس، خصوصاً إذا كان هذا الكلام منطلقاً من الحالة الغرائزية والانفعالية التي يفتقر فيها إلى التوازن.

وفي كلام لعلي عليه السلام آخر يقول فيه «أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الإِخْوَانِ وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ»، بمعنى أنَّ الانسان الذي لايقدر على تكوين علاقات الصداقة مع الآخرين فإنّه من اعجز الناس، ولكن اعجز منه من وفّق لتكوين علاقات الصداقة مع الآخرين ثمّ يفرّط بهذه الصداقة ويضيّعها.

١ـ النساء: ٨٦.

وهذا يعني أن يحافظ الإنسان على صداقته للآخرين قدر المستطاع يبذل جهده في ألاّ تضيع ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلَّا وُسْعَهَا﴾[١]. فالمهم ان تعمل على أن تجتذب أصدقاءك وأن تحتفظ بصداقتهم وأُخوتّهم. ويقول عليه السلام أيضاً «عَاتِبْ أَخَاكَ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالإِنْعَامِ عَلَيْهِ». ولطالما اختلف الإخوان في النسب وفي الصداقة، فيتعاتبون، فيقول هذا إنك فعلت معي كذا، وذاك يقول إنّك فعلت كذا. أما الإمام عليه السلام فيقول عاتب أخاك بالإحسان إليه والإنعام عليه، وهذا أحسن وأفضل مصاديق العتاب. فليكن عتابك إليه بالسلام عليه ومعانقته وضمّه إليك، و لاتقل إنَّ كرامتي وعزتي تقتضيان عدم الخضوع له، فإنَّ الله سبحانه وتعالى وهو العزيز ﴿ فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾[٢] يغفر لعباده ويتوب عليهم، فهل يغفر لهم عن ضعف؟

ويقول عليه السلام: «الْمَوَدَّةُ قَرَابَةٌ مُسْتَفَادَةٌ» لأنَّ المودة كالقرابة من حيث الاندماج بالآخرين، حيث تندمج عناصر الإنسانية في شخصك وعناصر الإنسانية في الآخر، فتتوحّد الإنسانيتان في شعور وإحساس واحد.

ويقول عليه السلام ـ ولا زلنا في رحاب علي عليه السلام ـ «إِذَا احْتَشَمَ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ فَقَدْ فَارَقَهُ »[٣] فهو عليه السلام يحضّ المؤمن على أن يبذل نفسه لأخيه ولا يحتشمه، إذ ليس هناك رسميّات بين المؤمن وأخيه المؤمن. لأنَّ الله يقول ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٤]، وإذا أنت وضعت حواجز بينك وبين المؤمن، فإنك تعلن مفارقتك له «إِذَا احْتَشَمَ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ فَقَدْ فَارَقَهُ».

ويقول عليه السلام: «شَرُّ الإِخْوَانِ مَنْ تُكُلِّفَ لَهُ»[٥] فالأخ الذي تكلّف نفسك له ـ

١ـ البقرة: ٢٨٦. ٢ـ النساء: ١٣٩.
٣ـ شرح نهج البلاغة. ج ٢. ص ٧٦. ب ٥. ٤ـ الحجرات: ١٠.
٥ـ شرح نهج البلاغة. ج ٢. ب ٤٨٧. ص ٢٤٩.

فتعدّ له ـ مثلاً ـ مائدة طويلة عريضة وتخسر ماتخسر وتتحمّل من المشاكلّ ما أنت في غنى عنه، يصبح كالغريب وليس أخاً حقيقياً، لأن الأخ الحقيقي لايُتكلّف له، ولا تتطلّب أخوَّته مثل هذا التكلّف، إن بعض الناس يتطلب من إخوانه التكلف له، فيبذلون جهدهم في تعظيمه كما يفعلون مع الغريب، في وقت لابدّ فيه من أن نجعل مع الأخوان نوعاً من وحدة الحال كما يقولون. ولذا يقول الإمام علي عليه السلام في وصيته الأخيرة «وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ» وهنا يركّز الإمام عليه السلام لنا كيف نحب؟ هل نحبّ حباً أعمى؟ هل نحبّ مائة بالمائة؟ وكيف نبغض؟ هل نبغض بغضاً أعمى فنبغض مائة بالمائة أولا؟

يقول عليه السلام «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا» فعندما تحب لاتربط كلّ الجسور مع مَنْ تحب، بل اجعل لك جسراً تهرب منه، لأنه يمكن أن ينقلب إلى بغيض، وما أكثر ما تحوّل الأصدقاء إلى مبغضين.. أحبّه لكن بنسبة ٨٠ ٪ واجعل ٢٠ ٪ بينك وبينه من التحفّظ والحذر حتىّ إذا تحوّل هذا الحب إلى بغض، فإنك تستطيع أن تجد نافذة تهرب منها. «وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا» فلا تبغض من كلِّ قلبك، فاجعل زاوية في قلبك للحب «عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا»[1] فلا تنسف كلّ الجسور مع من تبغضه، بل أبقِ جسراً يمكن أن يعود إليك فيه أوتعود إليه فيه. وهذا لا يقتصر على الجوانب الأخلاقية الشخصية، بل يشمل الجوانب السياسية والجوانب الاجتماعية والجوانب الاقتصادية، وكأن الإمام عليه السلام يريد أن يقول لاتقاطع ولا تواصل بالمطلق. فإذا كانت هناك مشكلة على المستوى السياسي مثلاً بين دولتين أو حزبين، فلتكن هناك مساحة لاتشملها القطيعة، يمكن الرجوع إليها عندما تتغيّر الأمور، كأن تكون هناك مصالح تفرض العودة، أو كان من الضروري أن يعطي الآخر فرصة للعودة. وكذلك عندما

١ـ شرح نهج البلاغة. ج ١٦. ب ٣١. ص ١١٠.

تواصل مع أي فئة، سواء على المستوى السياسي أو على مستوى العلاقات الاقتصادية أو الاجتماعية، فلا تجعل العلاقات وطيدة مائة بالمائة، بل اترك نسبة ولو ضئيلة يمكن معها أن تمكّن نفسك من الانسحاب من هذه العلاقة لو أصبحت عبئاً. وبكلمة مختصرة كان الإمامعليه السلام يريد أن يقول: كن حذراً، والحذر شيء وقضية التعقيد شيء آخر.

ويقولعليه السلام في حديث آخر «**اتق شر من أحسنت إليه**» ولا يعني ذلك أن كلّ من تُحسن إليه سوف يأتيك الشرّ منه، فالإمامعليه السلام لا يقصد ذلك، بل يعني أن لا تستسلم إلى من أحسنت إليه. فإذا خدمت شخصاً أو احسنت إلى شخص فلا تغمض عينيك، وتقول إنَّ فلاناً قد أديت له خدمة وليس من المعقول أن يؤذيني، فإنَّ بعض الناس كلّما خدمته أكثر يتعقّد اكثر. فقولهعليه السلام «**إتق شر من احسنت إليه**» يعني أحذر منه، فلعلّ الشرّ يأتيك منه، أي كن حذراً ولا يعني أن تتجمدّ في حياتك أو تتعقدّ من الآخرين، بل كن كما هي العفوية، إنْ في الحب وفي البغض، أو في التواصل وفي التقاطع، سرْ في حياتك سيراً طبيعياً لكن افتح عينيك، وكن حذراً، كما هو الشخص الذي يسير في الطريق لابدّ أن يكون حذراً، فلعل هناك من حفر له حفرة، يمكن أن يقع فيها، والحذر إنساني، في سيرك وفي نومك، وفي صحتك، وكما قلنا فإنّ هذا المنهج هو للحياة كلّها ولا يشمل العلاقات الشخصية وحسب بل يشمل كلّ العلاقات. ونحن في عالم تنطلق فيه الصداقات والعداوات على أساس المصالح، وربما تتشابك المصالح والمفاسد، لذلك يشير الإمامعليه السلام إلى هذا المنهج لنكون على وعي لما نتحرك فيه.

وفي هذا الإطار هناك كلمة للإمامعليه السلام في مسألة الثقة، فنحن نثق بعلماء الدين وبسياسيين وبشخصيات اجتماعية وبأناس متدينين، وبمن نراه زاهداً

فنقول أنا أثق بفلان ثقة عمياء، وهذا أمر شائع في حياتنا. أما الإمامعليه السلام فيقول «**لاتثق بأخيك كلّ الثقة**» فلا تثق بإنسان ثقة مطلقة مادام ليس معصوماً مائة بالمائة، لأنه قد يكون طوال عشرين سنة مستقيماً، ثمّ بعد ذلك تدور الدوائر وينقلب ١٨٠ درجة، على مستوى العلاقات الشخصية أو الإيمانية أوما إلى ذلك، «**فإن صرعة الاسترسال**»[١] والاسترسال يعني أن تمشي معه خطوة خطوة فإذا وقعت فإنك لا تستطيع أن تقوم من صرعتك إذا صرعت، وأفضل مثل تقريبي وتوضيحي هو مايكثر في عالم السيارات فإنّ السائقين يتركون مسافات أمان بين سياراتهم أثناء المسير، وذلك لتفادي الكوارث والحوادث، لأنّ السير بسرعة هائلة خلف بعضهم البعض دون اهتمام لهذه المسافة لا يمكنّهم من تفادي هذه الحوادث لو حصل مكروه لمن يتقدّم منهم من السائقين. وكما قلنا فإنّ الإمامعليه السلام لايريد لنا أن نفقد الثقة في بعضنا البعض، ولكنّه يريد الثقة التي فيها شيء من الحذر، حتىّ لا تسقطك نقاط الضعف الموجودة في الآخر، فلا تستطيع أن تحمي نفسك منه. ويشير الإمامعليه السلام إلى ظاهرة متعارفة عندنا إذ تمر على بعض الحوانيت وقد عُلّقت لوحة كتب عليها «**الدَيْنُ ممنوع بأمر من قطع سبيل المعروف**»، لأننا أقرضنا بعض الناس، وأكلوا علينا ديننا. هنا الإمام يريد أن يزيل هذه العقدة، لأنك يمكن أن تخدم إنساناً ولا يشكرك على خدمتك، بل قد يتعقّد منك، مما يجعلك تندفع أن لاتعمل خيراً مع أحد، لأنك فعلت خيراً مع فلان، ولم يذكرك، ومع فلان وفلان وهكذا. هذه طبيعة إنسانية، أما الإمامعليه السلام فيقول «**لاَ يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لاَ يَشْكُرُهُ لَكَ**» لاتقل لن أفعل بعد هذا خيراً، لأن فعل الخير مبدأ وليس من أجل سواد عيون فلان وفلان، بل إنّك تعمل الخير لأنك

١ـ شرح نهج البلاغة. ج ٢٠. ب ٦٠ ص ٣١٤.

إنسان الخير، وإذا كان هذا الشخص لا يشكرك، فإن هناك أناساً يشكرونك حتىّ الذين لا ينتفعون منك. فيقول الإمامعليه السلام «فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لاَ يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ» فقد يكون هناك أناس يراقبونك وهم يحبون الخير ويرونك وأنت تعمل الخير، فتمتليء قلوبهم حباً لك وتتحرك حياتهم تأييداً لك، فتحصل من خلال شكر هؤلاء الذين يحبون الخير ولا ينتفعون منك فيه أكثر مما أضاعه ذلك الذي خدمته وكفر بالنعمة. «وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ»[١].

الإمام عليعليه السلام منهج الحياة:

هذا هو علي بن أبي طالبعليه السلام في مواعظه ووصاياه، وهذه الكلمات هي أعظم من ضربته لمرحب وأعظم من ضربته لعمر بن عبد ود. لأنَّ علياً يحارب البغض والعداوة وسقوط الإنسان وكلّ القيم السلبية في الإنسان، وعليعليه السلام يرتفع حيث يتضع الناس، ويسمو حيث يسقط الناس. لذلك فإذا أحببتم علياً فحاولوا أن ترتفعوا إلى عليائه وإلى فكره وإلى روحه وإلى خُلقه وإلى كلّ منهجه في الحياة. ويبقى علي للحياة كلها، وللإنسان كله، ويبقى المثل بعد رسول اللهصلى الله عليه وآله إذ لا يقارن به أحد ولا يُقْرَن به أحد. فعليعليه السلام ليس الإنسان الذي نُدخله في تفاصيل قضية الفاضل والمفضول في الخلافة وفي غير الخلافة وتنتهي المسألة، بل عليعليه السلام فوق كلّ الذين يعيشون إنسانيتهم بعد رسول اللهصلى الله عليه وآله. ولهذا فعلينا أن نظل معه نقرأه ونتفهمه وهو القائل «أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»[٢]. كأن علياًعليه السلام يقول ساعدوني على أنفسكم في وقت لا أحتاج

١ـ شرح نهج البلاغة. ج ١٩. ب ٢٠٠. ص ٢٤.

٢ـ شرح نهج البلاغة. ج ١٦. ب ٤٥. ص ٢٠٥.

فيه إلى مساعدتكم، فهل نساعده على أنفسنا؟ هذا هو السؤال الكبير، والجواب هو في حركتنا في الحياة.

التوازن الاجتماعي

ما الذي يحفظ التوازن الاجتماعي في علاقات الناس بعضهم ببعض سواء كانت هذه العلاقات شخصيّة، كالعلاقات الزوجية أو كالمعاملات العقدية بين الناس، أو علاقات الحرب والسلم، أو العلاقات بين الدول ؟

إنّ الإسلام طرح مسألة العهد وأراد للناس الوفاء به، واعتبره مسؤولية ترقى إلى أن تكون عهداً بين الإنسان وبين الله بشكل غير مباشر، وقد أكّد القرآن ذلك في أكثر من آية، ففي الالتزامات العقدية ورد قوله تعالى ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾[1]. وفي مطلق المعاهدات الخاصّة والعامّة ﴿وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[2] وتحدث عن النماذج الطيبة والمخلصة والقريبة من الله في ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾[3]. وقوله تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[4].

ولقد اعتبر الله سبحانه وتعالى العلاقة بينه وبين عباده علاقة متبادلة ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[5]. ومن الطبيعي أنّ مثل هذه الالتزامات التي تمثّلها كلمة (العهد) تارة و (العقد) أخرى و(المعاهدة) و(الميثاق) هي التي تقيم للمجتمع روابطه التي تمثل ارتباط المسؤولية، وهذا هو الذي يحفظ للمجتمع نظامه، لأنّ المجتمع إذا كفّ عن الوفاء بهذه الالتزامات فمعنى ذلك أنّ العلاقات تتقطّع، وأنّ الفردية تحكم المجتمع، وأنّ نقض هذه الالتزامات يمثّل مؤشراً خطيراً على انهيار

١ـ المائدة: ١. ٢ـ الإسراء: ٣٤. ٣ـ البقرة: ١٧٧.

٤ـ البقرة: ١٧٧. ٥ـ البقرة: ٤٠.

المجتمع.

وقد أعطت السنّة النبوية الشريفة وسنّة أهل البيت عليهم السلام التي هي في عمقها منطلقة من السنّة النبوية الشريفة لأنّ أحاديث الأئمة من أهل البيت عليهم السلام هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله كما عبّر عن ذلك الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله «حديثي حديث أبي وحديث أبي حديثُ جدي وحديثُ جدي حديث رسول الله وحديث رسول الله عن جبرئيل عن الله»(١). أعطت منهجاً في هذا المجال بحيث اعتبرت الإخلال بهذه الالتزامات غدراً ونقضاً للعهد وتحلّلاً من الالتزام من دون سبب شرعيّ.

الغدر في الاحاديث الشريفة:

في رواية الإمام علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له فيما عهد إليه: «وإيّاك والغدر بعهد الله والإخفار لذمّته» و(الإخفار) هنا تعبير آخر عن نقض العهد(٢). «فإنّ الله جعل عهده وذمّته أماناً أمضاه بين العباد برحمته، والصبر على ضيق ترجو انفراجه خير من غدر تخاف أوزاره وتبعاته وسوء عاقبته» فكأنّ الرسول صلى الله عليه وآله يريد أن يؤكّد أنّ مسألة العبودية لله سبحانه وتعالى والإخلاص له تفرض على الإنسان أن يحافظ على ما عاهد عليه الله في أموره كلّها، وعلى ما لله في ذمّته، وأن لا يغدر بعهد الله، ولا ينحرف عن ذمّته في أيّ شأن من شؤونه، وكأنّ النبي صلى الله عليه وآله يقول بأنّ هذا هو الأمان الذي يمثّل الخطّ الذي يأمن فيه الناس بعضهم بعضاً، لأنّهم إذا التزموا عهد الله سبحانه وتعالى وذمّته في كلّ ما أراد لهم أن يلتزموه سلباً أم إيجاباً، فإنّ معنى ذلك أنّ ما يحكم علاقة الناس ببعضهم هي

١ـ بحار الأنوار: ج٣. ص٢٥. ب٣٣.ح٩.

٢ـ في لسان العرب: أخفره نقض عهده وخاس به وغدره، وأخفر ذمّته: لم يف بها.

المسؤولية أمام الله عزّ وجل، فإذا كان كلّ إنسان يفي بعهد الله في عباده، فإنّ معنى ذلك أنّه يعطي الأمان لعباد الله بقدر ما يختصّ الأمر به.

ثمّ يحاول الحديث أنّ يبيّن للإنسان أنّه قد يضيق بالعهد الذي عاهده، لأنّ الإنسان بطبعه يضيق بمسؤوليّاته، ولكنّه عندما يعيش هذه الحالة النفسية عليه أن يوازن بين ما يحصل عليه من نتائج ومكاسب من خلال هذا الضيق الذي يرجو انفراجه وبين ما يخسره مما يكون نتيجة الغدر الذي عليه أن يخاف من أوزاره وتبعاته وعاقبته. وكأنّه يقول بأنّ وفاءك للعهد هو أفضل من غدرك، أو لا يقاس بما تحصل عليه جرّاء الغدر من ضيق وتعب وجهد ومشقة لما تواجهه من النتائج السلبية.

وفي كتاب (الغُرر والدُرَر) مما رُويَ عن علي عليه السلام من كلمات يبيّن فيها طبيعة الإنسان الغادر، وما هي الصفة التي يستحقّها، حيث يقول: «**الغدر شيمة اللئام**» لأنّ اللئيم هو الذي لا يحترم كلمته في عهده ولا يراعي القيمة الإنسانية في علاقته بالآخر فيدفعه ذلك إلى الغدر به، ويقول: «**الغدر يضاعف السيئات**» لأنّ النتائج التي تترتّب عليه ربما تخلق للمغدور أكثر من مشكلة، وتوقعه في أكثر من خطيئة، لا في جانب الغدر فقط بل بمجانبة القرآن الذي أكدّ على الوفاء بالعهد وبذلك فإنّ الوفاء بالعهد، يختزن رفض الغدر.

يقول عليه السلام: «**إيّاك والغدر إنّه أقبح الخيانة**» لأنّ الإنسان الذي عاهدته والتزمت بما التزمت به إزاءه، أعطاك ثقته ورتّب أموره في الحياة على أساس التزاماتك، وبهذا فإنّك عندما تغدر به وتنقض عهدك فإنّك، تربك كلّ حياته في هذا المجال، وأيّة خيانة أعظم من الخيانة التي تربك حياة الناس في كثير من أمورهم التي ربمّا تؤدّي إلى بعض الأخطار التي تهدّد حياتهم تبعاً لخطورة الشيء الذي أعطيت العهد من نفسك في الالتزام به.

ويُروى عن علي عليه السلام قوله: «أسرع الأشياء عقوبة رجل عاهدته على أمر وكان من نيتك الوفاء له ومن نيّته الغدر بك». فإذا ما تعاهد اثنان وكان أحدهما مخلصاً في عهده والآخر ينوي الغدر ويبيّته، فإن هذا مما يعتبره علي عليه السلام من الأشياء التي يعجّل الله به العقوبة.

ويتحدّث علي عليه السلام عن الغدر في كتابه إلى (مالك الأشتر) وهو الكتاب الذي يمثّل الوثيقة الإدارية الأولى التي ركّزها أمير المؤمنين عليه السلام بما ينظّم لأيّة سلطة مسؤولة كلّ ما تواجهه من مسؤوليات على صعيد العلاقة بالناس في رعاية أمورهم وتنظيم حياتهم ونشر العدل فيهم وما إلى ذلك.

الوفاء بالعهد:

يقول الإمام عليه السلام في كتابه إلى (مالك الأشتر) رضي الله عنه «وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً» بحيث جعلت ذمّتك لباساً يلبسه «فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ» أي حاول أن تحيطه بالوفاء لهذا الشخص وإن كان عدوّاً لك «وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمَانَةِ» أي كن الإنسان الأمين الذي إذا عاهد فإنّه يفي بكلّ الالتزامات التي في ذمّته.

«وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ» والجُنّة هي الدرع الذي يمنع من الاختراق، والمراد به الحماية «فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعاً مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ» فهذا الشيء الذي يجتمع الناس ويلتقون عليه مع تفرّق الأهواء وتشتّت الآراء من تعظيم الوفاء بالعهود، هو الذي يحفظ للمجتمع توازنه، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين «لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ» أي استثقلوه، فلماذا التزم المشركون الوفاء بالعهد؟ لقد كانوا إذا دخلوا في أي عهد أو عقد أو حلف أو التزام فإنّهم كانوا يفون بذلك

ولا ينقضونه لأنّهم درسوا النتائج السلبية التي تترتب على عدم الالتـزام بـالعهد فرأوا أنّها تؤثّر على حياتهم كلّها، وتُثقل أوضاعهم، ولهذا فبالرغم مـن تشـتت آرائهم وتفرّق أهوائهم لكنّهم اجتمعوا على هذا، فلقد وجدوا الغدر وبيلاً أي ثقيلاً.

«**فَلاَ تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ**» فإذا التزمت بشيء أمام خصمك أو عدوّك أو أمام أي إنسان آخر فلا تغدر به بنقض ذمّتك وفكّها بحيث تتحلّل من التزامك أمامه «**وَلا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ**» لا تنقضنه أي لا تغدرنّ «**وَلا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ**» أي لا تمكر بأحد لأنّ عهدك هو الذي أعطاه الأمان والثقة والمعنى الإنساني المتمثّل بك وبما تمثّله من الإسلام «**فَإِنَّهُ لاَ يَجْتَرِئُ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ جَاهِلٌ شَقِيٌّ**» أي أنّ الاجتراء على العهد ونقضه يمثّل اجتراءً على الله سبحانه وتعالى. «**وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً**» باعتبار أنّ الناس يأمنون بذلك ويشعرون بوجود عروة وثقى يتمسّكون بها فـي أمورهم كلّها فيما دخلوا فيه من عهد الله.

«**أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ**» أي جعله مشترَكاً بين العباد برحمته والمنفعة ما تمتنع به من القوة «**وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ**» أي جعلوا العهد كما الحرم الآمن الذي يحمي الناس من غوائل الأعداء. يفزعون إليه بسرعة «**وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَـى جِوَارِهِ**» أي ينتشرون في طلب حاجتهم في ظل الطمأنينة والسكينة التي يوفرها لهم «**فَلاَ إِدْغَالَ**» إي لا إفساد «**وَلا مُدَالَسَةَ**» أي لا خديعة فيه.

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله من طرق العامّة، رواه البخاري عن أبـي هريرة، قال الله تعالى: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثمّ غدر**» وأعطى بي يعني أعطى العهد بي «**ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه**» ولا يجوز بيع الحرّ «**ورجلاً استأجر أجيراً فاستوفى منه العمل ولم يوفّه أجره**» أي تركه يعمل وبعد أن أنجز عمله لم يوفّه الأجر.

لا يجوز الغدر حتىّ بغير المسلمين:

وعن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**سألته عن قريتين من أهل الحرب**» أي ليسوا من المسلمين «**لكلّ واحدة منهم ملك على حدة اقتتلوا ثمّ اصطلحوا**» على أساس معاهدة فيما بينهم «**ثمّ إنّ أحد المَلَكين غدر بصاحبه فجاء به إلى المسلمين فصالحهم على أن يغزوا تلك المدينة؟**» أي أنّه أراد أن يستغلّ عداوة المسلمين للملك الآخر ليغدر به «**فقال أبو عبد الله عليه السلام لا ينبغي للمسلمين أن يغدروا، ولا يأمروا بالغدر، ولا يقاتلوا مع الذين غدروا**» فمع أنَّ كلاًّ منهما حربيّ، أي أن هذا محارب للمسلمين والآخر كذلك، ولكن لا يجوز للمسلمين أن يغدروا بأيّ منهما في موقف المساعدة للآخر. نعم إذا شنّ المسلمون الحرب فالخدعة في الحرب وسيلة من وسائل الدفاع وهي مباحة في هذا المضمار، أمّا أن يكونوا عوناً في الغدر لفئة على فئة فلا يجوز لهم ذلك «**ولكنّهم يقاتلون المشركين حيث وجدوهم، ولا يجوز عليهم ما عاهد عليه الكفّار**».

ولاحظوا هنا الدقّة التي يؤكدّها الإسلام في أنّ على الإنسان المسلم أن لا يغدر هو نفسه ولا يساعد الغادر في غدره، ولو تأمّلنا في بعض الحالات الاجتماعية لرأينا أنَّ بعض الأشخاص لو كان بينه وبين إنسان آخر اتفاق ومعاملة مالية، أو كما في العلاقة الزوجية ويحاول أحد المتعاملين، كما في المثال الأول، أو أحد الزوجين، كما في المثال الثاني، أن ينقض اتفاقه مع شريكه في العمل أو في الحياة الروحية فلا يعطي زوجته مهرها، وأن لا يقوم بشؤونها، أو كما لو باع إنسان شيئاً لآخر، أو تعاقد معه على شيء وأراد أحدهما أن يغدر بصاحبه، والغادر هو أحد أقربائك أو صديقك أو ابن دينك أو طائفتك وأراد منك أن تساعده في تنفيذ غدره بالطرف الآخر، فلا يجوز لك ذلك حتىّ لو كان الغادر مسلماً، والمغدور كافراً لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يحبّ الغادرين.

وورد عن علي عليه السلام «الغدر بكلّ أحد قبيح، وهو بذي القدرة والسلطان أقبح». أي الذي يستعمل قوّته في الغدر ذلك لأنّ الخُلُق الإسلامي يتمثّل في العفو عند المقدرة، لا أن تُتخذ قوّته في الغدر ذلك لأنّ الخُلُق الإسلامي يتمثّل في العفو عند المقدرة، لا أن تُتخذ السطوة والسلطة كسلاح للغدر والبطش والفتك بمن لا يملك قوة ولا ناصراً.

إفشاء السر غدر:

وفي الحديث عنه عليه السلام أيضاً، وهو مما نُبتلَى به كثيراً «اقبح الغدر إذاعة السرّ». أي عندما يُودِعُك أحدٌ سرّه، ويريد منك أن تكتمه، فإنّ هذا هو عهدٌ بينك وبينه على كتمان السرّ، فأنت عندما تذيع سرّه فقد غدرت به لأنّك نقضت التزامك له في فضح سرّه، فلا ينبغي لك أن تفشي سرّ من أودعك سرّه لأنك بذلك تغدره.

وقد ورد في الحديث عن علي عليه السلام تعليقاً على بعض الناس الذين يعتبرون من يتقن اللّعبة الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية ذكياً، فيخطّط من أجل خداع الناس، فيمنحهم الالتزامات التي توحي لهم بالثقة به فيرتبون أمورهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على هذا الأساس، ثمّ يضرب ذلك عرض الجدار فيغدر بمن عاهدهم حتىّ يُسقط أوضاعهم كيما يحصل على النتائج الإيجابية لمصلحته من خلال ذلك.

إنّ هذا المخادع الذي يصفه المأثور الشعبي بأنّه يأخذك إلى النهر ويرجعك عطشاناً، أو أنه يجيد اللّعب على كلّ الحبال، أو أنه يعرف من أين تؤكل الكتف، يحذّر الإمام عليه السلام من اعتباره كذلك، فهو يعلّق على الانحراف الأخلاقي في تقويم الأشخاص من الغادرين فيقول في (نهج البلاغة) «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ». أي أنّهما أخوان، لماذا؟ لأنّ الوفاء يمثّل الصدق في العهد، والصدق في

الموقف، والصدق في الالتزام، فكلّ وفيّ هو صادق، فإذا كنت غير وفيّ فأنت لست صادقاً. «وَلا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ» أي درعاً أشد وقاية منه، فلا شيء هناك يقي المجتمع من المخاطر والمشاكل والنتائج السلبية كما هو الوفاء. «وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ» فالإنسان ينبغي أن يفكّر بالآخرة وبما يُقبل عليه من خلال خسرانه لرضوان الله تعالى وتعرّضه لسخطه بما يؤدي إليه غدرُه من عواقب وخيمة يوم يقوم الناس لله تعالى ويحكم بينهم، فإنّ الغدر ربما يعطي للإنسان بعض الأرباح في الدنيا ولكنّه يعطي الخسارة ـ كلّ الخسارة ـ في الآخرة، وأيّة خسارة أفدح من هذه، لأنّه يخسر نفسه ومصيره.

الإمام علي عليه السلام وكراهة الغدر:

«وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ» وهو زمانه عليه السلام فكيف يا ترى بزماننا الذي انقلبت فيه الموازين ؟! «قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً» والكيس من الكياسة وهي الذكاء والفطنة «وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ».

ثمّ إنه عليه السلام يتحدّث عن نفسه، ويَرُدّ بذلك على من يقولون إنّ علياً عليه السلام لا يعرف السياسة، وإنه لا يعرف كيف يدير الأمور التي يستطيع بها أن يربح النتائج «مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ» والحوّل القلّب هو الشخص المجرّب الذي يقلّب الأمور على وجوهها، ويقدّر عواقبها، ويعرف نتائجها الإيجابية والسلبية، فأنا، أي علي عليه السلام ، أعرف كيف يُنقض العهد، وكيف تُتخذ الحيلة ولكنّ الورع ما يمنعني من هذا وذاك «وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ» فإذا قال الله تعالى لي قف هنا ولا تتقدم في تيار هذه الحيلة فإنني أقف حيث أراد الله، لأنّ الحيلة لا تنسجم مع البرنامج الشرعي الذي وضعه سبحانه وتعالى في تنظيم علاقات الناس العامّة والخاصّة «فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَيَنْتَهِزُ

فُرْصَتَهَا مَنْ لاَ حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ» أي من لا تقوى له.

وتلك هي مشكلة الإمام علي عليه السلام مع مجتمعه، فلقد ملك الفكر كلّه، وعرف كيف يعمّقه في كلّ دقائق الأمور وخفاياها، وهو الإنسان الذي فهم الحياة كما لم يفهمها أحد في عهده، وهو الذي عاش التجربة في أدقّ مراحلها، والإنسان الذي ارتفعت به المعرفة حتىّ قال: «**لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا**». وعاش المعرفة كلّها حتىّ قال: «**فإنّي بطرق السماء أعرف منّي بطرق الأرض**»[١] ولكنّ علياًعليه السلام هذا الصلب العنيد كان ضعيفاً أمام الله سبحانه وتعالى حتىّ أنّه كان يقول «**وأنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين**» كان القوي أمام العالم كلّه الضعيف أمام الله عزّ وجل، فإذا قال له تبارك وتعالى شيئاً أحنى رأسه وخضع حتى قال: «**كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً أنت كما أحبّ فاجعلني كما تحبّ**»[٢].

فنحن نقرأ في سيرة الإمامعليه السلام في مسألة الشورى التي تحدّث عنها بقوله: «**فَيَا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ**». أنّ عبد الرحمن بن عوف جاءه وكان عمر بن الخطاب هو الذي جعل الشورى فيمن يخلفه، فقال لعليعليه السلام: تبايعني (أي أبايعك) على كتاب الله وسنّة نبيّه وسيرة الشيخين؟، فقال عليعليه السلام: «**أمّا كتاب الله وسنّة نبيه فنعم، وأمّا سيرة الشيخين فلا**»[٣] فإذا كانا يسيران على كتاب الله وسنّة نبيّه فما الحاجة إلى سيرتهما ؟!، وأما إذا كانت سيرتهما تعني اجتهادهما فلي اجتهادي ولهما اجتهادهما، فلم لا أعمل باجتهادي أنا أيضاً ؟! وبهذا صرف عبد الرحمن بن عوف

١ـ بحار الأنوار: ج ٩٤. ص٩٨. ح١٣. ب٣٢.
٢ـ بحار الأنوار: ج٧٧. ص٤٠٢. ح٢٣. ب١٥. مناجاة علي.
٣ـ بحار الأنوار: ج١٦. ص١١٥. ب٣٠ ب ح٧.

الخلافة عن علي عليه السلام وأعطاها لعثمان وأعطاه عثمان العهد في ذلك ولم يلتزم به وماتا وهما متباغضان.

وفي واقعة صفين تغلّب جماعة معاوية على الماء فمنعوا أصحاب علي عليه السلام من أن يأخذوا الماء من النهر، فهجم أصحاب الإمام عليه السلام وتغلّبوا عليهم وقالوا لعلي عليه السلام فلنمنعهم كما منعونا فرفض ذلك باعتبار أنّ الله جعل الماء مشاعاً ومباحاً لكلّ الناس، فإذا منعونا منه فإنّهم يخالفون إنسانيتهم وهيهات أن نفعل ما يفعلون.

فعلي عليه السلام كان يتحرّك من خلال منهج رسالي وروح منفتحة لا من خلال حقد أعمى، وهذا ما قرأناه في (نهج البلاغة) عندما سمع جماعة من أهل العراق يسبّون أهل الشام فوقف فيهم خطيباً وقال لهم: «إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلاَلَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ»[١].

وقد عبّر عن روحيّته هذه بأكثر من كلمة حيث قال: «وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي» وما زال البعض حتىّ يومنا هذا يقولون إن علياً عليه السلام ليس سياسياً، وأنّ معاوية هو السياسي، فهذا حافظ على ملكه وعلي عليه السلام لم يستطع أن يحافظ على ملكه، وقد عالج الإمام عليه السلام ذلك بهذا القول «وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ وَلَوْ لاَ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ وَلَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢]. فالمؤمن لا يمكن أن يغدر بل هو يلتزم بعهد الله «وَاللَّهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ وَلاَ أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ» فلا أحد يستطيع أن يستغفلني

١ـ شرح نهج البلاغة: ج٦. ب١٥. ح٩.

٢ـ شرح نهج البلاغة: ج٧. ب١٥. ح٣.

بمكائده، ولا أحد يستطيع أن ينتقص من شأني وموقعي وقوتي بما يوجهّه إليَّ من الشدائد.

وعن الأصبغ بن نباتة قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم وهو يخطب على المنبر بالكوفة: أيّها الناس لولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس ألا إنَّ لكلّ غدرة فجرة، ولكلّ فجرة كفرة، ألا إنّ الغدر والفجور والخيانة في النار».

الغدر في موضعه وفاء:

يقول عليه السلام: «الْوَفَاءُ لأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللَّهِ وَالْغَدْرُ بِأَهْلِ الْغَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ» فالإمام عليه السلام لا يطلب منّا أن نغدر بلا مناسبة بل يركّز على أنّ أهل الغدر وهم الذين يخطّطون للغدر بالمسلمين يجب الحذر منهم فلا يفي المسلمون لهم، لأنّ الغادر يبتعد عن التزاماته بنقضه عهده، ولذا فإنّ من حقّك أن تنقض عهدك معه، وهذا المفهوم ينطلق من الآية الكريمة ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[1]. وقد نزلت في يهود بني قينقاع الذين أعطوا النبي صلى الله عليه وآله عهداً وعزموا على نقضه وأخبره الله تعالى بذلك وأمره بحربهم، ومن هنا فإنّ الوفاء لهم غدر.

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكلّ غادر لواء فقيل هذا غدرة فلان بن فلان»[2].

اجتناب الغدر في الحياة الاجتماعية:

وعلى هذا الأساس فإنّ علينا أن ننطلق في حياتنا الخاصّة والعامّة من خلال هذا البرنامج، فالالتزامات الخاصّة بين الناس هي هذه المعاقدة بين الرجل وبين

١ـ الأنفال: ٥٨.

٢ـ أحاديث وروايات المحاضرة عن كتاب (ميزان الحكمة) باب (الغدر).

المرأة في عملية الزواج، فعلى الرجل أن يفي لزوجته حقَّها، وعلى الزوجة أن تفي لزوجها حقَّه، فلا يجوز لأحدهما أن يغدر بالآخر بأن ينقض عهده ويتحلل من التزاماته، وقد عبّر الله سبحانه وتعالى عن الذين يأخذون مهر زوجاتهم بقوله ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾[1]. وهكذا بالنسبة للالتزامات في الدين والبيع والشراء والإجارة والمضاربة والشركة، فكلّ هذا فيه عهد يمثّل عهد الله ولا يجوز للإنسان أن ينقضه، فنقض العهد يمثّل حالة غدر.

كما نعيش في واقعنا السياسي مسألة الوفاء لأهل الغدر والغدر، بأهل الغدر في المعاهدات التي تحصل بين شعوب العالم الثالث وبين المستكبرين، حيث يعمل القوي على أن يتحلّل من التزاماته إزاء الضعيف على أساس لعبة سياسية أو اقتصادية، وعلى الضعيف أن يراقب ذلك ويكون حذراً، فإذا تحلّل القوي من بعض التزاماته بالمكر والحيلة والخداع، فعلى الضعيف أن يواجهه بالتحلّل من التزاماته حتىّ لا يمكّنه من الغدر به بلحاظ غفلته وأخلاقيّته.

إنّ علينا أن نفي بالتزاماتنا مع الآخرين، ولكن علينا أن نكون الواعين اليقظين الحذرين الذين لا نُستغفل بالمكيدة، ولا نُستغمز بالشديدة، بل نعرف كيف نفي في مواقع الوفاء، وكيف ننبذ الذين نخاف منهم الخيانة في مواقعها.

وإنَّ على المؤمن أن يكون الواعي لما حوله ولمن حوله، وأن يكون إنسان الأخلاق الذي يركّز منهجه الأخلاقي مع عدوه ومع صديقه ليفي بالتزاماته، ولكن عليه أن لا يكون الإنسان المغفّل الذي يقيّده الآخرون بأخلاقه في الوقت الذي ينقضون فيه كلّ مباديء الأخلاق.

١ـ النساء: ٢٠ ـ ٢١.

وضوح الرؤية:

لعلّ ما يواجهه المصلحون في أُمّتنا سواء كان ذلك على صعيد الإصلاح الديني أو السياسي أو الاجتماعي هو أنهم يصطدمون بذهنيّات قد يحسبها أصحابها ذهنيات إسلامية، ولكنها في الواقع ذهنيات غوغائية، قد تتحرّك في موقع غوغائي هنا وآخر هناك، لذلك كنّا نؤكّد دائماً على أن نتثّقف إسلامياً بحيث ننطلق من المصادر الإسلامية الأصيلة ليكون الإنسان مسلماً من موقع ثقافة أصيلة منفتحة واعية لا من حالة غرائزية أو حالة غوغائية. ولعلّ هذا هو ما أراده الإمام أمير المؤمنينعليه السلام من خلال تقسيمه للناس:

«النَّاسُ ثَلاَثَةٌ فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ». يملك العلم الذي يأخذه من مصادره الأصيلة التي تتصل بالله في عملية توثيق في المصدر، وعملية تدقيق في الدلالة، فهو لا يتحرّك إلاّ من خلال دراسة دقيقة لما يطلقه من علم بحيث يضمن سلامته من التحريف ومن الزيادة والنقصان «وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ» وهو الإنسان الذي يسير في مدارج العلم من أجل أن ينجو بعلمه الذي يملأ عقله، ويعيش في قلبه ويتحرّك في حياته، بحيث ينطلق على أساس أن ينجو من خلال السير على الطريق المستقيم. والإنسان الذي يتعلّم على سبيل نجاة لا على سبيل تضخيم شخصيته، ولا على أساس المتاجرة بالعلم ليعظم في نفوس الناس، أو يبتزّ أموالهم بل يطلب العلم ليركّز حياته على أساس من النور وينتهي بها على أساس من النور، لأنَّ حركة الأنبياء في الواقع الإسلامي، وحركة القرآن في الثقافة الإسلامية تتلخّص في كلمة واحدة ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[1]. فدور الإسلام في الثقافة القرآنية والثقافة النبوية أن يجعل لك نوراً في عقلك فيخرجك من الظلمات التي تفرض نفسها على العقل، وأن يجعل لك نوراً في قلبك فيجعله

١ـ البقرة: ٢٥٧.

ينطلق في عمليتيْ الإحساس والشعور من نور لا من ظلمات الغرائز.

وهكذا عندما يتحرّك في الحياة فإنَّه يكون على نور من ربه من خلال أنه استهدى كتاب الله وسنّة نبيه «وَهَمَجٌ رَعَاعٌ» هؤلاء الذين لا يملكون العلم الذي يزنون به الأمور، فلا هم يملكون علم الشخصية العالمة، ولا هم يملكون علم الشخصية المتعلّمة، بل إنّهم يتحرّكون من خلال مؤثّرات مشاعرهم وأحاسيسهم ولا يتحرّكون فكرياً لأنهم لا يملكون الفكر، ولكنّهم يتحرّكون شعورياً وانفعالياً ولذلك فإن الصراخ قد ينطلق في ساحاتهم يدفعهم إلى أن يتبعوه، وأن الرياح التي تأتي من هنا وهناك تجعلهم يميلون مع كلّ ريح «لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ». لأنّهم لم ينطلقوا من موقع ثقافة الحق ووعي الحق «وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ» فلم يرتكزوا على قاعدة قوية ثابتة بحيث يستطيعون أن يستندوا إليها فيما يأخذونه أو فيما يدعونه.

الموقف في الفتنة:

على ضوء هذا لنتعلم من أمير المؤمنين عليه السلام ولا سيما في كلماته القصار التي تمثّل كلّ واحدة منها مفهوماً يشمل أكثر جوانب حياة الإنسان إنّ لم يكن كلّها.

في الكلمة الأولى من كلماته القصار في (نهج البلاغة) «كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ لاَ ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ وَلا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ»(١). ابن اللبون هو ولد الناقة الذي يبلغ السنتين حيث لا يزال عوده طريّاً فليس لديه ظهر يقوى على الركوب عليه ليستفيد منه الإنسانَ مْركَباً، وليس له ضرع ينتج الحليب ليستفيد منه الإنسان غذاءً.

إن الإمام عليه السلام يقول ضع أمامك ابن اللبون عندما تتحرّك الفتنة، كن مثلَه في

١ـ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج٩. ب١٥١. ص١٤٦.

الفتنة فلا تدعنّ أحداً من أهل الفتنة يستغلّك ليصل إلى أغراضه على حساب ما تعطيه من قوة، ولا يستفيد منك أحد من أهل الفتنة كما يستفيد الإنسان من الحليب الذي يحتلبه من الضرع، كن كما لو كنت لا تقوى أن تحمل أحداً على ظهرك، ولا تستطيع أن تعطي أحداً من طاقتك.

ما هي الفتنة:

وهنا نصل إلى السؤال التالي: ما المراد بالفتنة؟

يذكر بعض شرّاح النهج أنّ الفتنة هي صراع فريقين من أهل الباطل فلا تعطي هذا شيئاً من طاقتك ولا تعطي ذاك، بل كن حيادياً أمام أهل الباطل عندما يتصارعان، دعهما يتصارعان ليضعف بعضهما البعض وليضعف الباطل بضعفهما وتكون النتيجة لصالح الحق. وربما يفسّرها البعض بأنّ الفتنة هي التي لا يتبيّن فيها وجه الحق من الباطل بحيث يكون الصراع في دائرة الضباب فلا تستطيع أن تعرف هل هما في دائرة الباطل أو أن أحدهما محق والآخر باطل؟ ولا تقدر أن تميّز المحق من غير المحقّ. إنّ الإمام عليه السلام يقول إذا لم يكن لديك وضوح في الرؤية فيما هو الحق وما هو الباطل فلا تمل إلى أحدهما حتىّ يتبين لك وجه الحق، بحيث لا تكون المسألة مسألة فتنة بل مسألة حق واضح هنا وباطل واضح هناك. هنا عليك أن تكون مع الحق ضد الباطل.

وفي كلا الحالين أو على كلا التفسيرين نخرج بنتيجة أنّ على الإنسان أن لا يدخل في أية ساحة صراع لا يملك وضوح الرؤية فيها، هل تلتقي مع مبادئه ومع أفكاره أم لا؟ وهذا ما نستوحيه من بعض الكلمات المأثورة عن الذين يظلّهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلاّ ظله: «**رجل لم يقدّم رجلاً ولم يؤخر أخرى حتىّ**

يعلم أن ذلك لله رضاً»[١]. فلا تتحرّك في أي موقع من المواقع مهما كان قريباً قرابة نسب أو قرابة محور أو قرابة صداقة أو قرابة مصلحة إلاّ بعد أن تعرف أنك تتحرّك في مسارك هذا في الطريق إلى الله. ومن الطبيعي انّنا على ضوء هذا التفسير نخرج أيضاً بنقطة مهمة وهي أنَّ على الإنسان عندما تتحرك الفتنة التي لا يبدو فيها وجه الحق من الباطل أن لا يجلس على التل، بل يحاول أن يدرس ويتابع البحث ليعرف أين الحق وأين الباطل حتىّ يكون مع الحق ضد الباطل.

ولكن مسؤوليتك عن سلامة المجتمع الإسلامي وعن الحق الذي يجب عليك أن تدعمه يفرض عليك أن تبحث وأن تفتش لتتضح لك الأمور من موقع وعي ومن موقع وضوح الرؤية. هذه هي آفاق المسألة في هذه الكلمة.

وقد نلتقي بكلمة أخرى للإمام عليعليه السلام تعيش في الأجواء التي تقترب من هذه الكلمة، فقد قيل له عن قوم اعتزلوا القتال معه عندما كان يقاتل بصفين، فقال الإمامعليه السلام **«خَذَلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطِلَ»**[٢]. فالإمام هنا يتحدّث عن الحياديين بين الحق والباطل. وفي رواية أُخرى تحدّث عن شخصين من الصحابة وهما (عبد الله بن عمر) و(سعد بن أبي وقاص) اللذين اعتزلا الحرب فقال **«خَذَلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطِلَ»**[٣].

إنّ هذه الكلمة توحي بانّ الامام يريد أن يقول عندما تكون المعركة معركة حق وباطل، لا يجوز للإنسان أن يكون حيادياً بحجّة أنه لا ينصر الباطل، لأن مسؤوليتك ليست هي أن لا تنصر الباطل بل مسؤوليتك أن تكون مع الحق وأن وتؤيّده وتقف معه، لأنّ الناس إذا اختاروا في ساحة الصراع بين الحق والباطل أن

١ـ الكليني: الكافي: ج٢. ص١٤٧. ح١٦.

٢ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١٨. ب١٣. ص١١٥.

٣ـ المصدر نفسه: ج١٩. ب٢٦٨. ص١٤٧.

يكونوا حياديين، فإن معنى ذلك هو أن يضعف عدد أنصار الحق، لأنَّ الذين يخذلون الحق على قسمين: المعادين للحق، والذين يخذلونه أي الذين يقفون على الحياد، ولذلك ورد في الحديث عن رسول الله عليه السلام فيما روي عنه «**الساكت عن الحق شيطان أخرس**». لأنك عندما تعي الحق فإن الحق، يعني مسؤوليتك، ولذلك فإنك عندما تسكت عنه، وان كنت تزعم انك مع الحق في وجدانك العقيدي فمعنى ذلك أنّك تعيش شيطنتك، لأنك تريد أن تحمي نفسك من أعداء الحق بأن تسكت عن الحق وبذلك تبرّر لنفسك كما يبرّر الشياطين لأنفسهم.

إنَّ مثل هذا الأسلوب نجده في واقعنا الاجتماعي، ألا يصادفك في الحياة مَنْ يقول: «أنا ما حكيت وليس لي دخل، أنا لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء» ؟ فعندما يكون هؤلاء على الباطل وأولئك على الباطل فقد تكون المسألة معقولة، ولكن عندما يكون أحدهما على الحق والآخر على الباطل فكيف يمكن أن تكون حيادياً، إنّ الذين يقفون على الحياد بين الحق وبين الباطل، يعني بين ما يعتقدون أنّه الحق هنا وأنه الباطل هناك، هؤلاء يعطون الباطل قوة سلبية، لأنك كلّما منعت الحق قوّة، فإنَّ معنى ذلك أنك أضعفت الحق وجعلت الباطل يقوى عليه لأنه سوف يملك قوة لا يملكها الحق، لأن الذين يؤمنون بالحق لم يقفوا معه ونحن نعرف أنّ هؤلاء الأشخاص الذين اعتزلوا القتال كانوا يعلمون أنّ علياً مع الحق مما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وآله الذي كان يقول على مسمع كلّ الأصحاب «**علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما مادار**»[1]. وكانوا يعرفون حتىّ في موازينهم، أي في موازين الواقع الذي عاشه المسلمون في قضية الخلافة، فإذا كانت الخلافة الشرعية هي في بيعة المسلمين لشخص ما كما يدّعون، وأنها ليست بالنصب والتعيين كما نقول: فإن علياً عليه السلام هو الخليفة الشرعي بحسب هذه

١ـ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج٢. ب٣٧. ص٢٩٧.

الموازين، لأن معاوية لم يكن يملك موقعاً شرعياً، وإذا كان يطالب بدم عثمان فإنّ علياًعليه السلام حاوره في هذا المجال وقال له لماذا لم تنصره في حياته ؟ ثمّ إذا كنت أنت ولي الدم فالقضية تخضع لمحاكمة، لندرس ما هي ظروف هذه الثورة ؟ ما هي دوافع القتال ؟ هل هناك شخص معين أو ليس هناك شخص معين قام بذلك ؟ أم أنّك تحمّلني ذلك، وقد حاولت أن أنقذه ولم استطع.

نصرة المظلومين:

لهذا، نفهم من عليعليه السلام في كلمتيه هاتين، أولاً: أنَّ علينا أن لا ندخل في أية معركة إذا لم يتضح لنا وجه الحق فيها، والكلمة الأخرى هي أن علينا أن لا نكون حياديين في صراع الحق والباطل إذا عرفنا موقع الحق وموقع الباطل. وقد قالها عليعليه السلام في موقع آخر، في آخر وصية له لولديه الإمامين الحسنينعليهما السلام قال: «**وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً**»[1]. لأن الحق هو مع المظلوم في ظلامته ضد الظالم، فلا تكن حيادياً بين الظالم وبين المظلوم أياً كان الظالم وأياً كان المظلوم، حتى لو كان الظالم مسلماً وكان المظلوم غير مسلم.. قف مع المظلوم غير المسلم ضد الظالم حتىّ لو كان مسلماً، لأن الله لا يريد للمسلمين أن يظلموا الكافرين فيما لهم من حق إذا كان لهم حق، لأن العدل في المفهوم الإسلامي لابد أن يكون للناس كافّة. وقد يُثار سؤال هنا: إذا كان هناك باطلان وكان أحدهما أكثر خطورة على الواقع الإسلامي من الآخر، فهل يجوز لنا أن نندفع لنقوّي الأقل خطراً. على الأكثر خطراً.

في القاعدة العامّة ليس لك أن تنصر الباطل حتىّ على باطل آخر، لكن لابدّ لنا أن ندرس المصلحة الإسلامية، فإذا كانت هذه الخطورة تمثل أهمية في القضايا

١ـ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج١٧. ب٤٧. ص٥.

الإسلامية بحيث أنه لو انتصر هذا الباطل القوي أو الباطل الخطر على ذلك الباطل الأقل خطورة لكانت كارثة على الإسلام، بينما لو انتصر الباطل الآخر فلا يكون هناك إلاّ مشكلة خفيفة، وعند ذلك يدخل المسلمون الصراع معه بما لا يكلّفهم عناءً كبيراً، وربما يؤدي انتصار الأخطر إلى خطورة كبيرة على القضايا الحيوية أو المصيرية للإسلام. في هذه الحال فهنا يجوز، بل قد يجب على المسلمين الوقوف مع هذا الباطل ضد الباطل الأكبر، وهذا هو الذي يجعل منهج السياسة الإسلامية منهجاً واقعياً، (فلو أننا ونحن الآن نعيش مشكلة الصراع ضد الصهيونية العالمية التي تمثّلها (إسرائيل) أو ضد الاستكبار العالمي الذي تقوده أميركا، وكان لدينا في الواقع الإسلامي أكثر من تيار يمثل الباطل في العقيدة أو الباطل في الشريعة أو الباطل في السياسة مما نتفق معه ولا يتفق معنا في كثير من أصولنا وكثير من خطوطنا ومن مفاهيمنا، فإننا نعمل على أن نلتقي معه مرحلياً وندخل الصراع معه ضد قوة العدو الأخطر كالكيان الصهيوني الذي يستغلّ الخلاف في داخل المجتمع الإسلامي بين العلمانيين وبين الإسلاميين ليهزم الواقع الإسلامي كلّه، ولمّا كان هؤلاء العلمانيون الذين نختلف معهم يحاربون (إسرائيل) فإنّنا في مثل هذه الحالة نقف مع عدوه في الحرب ضد اسرائيل ونجمّد الخلاف، ولا أقول نلغيه، ولا نعترف بان باطلهم حق، ولا نتنازل عن حقنا، بل ندرس العدو الأخطر لنتفق معهم في جبهة وفي تحالف، أو في أيّ صورة من صور التنسيق، حتىّ إذا هزمنا العدو الأخطر تفرّغنا للصراع معه بأية وسيلة كانت وليس من الضروري أن يأخذ الصراع صفة العنف بل قد يكون حوارياً فكريّاً.

وهذه من الأمور التي تفرضها القاعدة الشرعية التي تقول: إذا دار الأمر بين المهمّ والأهم، فعليك أن تغلّب الأهم على المهم، لأنّ المصلحة في تحقيق الأهم أخطر من المفسدة الموجودة في المهمّ، وهذا ما يسمّى بـ(باب التزاحم).

وهذا ما نستوحيه في الواقع الإسلامي، حتىّ أننا في الساحة الإسلامية نعرف أنَّ المسلمين يختلفون مذهبيّاً، فهم يلتقون في قضايا ويختلفون في أخرى وعندما تنشب معركة بين الإسلام وبين الكفر سواء على مستوى العقيدة أو على المستوى السياسي أو على مستوى الأمن، فإنَّ علينا أن نكون مع المسلمين، وأن نجمدّ كلَّ الخلافات إذا كانت هذه الخلافات تضرُّ بالمعركة الإسلامية الواحدة حتى نتمكّن من الانتصار على الكفر وعلى الاستكبار، ثمّ نرجع في حل خلافاتنا على أساس ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾[1].

ليعلِّم المسؤول نفسه أولاً:

ثمّ يتحدّث الإمام عليعليه السلام من خلال بعض المفاهيم التي تخصّ الواقع التوجيهيّ والتبليغّي، فيقول: «مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً». بحيث يجعل نفسه في موقع المسؤولية العليّا، سواء على مستوى القيادة الدينية أو القيادة السياسية أو القيادة الاجتماعية، بمعنى أنَّ الناس يأتمّون بك فيما يقودهم إليه «فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ»، فالنداء إليه من الإمام يقول: حاول ـ قبل أن تكون إماماً للناس ينبغي أن تكون إماماً لنفسك ـ كن سيد نفسك في معنى مسؤوليتك.. أخْضِعْ نفسك لخطّ المسؤولية الذي تدعو الناس إليه في قيادتك لهم، حتى تكون شخصيّتك تجسيداً لذلك الخطّ «وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ». أي حاول أن تربّي نفسك بحيث تتحرّك سيرتك في خطّ مبادئك، ليجد الناس عندما تتحرّك معهم ـ أنّ سيرتُك تنطلق بالفكرة قبل أن ينطلق لسانك بها.. أي أن تكون التجسيدَ العمليَّ لها. «وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالإِجْلاَلِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ». فمن يعلّم نفسه وهو في خطّ تحمّل المسؤوليات أفضل من الذي يعلّم الناس ويؤدبّهم مع

١ـ النساء: ٧٩.

إغفاله نفسه من التعليم والتأديب، ومن هؤلاء الذين قال الله عنهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾(١).

الأنبياء والأوصياء مُثُلٌ عليا:

إنَّ عظمة الأنبياء عليهم السلام وعظمة رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة الهداة من أهل بيته عليهم السلام أنّهم كانوا يمثلون القرآن الناطق، باعتبار أنَّ آيات القرآن ليس لها لسان يطلق الصوت، ولكنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام كانوا يجسّدون القرآن بحيث أنّ الناس كانوا يستمعون الآية من فم النبي صلى الله عليه وآله فتدخل في آذانهم، وكانوا يرون الآية متجسّدة في سيرته فتدخل في كيانهم. وقد قال بعض المفكّرين لو أنَّ الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن كتاباً مذهّباً مزخرفاً وقال للناس: اقرأوه لم يتبعه أحد ولم يقرأه أحد، ولكنّ الله كان ينزّل القرآن وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتحرّك بالقرآن في حياته، ولذلك كان القرآن في سيرة رسول الله هو الذي يجعل الناس ينجذبون اليه، فعندما كان يحدّثهم عن الأخلاق كانوا يرون الأخلاق متمثّلة في سيرته، يمشي وتمشي أخلاقه معه، ويعيش معهم وتعيش أخلاقه معه ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(٢). ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(٣).

وقد سُئلت إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وآله: «**صفي لنا أخلاق رسول الله**». فقالت: «**أطنبُ أم أوجز؟ فقالوا لها: أوجزي، فقالت: كان خلقه القرآن**». إقرأوا أخلاق النبي صلى الله عليه وآله في آيات القرآن كلّها، فسوف تعرفون أخلاقه فيها، لأنّه ما من خُلُق

١ـ الصف: ١ ـ ٢. ٢ـ آل عمران: ١٥٩. ٣ـ التوبة: ١٢٨.

أنزله الله تعالى في آية الاّ وتجسّد في النبيﷺ، فالله سبحانه وتعالى لم يخاطب الناس في إطاعة الرسولﷺ فيما يأمرهم به وينهاهم عنه بالكلمة دون العمل، بل قال لهم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾[1].

من هنا، فإنّ الإمام يقول لكلّ الذين يضعون أنفسهم في موقع المسؤولية سواء كانت المسؤولية مرجعية دينية أو سياسية أو اجتماعية، إنّ عليهم أن يؤدّبوا أنفسهم بكلّ مفردات المسؤولية قبل أن يخرجوا إلى الناس ليمارسوا المسؤولية بينهم، لأنّ عليهم أن يؤدّبوا الناس بسيرتهم قبل أن يؤدّبوهم بلسانهم، ذلك لأنّ القدوة تحقّق من النتائج ما لا تحقّقه الكلمة، وهذا أمر يعيش في التجربة الإنسانية في مواقعها كلّها بأنواعها كلّها.

افضل أسلوب للمخالطة:

ويحدّثنا الإمام أمير المؤمنينعليه السلام في كيفية مخالطة الناس، هل تتحرك في معاشرتك للناس من موقع مزاجك؟ على طريقة بعض الناس الذين يقولون: هذا هو طبعي فمن قبل بي فبها، ومن لم يقبل فله ذلك، فلست مستعداً لمجاملة أحد أو مداراة أحد. أي أنّ بعض الناس يحاول أن يفرض نفسه ومزاجه على المجتمع بحيث ينفّر المجتمع منه، ولا أقصد بذلك أن لا يقول الإنسان الكلمة الحق، قل الحق الذي تؤمن به ولكن قُلْه بالطريقة التي لا تنفّر الناس منك ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2]. ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[3].

١- الاحزاب: ٢١. ٢ـ النحل: ١٢٥. ٣ـ فصلت: ٣٤.

يقول الإمامعليه السلام «**خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ**»[١]. فعليك أن تخطّط في مخالطتك للناس بأن تربح قلوبهم، لأنّك إذا ربحتها انفتحت لك عقولهم، وهذا ما نلاحظه في كثير من أتباع المباديء الضالّة حيث يسيطرون على الناس من خلال صداقتهم بانطلاقهم بكلّ بشاشة ورحابة صدر واحتضان ورعاية للآخر، إنّهم يعودونه في مرضه، ويساعدونه في حاجاته الاجتماعية حتىّ يجذبوه إليهم، فإذا جذبوه عاطفياً، فعند ذلك تكون الطريق ممهّدة لأن يجذبوه فكرياً أو سياسياً.

ولذا، فإنني أدعوكم إلى أتباع هذا الأسلوب لتفتحوا قلوب الناس عليكم لتنفتح بالتالي عقولهم اليكم، فحتى عندما تريد أن تقول كلمة الحقّ قُلْها بطريقة لطيفة محبّبة إلى النفوس، وإذا قابلت الناس قابلهم بوجه منبسط، فلقد أراد الإسلام للمسلمين أن يلقوا الناس مبتسمين، فلقد كان من صفات رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه كان دائم الابتسام، في حين أنّنا نرى بعض الناس يظنّون أنهم بتجهّمهم يفرضون الهيبة على الناس فتراه ﴿**عَبُوساً قَمْطَرِيراً**﴾[٢]. والبعض من الناس إذا رأى شخصاً منحرفاً لا يسلّم عليه ولا يبتسم له، في حين أنّ مسؤوليتك ازاء المنحرف أن لا تقاطعه دائماً وإنّما أن تهديه، فالنبيصلى الله عليه وآله كان قد أُبتلي بالمشركين في مكّة وبالمنافقين في المدينة، ومع ذلك كان يلقاهم بصدر رحب من أجل أن يقنعهم بالابتعاد عن الشرك وعن النفاق. فالإنسان صاحب الهدف لا يتحرّك بمزاجه وانما بهدي رسالته، وهناك فرق بين أن تخلص لمزاجك وبين أن تكون إنساناً يخلص لرسالته، فعندما تخلص لمزاجك، فإنّ معنى ذلك أنّك تريد أن تفرض نفسك على الناس وهم ليسوا مضطرين إلى أن يتحمّلوا ذلك منك، بل إنّ

١ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١٨. ب١٠. ص١٠٧.

٢ـ الإنسان: ١٠.

من حقّهم أن يرفضوك.

أمّا إذا كنت مخلصاً لرسالتك فعليك أن تعرف ما هو أفضل الأساليب لاقناع هؤلاء الناس برسالتك، فقد يكون شخص كافراً شديد الكفر تتلقّاه بالاحضان فإنّك يمكن أن تجذبه إليك وتقنعه بالاستماع إليك، وقد يتكلّم شخص بأقذع الكلام عليك وأنت تقابله بكلام ليّن فقد تغيّر موقفه، وائمتنا عليهم السلام هداتنا في ذلك، حتىّ أن الإمام الحسن عليه السلام كان راكباً ذات يوم على بغلته وحوله أصحابه وإخوانه وابناؤه وأهل بيته ومرّ شخص شاميّ وسأل: مَنْ هذا ؟ فقيل له: هذا الحسن بن علي ابن ابي طالب عليه السلام فبدا يسبّه ويشتمه ويشتم أباه بدون مناسبة، حتىّ سار إليه المحيطون بالإمام عليه السلام ليقتلوه، لكن الإمام عليه السلام نهاهم قائلاً: رويداً، والتفت إلى الشاميّ بكلّ وداعة وابتسام، وقال له: «**اظنّك غريباً**»، أي أنّك خاضع لغسيل دماغ ـ كما يقال هذه الايام ـ من خلال ما سمعته من أعدائنا في بلادك، «**فإن كنت جائعاً أطعمناك، وإن كنت عطشاناً سقيناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت فقيراً أغنيناك، يا غلمان اذهبوا به إلى المنزل فأحسنوا مطعمه ومشربه وملبسه**»، فذهبوا به والرجل لا يصدّق ما يرى ويسمع، ولكنه بعد أن دخل بيت الإمام عليه السلام وأكرموه تطلّع إلى البيت الرسالي فوجد الخُلُق العظيم وحسن الوفادة، فخرج وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته، فمن أين جاء ذلك الانعطاف في الموقف ؟ إنّ الإمام عليه السلام لو قال لأصحابه أدّبوه، أو اقتلوه لكان تخلّص منه بأيسر السبل، ولكن ما هي النتيجة ؟ كان الإمام عليه السلام بفعله ربما قد خسر هذا الإنسان، لكنّه بأسلوبه الحكيم الطيّب والطلّة الرحيمة المؤنسة ربح صديقاً إلى الحقّ، فربما كان الإمام عليه السلام قد درس المسألة ورأى أن هذا الشخص مغرّر به، والاّ فلا مشكلة بينه وبين الإمام عليه السلام ولذا حاول أن يصحّح له فكرته. فبعض الناس قد يسبّونك وهم يتقرّبون بذلك إلى الله تعالى لأنّهم سمعوا كلاماً لم يتحرّوا الحقيقة فيه، فجعلهم

يشعرون بأنّك على الباطل ولذلك فعلى من ابْتِلَي بهذا أن يصبر عليه حتىّ تنجلي للآخرين الحقيقة.

إكتساب الاخوان والتفريط بهم:

وفي هذا الاتجاه هناك كلمة للإمام عليه السلام يقول فيها: «أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الإِخْوَانِ». فالعاجز هو الذي لا يملك العقلية والذهنية والأسلوب والوسائل الأخلاقية التي يستطيع من خلالها أن يكتسب الاصدقاء، والعجز هو عجز الحركة الإنسانية في كيانك «وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ». وهو ذاك الذي اكتسب الاخوان، لكنه وبسبب من سوء خُلُقه ومزاجه ضيّعهم.

المعرفة حجّة:

ومن كلماته في المفاهيم الأخلاقية: «أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ فَلاَ يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ». فعندما تعيش مع أخيك المؤمن وترى في سيرته مع الناس ومعك، ديناً وثيقاً وطريقاً سديداً، ويأتيك من يحدّثك عن سلبية تُوبق دينه، وعن ضلال ينحرف به عن دينه، وعن كلمات هنا وكلمات هناك «فَلاَ يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ». لأنَّ بعض الرجال قد يكذبون، ولأنهم قد ينحرفون، ولأنهم قد يتعقدون، ولأنهم قد يحرّفون الكلام عن مواضعه، وهذه هي نصيحة علي عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ فَلاَ يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي وَتُخْطِئُ السِّهَامُ». فليس من الضروري أنَّ من يطلق الكلمة يصيب كبد الحقيقة. «وَيُحِيلُ الْكَلاَمُ وَبَاطِلُ ذَلِكَ يَبُورُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ». يسمع الذين يتكلمون، «وَشَهِيدٌ». يشهد الذين يتكلمون ويشهد عليهم. «أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلاَّ أَرْبَعُ أَصَابِعَ

فسئل عليه السلام عن معنى قوله هذا فجمع أصابعه و وضعها بين أذنه و عينه ثم قال

الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ»[١]. فكم من الناس الذين يتحدّثون عمن عرفوا فيه وثيقة دين وسداد الطريق، قالوا رأينا؟ هل يصلون إلى العشرة في المئة؟ وكم من الناس الذين قالوا سمعنا؟ إنهم يصلون إلى الألف بالمئة، لأنَّ مشكلتنا هي كما شخّصها الشاعر العالم الشيخ محمد رضا الشبيبي:

حَكَمَ الناسُ على النَّاسِ بِما سَمِعُوا عَنْهُمْ وغضُّوا الأعْيُنا
فأَستحالَتْ وأَنا مِنْ بينِهِمْ أُذْني عَيْناً وعيْني أُذُنا

فلقد صرنا نسمع بعيوننا وننظر بآذاننا، أليس كذلك؟

إنَّ القضية قد لا تتصل بما يتحدّث به الناس عن الناس، ولكنَّها تتصل بالوعي للحقيقة، وهي أن تعتبر شيئاً ما حقيقة، سواء كان ذلك في علم أو في عقيدة أو في سياسة أو في اجتماع، بأن تملك الوسائل التي يمكن لها أن تثبّت الحقيقة من خلال اليقين، فهناك أناس لا يتثبتون بل ينفتحون على القضايا من خلال وهم أو ظن وما إلى ذلك، في حين يريد الإسلام للناس أن يعيشوا التثبتّ في أمورهم كلها.

استنطاق الإمام علي عليه السلام

ونبقى مع علي عليه السلام لنستنطقه في الكثير مما نعيشه، لأنّنا نريد لذكراه أن تكون حركة فكرية عملية في حركة الواقع من حولنا، ذلك لأنَّ علياً عندما تحدّث لم يتحدّث للناس الذين عاشوا في زمنه وحسب، ولكنه تحدّث للأجيال التي تأتي من بعده، لأنَّ حديث عليّ هو حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو حديث الإسلام الذي انطلق به رسول الله صلى الله عليه وآله وحديث رسول الله هو حديث الله **﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ**

١ـ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ٩. ب ١٤١. ص ٨٢.

الهَوَى ۝ إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[١].

لذلك فنحن هنا من أجل أن نسأل علياًعليه السلام عمّا نعيشه من قضايا تفرض نفسها على الذهنية العامّة للإنسان المعاصر.

والسؤال الأول الذي نوجّهه إليه: يا أمير المؤمنين! إنّ في حياتنا دعوات تقول إنَّ ما يَصْلُح للماضي لا يصلح للحاضر، وإنَّ التشريعات التي جاء بها الإسلام في زمان الدعوة وما بعده ربما لا تنسجم مع التطوّرات التي يتحرّك فيها الزمن وينطلق بها الناس، فهناك أوضاع جديدة فرضت نفسها على الواقع، وهناك تطورات جديدة فرضت نفسها على حركة الفكر والتشريع، وهناك أحداث جديدة قد تحتاج إلى حلول لا تنسجم مع الحلول التي كانت مع الأحداث القديمة.

هذا هو سؤالنا لعليّعليه السلام، وقد أجابعليه السلام عن هذا السؤال بقوله: «وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلَ وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلَ وَأَنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ» من أفكار ومن تشريعات ومن عادات ومن تقاليد ومن أوضاع «لاَ يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَلَكِنَّ الْحَلاَلَ مَا أَحَلَّ اللّهُ وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللّهُ»[٢].

حقيقة التطوّر:

إذاً عندما يجتهد المجتهدون في الحلال ليروا الحقيقة فيه، فهو حلالٌ في مدى الزمن، والحرام عندما يكتشفه العلماء اكتشافاً يقينياً فهو حرام في مدى الزمن ونحن نعرف أنَّ الله عندما ختم رسالاته بمحمّدصلى الله عليه وآله، فإنّ معنى ذلك أنَّ رسالة الله

١ـ سورة النجم، الآيتان: ٣ ـ ٤.

٢ـ نهج البلاغة، الإمام عليّ، الخطبة ١٧٥، ص ٢١٠ طبعة المستشارية الثقافية الإيرانية/ دمشق.

تمتدّ مدى الحياة «إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي».

لذلك كانت رسالته رسالة الحياة، لأنّ رسالته وحيٌّ فيما يحتاجه الناس وفيما يؤمّن لهم شروط حياتهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1]، فكل دعوة رسول الله في حلاله وحرامه هي دعوة للحياة في تطوّرها، وهي دعوة تنفتح على آفاق جديدة.

أمّا ما أخذه الناس من أفكار ومن عادات ومن أوضاع فقد يقول قائل إنّها تمثل تطوّر الزمن، ونحن لا نستطيع أن نتجمّد في مرحلة من الزمن، ذلك أنّ الحياة تطوّرت، ولا بدّ للإنسان الذي يريد أن يبقى متحرّكاً أن ينطلق مع التطوّر، ولكن نتساءل: هل أنَّ الزمن في ذاته يحمل عناصر التطوّر؟ إنّ الزمن واحد، والشمس هي التي تحدّد الزمن ليله ونهاره، وليس الزمن الذي انطلق منذ أن خلق الله الشمس مختلفاً عن الزمن الذي بقي وامتدّ إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

إنّ الزمن بذاته لا يتطوّر ولا يمنح الحياة أيّ عنصر من عناصر التطوّر.

هل الحياة في أرضها وفي زمانها وفي جبالها وفي سهولها وأنهارها وبحارها تتحمل عنصر التطوّر الذي يعطي خطاً للفكر جديداً، أو يعطي حركة في الجانب العملي جديداً؟ كذلك الأرض هي الأرض مهما تتنوّع في شكلها مما يصنع الإنسان فيها، والجبال هي الجبال والبحار والأنهار والسهول كما هي.

فمن الذي صنع هذا التطوّر؟ إنَّ الإنسان هو صانع هذا التطوّر من خلال أنَّ هناك فكراً لمفكّر فرض نفسه على الذهنية العامة بفعل القوة التي يملكها أو فعل العناصر التي أحاطت بهذا الفكر، جعلت الناس يفكّرون بهذه الطريقة.

فالمسألة هي هل أنّ الحياة تطوّرت بطبيعتها، أو أن الزمان تطوّر بطبيعته؟ أو

١ـ سورة الأنفال: ٢٤.

أنّ هناك فكراً فرض نفسه على الواقع، وهل معنى ذلك أنَّ على الإسلام أن ينحني لفكر آخر؟ إنَّ معنى انحناء الإسلام لهذا التطوّر هو أنّ الإسلام ينحني للفكر الذي حرّك هذا النوع من التطوّر، وليس من الطبيعي أن تفرض على أيّ فكر سواءً كان إلهيّاً أو بشريّاً، أن يخضع لفكر آخر، لأنَّ للإسلام وجهة نظر في هذا الفكر الذي أطلق حريّة الإنسان بشكل شامل أو أطلق حرية المرأة، أو أطلق كثيراً من الحريّات، وكثيراً من الأفكار الاقتصادية أو الاجتماعية.

إنّه يقول لنا يا من فرضتم أنفسكم بفعل القوة التي تملكونها، أو بفعل القوة التي انضمت إليكم، إنّني أعتبر أنَّ هذا التطوّر عملية تراجعية في حياة الإنسان، فتعالوا نتحاور ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

مفهوم التطوّر عند الإمام عليّ عليه السلام:

لذلك يقول الإمام عليّ عليه السلام: «أَنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ لاَ يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» لأنَّ ما أحدث الناس هو من خلال فكرهم الذي انطلق بعيداً عما أنزله الله من فكر، وعمّا أراده من شريعة، وعمّا خطّط له من منهج، فتعالوا قولوا لهؤلاء الناس لنتحاور فيما أحدثتموه وفيما قدمه الإسلام.

إنني أحب أن تدقّقوا في هذه النقطة، لأن كلاماً يُقال بطريقة الاستهلاك الفكري أو الاستهلاك الحضاري، لا يجدي شيئاً، ذلك أن الزمن هو هكذا:

يقولون الزمانُ به فساد   وهم فسدوا وما فسدَ الزمانُ

إنّ الزمن إطار، والأرض إطار، والإنسان هو الذي يتغيّر ﴿إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأنفُسِهِمْ﴾(٢)، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا

١ـ سورة البقرة، الآية: ١١١.   ٢ـ سورة الرعد، الآية: ١١.

عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١). فالقضية إذاً ليست أنَّ الحياة فرضت تطوّرها على الإسلام ليتراجع الإسلام على أساس أنَّ هناك خطأً أفضل منه، ولكنّ الناس هم الذين أمسكوا بزمام الحياة على أساس القوة، وعلى أساس الظلم وعلى أساس تضليل الواقع.

لهذا لا بدّ لنا كمسلمين أن نبقى على إسلامنا بعد أن اقتنعنا بأنّه وحي الله، وبأنّه كلمة الله الأُولى والأخيرة إلى العالم. علينا أن نرفض كلّ ما يتنافى مع الإسلام وأن نفهم أن ما أحدث الناس لا يُحلّ لنا ما حُرّم علينا، ولكنَّ الحلال ما أحلّ الله والحرام ما حرّم الله. وإذا جاء الآخرون يقولون لكم إنّكم متخلّفون في نظرتكم إلى المرأة، وفي نظرتكم إلى قضايا الحريات، وفي نظرتكم إلى القضايا الاقتصادية نقول لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، تعالوا إلى الحوار من موقع الموضوعية العقلانية الهادئة، كما علّم اللهُ رسولَه صلى الله عليه وآله ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(٢).

فـ«حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمّد حرام إلى يوم القيامة».

ثمّ يتابع عليٌّ عليه السلام حديثه ليربطكم بالتجربة، وعليٌّ عليه السلام عندما يتحدّث عن التجربة، يتحدّث عن المنهج القرآني الذي زاوج بين الدليل العقلي الذي ينطلق من تأملات الإنسان في فطرته وبين الدليل التجريبي ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾(٣)، فلقد كان لكم عبرة في كلّ ذلك، لذلك يقول الإمام إذا أردت أن تفهم القضايا جيداً أُدرسها في الواقع، أُدرس تجربتك وافهم عناصر التجربة، وافهم حركيّة التجربة، وافهم الظروف التي تحيط بالتجربة، وبعد ذلك حاول أن

١ـ سورة الأنفال، الآية: ٥٣. ٢ـ سورة سبأ، الآية: ٢٤.

٣ـ سورة الحشر، الآية: ٢.

تستنتج التجربة «فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا» ـ أي أطبقتم عليها ـ «وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» أولئك الذين انحرفوا عن الخط الذي وضعه الأنبياء لهم «وَضُرِبَتِ الأَمْثَالُ لَكُمْ» من وحي الله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾[1]، إنَّ الله ضرب لكم الأمثال في أولئك كلّهم «وَدُعِيتُمْ إِلَى الأَمْرِ الْوَاضِحِ»[2] فإنَّ الشريعة قد انطلقت بالوضوح الذي يعطيك وضوحاً في العقل ووضوحاً في القلب، ووضوحاً في واقع الحياة فلا يُصَمُّ عن ذلك إلاّ أصم، ولا يَعْمَى عن ذلك إلاّ أعمى، التفتوا إلى هذه الكلمة من خلال عليّ عليه السلام في التجربة في كلّ شيء في الحياة، ولا تعتبروا أنّ ما انطلق به الأقدمون هو الحقيقة دائماً، فلابدّ أن تجرّبوا ما انطلق به الأقدمون لتروا هل هو حقيقة أم لا، أن تجرّبوه تجربةً فكرية، وأن تجرّبوه تجربة عملية.

«وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّهُ بِالْبَلاَءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ» ذلك انَّ الإنسان الذي لا يتعلّم من معاناته، ولا يتعلّم من حركيته، ولا يتعلّم من كلّ ما يدور حوله بكل ما ينطلق فيه، وبكل ما يتحرّك فيه الناس معه، فكيف تنفعه العظة إنّ من لا ينتفع بالألم الذي يعيشه في خطّ الانحراف، فكيف يمكن أن ينتفع بالكلمات ؟!

الانتفاع من التجارب:

لذلك فنحن بحاجة أن ننتفع في الكثير من تجاربنا في الهزيمة، وتجاربنا في الألم، وتجاربنا في الفرح، وفي كلّ التجارب الأُخرى، لأنَّ ذلك يعطينا فكراً جديداً، وعظة جديدة، وقد قال عليّ عليه السلام في كلمة أُخرى: «وَالْعَقْلُ حِفْظُ

١ـ سورة الفجر، الآيتان: ٦ ـ ٧.

٢ـ نهج البلاغة، الإمام عليّ، الخطبة ١٧٥، ص ٢١٠ طبعة المستشارية، دمشق.

التَّجَارِبِ» لأنّ التجربة تعطيك عقلاً جديداً: «وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ»، والتجربة التي تضيف إلى علمك علماً، وإلى فكرك فكراً، هي التجربة الكبرى في حياتك.

«وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّهُ بِالْبَلاَءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ»[١] أي تنقلب الصورة عنده، فإذا الصورة المنكرة تتحوّل إلى معروفة، والصورة المعروفة تتحوّل إلى صورة منكرة لأنَّه لا يحرّك وعيه من خلال تجربة الواقع وتجربة الفكر.

«وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلاَنِ مُتَّبِعٌ شِرْعَةً وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً»[٢] أي أنّ الناس على خطّين: فهناك الذي يتّبع الشرع في كلّ تفاصيله، والذي تكون عقائده عقائد الإسلام وليس غير الإسلام، وأن يكون شرعه شرع الإسلام ومفاهيمه مفاهيم الإسلام ومناهجه مناهج الإسلام، وهناك الإنسان الذي يبتدع فكراً آخر غير فكر الإسلام ونهجاً آخر غير نهج الإسلام.

« لَيْسَ مَعَهُ ـ أي المبتدع ـ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ وَلا ضِيَاءُ حُجَّةٍ» ولذلك تراه يتخبّط في حياته، ثمّ يقول لنا وهو يشير إلى القرآن الكريم هذا الذي يُعرِّفنا حقائق الإسلام في حقائق الوحي:

«وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَسَبَبُهُ الأَمِينُ وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ»[٣] إذا قرأته، فإنَّك تشعر بأنَّ قلبك يخضرّ بكل تلك الخضرة المعشبة بعشب الفكر والوحي والروح، وتشعر أنّ العلم يتفجّر من كلّ آية من آياته ليعيش في قلبك ينبوع فكر وينبوع حركة.

١ـ نهج البلاغة، الإمام عليّ، الخطبة ١٧٥، ص ٢١٠ طبعة المستشارية ـ دمشق.

٢ـ المصدر السابق نفسه والخطبة نفسها.

٣ـ نهج البلاغة، الإمام علي، الخطبة: ١٧٤، ص ٢١٠ ـ ٢١١، طبعة المستشاريّة، دمشق.

«وَمَا لِلْقَلْبِ جِلاَءٌ غَيْرُهُ» فالقرآن هو الذي يعطيك جلاء القلب إذا تراكم الصدأ والأدران عليه، لتجد بقراءة القرآن الجلاء عن الصدأ، وقد ورد في الحديث النبويّ الشريف: «إنّ القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد. قالوا: يا رسول الله، وما جلاؤها؟ قال: قراءة القرآن وذكر الموت».

«مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوِ الْمُتَنَاسُونَ فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً» وهذا الخطّ الذي يرسمه عليّ عليه السلام لأتباعه. فتّش في الشارع والبيت، وفتّش في أيّ مكان، فإذا ما رأيت الخير يتحرّك أمامك، خيراً في حياة الناس وفي فكرهم وفي ساحة الصراع. «فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرّاً فَاذْهَبُوا عَنْهُ» لأنّ الإنسان في خطّ القرآن ونهجه يتحرّك بين الخير والشر. «فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله كَانَ يَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ اعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعِ الشَّرَّ فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ»[1] أي فرس مستقيم ينطلق في الجادّة إلى الهدف الكبير في الحياة.

التلوّن في الدين:

وهكذا يريدنا الإمام عليه السلام في نهاية المطاف «فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللَّـهِ» والتلوّن كناية عن النفاق في أن تُظهر شيئاً وتبطن شيئاً آخرَ، والله يخاطب نبيّه ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[2]، فالنفاق انحراف عن الحق وعن إنسانية الإنسان، فهو ـ أي عليّ ـ يدعو للتوحيد في دين الله والاجتماع على دينه، فما يجمعه الله بينكم من خلال دينه لا يفرّقكم عنه أحد.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3]، والأخوّة الإيمانية قد تكون أعظم من الأخوّة

١- المصدر السابق نفسه والخطبة نفسها.
٢- سورة الشورى، الآية: ١٥.
٣- سورة الحجرات، الآية: ١٠.

النسبيّة، لأنّ أُخوّة النسب انطلقت من خلال اللحم والدّم، وأمّا أُخوّة الإيمان، فقد انطلقت من فكر ينفتح على الله، ومن خط يتحرّك في طريق الله ومن شرع يجمع الناس على حكم الله. فعلينا أن نلتقي على أُخوّة الإيمان وأُخوّة الإسلام حتىّ لو اختلفنا في بعض التفاصيل فيما نفكّر ونستفتي، أو بعض ما نأخذ من خط سياسي هنا أو اقتصادي أو اجتماعي هناك، عندما يجمعنا الله على كلمته، فإنَّ كلّ تفاصيل الكلمات لا يمكن أن تفرّقنا، فلنعِ جيداً أمرنا في انفتاحنا على الله، لنعِ أمرنا في مواجهتنا للتحديّات الكبرى، وفي ساحة الصراع حتىّ نعرف كيف يمكن لنا أن نجمع المتفرقات بدلاً من أن نفرّق المجتمعات، فنحن مولعون بأن نفرّق ما اجتمع وأن نمزّق ما التئم، وأن نبعّد ما قرب، ولذا فإنّنا نحتاج إلى إيمان يختزن العقل في نظرته إلى الواقع، وإلى قلب ينفتح على المحبة التي تنطلق من محبتنا لله ولرسوله ولأوليائه.

«**فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللَّهِ فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ**»(١) فلو درستم هذه الجماعة و«**يد الله مع الجماعة**» التي تجمعكم على الحق حتىّ لو كرهتموها وأتعبتكم وصادرت بعض منافعكم، فستجدون أنَّ النتائج الإيجابية التي تحصلون عليها من اجتماعكم على الحق أفضل من النتائج الإيجابية التي تتصوّرونها عندما تتفرّقون من خلال الباطل.

«**وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً**» فلن يكون هناك خير في الفرقة لا في بداية الزمان ولا في نهايته «**مِمَّنْ مَضَى وَلا مِمَّنْ بَقِيَ**».

وختاماً، يعظنا علي عليه السلام بكل محبّة وبكل روحانية: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ**» أن تجلس لتفكّر بأخطائك وسلبيّاتك وعيوبك

١ـ نهج البلاغة، الإمام عليّ، الخطبة ١٧٥، والنصوص اللاّحقة من الخطبة نفسها.

حتى إذا اكتشفتها أصلحتها قبل أن تفكّر في عيوب الناس، لأنّك مسؤول عن عيوبك، وأمّا عيوب الناس فهم مسؤولون عنها، فلماذا تفكّر فيما لا مسؤولية لك فيه إلاّ من خلال الدعوة والإصلاح، بينما تفقد نفسك، وهناك كلمة مأثورة للسيد المسيح عليه السلام «ماذا ينفعك إذا ربحت العالم وخسرت نفسك» وما فائدة أن تعرف كلّ عيوب الناس من حولك، ولا تفهم عيوب نفسك ؟!.

«**وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ وَأَكَلَ قُوتَهُ وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ**» ولا يعني لزوم البيت الانعزال عن الناس، بل الابتعاد عن كلّ الساحات التي يمكن أن تضلّه أو تهدم إيمانه «**وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ**» وذلك هو المؤمن الذي يكون الناس منه في راحة، لأنه لا يُؤذي أحداً ولا يشتم أحداً ولا يخون أحداً ولا يضرّه، وبدنُه منه في تعب، لأنه يجاهد نفسه في كلّ ما يُثقل نفسه وما تأمره به من السوء.

درس الإمام علي عليه السلام:

إنّ علياً عليه السلام يريد لنا أن ندخل قلوب الناس لندخل إلى عقولهم، ويريد لنا أن نعيش في مجتمع تنفتح فيه القلوب والعقول وتُزال فيه الحواجز.. مجتمع يحترم فيه الإنسانُ الإنسانَ.. مجتمع يحاول الإنسان فيه أن يجمع الناس على خطّ الله ورسوله وأهل بيته.. وقد ورد في حديث الإمام الصادق عليه السلام إلى شيعته «**حبّبونا إلى الناس**». بكلّ الوسائل التي تجذب الناس إلى خطّنا ومدرستنا.

ونحن نعرف أنّ لغة السباب واللعن والأساليب السلبية تنفّر الناس وتخلّف ردود فعل سلبية أيضاً، فليست المسألة أنّ فلاناً يستحق السبّ أو لا، بل ما هي النتائج السلبية الناجمة عن ذلك ولذلك قال الله تعالى ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾. حتىّ في الدائرة غير الإسلامية ﴿**فَيَسُبُّوا اللَّهَ**﴾. فالفعل

يخلق ردّ فعل ﴿عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1].

إنّ علينا أن ندخل عقل علي عليه السلام، وأن ندخل قلبه، وأن ندخل آفاقه كلّها، فكلّ كلمة قالها عليه السلام بما يفتح عقول الناس على الحقّ وعلى الحياة هي بمنزلة ضربته لعمرو بن عبد ودّ وضربته لمرحب، لأنّ تلك الضربة عالجت قضية في تلك المرحلة وإن امتدت آثارها بعد ذلك، ولكن كلّ كلمة حكمة، وكلّ انطلاقة علم، وكلّ تجربة صائبة تبقى مع الإنسان أبد الدهر لتعلّم كلّ جيل كيف يمكن أن يسير إلى الله ومع الله وفي سبيل الله ؟

وتبقى مدرسة علي عليه السلام مع الزمن كله والتي لابدّ لنا أن نتعلّم منها دائماً لأنّها مدرسة الإسلام ومدرسة رسول الله صلى الله عليه وآله ومدرسة القرآن.. بها تعرف الله وبها نعرف رسوله، وبها نعرف القرآن، وبها نعرف كيف نقود الحياة إلى الله ؟

١ـ الانعام: ١٠٨.

خصال أهل الإيمان وأهل الضلال

خصال أهل الإيمان:

ونبقى في رحاب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في إحدى خطبه التي فرّق فيها النّاس إلى فرقتين، ثمّ انطلق ليتحدّث عن موقعه، وعمّا تحدّث به رسول الله صلى الله عليه وآله عن الثقل الأكبر والثقل الأصغر، ودعوة المسلمين إلى الالتزام بهما. ولعلّ قيمة هذه الخطبة أنّها تفتح للإنسان عناصر السموّ الروحي، والانفتاح الفكري والعلمي، والاستقامة العملية في الخطّ الإيجابي الذي يلتزمه الإنسان السائر على الطريق المستقيم. وفي مقابل ذلك، يتحدّث لنا عن الإنسان السلبي في عناصر شخصيّته التي تضيف جهلاً فوق جهله، وتضيف تخلّفاً إلى تخلّفه، وانحرافاً إلى انحرافه.

فلننطلق مع عليّ عليه السلام كما لو كان معنا الآن، لأنّ عليّاً الفكر والروح والخطّ لا يزال حيّاً، كأعظم ما هي الحياة. وسيأتي في آخر حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن أهل البيت عليهم السلام قوله: «**يموت منّا الميت وليس بميت**»[1] يعني أنّهم أحياء لأنّهم ـ أعني أهل البيت عليهم السلام عاشوا للحياة كلّها من حيث عاشوا للإسلام كلّه، ولله أبداً.

يقول عليه السلام: «**عِبَادَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ**» ويحسن أن نلفت النظر إلى أنّ قوله «**عِبَادَ اللَّهِ**» هو إحدى الصِيَغ التي كثرت في الأدبيّات الإسلامية، فهناك نداء «**يا أيُّها الناس**» وقد ورد كثيراً في القرآن، ليُثير في الإنسان إنسانيّته، وليدفع به في خطّ استذكار تلك الإنسانية، والانفتاح على

١ـ أصول الكافي. ج٣. ب٣٢. ص٢٣٥. ح٧.

ما يُراد له أن يأخذ به. وهناك نداء «يا أيُّها الذين آمنوا» وهو نداء ينفتح بالإنسان على إيمانه في العقل والحركة، ليشعر الإنسان بأنَّ عليه تفعيل إيمانه باتجاه عمله وأن ينفتح على هذا النداء باعتباره يتضمّن معنىً يُثير فيه نوازع الإيمان أو ما يقوِّي هذا الإيمان.

وهناك نداء ثالث وهو «عباد الله»، وهذا النداء يُحاول أن يستثير في الإنسان الإحساس بعبوديته لله، كأنَّه يقول للنَّاس، إنّي أُخاطبكم من خلال معنى العبودية في إنسانيتكم، فلا تغادروا هذا الأفق الذي يجعلكم تتحرّكون في الحياة من خلال خطّ العبودية في الحضرة الربوبية. وقد ضجَّت النصوص القرآنية بهذا المعنى لتؤصِّل في الإنسان هذا الشعور. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(١). وقد نسبهم الله سبحانه وتعالى إلى نفسه ليُعطيهم معنى سيادته، والتي تحتضنهم بالمغفرة والرحمة، وليقول لهم إنَّ ربّكم هو السيد الذي لا يضطهد عباده، بل هو السيِّد الذي يغفر لعباده أخطاءهم ويرحم ظروفهم وضعفهم وكلّ ما يحيط بهم مما قد يبتعد بهم عن الخطّ المستقيم ويقرّبهم إلى الخطّ المنحرف، ليقول لهم أنيبوا إلى ربِّكم وأسلموا إليه لأنّه هو الغفور الرحيم.

وفي كلمة «عباد الله» الكثير من الإيحاء، ففيها أنَّ على الإنسان أن يتواضع لله، لأنَّ العبد لا يمكن أن يتكبَّر على سيِّده، وفيها ـ أيضاً ـ أن لا يتكبَّر على الناس الآخرين لأنَّه يتساوى مع الآخرين في العبودية لله، فليس هناك في الناس عبدٌ وسيِّد، بل الناس كلّهم عباد الله، وليس أحدٌ منهم أقرب إلى الله من غيره إلاّ من خلال ما يقدّمه من عمل. وهذا كان حال الأنبياء والملائكة، كما جاء في الآيات القرآنية: ﴿بل عبادٌ مكرمونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بأمرهِ

١ـ الزمر: ٥٣.

يعملون﴾[١]. ولذلك فإنَّ هذا النداء يُلغي في الإنسان الشعور بعلوِّه على الإنسان الآخر، سواء كان علوّاً يجعله مستكبراً يستضعف الآخرين، أو أن يستعلي به ليشعر بنفسه أنّه ربُّ الناس. ﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾[٢].

أحبّاء الله:

يقول علي عليه السلام «عِبَادَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ» فكان الله له عوناً في حياته، يمدّه بالقوّة والمنعة والحصانة. وهو عونٌ ينطلق من توجّه الإنسان نفسه إلى الله. فإذا توجّه الإنسان إلى الله واطّلع الله على قلبه، في صدقِ نيته وإخلاصه، فإنّه يمنحه الألطاف الروحية والفكرية والخطوط العملية لتعالج نقاط الضعف. وما أكثر الضعف في الإنسان ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[٣] فالنفس قد تجرُّ الإنسان إلى السوء وتستثير غرائزه في خطّ الانحراف، فيضعف الإنسان أمام نفسه ويتهاوى، وعندئذ يحتاج إلى اللطف الإلهي الذي ينطلق من خلال الرحمة الإلهية، فبها تنزل الألطاف على الإنسان، وتستنقذه من هذا الضعف والانكسار. وقد ورد في الدعاء: «وأعنّي على نفسي بما تُعين به الصالحين على أنفسهم» أي أعطني ما تعطي الصالحين من الألطاف التي تمنع استيقاظ نقاط الضعف فيهم وانحرافها بهم عن الخطّ، لتقوّي فيهم إرادة الطاعة، والبُعد عن المعصية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤]. فالذي يُجاهد في الله نفسه، ويُجاهد في الله غرائزه، هو في أمان من الانحراف بعونٍ وتسديدٍ من الله سبحانه وتعالى، فإذا أُريد له أن ينحرف، وأحاطت به المتاهات وأخذته خطوط الضياع

١ـ الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧. ٢ـ آل عمران: ٦٤. ٣ـ يوسف: ٥٣.

٤ـ العنكبوت: ٦٩.

وعاشت الفوضى في المجتمع، فإنَّ الله يُشرق في عقله وقلبه ليهديه إلى طريق الهدى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ فالله مع الذين أحسنوا الإيمان في عقولهم، وأحسنوا الخير في قلوبهم، وأحسنوا العدل في حياتهم، وانطلقوا من خطّ الإحسان. الاحسان إلى النفس بتسييرها في خطّ الله، والاحسان إلى الله بتوحيده في الإلهية والعبادة والطاعة، والإحسان إلى النّاس بالقيام بحقوقهم والإفضال عليهم.

فكيف عاش هذا العبد الذي أحاطت به ألطاف الله، فتجنّب بفضلها القبيح واختار الخير والحسن، وانطلق في الخطّ المستقيم «فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ» أي عاش الحزن. ولكن الحزن على ماذا؟ إنَّه الخوف على ما فاته من الفرص التي أضاعها دون أن يعمّق طاعته لله، وأنّه لم يبادر إلى مواقع الجهاد والدعوة إلى الله يوم كانت الساحات مفتوحة، ولكنّه فضّل الراحة على التعب، واختار السّلامة على الخطر، وضيّع الفرصة، فتحوّلت إلى غصّة، فاستشعر الحزن. وهذا ما عبّر عنه عليّ عليه السلام في رسالته إلى ابن عباس: «**فليكن أسفك فيما خلّفت**» يعني أن تأسف على ما خلّفت وراءك من الفرص فلم تنتهزها، لتستزيد من خير الدُّنيا والآخرة.

«وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ» والجلباب ـ في اللغة ـ الثياب، ويعني هنا لبس الخوف لأنَّه يخاف أن يُعْرِض الله عنه، ويخاف من وسوسات الشَّيطان في المستقبل، ويخاف من النفس الأمّارة بالسوء أن تقوى عليه ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[1] يعني أنَّهم يخافون مما هم مقبلون عليه عندما يقفون بين يدي الله، وقد لا يكونون في مواقع السَّلامة بحيثُ لا يملكون جواباً في مواقع السؤال.. ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾[2]. فهذه الألطاف الإلهية،

١ـ المؤمنون: ٦٠. ٢ـ النحل: ١١١.

وهذا الحزن الإيماني والإيجابي والخوف المستقبلي على المصير، هو الذي يجعله يحزن على الماضي ليتجنّب كلّ مواقع الحزن الآتية، ويستجلب جلباب الخوف في المستقبل، فيُحاول أن يأخذ بأسباب الأمن التي تخلّصه عند الله، وتنقذه من عذابه، ليكون في خطّ الاستقامة ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

مصباح الهدى:

«فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ» والقلب كما ذكرنا أكثر من مرة هو المنطقة الداخلية التي قد تتمثّل في العقل، فالعقل هو قلب الإنسان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2]. هو منطقة الوعي في عالم الإحساس والشعور. «فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ» فلم يكن قلبه مظلماً يتخبّط في الظلمات، لأنّه أدخل الله في قلبه، وقلب المؤمن عرش الله، وقد ورد في بعض النصوص: «ما وسعتني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن» وعندما يُشرق الله من خلال سرّ الإيمان في القلب، فإنّ القلب يتحوّل إلى شمسٍ تضيء للإنسان كلّ جنبات نفسه، وكلّ مواقع طريقه، وكلّ غاياته وأهدافه، ولذا يقول عليّ عليه السلام «فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ»، ذلك المصباح الذي يهديه الطريق أينما تحرّك، فيهديه الطريق عندما يفكّر ليكون تفكيره في طريق الحقّ، ويهديه الطريق عندما يحبّ ويبغض، ويهديه الطريق عندما يتحرّك في الحياة، فهو في إشراق الهدى الذي ينطلق من قلبه، ليتحوّل إلى نور في حياته كلّها.

«وَأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ» والقرى ـ بكسر الراء ـ في اللغة ما يُهيّأ للضيف، لأنّ كلّ إنسان لا بُدَّ يوماً أن يترك فيه الحياة، ولهذا اليوم زادٌ لا بُدَّ أن

١ـ الأحقاف: ١٣. ٢ـ ق: ٣٧.

يتزوّده ويقري نفسه به، فهذا اليوم هو ضيفك تماماً كما هو الضيف عندما ينزل عليك، ألا تستعد له بالقِرى والضيافة ؟! وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[1]. والقِرى هنا هو عبارة عن القيام بكلِّ وظائف العبادة وبكلِّ وظائف الطاعة، وبكلِّ ما تمثّله التّقوى، مما يقرّب الإنسان إلى ربّه.

«فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ» ولعلّ المراد أنّه جعل الموت بين يديه صباحاً ومساءً، فإنّ الذي يراه النّاس بعيداً من خلال طول الأمل، جعله قريباً منه، حاضراً عنده، فهو ينتظر الموت في كلّ وقت. وقد جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام إذا نُعِيَ إليه ميت أو ذكر الموت: «اللّهم اكفنا طول الأمل، وقصّره عنّا بصدق العمل، حتّى لا نؤمّل استجماع ساعة بعد ساعة، واستيفاء يومٍ بعد يوم، ولا اتصال نَفَسٍ بنَفَس ولا لحوق قدَمٍ بقدم» يعني أنّه عندما ينقل الإنسان قدمه لا يأمل أن ينقل قدمه الثانية، لأنّه قد يأتيه الموت. ولكن قد يقول قائل: إذا جعلنا الموت أمامنا فإنّ ذلك سوف يُبعدنا عن الحياة ويمنعنا عن العمل والبناء والابتكار! والأمر ليس كذلك، فليس في التعاليم الإلهية ما يوحي بذلك. كيف وقد خلق الله الإنسان مستخلفاً إيّاه في الأرض يعمّرها بالخير، وسخّر له كنوزها وما فيها من نعَمٍ وخيرات! كيف وقد قالها الإمام عليّ عليه السلام: «اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً»[2] فعندما تفكّر في مشاريع الدُّنيا وحاجاتها، وكلّ ما يتصل منها بحياتك الشخصيّة أو السياسيّة أو الاجتماعيّة أو الاقتصادية، أو في حياة النّاس من حولك، أو في بناء الحياة من خلالك باعتبارك ـ أيُّها الإنسان ـ خليفة الله في الأرض، وقد أوكل الله إليك إعمار الأرض إعماراً ثقافياً وإعماراً مادياً وروحياً وسياسياً واجتماعياً، فكّر أنّك لا تموت، يعني ليكن

١ـ البقرة: ١٩٧. ٢ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١١. ب٣٤.ص٣٢٤.

إقبالك على عملك إقبال الإنسان الخالد الذي يشعر بالخلود والاستمرار في العمل، فإذا فاتتك فرصة اليوم فستحصل عليها غداً وبعد غد وما إلى ذلك، أمّا إذا فكّرت في المسؤولية، لجهة أنّ العمل يتضمّن الكثير من المسؤوليات، في إتّقان العمل في نفسه، وفي صيانة العمل من أن يتحوّل إلى شرّ وإلى مشكلة للنّاس، أو يتحرّك العمل في معصية الله، هنا عندما تعمل وتنشط وتبني، فكّر في المسؤولية كما لو كنت تموت غداً، بحيث إذا واجهك الانحراف فكّر أنّك سوف تقف غداً بين يدي الله، وكيف تقدّم حسابك عمّا قمت به من انحراف أو ما أشبه ذلك، فلا تهدِّم حياتك بنفسك بالإحساس بالموت، ولكن أن تعيش المسؤولية في نفسك ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[1].

«وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ» يعني هوّن الشدائد على نفسه. ولعلَّ المراد من الشدائد هي ما يتحمّله الإنسان من المشقة والجهد والصعوبة في طريق طاعة الله، وقد حُفَّت الجنّة بالمكاره وحُفَّت النّار بالشهوات، ولأنَّ العمل في سبيل الله يحتاج إلى كثير من الصبر، حتّى يستطيع الإنسان أن يملك خطّ الاستقامة في حياته ولا يسقط أمام الصعاب ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[2]. وهكذا أن تصبر على الطاعة، وأن تصبر على المعصية.

«نَظَرَ فَأَبْصَرَ» نظر يعني ركّز نظره، ولعلّ المراد بالنظر هو النظر الفكري، يعني فكّر وانطلق في الخطوط الفكرية، ليتعرّف على طبيعة الأمور وحقائق الأشياء وعواقب المسير، ولا يتجمّد عند أوائلها فينفذ إلى عمق الأمور ولا يبقى على سطحها، لذلك «نَظَرَ فَأَبْصَرَ» أي حرّك فكره من خلال ما زوّده الله به من وسائل الإعانة على التفكير، من بصره وسمعه ولمسه وذوقه وشمه وكلّ حواسه، ليتحرّك

١ـ الزمر: ٥٥. ٢ـ لقمان: ١٧.

بجميع ذلك كلّه ويقدّمه إلى العقل المتحرّك، ليصنع منه الفكر المستقيم. وهذا ما أشار إليه القرآن عندما كان يتحدّث عن البصيرة ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١)، فلا بُدَّ أن يكون قلبك مستيقظاً مبصراً. وقد عبَّر الإمام عليّ عليه السلام عن طريقة التعامل مع ما يحيط بالإنسان من الدُّنيا «وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ»، يعني أنَّ الإنسان الذي يوجِّه نظره إلى زخارف الدُّنيا فإنَّها تهجم عليه لتعشي بصره بكلِّ زخارفها وبريقها، ولكن إذا جعل الدُّنيا عيناً يُبصر بها ما في داخلها، فإنَّها تبصّره وتعرّفه طبيعتها وعواقبها ونتائجها، وما يُقبل عليه من خلالها إلى مزرعة الآخرة ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(٢).

«وَذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ» يعني فاستكثر من ذكر الله، لأنَّ ذكر الله في العقل وفي القلب وفي اللسان وفي الموقف، هو سرُّ النجاة في الدُّنيا والآخرة، ولأنَّك إذا جعلت الله أمامك فإنَّك لا تخطو خطوة إلاَّ وتُراقب فيها نفسك من خلال مراقبة الله لك وأمّا إذا نسيت الله فإنَّك تنسى نفسك، لأنَّك تنسى معنى العبودية في شخصك وتنسى معنى المسؤولية في تحرّكاتك في الحياة، وتنسى نتائج المسؤولية مما تُقبل عليه عند الله ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾(٣)، لأنَّ هذه المقدّمة فيها نسيان الله والنتيجة نسيانك نفسك، لأنَّ نفسك هي خَلْق الله، ومعنى الكيان في وجودك المرتبط بالله.

التذكير بالنعم الإلهية:

إنّ هناك فكرة كثيراً ما يركّز عليها القرآن ليخلق فينا حالةً من عمق الوعي في

١ـ الحج: ٤٦. ٢ـ القصص: ٧٧. ٣ـ الحشر: ١٩.

علاقتنا بالله، وهي التذكير بالنِعَم ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[١]، يعني أنَّ كلّ نعمة، سواء كانت هذه النعمة مما يتَّصل بجسدك، بما يتمثّل بالأجهزة التي تنظّم حياتك في جسدك، أو النعم التي تحصل عليها من الخارج مما تأكل وتشرب وتشتهي وتتلذَّذ وتلبس وتسكن وتتعلّم وما إلى ذلك فهو كلّه من الله. دلني على شيء هو لك تستقلّ فيه! فلو أنَّ الله حبس عنك الهواء فهل تستطيع أن تعيش ؟! وبعبارة أخرى، إنّ هناك ارتباطاً محكماً بين وجودك وبين ربوبية الله لهذا الوجود، لأنَّك في ارتباطٍ دائم وأبدي بهذا الوجود في الدنيا والآخرة، وليس لك من الأمر شيء. ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾[٢]. وقد استوحى أمير المؤمنين عليه السلام ذلك فقال: «**لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللَّهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَكَانَ يَجِبُ أَلاَّ يُعْصَى شُكْراً لِنِعَمِهِ**»، فإذا كان وجودك من الله سبحانه وتعالى، فإذاً كيف تعصي الله سبحانه وتعالى ؟! وكما ورد في بعض المأثور، بما مضمونه إنَّك إن أردت أن تعصي الله فاعصه بغير ما أنعم به عليك، أي أعصه بما تستقلُّ به من وجود وقوّة ومنعة. ولكن كيف وكلُّ ما حولنا وما يتَّصل بنا بشؤوننا، منه تعالى حدوثاً واستمراراً وبقاءً. ولكن المسألة أنَّ الإنسان إذا غفل عن سرِّ وجوده أصبح مجرّد ورقة يلعب بها الشيطان، وأصبح مجرّد خشبة في مجرى التيار لا تعرف هل ينقلها التيار إلى عمق البحر أو يلقيها على الشاطىء. لذلك فإنَّ مسألة الإحساس بالله سبحانه وتعالى هي من المسائل التي لا بُدَّ أن تتحرّك مع الإنسان في كلِّ لحظة من لحظات حياته، بحيث لا يغفل عن الله تعالى. وعن الإمام زين العابدين (سلام الله عليه) في دعاء له يقول: «**واشغل قلوبنا بذكرك عن كلِ ذكر، وألسنتنا بشكرك عن كلِّ شكر، وجوارحنا بطاعتك عن كلِّ طاعة**»، يعني أنَّني ـ يارب ـ أبقى معك، في القلب وفي اللسان وفي الحركة، لنحسّ بحضورك في حياتنا كما لا نحسّ بحضور

١ـ النحل: ٥٣. ٢ـ النحل: ١٨.

أحد «خَفِ الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك».

«وَذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ وَارْتَوَى مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ سُهِّلَتْ لَـهُ مَـوَارِدُهُ» أي عندما يرتوي من حبّ الله ـ لأنَّنا الظماءُ إلى الله ـ وعندما يشرب من هذا الينبوع الصافي وهو ينبوع الحبّ لله والانفتاح عليه، فإنَّه يشرب من عذبٍ فرات. وهو الذي سهَّل الله لنا موارده وجعلنا أهلاً للوصول إليه. أمّا كيف نحصل على محبّة الله؟ كيف نحبّ الله؟ فهو بالتفكير في عظمته، لنعرف عظمته من خلال عظمة خلقه وأسرار هذا الخلق، ونتذكّر نعم الله علينا، ونبتهل إلى الله في كلِّ الآمنا وأفراحنا وأحلامنا وندعو الله في ذلك كلّه ونركع له ونسجد ونقف بين يديه، لنعيش معه ونشعر بعطفه وحنانه، حتىّ نحسَّ ببرد لطفه ورحمته علينا.

الصبر على تحمّل المشقات:

«فشرب نهَلاَ؛ وسلَكَ سبيلاً جُدُدا»[1] والسبيل الجدد ـ في اللغة ـ هو الطريق المستقيم، فالإنسان إذا عاش إحساسه وإيمانه بتوحيد الله، انفتح له الطريق المستقيم ﴿إنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَـتَـنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ الَّتِي كُـنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[2].

وفي المثل: «فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى» وهذا المثل يُضْرَب لمن يسير ويقطع المسافات ليلاً، فيصبر على تحمل العناء والمشقة ومقاومة السهر والألم، فإذا وصل إلى مبتغاه حمد الله بعد أن كابد وعانى مشقّات السفر. وحال المؤمنين كذلك، فهي معاناة ومكابدة تنتهي برضوان من الله ومغفرة ورحمة، عندئذ يجتمع المؤمنون ويتواصلون مع ذريّاتهم وآبائهم من الصالحين، فيأنس بعضهم ببعض، ويُظَلَّلون بالرحمة وتنزّل عليهم الملائكة بما صبروا على طاعة الله، ومكابدة البلاء

١ـ الخطبة الواردة في المحاضرة من شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج٦. ص٣٦٣. ب٨٦. ٢ـ فصلت: ٣٠.

في سبيله، ومجاهدة النفس والابتعاد عن المعصية. فيسلّمُ الملائكة عليهم جزاء صبرهم، ويبشّرونهم بالجنة جزاء نجاحهم في الامتحان.

هَمُّ الآخرة أولاً:

يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ**»، بمعنى أنّه لم يجعل الشهوات ثوباً يلبسه، بحيثُ يحيط كلّ حياته، لتكون حياته واقعة تحت ضغط شهواته. والإسلام ـ كما ذكرنا ـ يريد لك أن تملك نفسك، وهو ما أكّدته الأحاديث، إذ ورد أنّه «**ليس الزهد أن تملك الدُّنيا بل أن لا تملكك الدُّنيا**» فهناك فرقٌ بين أن تكون سيِّدَ نفسك وبين أن تكون عبد نفسك، كن عبداً لله ولا تكن عبد الشهوة، لأنّها تجرّك إلى كثيرٍ من المزالق، وتُوقعك في المخاطر.

«**وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ إِلاَّ هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِهِ**» فهو تحرّر من الأمور الطارئة التي تملأ حياة الإنسان، ولكلٍّ منّا همومه؛ هموم الحاجات، وهموم الشهوات وهموم المطامع، تلك الهموم التي تختصرها كلمة (هموم الدُّنيا).

هنا يقول عليه السلام عن هذا الإنسان إنّه تخلّى عن الهموم، بمعنى أنّه لم يجعل الهموم تُحاصر حركته في الحياة، لتشغله عن مسؤولياته وعمّا يُقبل عليه أمام ربّه، بل إنّه يُمارس هذه الهموم كحالات طارئة في حاجاته، يأخذ منها بالمقدار الذي يحقّق فيه حاجاته، فإذا لم يتحقّق تركها وراءه، لأنّ هذه الهموم لا تعنيه بقدر ما يعنيه الهمّ الأساسي، ذلك الهمّ الذي انفرد به، وهو همّه فيما بعد الموت، وهمّه برضا الله، وهمّه بالنجاة عندما يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى.

وهذا ما عبرّ عنه الإمام عليه السلام في كلمته لابن عباس «**فلا يكن أفضل ما نلت في دنياك بلوغ لذة وشفاء غيظ**»، بمعنى أن لا يكون همّك وطموحك في حياتك أن تبلغ لذاتك أو تشفي غيظك، مما أغاظك أو ممّن أغاظك، «**فليكن سرورك فيما**

قدّمت» من عمل صالح، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾[١]. «وأسفك فيما خلّفت» من الفرص التي ضاعت وكان بإمكانك أن تربح بها خير الدُّنيا والآخرة «وهمّك فيما بعد الموت» لأنَّ ما بعد الموت يمثّل المصير، وعلى الإنسان أن يكون همّه سلامة مصيره، فيحرّك حياته وكلّ ما يشغله في إطار همّه الرئيس، بحيثُ لا تغلب عليه الهموم الأخرى. وقد تحدّث الله سبحانه وتعالى عن قوم قارون وهم يخاطبون قارون ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾[٢]، أي لا تبطر ولا يأخذك الكبرياء والبطر ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾[٣]، بمعنى أن تتحرّك في الدُّنيا من خلال حاجات الدُّنيا، التي تحقّق لك استمرار حياتك بطمأنينة، من غير أن تكون الدُّنيا همّك، فالدُّنيا حاجة لك وليست رسالة أو غاية، لأنَّك سرعان ما تتركها.

«وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ إِلاَّ هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِهِ فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى» فهو عندما خلع ثياب الشهوات، وتخلّى عن الهموم إلاَّ همّ رضا مولاه، أبصر وانفتحت بصيرته على الحقيقة وعلى آفاق الخير، وعلى ما يدفعه إلى القرب من الله سبحانه وتعالى. فتحرّر من صفة العمى، وأصبح من المبصرين «وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى» أي خرج من مشاركة أهل الهوى، لأنَّه انطلق من خلال دينه ومبدئه ورسالته، وتحرّر من قيودهم، لأنَّ تلك القيود تجعلهم يتحرّكون مع أهوائهم وهي تتجّه بهم ساعة نحو اليمين، وتُلقي بهم ساعة أخرى صوب الشمال فهم أسرى هذه الأهواء، يميلون معها حيث تميل. وقد قال الشاعر: «إذا الريح مالت مال حيث تميل». وقد قال عليّ عليه السلام يصف أهل الهوى: «همجٌ رعاع أتباع كلّ ناعق يميلون مع كلّ ريح لم يستضيئوا بنور الحقّ ولم يلجأوا إلى ركن وثيق».

١ـ البقرة: ١١٠. ٢ـ القصص: ٧٦. ٣ـ القصص: ٧٧.

الدليل إلى الهدى:

ويُتابع عليﷺ فيقول: «وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى» فهو لم يتحرَّر من الأهواء، ولم يُفارق العمى وحسب، بل تحوّل إلى ركن أساسيّ في خطّ حركة الرسالة في حياته، فأصبح صاحب رسالة، «وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى» وعندما يُمسك الإنسان هذا المفتاح، فهو يملك أن يفتح للنَّاس أبواباً تُدخلهم إلى الهدى، وإلى ساحات الخير والحقّ والعدل، وهي الساحات التي تدلّهم على الله وتدخلهم في طاعته «وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى» التي تقود النَّاس إلى الهلاك، حتّى لا يدخل النَّاس أبواباً تؤدي بهم إلى الهلاك. وهذا يعني أنَّه لا يكفيك أن تمنع نفسك عن الشرّ، بل لا بُدَّ من أن توجّهها نحو الخير وعليك أن لا تترك أهل الهوى لتعيش وحدك، بل لا بُدَّ لك أن تتحرّك مع مجتمع الهدى، فلا تقف على الحياد بين أهل الهدى وأهل الهوى، بل عليك أن تكون مع الحقّ ومع أهل البصيرة، فمن ترك الهوى وترك العمى انطلق إلى البصيرة. وقد قالها الإمام موسى الكاظمﷺ: «**لا تقل أنا مع النَّاس وأنا كواحد من النَّاس، إنَّما هما نجدان. طريقان: نجد خير ونجد شر، فلا يكن نجد الشر أحبّ إليك من نجد الخير**»[1].

ثُمَّ يقول عليّﷺ في وصفه النموذج الرساليّ: «قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ» فهو عندما خرج من صفة العمى صار مبصراً، وبذلك أبصر طريقه، لا بعينه بل بقلبه، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ۝١٢٥ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[3]، نسيتها أي عميت عنها وصرت أعمى لأنَّك عشت عمى القلب وإن كنت مبصر العين.

١ـ بحار الأنوار: ج ٤٥. ب ٣٤.ص ٣٤٥. ح ٧. ٢ـ الحج: ٤٦.
٣ـ طه: ١٢٥ ـ ١٢٦.

«وَسَلَكَ سَبِيلَهُ» فقد أبصره ودعاه إلى أن يسلك هذا الطريق، «وَعَرَفَ مَنَارَهُ» يعني عرف ما ينير له الطريق، «وَقَطَعَ غِمَارَهُ» أي أنَّه قطع الغمار، والغمار في اللغة معظم البحر، ويعني أنَّه عبر بحار المهالك إلى سواحل النجاة. «وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثَقِهَا» والعُرى ما يُتمسّك به، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[1] فهو استمسك بأوثق العرى وبأقواها. «وَمِنَ الْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا» ومن أراد أن يتمسّك بحبل النجاة لا بُدَّ له أن يتمسّك بحبلٍ متين وإلاَّ انقطع وتردَّى.

وحال المؤمن هنا كما وصف عليّ عليه السلام أنَّه يتمسك بحبل متين لينقذه من الردى والهلاك. ثُمَّ يعقّب عليه السلام فيقول: «فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ» يعني عندما أبصر طريقه وسلك سبيله وانفتح على الهدى، فإنَّه عرف الحقيقة، حقيقة الموقف، وحقيقة الغاية، وحقيقة الإيمان، وعرف حقيقة موقعه من ربِّه ومقام ربّه، وبذلك أصبح من اليقين على مثل ضوء الشمس، فلم تكن له أيّة حالة ضبابية في إيمانه، ولا في أهدافه وغاياته وما إلى ذلك، وقد آل به اليقين إلى أنَّه «قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ» يعني صار جندياً من جنود الله ووليّاً من أوليائه ومن حزبه، والإنسان الذي ينفتح على الله سبحانه وتعالى من الأفق الواسع، يكون قد أبصر ربَّه ببصيرته وعرف مقامه «قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ الْأُمُورِ» فهو عندما يرتبط بالأمور الرفيعة التي ترقى إلى المستوى الأعلى في أهداف الإنسان، يصبح مؤهلاً لأن يتبوَّأ موقع المتيقّن «مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ» فهو كلّما ورد عليه سؤال يسأله عنه النَّاس فإنَّه يعلّمهم ويرشدهم ويجيبهم بما يتفق ووجهه وحقيقته، وقد ورد أنَّه ما أخذ الله على الجهّال أن يتعلّموا حتّى أخذ على العلماء أن يعلِّموا، وقد ورد «إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يُظهر علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»، «وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ» يعني قد بلغ من الثقافة موقعاً ودرجةً تؤهّله

١- لقمان: ٢٢.

لأن يردَّ الفروع إلى أصولها، وذلك شأن الفقيه الذي يعرف أصول الشريعة، فيُحاول أن ينفتح ويتعمَّق في هذه الأصول من الكتاب والسنّة والعقل وما إلى ذلك من الأدلة ليردَّ الفروع إلى الأصول، ويجيب على أسئلة النَّاس، مما يُبْتَلى به النَّاس في حياتهم العامّة والخاصّة.

المؤمن مصباح الدنيا:

«مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ» فيكون هذا الإنسان الذي استطاع أن يربّي نفسه ويثقّفها بمثابة المصباح في الظُّلمات، لينير للناس طريقهم في ظلمات الجهل والتخلّف والشبهات وما إلى ذلك «كَشَّافُ عَشَوَاتٍ» فإذا واجهت النَّاس الشبهات وضغطت عليهم كلّ غشوات الجهل والضلال، وأعشت عيونهم عن النظر إلى الحقّ فإنَّه يتحمّل عناء كشف هذه الغشاوات التي تغشي عيون الناس وتحجب عنها ضوء الشمس. «مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ» فإذا واجه النَّاس الأمور المبهمة وغير الواضحة وأرادوا من يفتح لهم هذا المبهم ليوضحه لهم وليعرّفهم طبيعته وأسراره، فإنَّ هذا الإنسان وأمثاله هو المؤمَّل لفتح المبهم وفك رموزه ومغاليقه ليدخل الناس في الوضوح. «دَفَّاعُ مُعْضِلاَتٍ» بمعنى إذا هجمت المعضلات ـ الأمور المعضلة ـ والأمور المعقَّدة وأخذت تداهم حياة الناس، وتحيّر الناس في كيفية حلّها والخروج منها، فإنّه من خلال إحساسه بالمسؤولية ومعرفته بالأمور المعقَّدة يتصدّى لدفع هذه المعضلات عن النَّاس، فيشعر الناس بالراحة والطمأنينة والسكينة.

«دَلِيلُ فَلَوَاتٍ» والفلوات ـ في اللغة ـ الصحارى، وفي مثلها يحتاج إلى الدليل. ذلك الدليل الذي يدلّ الإنسان على الطريق، حيث الرمال تملأ الساحات كلّها فلا يعرف الإنسان طريقه، والمقصود هنا من الفلوات فلوات الجهل وصحارى الضلال، فيصبح هذا الإنسان دليلاً في مثل هذه الصحارى، ينقذ النَّاس

من المتاهات وينصب لهم العلامات «يَقُولُ فَيُفْهِمُ» فهو إن تحدّث مع الناس تحدّث بوضوح وبما يُفهمهم، وليس له همٌّ إلاّ أن يكونوا في وضوح، إذ ليس من العبقرية أن يتحدّث الإنسان بما لا يفهمه النّاس، ولا أدلّ على ذلك من كلام الله في كتابه الكريم، وقد أنزل بلسان عربي مبين، ووفق أصول ومحاورات أهل اللغة واللسان.

«وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ» فإنّه يسكت عندما يكون الناس في غير حاجة إلى الكلام أو عندما يؤدّي الكلام إلى خلق مشكلة له وللنّاس، فإنَّ الصمت في كثير من الحالات يمثّل قيمة فكرية للإنسان، لأنَّ الإنسان يصمت هنا ليفكّر، لأنَّه إن تكلّم بلا تفكير، فهو يفقد فرصة تعميق كلامه، ولذا قالوا: **إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب** وإنّما عُدَّ السكوت من ذهب لجهتين، من جهة أنّه قد يسكت الإنسان لدفع ما يمثّله الكلام من مشكلة له وللمجتمع، وقد يصمت من جهة أخرى ليستجمع فكره ويحرّكه في استخراج المعاني من خلال عمقها، ومن خلال الحاجة إليها.

«قَدْ أَخْلَصَ لِلَّهِ فَاسْتَخْلَصَهُ» أخلص لله في فكره وعقله وقلبه وإحساسه وعمله، ولمّا عرف الله منه الإخلاص استخلصه، بمعنى قرّبه واستخلصه لنفسه فجعله من أوليائه «فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ» فأصبح يمثّل قاعدة من قواعد الدين باعتبار أنّه يمثّل المعدن، وهو الذي يتميّز بالخصائص الأساسية التي تغني الإنسان، وهذا هو شأن المعادن «وَأَوْتَادِ أَرْضِهِ» وهي التي تثبت الأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾[1] فكما تحتاج الأرض أوتاداً مادية تثبتها حتّى لا تهتز ولا تنهار، فنحن بحاجة إلى أوتاد إنسانية تثبت العقول والنفوس وتثبت الحقّ في مواقعه حتّى لا يهتز أمام الشبهات وأمام التحدّيات «قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ

١ـ سورة النبأ: ٧.

الْعَدْلَ» لأنَّه رأى في العدل رسالة الله إلى الناس وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ﴾(١) والقسط العدل «فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ» لأنَّه لا بُدَّ للإنسان أن يعدل مع نفسه أولاً، فلا يظلم نفسه، ولا يسير بها نحو الهلاك ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢)، وفي دعاء كميل يقول علي عليه السلام: «ظلمتُ نفسي وتجرأتُ بجهلي وسكنتُ إلى قديم ذكرك لي ومنِّك عليّ» فهذا هو أوّل عدله، وهو عدله مع نفسه فاستقامت في الطريق المستقيم الذي يدفعها إلى النجاة. وهو إن عدل مع نفسه فإنَّه يفكّر من خلال ذلك أن يعدل مع الناس، لأنَّ الإنسان الذي يظلم نفسه ينطلق من خلال هوى نفسه، وهو إن منع الناس حقوقهم فهو يلبي رغبة نفسه الظالمة لنفسه أولاً، وإن نفى الهوى عن نفسه أصبح منفتحاً على الحقّ مستعصياً على الهوى، فيُعطي الناس حقوقهم.

«يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ» فهو ليس ممن يقول ولا يفعل، ويتحدّث عن الحقّ ويتنكّر له، بل هو أولى بالحقّ، وقد تحدّث الله على لسان نبيّه صلى الله عليه وآله ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣)، يعني أدعو الناس إلى الإسلام، وأكون أنا أوّل المسلمين الذين يتحرّكون في خطّ الإسلام في الطريق إلى الله «لاَ يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلاَّ أَمَّهَا» يعني قصدها «وَلا مَظِنَّةً إِلاَّ قَصَدَهَا» فأيّ شيء يظن به خيراً قصده، فهو في تفتيش دائم عن الخير.

«قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ» يعني جعل زمام نفسه ومصير حركته في الحياة وانطلاقته فيها من الكتاب الكريم «فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ» فقد استنار بالقرآن واستنطقه وفعّله في حياته، فكان إمامه الذي يهتدي بهداه، وليس كالذي يفرض رأيه على الكتاب فيحرّفه عن مواضعه «يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ» بمعنى أنَّه يحلّ أينما

١ـ الحديد: ٢٥. ٢ـ النحل: ١١٨. ٣ـ الزمر: ١٢.

حلّ الكتاب، بأوامره ونواهيه، فيأتمر بأوامره، وينتهي عن نواهيه، «وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ»[١]، فلا يُفارق الكتاب الكريم في صغيرة ولا كبيرة ...

خصال أهل الضلال:

نحن مع الفصل الثاني من خطبة الإمام علي عليه السلام التي قسّم فيها الناس إلى قسمين، ولا سيّما المتصدّين للعمل الإسلامي في المجتمع، الثقافي منه أو العام، وكان الحديث في ما تقدّم عن القسم الأول من الناس وهم المؤمنون.

ونتناول في حديثنا هذا القسم الثاني، فيقول: «وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ»، أي أنَّ هناك فريقاً من الناس من يدّعي العلم والكفاءة في العمل الإسلامي الثقافي، وليس له نصيبٌ منه، سواء الذي يتزيّى بزي العلم، أو الذي يتّخذ لنفسه مركزاً في المواقع الثقافية التوجيهية، فهو يضع نفسه موضع العلماء أو المثقفين والمفكّرين الإسلاميين، وليس له حظ مما يدّعي، بل لو سبرنا أغواره لوجدناه كما يقول الإمام عليّ عليه السلام: «فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ» فهو عندما تعلّم فإنّه لم يأخذ علمه من العلماء الذين يملكون المعرفة الحقيقية أو يملكون قواعد العلم ومناهج التفكير، بل اتكأ على جهّال لا يملكون من الحق أيّة معرفة ولا يملكون من العلم أيّة قاعدة، فألبسوه جهلاً على جهل.

مقتضيات الوثاقة:

«وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلَّالٍ» أي اقتبس الأضاليل التي تبعده عن الحقّ من جماعات ضالة ومنحرفة، فأخذ يتحرّك من مواقع جهله وينطلق في خطّ الضلالة ويكثر هذا الفريق من النَّاس في المجتمع عندما تنعدم الموازين وتضيع الأسس

١ـ نقلاً عن شرح نهج البلاغة: ج٦. ب٨٦. ص٣٦٣.

التي يقوم عليها التقييم، كما نراه اليوم في المحافل العلمية، ولعلّ أوضح مثال على ذلك ما نراه في ارتداء الزيّ الديني، بحيث يتيسّر لأي إنسان أن يتزيّى بهذا الزي ويفرض نفسه من خلال بعض الأوضاع الاجتماعية على الإسلام وأهله، وربَّما تُمهّد له بعض الأجواء المتخلّفة الحركة في المجتمع وتعطيه الشرعية، لأنَّ المشكلة القائمة اليوم هي أنَّ الساحة الإسلامية بحكم بعض الظروف أخذت تتّسع للمتخلّفين الذين لا يملكون وعي الانفتاح على الجوانب الحضارية للإسلام وعلى مفاهيم الإسلام الأصيلة، فالمشكلة في هذا النموذج الذي يقدّمه الإمام عليّ عليه السلام أنَّه نموذج الجهلة الذين يتزيون بزي العلم، من خلال بعض الظروف الاجتماعية التي جعلتهم في الواجهة أو جعلتهم في مواقع التبليغ والتعليم أو في مواقع التجربة، ومشكلتهم أنّهم أخذوا جهلاً من جهّال، وضلالاً من ضلّال.

وكأنَّ الإمام عليّاً عليه السلام يوحي إلينا بأنَّ علينا ألاَّ نخضع للظروف الاجتماعية في ثقتنا بالأشخاص، لأنَّ بعضهم قد يملك الضخامة الشخصية من جهة بعض التعقيدات الاجتماعية، ولكنَّه قد لا يملك ما يؤهله لهذه المواقع، وقد لا يكون أهلاً للمسؤولية، ولذا، فلا تُعطِ الثقة إلاّ من خلال الخبرة والمعاشرة، ولا نعوّل على الشكل أو المظاهر الخارجية، أو بعض الامتيازات الاجتماعية التي تُفرض لبعض الوقت ولسببٍ ما، ولذا فلا تُعطِ قيادك إلاَّ لمن خبرته وعجنته وعركته وعرفت مصادره وموارده، ولا سيّما أنَّك تسلّم لهذا الإنسان عقلك، فيكف تسلّمه لمن لا يملك مسؤولية العقل ؟ أو تُذعن له في العمل وأنت لا تعرف مؤهّلاته في هذا الاتجاه ؟! بل كيف تُذعن له في تحديد تكليفك الشرعي وتحديد الإطار العقيدي الذي تؤمن به، وهو على هذا الحال من الجهل والضلال والانحراف ؟! وإنّي أعجب أمام هذه الفوضى التي نعيشها في هذه الأوضاع التي يمثّل الزي الديني فيها المدخل المناسب لكلّ ما يوجب الوثاقة، فيكون المتزيّي بهذا الزي الديني موجباً للوثاقة به في العلم والمعرفة، وموجباً للوثاقة به في الدّين، وموجباً للوثاقة

به في أستلام الحقوق الشرعية وقبضها، وهو ليس أهلاً للوثاقة بأيّ مستوى من هذه المستويات. لأنه كما قال الإمام علي عليه السلام، «قد تسمّى عالماً» وهو يقتبس الجهل من الجهّال، والأضاليل من الضالّين ومن مصادر الضلال، فكان ادعاؤه للعلم مصدر تمويه وتضليل للنّاس.

تجنيد الدّين للابتزاز:

«وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً» فهو قد اتخذ الدِّين والمعرفة وسيلةً للابتزاز، ووسيلة لاصطياد دين النَّاس وعقولهم وأموالهم، يصطادهم بشركه الذي صنعه «مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ» فجعل من أفعاله ومظهره مصدر تغرير للنَّاس ليسهل عليه صيدهم، «وَقَوْلِ زُورٍ» وجعل كلماته الباطلة وقوله الزور وسيلةً لا جتذابهم واختطافهم، فيُداعب مشاعرهم وأحاسيسهم، ويتحدّث لهم بما يشتهون وبما يحبّون، فهو لا يحدّثهم بالحقيقة المرّة أو بما يجعلهم يقفون على مسؤولياتهم. «قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ» بمعنى أنَّه يُخضع القرآن لآرائه وتفكيره ولا يخضع تفكيره للقرآن، فهو إمام القرآن وليس القرآن إمامه، وهذا ما نلمسه في صورة الواقع، حيث ظهر عدد من الاتجاهات الفكرية في حقب مختلفة من التاريخ، وفي مقدّمتها المجسّمة الذين قالوا إن الله جسم، واستدلّوا ببعض الآيات القرآنية الكريمة كقوله تعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[١] وقوله تعالى ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٢]، وقوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٣]، فتنكّروا لآيات القرآن الأخرى التي تضيء الفكرة الصحيحة، أو أنّهم تنكّروا لقواعد اللّغة العربية وأسرار البلاغة، واتخذوا من القرآن الكريم وسيلةً لتبرير أفكارهم وتسويقها، متناسين متغافلين قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٤] وقوله ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾[٥] وعندئذٍ لا

١ـ البقرة: ١١٥. ٢ـ الفتح: ١٠. ٣ـ المائدة: ٦٤.
٤ـ الشورى: ١١. ٥ـ الأنعام: ١٠٣.

يُراد من اليد في قوله تعالى ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[(١)] اليد الجارحة، وهي اليد العضوية المادية، بل المراد هنا القوّة، كما نقول إنَّ لفلان يداً، بمعنى السطوة والقوّة وكذلك في قوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فإنَّ المراد هنا العطاء، وهكذا في عدد من الموارد التي ابتلي تفسير القرآن الكريم بها، حيث فسّرته كلّ طائفة وكلّ فريق بما يشتهي، وبما يؤمن ويفكّر، ليكون القرآن متفقاً مع آرائها، لا أن تكون هي متفقة مع القرآن.

«وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ» أي أخضع الحقّ لما يهوى وما يشتهي وما يريد أن يوظّفه لأهوائه وشهواته، كالكثيرين ممن يستشهدون بالقرآن لتغطية ظلمهم وطغيانهم، وثما أكثر الطغاة الذين يحاولون أن يحرّفوا الكلام عن مواضعه، ويحرّفوا القرآن لإضلال الناس على حسب أهوائهم.

«يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعَظَائِمِ» بمعنى أنَّ يهوّن للنّاس فعل المعاصي والانحراف عن الصراط المستقيم، فيؤمنهم من العذاب ومن سخط الله تعالى، فيشيع في حياتهم استسهال فعل المعصية والموبقات متذرعاً بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[(٢)] وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[(٣)] أو ما ورد من «إنَّ حبَّ عليّ حسنة لا تضرّ معها سيئة»، أو ما أشبه ذلك، ما يجعل الناس يواجهون كلّ ما يقومون به من معاصي لله مواجهة المطمئن، من دون أن يتعرّفوا على الشروط التي لا بُدَّ أن تُصاحب ذلك كلّه بالرجوع إلى الله والتوبة من الذنوب ونحو ذلك.

«وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ» وعندما يتلبّس النّاس بالكبائر التي تصل إلى حدّ الجرائم في حقّ الناس، فإنَّه يهوّن عليهم ذلك، ويحاول أن يطمْئنهم، بأنَّ الله لا يجازيهم على ذلك بعقابه.

١- الفتح: ١٠.　٢- الزمر: ٥٣.　٣- النساء: ١١٦.

المظاهر الزائفة:

«يَقُولُ أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ» فيظهر للنَّاس بمظهر الإنسان الورع الذي يقف عند الشبهة موقف المحتاط، الذي لا يُقدم على ما يشتبه من الأمور التي تتردّد بين الحلال والحرام، بمعنى أنَّه لا يرتكب حتّى ما فيه شبهة الحرام فضلاً عن الحرام، ولكنَّه في واقعه على خلاف هذه الحال. فهو في الوقت الذي يدّعي فيه الوقوف عند الشبهة يقع فيها.

«وَفِيهَا وَقَعَ وَيَقُولُ أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ وَبَيْنَهَا اضْطَجَعَ» والبدعة كلّ ما يُنسب إلى الدين وليست من الدين في شيء، فهو يدّعي أنَّه يعتزل البدَع ولكنَّه ينام بينها على حدِّ وصف أمير المؤمنين عليه السلام، وذلك كناية عن مدى اقتحامه البِدَع، بحيثُ أحاطت به من جميع الجهات.

«فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ» فمظهره مظهر الإنسان، ولكن قلبه وعقله وأحاسيسه لا تنتمي إلى الإنسان، بل هي إلى الحيوان أقرب، من حيث العقل والقلب والأحاسيس فيما يفكّر ويعقل ويشتهي، ولذلك وصف سبحانه وتعالى هذا الفريق بقوله تعالى ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[١] لأنَّ الحيوان بطبعه يخضع للغرائز ولا ينفتح على الفكر، لأنَّه لا يملك حركية الفكر ولا ينفتح على الإبداع، لأنَّ تكوينه الداخلي لم يُؤَسَّس على الانفتاح على الحقائق الكبرى، وما نحن بصدد الحديث عنه من هذا الفريق من النَّاس أشبه بالحيوان من هذه الجهة، لأنَّه لم يفتح قلبه على الله، ولم يفتح حياته على الصراط المستقيم، وقد قال تعالى ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ﴾[٢]، لأنَّ الأنعام بطبيعة تكوينها كذلك، على خلاف الإنسان الذي جمع بين العقل والغريزة،

١ـ الفرقان: ٤٤. ٢ـ الأعراف: ١٧٩.

فأرسل الله للنّاس الأنبياء، ليكوّنوا لهم عقولاً احتياطية، لمساندة العقل في السير على الطريق المستقيم.

«لاَ يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ» فهو عندما سار في متاهات الضلال أضاع أبواب الهدى، ولذلك فهو يتخبّط في حياته، ولا يعرف باب الهدى فيتبعه، «وَلا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ»، لأنَّه أعمى القلب ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١) فيدخل أبواب العمى ويُخيّل إليه أنَّها أبواب الهدى «وَذَلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ» لأنَّ الميت على قسمين: ميت الأموات وهو الذي فقد الحياة في جسده، وهناك ميت الأحياء، وهو الذي تدبّ الحياة في جسده، ولكنَّه فقد الحياة في عقله وقلبه وانفتاحه على حياة الهدى. ولذلك عندما قُرِيء على الإمام الباقر عليه السلام قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾(٢) قال: «تأويلها الأعظم مَنْ نقلها من ضلال إلى الهدى»، يعني أنَّك عندما تنقل الإنسان من ضلال إلى هدى فقد أحييته، لأنَّك أحييت عقله ليسير في رحاب الحقيقة وأحييت قلبه لينفتح على الله، وأحييت حياته ليتحرّك في الخطّ المستقيم ومن الطبيعي أنَّ من ينقل النَّاس من الهدى إلى الضلال فإنَّه ينقلهم من الحياة إلى الموت، وأيُّ موتٍ أعظم من أن يموت عقلك وقلبك وأن تموت حياتك؟! لأنَّها تعيش في قبور مظلمة لا تستطيع أن تخرج منها، وهذا أبلغ وصف يوصف به الإنسان المنحرف «وَذَلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ». ثُمَّ إنَّ الإمام وهو يتحدّث لمجتمعه آنذاك يتحدّث إلينا أيضاً، لأنَّه كان حاضراً في ذلك المجتمع بوجوده المبارك وهو حاضر في مجتمعنا بفكره وبعلمه وبكلّ روحانيته.

«فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ» بمعنى إلى أيّ المتاهات أنتم ذاهبون «وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» يعني تصرفون عن الحقّ «وَالأَعْلاَمُ قَائِمَةٌ» والمراد بالأعلام هنا الرموز، يعني الشيء

١ـ الحج: ٤٦. ٢ـ المائدة: ٣٢.

الذي يظهر ويدّلك على الطريق، ولذلك تُسمّى الجبال أعلاماً، لأنّها تشير لك وتكون علامة «وَالْآيَاتُ وَاضِحَةٌ» أي آيات الهدى التي بيّنها الله سبحانه وتعالى في ما أرسله من رسل، أو ما أعقبهم من الأئمّة والأولياء «وَالْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ» فيما يدلّ على الطريق «فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ» فإلى أين يذهب بكم هؤلاء المضلّون الذين ينحرفون بكم عن الخطّ المستقيم «وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ» والعمه هو الحيرة والتردّد.

الأئمّة: اعلام الدّين:

«وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ» وكان الذي يمثّل العترة آنذاك عليٌّ وولداه الحسن والحسين عليهما السلام وأعقبهم الأئمّة المعصومون من ذرية الحسين عليه السلام «وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ وَأَعْلَامُ الدِّينِ» فهم الذين يمسكون زمام الحقّ وينظّمون للنّاس خطّ سيرهم تماماً كزمام الناقة، تشبيهاً بالإنسان الذي يمسك زمام دابته خشية أن تذهب أو تتجه به في الاتجاه غير الصحيح. كذلك الأمر بالنسبة لأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله فإنّهم هم الذين يمسكون الزمام لئلا يضيع النّاس، فيوجّهونهم نحو الحقّ والطريق المستقيم، ويجنّبونهم طريق الضلال والانحراف. «وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ» وهم ألسنة الصدق، لأنّهم لا يقولون إلاّ صدقاً، ولا يقولون إلاّ حقّاً. فينفتح النّاس على هذا الصدق، فيتحرّكون في ألسنتهم، ليكرّسوا هذا الصدق في كلّ كلماتهم، وفي كلّ الأجيال «فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ» أي أنزلوا أهل البيت عليهم السلام بأحسن منازل القرآن، ومن منازل القرآن أن تعظّمه وأن تتلوه وتتدبّره وأن تعمل به وكذلك أهل البيت عليهم السلام فهم عِدْلُ القرآن. وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله: **«إنّي تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي»**(١)، فكما يجب علينا أن نعظّم الكتاب، وأن نقرأه ونتدبره

١ـ بحار الأنوار: ج ٥٤، ص ٤٣٥. ح ٢٣.

ونعمل به، علينا أيضاً أن نعظِّم أهل البيت عليهم السلام بما عظّمهم الله به من إمامتهم وعصمتهم وطهارتهم، وأن نقرأ تراثهم ونتدبره ونعمل به، لأنَّهم لا يقولون إلاَّ ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا ينطقون إلاَّ من خلال القرآن «وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ» وهنا تشبيه، بمعنى أنَّه كما تَرِدُ الإبل العطشى الماء بتلهّف وباندفاع شديد، فليكن حالكم في التلهّف والاندفاع إلى أهل البيت عليهم السلام كما هي حال الإبل العطاش.

«أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ صلى الله عليه وآله» بمعنى خذوا هذه الكلمة التي تمثّل قيمة أهل البيت عليهم السلام والنبيّ صلى الله عليه وآله وهو الذي لا ينطق عن الهوى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1]، لأنَّ النبيّ عندما تحدّث عن أهل بيته، فإنَّما تحدّث عنهم لأنَّهم موضع الرسالة، وموضع الحقّ، ولأنَّهم كسفينة نوح كما قال: «مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق وهوى».

الأئمة عليهم السلام أحياءٌ ما بقي الزمن:

«إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ» فهم وإن كانوا لا يخلدون في الحياة جسداً كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[2] ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[3] فإذا ماتت أجسادهم فهم باقون في روحانيتهم وفي عقولهم وتراثهم، وفي أرواحهم الطاهرة التي تتحرّك في مدى الزمن عند الله، وما ركّزوه لنا من السنّة، وما أوضحوه لنا من المفاهيم الإسلامية، وما تحرّكوا به من خلال التطبيق في الواقع، فهم أحياء كما في قوله تعالى ﴿وَلَا

١ـ النجم: ٣ ـ ٤. ٢ـ الأنبياء: ٣٤. ٣ـ الزمر: ٣٠.

تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١]، فلهم هناك حياةٌ عند الله يعيشون فيها رضوان الله وفي رحاب الله، ولهم هناك حياة تبقى في حياة النَّاس من أجل أن تُعطيهم كلّ ما يحقِّق لهم الحياة الروحيّة والعقليّة والفكريّة.

«وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ» ويبلى بمعنى يفنى، فهو إن بُلي فإنَّه لا كما تبلى النَّاس، لأنَّهم حاضرون في حياتنا على مدى مئات السنين، وها نحن نشعر عندما يُذْكَر رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه الحاضر الأكبر في حياتنا كلّها، فلا نشعر بأنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله ميت، بل نشعر بحضوره أكثر من أي حضور آخر؛ نذكره في صلاتنا ونذكره في كلِّ مواقع حياتنا كما لو كان حاضراً معنا، وكذلك عندما نعيش ذكرى أهل البيت عليهم السلام، فإنَّنا لا نشعر أنَّ عليّاً عليه السلام وأولاده من أهل بيته عليهم السلام غائبون، بل نحسّ بحضورهم كأقوى ما يكون الحضور، لأنَّهم حاضرون بيننا في علمهم وفي روحانيتهم، وفي الخطّ المستقيم، الذي ساروا عليه وهدونا إليه، وفي كلّ المعاني التي ترتفع بمستوى الإسلام، ومستوى الإنسان في خطّ الإسلام.

«فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ» أي لا تتكلّموا الكلام الذي لا تملكون قواعده ولا تملكون علمه، «فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ»، فأنتم قد تنكرون الكثير من الحقّ لأنَّكم تجهلونه، أو لأنَّكم ضللتم عنه، ولذلك عليكم أن تبحثوا عن الحقّ من مصدر الحقّ وممن يملك الحقّ.

«وَاعْذِرُوا مَنْ لاَ حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ أَنَا» فلا حجّة لكم على عليّ ـ والكلام للإمام عليه السلام ـ لأنَّ الله هو الذي أوصى لنبيّه أن يجعلني إماماً وخليفة من بعده ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[٢]، وقال عليه السلام: «من كنتُ مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهمّ

١ـ آل عمران: ١٦٩. ٢ـ المائدة: ٦٧.

والِ من والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه حيثما دار»[١].

كشف الحساب:

«أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الأَكْبَرِ» وهذه الكلمات تدل على عمق ما كان يشعر به الإمام عليّ عليه السلام من الألم، لأنّه بمقدار ما كان يملك من العلم والأفق الواسع بما لم يملكه أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنّه يشعر بالمرارة وهو يُقرن إلى هذا أو ذاك ولذا كان يقول: «فيا لله وللشورى، متى اعترض فيّ الريب مع الأول منهم حتّى صرتُ أقرن إلى هذه النظائر». إنّه يتكلّم بألم، وهو الذي أعطى كلّ هذا العطاء وترك كلّ هذا الأثر «أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الأَكْبَرِ» وهو القرآن، فقد قدّمت إليكم القرآن تلاوةً كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتلوه عليكم، وتفسيراً كما كان صلى الله عليه وآله يفسّره لكم ولهذا كان القرآن الكتاب الصامت وكنت ـ والكلام لأمير المؤمنين ـ الكتاب الناطق، أنطق عن القرآن. فإنّي ما أحللت إلاّ ما أحلّ القرآن وما حرّمت إلاّ ما حرّم القرآن، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله في آخر حياته: «يا أيُّها الناس، إنّكم لا تمسّكون عليّ بشيء، إنّي ما حلّلت إلاّ ما أحلّ القرآن وما حرّمت إلاّ ما حرّم القرآن»[٢].

«وَأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الأَصْغَرَ» وهما الحسن والحسين عليهما السلام، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله «إنّي تاركٌ فيكم الثقلين» ويريد بهما القرآن والعترة «قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الإِيمَانِ» أي أنا الذي رفعت راية الإيمان في مجتمعاتكم، فأعطيتكم الإيمان بكلّ حقائقه، ولذلك عندما ارتفعت راية الإيمان فإنما ارتفع من خلال جهدي ونشاطي. «وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ» فقد أخذتم عني معرفة

١ـ بحار الأنوار: ج٣٢. ب١١. ص٣٩٧. ح٧.

٢ـ بحار الأنوار: ج١٢. ب٤٥. ص٢٥٥. ح٦.

الحلال والحرام حتّى لا يختلط عليكم الحلال والحرام بالشبهات، «وَأَلْبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي» فنهجت بكم نهج العدل، وأعطيتكم العافية في حقوقكم والعافية في كلّ علاقاتكم وأوضاعكم، عندما نشرت العدل بينكم. وكأنّه أراد أن يقول إنّ العدل هو الصحة وإنّ الظلم هو المرض.

«وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي» وفرشت لكم فراش المعروف في كلّ حياتكم الخاصّة والعامّة، فعرّفتكم المعروف الذي أراد الله لكم أن تعرفوه من خلال قولي فيما أوضحته لكم من حدود المعروف، ومن خلال فعلي فيما جسّدته لكم من المعروف، في سلوكي وفي سيرتي ونشاطي. حتّى أصبحتم تنامون على فراش المعروف، من خلال هذا الفراش الثقافي والروحي الذي يملأ كلّ حياتكم بما يرضي الله وبما يحبّه الله.

«وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الأَخْلاَقِ مِنْ نَفْسِي» فعشت بينكم مع الكبير والصغير على السواء، فكنتُ كواحد منكم لا أميّز نفسي عن أيّ واحدٍ منكم بأي موقع «أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»، فادرسوا كلّ سيرتي وأنا بينكم: كيف كانت كرائم الأخلاق تفيض من هذه النفس التي عاشت لله والتي جاهدت في سبيل الله والتي عرفت الله كما لم يعرفه أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟ وكيف أحبّت الله ورسوله كما لم يحبّها أحد؟ فأية كريمة لم تنطلق في حياة علي عليه السلام؟

«فَلاَ تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ وَلا تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ»[1] فهناك أشياء عميقة وأنتم لا تستطيعون أن تدركوا لها عمقاً، لأنّ ما تملكون من وعي ومن معرفة لا تستطيعون أن تنفذوا به إلى عمق هذه الأشياء، وقوله: «لاُدْرِكُ

١- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٦. ب٨٦. ص٣٧٢.

قَعْرَهُ الْبَصَرُ» يشير إلى أنَّ ما لا يدرك لا يستعمل فيه الرأي، بل يُرجَع في معرفته إلى أهله.

«حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ» وهنا ينتقل الإمامعليه السلام إلى مقطع آخر، ويشير ابن أبي الحديد إلى أنَّ هذه الخطبة طويلة، ولكن الشريف الرضي هو الذي اختصرها. ويريد بقوله معقولة أي محبوسة عليهم، وأنَّهم هم الذين يملكونها، ويملكون كلّ الفرص فيها وكلّ مصادرها ومواردها «تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا» كنايةً عمّا يحصلون عليه من الشهّوات واللذات والفرص الكثيرة «وَلا يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلا سَيْفُهَا» فيظلّ سوطها وسيفها، أي سوط هذه الدُّنيا وسيفها، لا يُرفع عن هذه الأمَّة من خلال هؤلاء الذين يحكمون بالسوط وبالسيف «وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ» يعني فمن يظنّ أنَّ الأمر كذلك فقد كذب «بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ» والمجّة ما يتذوقه الإنسان ثُمَّ يقذفه من فمه، في إشارة إلى أنَّ هذه اللذات وهذا الحكم سرعان ما يقذفه بنو أمية كما هو حال المجّة، لأنَّ سطوتهم مجرّد فرصة وحالة طارئة، وقد قذفت بهم الدُّنيا بعد ذلك «يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً» مدّة من الزمن «ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً»[1]، وقد لفظوها جملة عندما دارت الدوائر وانتهت بهم إلى البوار والنسيان.

هذا هو درس عليّعليه السلام، أن تظلّ حركتنا «بسم الله»، وأن يظلّ طريقنا «على ملّة رسول الله» وأن نشعر أنَّ الفوز كلّ الفوز هو بالالتزام بطاعة الله وبتعاليمه، وبطاعة رسولهصلى الله عليه وآله ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[2].

١ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٦. ب٨٦.ص٣٨١. ٢ـ المطففين: ٢٦.

القرآن في حياة الإمام علي عليه السلام

لقد كان لعلي عليه السلام في حياته عناوين ثلاثة: الأول هو الله، فقد باع نفسه لله، وانزل الله فيه قرآنا ﴿وَمِنْ النَّاسِ من يشري نفسه ابتغاءَ مرضاة الله﴾[1]. وقال للناس «وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لأَنْفُسِكُمْ»[2]. والعنوان الثاني: هو رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يؤكّد علي عليه السلام الانفتاح عليه والالتزام به ويدعو إلى أن نعرفه جيداً، لأنّ مشكلة المسلمين أنهم لا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وآله في كلّ عناصر شخصيته في الداخل أو في الخارج، وإنما يعرفون منه ما هو على السطح فقط. والعنوان الثالث: هو القرآن، ولم يُوصِ علي عليه السلام بشيء كما أوصى بالقرآن، وكان عندما يتحدّث عن القرآن فإنّما يتحدّث من خلاله عن الخط المستقيم، ثمّ ينفذ إلى الواقع ويرصد الناس في كيفية تعاملهم مع القرآن، وكيف يسير القرآن فيهم.

حديث القرآن:

يقول الإمام عليه السلام «فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ» فقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله بالحقّ التوحيدي الذي هو رسالة الأنبياء كلّهم، والتوحيد هو عنوان الرسالات كلّها، فالخطوط الرسالية كلّها تتحرّك لتجتمع عند التوحيد، لأنّ توحيد الله يعني الانفتاح على وحدانيته من حيث أنّه الإله الواحد، وعلى عبادته، وعلى طاعته ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[3]. فالإسلام كلّه يمثّل حركة الاستقامة في خطّ التوحيد، ولذلك لن

١ـ البقرة: ٢٠٧. ٢ـ شرح نهج البلاغة. ١. ص ١٥٠. ب١٨.

٣ـ فصلت: ٣٠.

يكون موحِّداً من لا يستقيم على هذا الخطّ في عقله وقلبه وكلّ تفاصيل حياته.

«وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ» والوسيلة في ذلك هي القرآن، وهو أطروحة رسول الله صلى الله عليه وآله الربانية في هذا الهدف التوحيدي، ليثقّف عقول الناس وقلوبهم وطاقاتهم بالتوحيد، حتىّ يتحوّل الإنسان إلى كيان توحيدي لا يرى إلاّ الله في عقله وعاطفته وحركته.

«بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ» أوضحه «وَأَحْكَمَهُ» فلقد أُحكمت آياته، فلاترى فيها خللاً ولا اهتزازاً «لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ» ليكون القرآن هو وسيلة معرفة الناس بربّهم. وعلى ضوء هذا وأنتم تقرأون القرآن مراراً وتكراراً استمعوا إلى علي عليه السلام وهو يحدّثنا أنّ القراءة القرآنية الواعية تُنتج علم الإنسان لربّه وابتعاده عن جهله لربّه «وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ» ولينطلق الإنسان بالقرآن في براهينه كلّها وأدلّته كلّها ليرجع إلى قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ﴾[1]. ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2]. فبالقرآن نعرف ذلك من خلال الخطوط الثقافية العلمية الموضوعية التي تتحرّك في القرآن.

«وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ» ليثبتوا الله في وجدانهم «فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ» وهذا هو قمة التعبير في أنّ القرآن يجعلنا نرى الله كما لو تجلّى لنا بذاته المقدسة، وهذا ما نستوحيه عندما نقرأ آياته التي تتحدّث عن الله حتىّ كأننا نرى الله سبحانه وتعالى جهرةً وهو الذي تستحيل رؤيته بالعيان ولكننا نراه بالعقل وبالقلب وبالوجدان. فالله يتجلّى في قرآنه حتىّ لنراه رؤية عقل وقلب «مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ» ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[3]. ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ

١ـ الحج: ٦٢. ٢ـ إبراهيم: ١٠. ٣ـ الزمر: ٦٧.

وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

«وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلاَتِ» بما تحدّث به عمّا جرى على الأمم السابقة «وَاحْتَصَدَ مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ» فلقد أراد لنا علي عليه السلام أن نتمثّل القرآن ليكون النور الذي نهتدي به، وهو الذي عرّف الناس بالقرآن وربطهم به وأرادهم أن يستهدوه، وأن يعرفوا الله من خلاله، ولكن الإمام عليه السلام يتحدّث عن المستقبل وعن مجتمع ليس فيه علي عليه السلام، وإذا كان هناك أبناؤه من بعده، وهم علي عليه السلام فكراً وخطاً وسيرةً وعصمةً، إلاّ أنّ الناس اتبعوا غيرهم «وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ وَلاَ أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ»، وهذا ما نتمثّله في الواقع من إخفاء الحق وإظهار الباطل بألف صورة وصورة «وَلاَ أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ» ممن ينسب إلى الله كلاماً لم يقله، أو ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وآله كلاماً لم يقله، أو يتحدّث عن مفهوم ديني باسم الله ولا علاقة لله به أو باسم رسول الله صلى الله عليه وآله، وليس لرسول الله صلى الله عليه وآله علاقة به، هؤلاء الذين سمعوا بعض آيات القرآن وهم يتحدّثون عن التحريف، والله تعالى يقول ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢] هؤلاء الذين نسبوا إلى الله كلاماً لا يَحْمُل أن يُنسب إلى إنسان عادي يعرف اللغة العربية، ونسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله كلاماً محرّفاً انطلاقاً من حاجتهم إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله ليثبّتوا حاكماً جائراً هنا أو إنساناً منحرفاً.

«وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ» وزماننا صورة لذلك الزمان «سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاَوَتِهِ» فهم يسمعون الكتاب جيداً، ولكنهم يسمعونه وقلوبهم مغلقة عنه، ويسمعونه إذا حُرّف عن مواقعه، ومن أن أجل يؤكّدوا ضلالهم من خلال المتشابهات القرآنية.

١ـ آل عمران: ٣٦.　٢ـ الحجر: ٩.

«وَلاَ أَنْفَقَ مِنْهُ» ولا أروج منه إذا حرّف «وَلاَ فِي الْبِلاَدِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَلاَ أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ» ألسنا نأمر بالمنكر؟ لأنّ الزمان جرى على هذا ولأنّ الناس تحرّكوا بهذا، ألا نبرّر الكثير من انحرافاتنا بالقول: إنّ الوقت يقتضي ذلك، ولا دخل للوقت في ذلك، وإنما هي مسؤوليتنا فقد نرتفع وقد نتضع ولذا يقول الشاعر:

يقولون الزمان به فسادٌ ... وهم فسدوا وما فسد الزمان

«فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ» فحتى الذين حملوا الكتاب تركوه وراء ظهورهم عندما غرقوا في الشهوات، ورأوا أنّ الكتاب لا يحمي شهواتهم، وعندما أخذوا بالامتيازات وهم يعرفون أنّ الكتاب لا يحمي امتيازاتهم، نبذوه وانطلقوا هنا وهناك.

«وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ» لا مكان لهما في المجتمعات فبعض مَنْ صار خليفة باسم المسلمين استفتح بالقرآن وخرجت الآية ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[1]. فمزّق القرآن وهو يقول:

تهدّدني بجبار عنيد ... فها أنا ذاك جبّار عنيد

إذا ما جئت ربّك يوم حشر ... فقل يا ربّ مزّقني الوليد

وقد مزّقه الله شرّ ممزق.

«وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ» الكتاب وأهله الذين فهموه ووعوه، وحرّكوا مفاصله في ساحة الواقع، «فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لاَ يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ»، فما أكثر المصاحف في بيوتنا ولكن ما أقلّ القرآنيين في مجتمعنا، وما أكثر حروف القرآن في مصاحفنا ما أقّل مفاهيم القرآن

١ـ إبراهيم: ١٥.

في حياتنا. وهذا بيان سياسي، فالسياسة في الإسلام دين والدين سياسة، وعظمة السياسة الإسلامية تتجلّى في انطلاقها من خلال مفاهيم الإسلام الحقيقية القرآنية «وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ» لأنّ المعيّة ليست المعيّة المادية لكنّها المعيّة الروحية العقلية والقلبية والحركية، فأن يكون القرآن معك أن يتحرك في الواقع الذي تعيشه لا أن يكون مجرّد كتاب تتعدّد صفحاته «لأَنَّ الضَّلاَلَةَ لاَ تُوَافِقُ الْهُدَى» لأنّ الناس يسيرون في طريق الضلالة، والقرآن يتحرّك في طريق الهدى «وَإِنِ اجْتَمَعَا فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ» ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1]. وكما يقول الشاعر:

وتفرّقوا شيعاً فكلّ قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

فنحن مسلمون وما أكثر مذاهبنا، وشيعة وما أكثر أحزابنا ومراجعنا وعصبياتنا. «كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ» فهم الذين يحرّكون الكتاب في اتجاهاتهم «وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ اسْمُهُ وَلا يَعْرِفُونَ إِلاَّ خَطَّهُ وَزَبْرَهُ» أي حروفه «وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ» فكم قتلوا من الصالحين، وكم اضطهدوا منهم، وكم هتكوا حرماتهم عندما مثّلوا بأجسادهم وكرامتهم وبمعنوياتهم ومواقعهم «وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللَّهِ فِرْيَةً» ﴿أَافْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾[2]. وهم الصادقون على الله. «وَجَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ» أي أنّهم أبدلوا الحسنة بالسيئة فاعتبروا الحسنة سيئة «وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ» والرسول صلى الله عليه وآله يقول «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنتان الهوى وطول الأمل، أمّا الهوى فيصدّ عن الحقّ وأمّا طول الأمل فينسي الأخرة»[3].

١ـ المؤمنون: ٥٣. ٢ـ سبأ: ٨.

٣ـ بحار الأنوار: ج١٢. ب١٣٩. ص١٢٢. ح٧٦.

«حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ» أي المعذرة للإنسان عندما يأتيه أجله «وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ» فالتوبة تبقى معك حتىّ يأتي أجلك، فإذا جاء أجلك فلا توبة لك «وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ» التي تقرع النفوس والمصائر.

اطلب النصيحة من الله:

ثمّ يبدأ الإمامعليه‌السلام بعدما صوّر الواقع، بتقديم النصيحة: «أَيُّهَا النَّاسُ» وهو يخاطب الأجيال كلّها، لأنّ علياًعليه‌السلام للحياة كلّها، وليس لجيل معيّن ولا لمرحلة معينة، لأنّ عقله هو عقل الكون، ولأن رسالته هي رسالة الحياة «إِنَّهُ مَنِ اسْتَنْصَحَ اللَّهَ وُفِّقَ» فهل تريد ناصحاً إذا حلّت بك مشكلة؟ أو إذا تحيّرت في طريق؟ فأيّ ناصح أعظم من الله؟! فكثير من الناصحين قد يختزنون الغش والجهل في نصحهم، ولكن الله الذي هو الحقّ، وهو الرحمن وهو الرحيم، وهو الذي وسعت رحمته كلّ شيء، وهو أحنى على الإنسان من أمّه وأبيه، ليس هناك ناصح أعظم منه، والله سبحانه وتعالى قد قدّم لنا نصائحه في القرآن، وقد حدّث شعيبعليه‌السلام قومه بقوله ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[1].

«وَمَنِ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً» أي أنّك إذا سرت في الظلمات والمتاهات واحتجت إلى دليل، فإنّ قول الله هو الدليل الذي يأتيك في ظلمات البرّ والبحر وكلّ متاهات الحياة «هُدِيَ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ فَإِنَّ جَارَ اللَّهِ آمِنٌ» فلتجاوروا الله، ومجاورته ليست في المكان، ولكنها في العمل «وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ» لأنّ عدو الله هو الذي ينتظر نار جهنم لينزل به عذابه. وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض، ألا نقرأ في (دعاء كميل) «فكيف بي وأنا عبدك الذليل الضعيف الحقير المسكين المستكين».

١ـ الأعراف: ٧٩.

التواضع لله:

ثمّ ينتقل للحديث عن المتكبرين الذين إذا حصل أحدهم على شيء من العلم انتفخ، وإذا حصل على شيء من المال تعاظم، وإذا امتلك السلطة تكبّر وتجبّر وعلي عليه السلام يقول اعرفوا عظمة الله، فإذا عرفتم عظمته فلا يمكن أن تشعروا بعظمة أنفسكم «وَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ» لأنّهم يشعرون أنّ كلّ ما عندهم هو من عند الله، وأنّهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً إلاّ بالله، ولذلك فهم لا يشعرون بأيّ حجم من القوة في الجانب الذاتيّ له بكلّ ما عندهم من الله ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[1]. فأية عظمة يتحسّسونها في شخصياتهم ؟! إنّ العظمة تنطلق من خلال ما لديكم من عناصر العظمة الذاتية لا أن تكون مستعارة، ولذلك إذا أحسستَ ببعض عناصر العظمة في شخصيّتك فاشكر الله على ذلك فإنّها مستمدّة منه، وعظّمِ الله فيما تملك من قدرات «فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ وَسَلاَمَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ» وهذا هو قول إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾[2]. «فَلاَ تَنْفِرُوا مِنَ الْحَقِّ» سواء كان الحق معكم أو عليكم «نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الأَجْرَبِ» ليكون الحقّ هو الأجرب والباطل هو الصحيح «وَالْبَارِئِ مِنْ ذِي السَّقَمِ».

قراءة القرآن في الحياة:

وإذا أردتم أن تعرفوا سلبيات الآخرين، فانظروا إلى الواقع ولا تنظروا إلى كلماتهم.. حدّقوا بسلوكيّات الناس وبسيرتهم «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ» لتروا آثار ترك الرشد من السلبيات التي تحدث لتاركه

١ـ النحل: ٥٣. ٢ـ البقرة: ١٣١.

فتعرفوا طبيعة الرشد عندما يستبدل الإنسان غيّه به، كيف ينقذه في مقابل الغيّ الذي أسقطه؟

«وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ» ويوصيّ (الإمام عليّ عليه السلام) الناسَ أن لا يقرأوا الخطوط العامّة للقيم والأخلاق في الكتب، بل أنْ يدرسوها في الواقع، لأنّ الله أعطانا القيم الإيجابية من أجل أن يرفع الواقع الذي نعيشه إلى المستويات العليا، وأعطانا القيم السلبية ليعرّفنا نتائجها السلبية على حياتنا، ولذلك لا تنظروا إلى كلمات الأشخاص وأشكالهم بل إلى الواقع، أي اقرأوا القرآن في الحياة لتعرفوا كيف يعطي الرفعة والعزّة والكرامة والتقدّم لمن يأخذ به والأشياء المضادّة لمن لم يأخذ به «وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ» وأهله هم أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا، طهّرهم في عقولهم وفي قلوبهم وفي كلماتهم وفي طاقاتهم وكلّ شيء حتى كانوا الطهارة كلّها والعصمة كلّها «فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ وَمَوْتُ الْجَهْلِ» فبهم يعيش العلم وتنهزم أباطيل التخلّف والجهل «هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ» لأنّ علمهم لا ينطبق إلاّ من خلال قواعد العلم التي تثبت على أساس الحجّة والدليل «وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ» لأنّ صحتهم فكر وانفتاح على كلّ آفاق الحقيقة «وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ» باطنهم هو الحق كله والخير كله «لاَ يُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ» لأنّ الحقيقة واحدة لا لبس فيها ولا اختلاف «فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ وَصَامِتٌ نَاطِقٌ» وهذه هي كلمة علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن أهل بيته وعن القرآن الذي انطلق به.

أدعية الإمام علي عليه السلام

كان الإمام علي عليه السلام يعيش مع الله كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعيش مع الله. ونحاول اختيار بعض أدعية الإمام علي عليه السلام مما ذكره (الشريف الرضي) رحمه الله في (نهج البلاغة) وهي أدعية تتنوّع في مواقعها، نعرف من خلالها أن علياً عليه السلام كان يهرع إلى الله قبل أن يبدأ أيّ عمل، وكانْ يقدّم حسابه إلى الله، وكان يفضي بكل ما يعيشه من إخلاص ومحبة لله، وكان يتحدّث مع الله تعالى في بعض الحالات عن احساسه برسول الله صلى الله عليه وآله وشعوره به، وكان يطلب من الله أن يعطيه أعظم ما يعطي لأي نبيّ، وكان يتحدّث مع الله في الحرب، وكان يقدّم تقريره إلى الله فيما كان يطلبه من الخلافة.

فلنقرأ بعض هذه الأدعية فلعلنا نعيش مع علي عليه السلام هذا الفيض الروحيّ الذي كان يعيش فيه فيض الإيمان في عقله وقلبه وحياته، فنحن بحاجة ـ إلى ذلك ـ في هذا الجو المادّي الذي ليس فيه نبضة من روح، وخفقة من محبة، هذا الجو الذي تحجّرت قلوبنا من خلاله وتصخّرت مشاعرنا أمامه، فأصبحنا نعيش في عقل من حجر، وقلب من حجر وإحساس من حجر. وإذا انفتحنا على بعضنا، فإنَّ مصالحنا وأطماعنا هي التي تنفتح، ولكن مَنْ منّا من يحبّ في الله، ويبغض في الله، وكم منّا من يعتبر الحياة فرصته للقيام بالمسؤولية أمام الله.. حتىّ صلاتنا تحجّرت..صومنا أصبح مجرد حالة تقليدية نمارسها من دون أيّ تفاعل روحي مع معنى الصوم في تلك الإرادة المنفتحة على المسؤولية في الحياة، وأمّا الحج فساحة نتحرّك فيها ولا نفهم ماذا نفعل ولا نفهم ماذا نقول.

تعالوا إلى عليّ الروح، تعالوا إلى عليٍّ في عبوديته لله التي هي سرّ حركة الحرية في حياته كلها أمام الإنسان كلّه والحياة كلها والطموح كلّه، فلقد كان

عليعليه السلام حرّاً أمام ذلك، لم يفرض عليه أي إنسان شيئاً لا يريده في نفسه، ولم تفرض عليه أية شهوة وأي مطمع خلاف قناعاته الإيمانية، تعالوا فلعلنا نأخذ شيئاً من روحانيته في دعائه لله سبحانه وتعالى.

في دعائه لنفسهعليه السلام:

ونبدأ مع عليعليه السلام في حديثه مع ربه: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي» فعليعليه السلام لا يستغفر عن ذنب ولكن عن تواضع وتذلّل لله سبحانه وتعالى، كما لو كان في حالة ذنب ـ وهو المبرّء من الذنوب ـ وكأنه يعلّمنا كيف نتحدّث مع الله، بأننا إذا أذنبنا ثمّ تبنا، ثم أذنبنا ومع ذلك فإن الله العارف بأننا الخطّائون لأن شهواتنا وظروفنا تضغط علينا، يريد منا إذا أذنبنا أن نتوب، فإذا عدت تب من جديد، لأن الله يخاطب الذين اسرفوا على أنفسهم ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[1].

ويقول «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي» فعلى الإنسان أن يخاطب ربّه بالقول: فقد أقدّم إليك ياربِّ بلساني الكثير من كلمات التوبة والخير والعهد والوعد، ولكن قلبي وهو يستمع في خفقاته لساني كان ينبض بالتخطيط لنقض العهد فيما استقبل من عمري.

«اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ» فأي وصفٍ ياربِّ يقترب من وصفك؟ «وَالتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ» فأي تعداد للكمالات والجمالات والعظمة يقترب من تعداد ما أنت فيه؟ «إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ» بانطلاق الآمال كلها من عندك، فمن هو المأمول الذي هو خير منك؟ فأنت خير مأمول ومرجوّ، لأن رحمتك تفتح لنا أبواب الأمل فيما هو أوسع ما بين السماء والأرض، ولأنَّ ألوهيتك في كرمك وحنانك وعطفك

١ـ سورة الزمر: ٥٣.

وقربك لعبادك تجعلنا ننفتح على أمل كبير.

«وَإِنْ تُرْجَ فَخَيْرُ مَرْجُوٍّ» وأنت أهل الرجاء ياربّ، «اللَّهُمَّ وَقَدْ بَسَطْتَ لِي» من الكلام «فِيمَا لاَ أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ» لأنَّ بعض الكلمات لا تليق إلاّ بك، ولأن كلّ مدح يشير إلى مدحك، لأننا عندما نمدح خلقك، فإننا نمدحهم فيما أعطيتهم من عندك، فمَا عندهم هو من عندك، ولذلك فإنَّ أي كلمة تنفتح عليك في المدح لا يمكن أن تكون لغيرك. «وَلا أُثْنِي بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ» أوحّدك في المدح، وأوحّدك في الثناء، فلابد أن لانثني على أحد بما نثني به على الله، ولا نمدح أحداً بما نمدح به الله ﴿فلا تدعوا مع الله أحداً﴾[1] «وَلا أُوَجِّهُهُ» أي المدح «إِلَى مَعَادِنِ الْخَيْبَةِ» إلى من تخيب الآمال عندهم «وَمَوَاضِعِ الرِّيبَةِ» أي من تحيط الريب والشكوك في كلّ ماهم فيه «وَعَدَلْتَ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ الآدَمِيِّينَ وَالثَّنَاءِ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ الْمَخْلُوقِينَ» فإذا كنت معك يارب فمن يمكن أن يكون معي غيرك، من يمكن أن يكون إلاّ أنت، فعندما أمدحك أشعر بالذنب إذا مدحت غيرك، وإذا كنت أمدح من كان قريباً إليك فإني أمدحك من خلاله، لأنه لا أحد إلاّ وأنت الخالق والرّب له، وأنت الذي اعطيته كلّ شيء.

«اللَّهُمَّ وَلِكُلِّ مُثْنٍ عَلَى مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ» فالمادح له مثوبة «أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطَاءٍ» وعندما أمدحك بما أنت أهله، وأثني عليك فيما فيك من مجالات العظمة «وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلَى ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ» فاعطني من ذخائر رحمتك وكنوز مغفرتك فهذه هي جائزتي عندك.

«اللَّهُمَّ وَهَذَا مَقَامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ» فأنت الواحد والوحدانيّة صفتك ولا وحدانية لغيرك. وأنا أقف من أجل أن يكون عقلي وقلبي وشعوري وإحساسي وكياني كلّه صرخة توحيد تنفتح على وحدانيتك «وَلَمْ يَرَ مُسْتَحِقّاً لِهَذِهِ

١ـ سورة الجن: ١٨.

الْمَحَامِدِ وَالْمَمَادِحِ غَيْرَكَ وَبِي فَاقَةٌ إِلَيْكَ» أنا الفقير المحتاج «لاَ يَجْبُرُ مَسْكَنَتَهَا» المسكنة التي تتمثل في الفاقة «إِلاَّ فَضْلُكَ وَلا يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِهَا إِلاَّ مَنُّكَ وَجُودُكَ فَهَبْ لَنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ رِضَاكَ» ورضاك هو كلّ شيء، وكل السعادة وكل العظمة ﴿ورضوانٌ من الله أكبرُ﴾[1] من الجنة ومن نعيمها، وذلك معنى لا يفهمه إلاّ الصدّيقون الذين يعيشون مع الله في أعماق الصدق كلِّها.

«وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الأَيْدِي إِلَى سِوَاكَ» أجعل أيدينا ممدودة إليك وحدك، وقد عبّر عن ذلك حفيده الإمام زين العابدين عليه السلام «**وقلت سبحان ربي كيف يسأل محتاجٌ محتاجاً وأن يرغب معدم إلى معدم، فقصدتك ياإلهي بالرغبة وأوفدت عليك رجائي بالثقة إنك على كلّ شيء قدير**».

في ثنائه على ربّه:

ثمّ ينطلق الإمام عليه السلام في هذا الجو الروحي في حمد الله، فهو عليه السلام يحمد ربَّه بالقول: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي» فإن عطاءك هو عطاء الكريم الذي يفيض كرمه على عباده، وإنَّ أَخْذَكَ أَخْذَ الحكيم الذي لا يأخذ إلاّ عن حكم، وحكمته لاتبتعد عن رحمته، وان لم يدرك الناس معنى الرحمة فيما يأخذه الله منهم، «وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي» فمنك العافية ومنك البلاء ونحن نحمدك على البلاء كما نحمدك على العافية «حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ» يمتد ويمتد ليكون مبلغ رضاك «وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ» ، «حَمْداً يَمْلأُ مَا خَلَقْتَ وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ حَمْداً لاَ يُحْجَبُ عَنْكَ وَلا يُقْصَرُ دُونَكَ» فكأنه يقول ياربِّ أنا لا أملك الكلمات الدقيقة التي يمكن أن تجمع كلّ ما تستحقه من حمد، ولذلك ياربّ وأنا أتحدّث عن حمد هو أرضى من ذلك، وعن حمد يبلغ ما عندك، وأنت تعرف يارب آفاق ذلك الحمد الذي لا أعرفه إلا بالكلمات المطلقة، «حَمْداً لاَ يَنْقَطِعُ

١ـ سورة التوبة: ٧٢.

عَدَدُهُ وَلا يَفْنَى مَدَدُهُ» يمتد في الوقت كلّه، فأنا أحمدك في الصباح وفي المساء وفي شغلي وفراغي وكلّ مجالاتي، لأنَّ كلّ لحظة اتنفّس فيها، هي مظهر حمدك، وكل عمل أتحرك فيه فهو عطيّة حمدك، فهل يمكن أن أعيش في أية لحظة لا يلمؤها حمدك؟!.

«فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ» فنحن نعرف بعض أسرار عظمتك فيما ابرزته وعرّفتنا إيّاه «إِلاَّ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومُ» قائم على الكون كلّه والوجود كله «لاَ تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ» وهذا قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾[1]، ﴿ليس كمثله شيء﴾[2] ثمّ يخاطب الله تعالى بقوله: «أَدْرَكْتَ الأَبْصَارَ وَأَحْصَيْتَ الأَعْمَالَ وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ» كناية عن سيطرة الله على الإنسان في كلّ شيء «وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ» من أسرار عظمتك «وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ» مما لم نره ولم ندرك سرّه، «وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ وَحَالَتْ سُتُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ» تلك التي لا ترتكز على أي شيء في الأرض «وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً» إشارة لقوله تعالى: ﴿فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[3] «وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً وَسَمْعُهُ وَالِهاً وَفِكْرُهُ حَائِراً».

في دعائه للنبي صلى الله عليه وآله:

يقول في خطبة له عليه السلام علّم فيها الناسَ الصلاةَ على النبي صلى الله عليه وآله وفيها بيان

١ـ سورة الأنعام: ١٠٣. ٢ـ سورة الشورى: ١١.
٣ـ سورة الملك: الآيتان ٣ ـ ٤.

صفات الله سبحانه وصفة النبي صلى الله عليه وآله والدعـاء له: «اللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوَّاتِ» مما دحاه الله من الأرض «وَدَاعِمَ الْمَسْمُوكَاتِ» التي لها سمك وحجم «وَجَابِلَ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَتِهَا» على ما فطرت عليه من الفطرة التي انشأت الناس عليها « اشَقِيِّهَا وَسَعِيدِهَا اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ وَنَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ» فقد فتح كلّ مغالق الأزمان ومغالق الأوضاع «وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ» الذي أعلن الحق بكلمات الحق «وَالدَّافِعِ جَيْشَاتِ الأَبَاطِيلِ وَالدَّامِغِ صَوْلاَتِ الأَضَالِيلِ كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ» أي حمل الرسالة فاضطلع بها «قَائِماً بِأَمْرِكَ مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِكَ» أي مستعجلاً مسارعاً فيها «غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدُمٍ وَلا وَاهٍ فِي عَزْمٍ وَاعِياً لِوَحْيِكَ حَافِظاً لِعَهْدِكَ مَاضِياً عَلَى نَفَاذِ أَمْرِكَ حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ» أي حتىّ أشعل المواقع والمعالم التي تضيء للناس الطريق «وَأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ وَهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ وَالآثَامِ» وقد فتحت من خلال دعوته ورسالته قلوب الناس «وَأَقَامَ بِمُوضِحَاتِ الأَعْلاَمِ وَنَيِّرَاتِ الأَحْكَامِ فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ وَبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ وَرَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ ».

وبعد أن يصف عليه السلام النبيَّ صلى الله عليه وآله في حركته الرسالية، وهو هنا لم يتحدث عن صفات النبي الشخصية باعتبار أنه اتبع أسلوب القرآن الذي يتحدث عن النبي صلى الله عليه وآله في خطِّه كرسول لا كشخص، وإن كان شخصه في أعلى درجات السموّ والعلو والرفعة. وهذا هو منهج قرآني يقول إنَّ علينا أن نعطي اهتمامنا كلّه في الحديث عن الأنبياء والأولياء. لصفاتهم الرسالية، لأنَّ ذلك هو الذي تتحرّك فيه القدوة وتنطلق منه العبرة، فبعد أن يصفه يدعو له فيقول: «اللَّهُمَّ افْسَحْ لَهُ مَفْسَحاً فِي ظِلِّكَ» يوم لا ظلّ إلاّ ظلك «وَاجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ اللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ وَأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ وَاجْزِهِ مِنِ ابْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ» ان تكون شهادته عن أمته مقبولة «مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ وَخُطْبَةٍ

فَصْلٍ».

ثمّ يتحدّث عن شوقه إليه فيقول: «اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ وَقَرَارِ النِّعْمَةِ وَمُنَى الشَّهَوَاتِ وَأَهْوَاءِ اللَّذَّاتِ وَرَخَاءِ الدَّعَةِ وَمُنْتَهَى الطُّمَأْنِينَةِ وَتُحَفِ الْكَرَامَةِ».

دعاؤه في الحرب:

ثمّ ننظر لنرى كيف يتحدّث الإمام علي عليه السلام مع ربّه في الحرب، فهل تشغله الحرب عن ربّه، وهل تتحرك ذهنية الحرب في نفسه لتكون قسوة وتدميراً، أم أنه يتحرك بعيداً عن ذلك؟.

فمن كلام له عند عزمه على المسير إلى الشام وهو دعاء دعا به ربّه عند وضع رجله في الركاب «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ» فنحن نسافر سفراً طويلاً فيه الكثير من التعب ومن الجهد «وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ»، نعوذ بك أن ننقلب ونحن على كآبة من خلال ما يتصل بموقعنا أمامك « وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ» أن نعود ويكون الواقع الذي نعيشه واقعاً لا ينفتح على منظر طيب مشرق فيما نملك من حال، وما نشرف عليه من أهل وولد، اجعلنا يارب نرى الصورة المشرقة المنفتحة على محبتك ورضاك وعلى عافيتك وَدَعتِك وطُمأنينتك «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ» فنحن في سفر ونريدك أن تكون الصاحب في سفرنا هذا، ترعانا وتؤنسنا وتفتح لنا أبواب الخير «وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ» فسنفارق أهلنا ونبتعد عن إشرافنا عليهم ونريدك أن تكون أنت الخليفة فيهم «وَلا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ» فهاتان الصفتان لا يجتمعان عند غيرك بأن يكون المرء خليفة في الأهل وصاحباً في السفر في آنٍ معاً «لأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لاَ يَكُونُ مُسْتَصْحَباً» فهو لابد أن يكون مع الأهل «وَالْمُسْتَصْحَبُ لاَ يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً» لأنه يكون معنا في السفر.

ولمّا عزم على لقاء القوم في صفين قال: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ» كناية عن السماء «وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ» أي المجموع بعضه إلى بعض «الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَجْرًى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ» الجو الذي يحتوي الكواكب الذي ينطلق فيه الليل والنهار من خلال شروق الشمس وغروبها «وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلاَئِكَتِكَ» يسكنون في السماوات، أما كيف وأين فلا نعرف ذلك. «لاَ يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ وَرَبَّ هَذِهِ الأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنَامِ» ومهّدتها تمهيداً «وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ» أي الحشرات و«وَالأَنْعَامِ وَمَا لاَ يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً» أي تقوّي الأرض وتصلّبها «وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً» أي ملجأ يلجأون إليه.

الدعاء في حالتيْ النصر والانكسار:

وهنا يبدأ عليه السلام في الانفتاح على الله تعالى، وفي دعوته في كلا الحالين: الانتصار أو الانكسار على الإنسان أن يكون متوازناً في خط الله «إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ» ابعدنا أن نبغي على أعدائنا بالتصرّف بما لاحقّ لنا فيه «وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ» اجعلنا نمارس مع اعدائنا خطَّ الحق الذي فرضته في الحرب عندما ينتصر الناس على أعدائهم، حتىّ لا نظلم أعداءنا ولا نتحرك بالباطل بما لا نستحقه ولا يرضيك «وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا» فانتصروا علينا «فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ» لا تجعلنا نفتتن فنتراجع عن مواقفنا ومواقعنا من خلال هذه الهزيمة التي نمنى بها.

وهكذا كان في الحرب يعمل على أن يملأ قلوب جنوده وعقولهم ويحفظ السنتهم من أن يسيئوا بالكلام بالسباب والشتم، ويعلّمهم إذا انفتحوا على المسلمين الآخرين الذين أُبتلوا بالصراع معهم أن ينفتحوا بالمحبة، إنه يقول لك: حارب بمحبة ولا تكن روحك روح التدمير في حربك، بل روح السلام بحيث إنك

تتحرك في الحرب من موقع ضرورة، وقلبك يهتف بالله الذي يقول لك ألقِ السلام، فعندما سمععليه السلام قوماً من أهل العراق وهم جنده يسبّون أهل الشام قال لهم «إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ» فأنا لا أحب لجنودي أن يكونوا سبّابين لعّانين لا شغل لهم إلا الكلمات التي تأتي بالمزيد من الحقد، ولا تحقّق أي مكاسب إيجابية فيما تتحرّك به الحياة «إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ» ليكن لكم منطق السؤال: لماذا نحاربهم، لأنهم خرجوا عن طاعة الإمام ـ الخليفة، ولأنهم عاثوا في الأرض فساداً، ولأنهم «لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ» بكل أمانة لكان أصوب في القول، وتحدثتم حديثاً حقاً فيكون «وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ» فإنكم تقدّمون العذر من ذلك أمام الناس الذين يسألونكم لماذا تحاربون، وهذا هو محل الشاهد ونحن نتحدّث في الدعاء «وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ» فسندخل معركة تسيل فيها الدماء منا ومنهم، ونحن مسلمون وهم مسلمون، وان ضلّوا عن السبيل، لكن ياربِّ هيّيء لنا الجوّ الذي يمكن أن نصل به إلى أن تُحقن به دماؤنا ودماؤهم «وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ» فلقد فسدت العلاقات بيننا وبينهم، ولا تفسد هذه العلاقات نتيجة حالة شخصية، وإنما هي قضية الخط الإسلامي الأصلي الذي عبثوا به وانفصلوا عنه «وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ» بإصلاحهم «وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلاَلَتِهِمْ» ولا حظ الروحية التي كان الإمامعليه السلام يعلّم بها أصحابه بأن يدعوا إلى الناس الضالين الذين يقفون في أقسى ساحات الصراع الموجّه إلى عليعليه السلام بالذات، أن يهديهم الله من ضلالتهم «حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ» لأن القضية هي في التفكير كيف تصلون إلى الحق «وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ».

الاستنهاض للجهاد:

وهكذا كان يستنهض اصحابه إلى جهاد أهل الشام في زمانه «اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ

مِنْ عِبَادِكَ» إنه يجلس بين يدي ربه «سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ» أي أنّه عليه السلام لا يتحدّث عن جور بل عن عدل ويريد أن يسمع الناس هذا العدل «وَالْمُصْلِحَةَ غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا» «فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إلاَّ النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ» إلاّ الابتعاد عن السير في الخط الذي ينتصر به للحق الذي انزلته «وَالإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ» هؤلاء المتخاذلون الذي يعيشون الحياة استرخاء وضعفاً وانهزاماً وسقوطاً «فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً» وأي شهيد أكبر من الله سبحانه وتعالى «وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ الْمُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ وَالْآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ».

وهذا من أكثر الأساليب تأثيراً، كأنه لا يقول لهم انكم إذا لم تسمعوا مقالتنا العادلة المصلحة غير المفسدة فإنني اعاقبكم، بل يُشهد اللهَ على إنَّ مقالته هي مقالة العدل، وأنّ كلماته هي كلمات الإصلاح ويقول، يارَبِّ اشهد عليهم أنّهم سمعوها وانهم لم يتفاعلوا بها ولذلك «فأنت الحَكَمُ بيننا وبينهم واغننا عن نصرتهم» لتنصرنا بالذين ينطلقون في خط الحق كله.

من دعائه في لقاء العدو:

ومن دعاء له إذا لقي العدو محارباً «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ» فالقلوب انفتحت عليك ووصلت إليك «وَمُدَّتِ الأَعْنَاقُ وَشَخَصَتِ الأَبْصَارُ وَنُقِلَتِ الأَقْدَامُ» فتحركت في طريقك في صراطك المستقيم «وَأُنْضِيَتِ الأَبْدَانُ» أي تعبت «اللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ الشَّنَآنِ» الناس الأعداء الذين اعتدوا علينا، والذين يقاتلوننا من غير حق، عن حقد وعداوة «وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الأَضْغَانِ» والمراجل هي القدور، فكأنما تُطبَخ بها الأحقاد والاضغان «اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا» وقد انطلق الناس بعد غيابه صلى الله عليه وآله كلّ في طريق، فكان هو الذي يجمعنا، وكانت كلماته هي

التي يستمع إليها الكثيرون فتكون الحجة عليهم، وقد بقيت الحجّة عليهم بعد ذلك ولكنهم اهملوها. ولاحظوا كم ترسم هذه الكلمة من عمق الحزن في قلب علي عليه السلام «وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا» فكل شخص له هوى وكل جماعة لها هوى ومطمع «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ» إنّه يطلب من الله أن يفتح بينه وبينهم بالحق، لأن علياً عليه السلام كان مع الحق ولا يريد إلاّ الحق، ولا يقاتل إلاّ على أساس الحق، ولا يتحرّك في أي طريق إلاّ والحق معه، وهو مع الحق في ذلك كله.

المطالبة بالحكم:

أما حينما يدعو الإمام مطالباً بالحكم، فلماذا يطلبه؟ هل لشهوة، هل لمطمع، هل لجاه، هل لنقطة ضعف؟ إنّه يقدّم تقريره إلى الله، والله أعلم بما في قلبه، ولكنه يريد للناس أن يسمعوا ذلك منه «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا» من طلب الخلافة أو الإمامة أو الحكم «مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ» ليكون السلطان لنا من أجل تنبية شهواتنا ومطامحنا وليزول الحكم عن سلطان آخر «وَلا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ» حتىّ نحصل على شيء من الدنيا، وقد خاطب علياً عليه السلام الدنيا فقال لها «طلّقتك ثلاثاً لارجعة لي بعدها أبداً» «وَلَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ» أي الخطوط الواضحة البيّنة التي يمثّلها الإسلام في كلّ ما يريد للناس أن يسيروا عليه وأن يستضيئوا به «وَنُظْهِرَ الإِصْلاَحَ فِي بِلاَدِكَ» لأنّ الفساد قد عمّ الناس كلّهم، ومسؤوليتنا هي أن نُظهر الإصلاح «فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ» لأنّ هناك ظلماً ونريد للإصلاح أن يتحرّك في خط العدل ليأخذ كلّ إنسان حقه فلا يظلم أحداً ويعيش المظلومون في أمن، وإنّ هناك من يأخذ بحقوقهم ويرفع عنهم ظلامتهم «وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ» ويُطبّق القانون على الجميع «اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ

أَنَابَ» أول من رجع إليك وآمن برسولك «وَسَمِعَ» دعوة الرسول «وَأَجَابَ لَمْ يَسْبِقْنِي إِلاَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بِالصَّلاَةِ» فقد كنت أول من صلّى إليك في تلك المرحلة بعد رسولك.

ثمّ يشكو إلى الله ما يلقى من قريش فقد اثقلته في حياة النبي صلى الله عليه وآله بحروبها وقد اثقلته بعد رسول الله صلى الله عليه وآله بجحودها «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي» وهم عشيرتي فعليهم أن يصلوا الرحم، ولكنهم قطعوه «وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِيَ» لم يدركوا ميزتي بعظيم المنزلة ما اسبغته عليّ ـ يا ربّ ـ ومما اعطانيه رسولك بأمرك «وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي» فأنت قد أمرت رسولك كما قلت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(1) وعندما بلّغ رسولك رسالته في الولاية انزلت عليه قولك ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾(2) إنَّ كمال الإسلام بالولاية «وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي ثُمَّ قَالُوا أَلاَ إِنَّ فِي الْحَقِّ» يمكن تأخذه أنت «أَلاَ إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ فَاصْبِرْ مَغْمُوماً أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً» لن نعطيك هذا الحق «فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ وَلا ذَابٌّ وَلا مُسَاعِدٌ إِلاَّ أَهْلَ بَيْتِي فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى وَجَرِعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَارِ» ولم يكن ذلك لأنَّ علياً يتألم لشخصه ولموقعه، ولكنه كان يملك خطة تفتح الإسلام على حركة الوعي كلّها، وتملأ الواقع الإسلامي علماً وروحانية واستقامة وأمانة وفتحاً في الخط الإسلامي الأصيل، لذلك لم تكن قصة علي عليه السلام قصة كرسي يفقده، ولكنّها قضية رسالة كان

١ـ سورة المائدة: ٦٧. ٢ـ سورة المائدة: ٣.

يريد أن يفتحها على الناس ليكمل الخط الرسالي الذي بدأه رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن الحواجز وقفت لتحول بينه وبين ذلك، وبقي علي عليه السلام مخلصاً لله ولرسوله ولرسالة الإسلام، ولذلك أغمد سيفه وانفتح على الذين ابعدوه وتقدّموا عليه فأعطاهم الرأي والمشورة والنصيحة، وقال كلمته الخالدة «لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً» وقال لابن عباس وقد رآه يخصف نعله «واللَّهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلاَّ أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلاً» وقال في أخر الخطبة الشقشقية «لَوْ لاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ» وهو خليفة على المسلمين آنذاك «وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ».

مسؤولية الانتماء للإمام علي عليه السلام:

ويبقى علي عليه السلام يسمو ويسمو ويسمو لأنه عاش مع الله ولله، وكانت حياته قد انطلقت في صرخته الأولى في الكعبة وكأنها تهليلة وتكبيرة لله، وصلّى في الكعبة مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان أول من صلّى بعده وحطّم الأصنام على الكعبة وفاءً لله وهو يرقى على كتف رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت حياته كعبة كلها، ومسجداً كلها وإخلاصاً لله كله، حتىّ إذا كانت التكبيرة الأخيرة في مسجد الكوفة في صلاة الجماعة استُشهد وهو يقول (الله أكبر). وهنا أطلق علي عليه السلام صرخة الفرح الروحي لأنّه فاز بالشهادة، ولأنه قُتِلَ بين يدي الله وفي محراب الله قال: «**بسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله فزت وربّ الكعبة**».

هذا هو علي عليه السلام ومسؤوليتنا أن ننتمي إليه لا أن نهتف باسمه فقط، وهو الذي يقول «أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ

تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ» فأين الوَرِعُون في خطِّ علي، وأين المجتهدون في طاعة الله في خط علي، وأين الأعفّاء، أين الذين يتحركون في خط السداد؟، إنَّ علياً ينتظرنا هناك ونحن في امتحان السير على خطه، فهل ننجح في الامتحان؟!

الفصل الخامس

موقع الفكر في كلمات الإمام علي عليه السلام

- التفكير مفتاح المعرفة.
- التاريخ مصدر فكر.
- مع الإمام علي عليه السلام في رحابة علمه.
- الفكر عبادة.
- جولة في مصادر الفكر.
- دور الفكر على المستوى الروحي.
- الفكر والاعتبار.
- قيمة التجربة.

من مواعظ وحِكَمْ الإمام علي عليه السلام

«مَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ»

«لاَ عِلْمَ كَالتَّفَكُّرِ»

«المؤمنْ مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ»

«الْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ وَ الاِعْتِبَارُ مُنْذِرٌ نَاصِحٌ»

«فكْرُ المرء مرآة تُريه حُسنَ عَمَلِهِ من قُبحِهِ»

«الفِكْرُ في الخَيْرِ يَدْعوَ إلى العَمَلِ بِه»

«أَصْلُ السَّلامَةِ مِنَ الزَّلَلِ الفِكْرُ قَبْلَ العَمَلِ»

«إذا قَدَّمْتَ الفِكْرَ في جَميعِ أَفعالِكَ حَسُنَتْ عواقِبَكَ في كُلِّ أمْر»

«فضلُ فِكْرٍ وَتَفَهُّمْ أَنْجَحَ مِنَ فَضْلِ تِكْرارٍ وَدَراسةٍ»

«مَنْ أكثَرَ الفِكْرَ فيما تَعلَّمَ أَتْقَنَ عَمَلَهُ وفَهِمَ مالَمْ يَكُنْ يَفْهَم»

«الفِكْر في آلاءِ اللهِ نِعْمَ عِبادَةٍ»

«الفِكْرُ في مَلَكوتِ السّماءِ والأرضِ عبادَةُ المُخْلِصين»

«فِكْرُ ساعَةٍ قَصيرةٍ خَيْرٌ مِنْ عبادَةٍ طَويلةٍ»

«مَنْ كَثُرَ فِكْرُهُ في الْمَعاصي دَعَتْهُ إِلَيْهِ»

«يابُنَيّ وإنْ لَمْ أكُنْ عمَّرتُ عُمُرَ مَنْ كان قَبْلي فَقَدْ نَظَرْتُ في أعمالِهِمْ وفكّرْتُ في أَخْبارِهِمْ وسِرْتُ في آثارِهِمْ حتىّ عُدْتُ كأحَدِهِمْ»

التفكير مفتاح المعرفة

بالفكر يمكن للإنسان أن يعرف الله، وبالفكر أيضاً يعرف نفسه، وبالفكر يعرف الناس من حوله، وبالفكر يتعرّف على ظواهر الكون كلّها، لينفذ إليها من خلال التأمل الفكري تارة، ومن خلال التجربة التي يتحرّك الفكر في كلّ مواقعها تارة أخرى، فيستطيع أن يفهم الكون وظواهره، وأن يأخذ نتاج ذلك في كلّ ما يخترعه وما يبتدعه وما يتحرّك به في هَدْي السنن الكونية. ويُنقل عن (ديكارت) الفيلسوف الأوروبي المعروف أنّه عندما أراد أن يستدلّ على وجوده قال «أنا أفكر فأنا موجود». ومن وحي الخط الإسلامي يمكن للإنسان المسلم أن يقول «أنا أفكر فأنا مسؤول» لأنَّ مسألة أن تفكّر تعني أنك تعيش مسؤوليتك، وتشعر بإنسانيتك المسؤولة.

لقد تحدّث الله سبحانه وتعالى عن الفكر في أكثر من آية، ومن خلال هذا المنهج القرآني تحدّث علي عليه السلام عن الفكر وموقعه ودوره أيضاً. ولذلك نحاول أن نستنطق بعض الآيات القرآنية التي تمثّل سرّ الثقافة الإسلامية في عقل النبي صلى الله عليه وآله، الذي أراد الله في القرآن الكريم أن يثبّت فؤاده، وفي عقل علي عليه السلام الذي تحدّث عن القرآن كما لم يتحدّث أحد عنه، وفي واقع المسلمين الذي قال الله عنهم إنّه أنزل القرآن عليهم ليثّبت الذين آمنوا منهم.

فلنستنطق بعض آيات القرآن لنفهم منهج علي عليه السلام من خلال المنهج القرآني نفسه. ومن ذلك قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]

١- البقرة: ٢٤٢.

فتوحي هذه الآية بأنَّ كلّ آيات الله التي يظهرها أو ينزلها، هي وسيلة من وسائل تنمية العقل الإنساني، لأنها تُموِّن العقل الإنساني بالحقائق التي تنفذ إليه، فيملك من خلالها أن يدرك الحقَّ من الباطل، فيقول الله تعالى﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[١] والألباب هي العقول، بمعنى أنَّ الذين يتذكّرون هم أولوا العقول، لأنَّ الإنسان الذي يعيش عقله ويحرّك عقله، هو الإنسان الذي لا يمكن أن يعيش الغفلة في حياته التي تُنسيه مسؤوليته، وتُنسيه كلّ تأريخه، وكلَّ ماقام به في حياته من أعمال وعلاقات. إنَّها تعطي لأهل العقل ميزة إنسانية باعتبارهم النموذج الإنساني الذي يبقى يقظاً واعياً منفتحاً ذاكراً. ويقول تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾[٢] فادرسوا التاريخ كله، تاريخ مَنْ قبلكم، في ماحركّه الله من السنن التاريخية التي تنظم حياة المجتمعات، وهي تتحدث عن الخطوات التي أدت إلى النتائج السلبية، وعن الخطوات التي آلت إلى النتائج الإيجابية﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[٣] من خلال التاريخ، فادرسوه دراسة فكر وبصيرة لا دراسة لهو وتمضية فراغ، بل ادرسوه من أجل أن تعرفوا كلّ هؤلاء الذين كذّبوا الرسل، وكيف أدىّ تكذيبهم إلى تدمير حياتهم الروحية والنفسية والواقعية. وهذا هو المنهج التجريبي في الحياة، وهو أن تعيش تجربة الآخرين، لتأخذ الفكرة من خلال التجربة وملاحقة حياة الناس وتجاربهم فيما نجحوا فيه أو فشلوا. ومن خلال هذا التفكير يتصاعد الوعي﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً﴾[٤] إنهم يطلقون الفكر للتفكير في خلق السماوات ويبحثون عن سرّ مافي السموات، ويتفكّرون في خلق الأرض، ويبحثون عن سرّ ما في الأرض، لينتهي تفكيرهم إلى نتيجة حاسمة، من

١ـ آل عمران: ٧. ٢ـ آل عمران: ١٣٧. ٣ـ النحل: ٣٦.

٤ـ آل عمران: ١٩١.

خلال ما تأمّلوه ومن خلال ما بحثوه وجرّبوه، وهي أن هذا الخلق لم يأت من صدفة ضائعة في الفراغ، بل إنَّ الكون كلّه انطلق من أسرار عميقة في عمق وجوده وفي عمق حركته، وفي كلّ مايختزنه من قوانين تدلّ على أنَّ الله هو الخالق، فحركة الكون تنطلق من عقل دقيق، لا يمكن أن ينحرف عن الخط المستقيم بمقدار شعرة، ولذلك ينتهي تفكيرهم إلى أن يقولوا﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً﴾ فلم تخلق ما خلقت بدون سرّ وبدون نظام وبدون قانون، لأن كلّ مايدل عليه العقل والفكر هو أنَّ الأمر عن تدبير وعن حسن صُنع. ولذلك يقول ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ﴾[1] ويقصد من الأعمى الإنسان الذي لايهتدي، ومن البصير المهتدي، فأحدهما مبصر، والثاني أعمى، فهل يستويان ﴿أفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾[2] فكيف تساوون بينهما﴿فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3] أي اقصص عليهم قصص الأمم الماضية حتى يأخذوا من خلال أحداث هذه القصص، فيما حصل لهم من إيجابيات، لأنهم ساروا في الخط المستقيم، ومن سلبيات لأنهم ساروا في الخط المنحرف﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لأنَّ التاريخ أحد أهم مصادر الفكر والمعرفة.

١ـ الرعد: ١٦. ٢ـ الأنعام: ٥. ٣- الأعراف: ١٧٦.

التاريخ مصدر فكر

وإذا كان التاريخ مصدراً للفكر والمعرفة فإننا ملزمون بدراسة التاريخ دراسة نقدية، فلا يكفي أن نأخذ التاريخ كما نقله إلينا الناقلون، بل علينا أن ندرس التاريخ، لنرى هل أنَّ أحداثه تنسجم مع المعقول أو لا تنسجم، لأنَّ بعض الناس قد ينقل لنا التاريخ الخرافي على أنه حقيقة، ثمّ هل ينسجم هذا التاريخ مع وقائع الأشياء، ومع الظروف الموضوعية التي أحاطت بالحادثة التاريخية، أو لا ينسجم، لأنّ الكثير مما ينقله الناس من التاريخ ولاسيما التاريخ الذي يملك في نفوس الناس بعض القداسة العاطفية، ربما إذا درسته دراسة تحليلية نقدية رأيت أنه لا ينسجم مع طبيعة الظروف التي أحاطت به.

وعلى ضوء هذا فإنه ينبغي دراسة التاريخ دراسة توثيقية من حيث الذين رووه، لأنه قد ينقل التاريخ غير الموثقين فيصنعون لنا تاريخاً لواقع معين ينسجم مع معتقداتهم والتزاماتهم وأهوائهم، وندرسه دراسة توثيقية من حيث مضمونه وهل هو معقول أو ليس معقولاً، وهل ينسجم مع الظروف الموضوعية أو لا ينسجم؟ ثمّ إذا كان ماينقل لنا تاريخاً واقعياً صادقاً خارج نطاق الخرافة واللامعقول، فإننا بعد كلّ هذا نتعاطى معه على مستوى العبرة والعظة والاستذكار، مما يمكن أن يبقى في الحياة ليكون درساً في الحياة ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويستنتجون ليأخذوا الدرس بعد ذلك ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾[1] أي نشرحها ونبيّنها ونوضّحها لقوم يتفكّرون، فلا بد للذين يقرأون القرآن أن يقرأوه بعد أن يحضّروا كلّ عقولهم لحركة الفكر، فالقرآن الكريم ليس للذين لايفكّرون، بل هو للذين يفكّرون، لأنّه يحمل عمقاً في المعنى، ويحمل رحابة في الأفق، ويحمل إيحاءات كثيرة فيما يتجاوز معنى كلماته الحرفية. قال تعالى ﴿قُلِ

١- الأنعام: ٥٥.

انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾[١] فانظروا نظر المفكر والباحث، لانظر الساذج، ماذا في السماوات من مخلوقات ومن أسرار؟ وماذا في الأرض من ذلك كلّه؟ لأن بعض الناس قد تقدم لهم الآيات التي توضّح لهم الحقائق وتطلق لهم النذر التي تنذرهم بالنتائج السلبية ولا يؤمنون، لأنهم ممن ختم الله على قلوبهم ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[٢] إنه يستنفر عقل الإنسان على هذا النحو، أيها الإنسان إذا كنت تعيش عقلك وتخاطبه وتستشيره، فإنّ العقل يوازن بين الدنيا والآخرة ويرى أنّ الدنيا مهما امتدّت بالإنسان ومهما انفتحت له فإنه سيفارقها، بينما الآخرة هي دار الخلود ودار النعيم، الذي يعيش فيه الانسان رضوان الله الذي هو أكبر من الخلود والنعيم ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ ويقول تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[٣] فيؤكّد على العبرة في القصة، لأن للقصة جانبين، جانب الحوادث المحدودة في الزمن وهو مايموت مع الزمن، وجانب الدروس التي تبقى في الحياة وهذه تمثّل العبرة ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾[٤] أن تعيش لتدير الفكرة في نفسك وفي عقلك وفي إحساسك وفي شعورك وفي سمعك وفي بصرك وفي كلّ ماتتحسّسه من حواسك ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[٥] لأنّ كلّ ظاهرة من ظواهر السماوات والأرض تمثّل الحقّ، وهو السرّ الكامن فيها الذي يقول لك إنّ الله لم يخلق شيئاً عبثاً، فلم يخلق الله السماوات والأرض عبثاً، ولم يخلق الإنسان عبثاً، وغير ذلك الكثير من مخلوقاته تعالى.

إنّ مسألة الفكر هي من المسائل التي تمثّل مسؤولية الإنسان في فهم نفسه، وفي فهم التاريخ، وفي فهم الواقع من حوله، وفي فهم الظواهر الكونية، وقبل ذلك وبعد ذلك معرفة الله. ولذلك كن الإنسان الذي يحرّك فكره، وينمّيه، ويستنتج من فكره، لأنَّ فكرك في كلّ حركته يمثّل إنسانيتك، ونموها وعلوّها وارتفاعها.

١ـ يونس: ١٠١. ٢ـ يوسف: ١٠٩. ٣ـ يوسف: ١١١. ٤ـ الروم: ٨.
٥ـ الاحقاف: ٣.

مع الإمام علي عليه السلام في رحابة علمه

ومن كلماته عليه السلام أنّه قال «مَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ» بمعنى أنك تبقى في حالة العمى الروحي والعمى العقلي والعمى الشعوري والعمى الحركي مادمت تتحرك بغريزتك، لأنَّها مجرّد طاقة في الجسد تتحرك من خلال الاحساس، ولا تتجاوز إحساس الإنسان بجسده، أما الفكر فهو الذي يعرّفك كلّ آفاق الحياة، وكل آفاق الكون، بل إنه يصعد بك حتىّ يقترب من الغيب.

وفي قوله عليه السلام أبصر، أي في عقله، وأبصر في قلبه، وأبصر في إحساسه وشعوره، وأبصر في حركة طاقاته في الحياة، وقال عليه السلام «لاَ عِلْمَ كَالتَّفَكُّرِ» بمعنى أنك قد تتعلّم ما أنتجه الآخرون من علم، ولكن ذلك العلم يبقى من محفوظاتك، أما العلم الذي تُنتجه بتفكرك فإنَّه يعطي الفكرة ويُنتج العبرة، ولذا، فهو أكثر ثراءً من العلم الذي تحفظه، وربما لذلك ورد في المثل الشعبي «إسأل مجرباً ولا تسأل حكيماً» ويقصد بالحكيم الذي يتعلم مما درسه الآخرون، أما المجرِّب فهو الذي ينتج الفكرة من خلال تجربته وتجربة الآخرين، فيكون أكثر تعلّماً من الحكيم الذي يتعلّم علم غيره. ولذلك ربما يكون بعض الفلاحين الذين مارسوا الزراعة عشرات السنين أكثر فهماً للزراعة من خريجي كليات الزراعة، وربما نجد أنَّ هناك إنساناً يمارس مهنة البناء عشرات السنين يفهم في صناعة البناء أكثر مما يفهمه أستاذ الهندسة، ولذلك لايكفي لك أن تقرأ الكتب، بل لابدّ لك أن تفكّر فيما قرأت، وتعرف خطأه وصوابه، ولتعرف عمقه ودقته وامتداده.

وفي صفة المؤمن يقول الإمام عليه السلام «المؤمن مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ» بمعنى أنَّ فكرته

تغمره، كما الماء يغمر الإنسان، لأنه يحيط به من كلّ جوانبه، وقوله عليه السلام المؤمن مغمور بفكرته أي تغمره فكرته فتحيط بكل حياته وبكل أوضاعه، فلا ينطلق إلّا من موضع الفكرة. ويقول عليه السلام «**الْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ**» فهل تريد أن تعرف الأشياء لتعرف حُسْنَها وقبحها، ولتعرف خطأها وصوابها، ولتعرف انحرافها واستقامتها. الفكر هو الذي يعطيك ذلك، لأنّ الفكر يحلّل الأشياء، ويحلّل الأفكار، ويحلّل الوقائع، فهو المرآة التي تريك ذلك كله. ويقول علي عليه السلام: «**الْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ وَالاِعْتِبَارُ مُنْذِرٌ نَاصِحٌ**» فينذرك عندما تأخذ الفكرة التي تحدّثك عن السلبيات أو عندما تأخذ الفكرة التي تحدّثك عن الإيجابيات، لتقدّم لك النصحية، ويقول في هذا المعنى أيضاً «**فكرُ المرء مرآة تُريه حُسنَ عَمَلِهِ من قُبحِهِ**»[١] لأنها تحلّل له عمله وتُخرج عناصر الضعف والقوة، وتكشف عناصر الخطأ والصواب.

ثمّ يحدثّنا عن أنَّ من دوافع السير في طريق الخير هو التفكّر. فيقول «**الفِكْرُ في الخَيْرِ يَدْعوَ إلى العَمَلِ بِهِ**»[٢] لأن التفكير في الخير يوضّح لك النتائج الطيبة من الخير، وعندما يعيش الإنسان هذه النتائج في نفسه، فإنَّ النتائج تخلق في نفسه الرغبة، وبالتالي تحرّكه نحو العمل. ويقول عليه السلام: «**أصْلُ السَّلامَةِ مِنَ الزَّلَلِ الفِكْرُ قَبْلَ العَمَلِ**» فهل تريد أن تسير في حياتك حتىّ تسلم من الزلل في العثرات أو في المهاوي؟ فكّر قبل أن تتحرك، قبل أن تبدأ في أي مشروع خاص أو عام، فكَّر وادرس حتىّ تستطيع أن تتعرّف، هل أن هذا العمل في صالحك؟ أو ليس في صالحك؟ ويقول عليه السلام: «**والرَّوّيةَ قَبْلَ الكلامِ**» فإذا أردت أن تتكلم فلا تستعجل، تروَّ في كلامك، لتعرف ماذا ينتج كلامك بما يتعلّق بحياتك أو بحياة الآخرين،

١ـ شرح نهج البلاغة. ج ٢٠. ب ٤٥، ص ٢٤٩.

٢ـ شرح نهج البلاغة. ج ١٥. ب ٥٨٤، ص ٣١١.

بمسؤوليتك في كلّ القضايا العامة والخاصة. ويقول عليه السلام في هذا الاتجاه نفسه «إذا قَدَّمْتَ الفِكْرَ في جَميعِ أَفعالِكَ حَسُنَتْ عواقِبَكَ في كُلِّ أمْر»(١) يعني إذا فكّرت قبل أن تفعل فإنَّ أمورك تنتهي إلى خير، لأنَّ الإنسان الذي يفكّر قبل العمل سيسلم من كثير من النتائج السلبية، لأنه يعرف خطوط العمل فيما تؤدي إلى النجاة أو إلى الهلاك، ومن الطبيعي أنَّ العاقل إذا عرف هذا العمل يؤدّي إلى الهلاك فإنه لا يبادر فيه، ولذلك قال «إذا قَدَّمْتَ الفِكْرَ في جَميعِ أَفعالِكَ حَسُنَتْ عواقِبَكَ في كُلِّ أمْر». وهو ما نستوحيه من وصية الرسول صلى الله عليه وآله لذلك الشاب الذي طلب أن يوصيه فقال له صلى الله عليه وآله «إذا أنت هممت بأمر فتدبّر عاقبته فانْ يَكُ رشداً فأمْضِه وإن يكُ غَيّا فانتهِ عنه»(٢) ويقول عليه السلام ايضاً: «فضلُ فِكْرٍ وَتَفَهُّمْ أَنْجَحَ مِنَ فَضْلِ تِكْرارٍ وَدَراسةٍ»(٣) فهناك وسيلتان لتحصيل العلم، إحداهما وسيلة التكرار للمطلب الذي تتعلّمه ودراسته، وثانيهما وهي أن تتفهّم وأن تفكر، فإنَّ التفهم والتفكّر يعمّق الفكرة في كلّ كيانك، أما ما تحفظه وتكرّره فإنه يبقى مجرد شيء في السطح لا يتعمّق في وجدانك. وقال عليه السلام «مَنْ أكثَرَ الفِكْرَ فيما تَعلَّمَ أَتْقَنَ عَمَلَهُ وفَهِمِ مالَمْ يَكنْ يَفْهَم» فإنك قد تقرأ كتاباً هنا وتقرأ كتاباً هناك ولكن ذلك لا يكفي، لأن مجرد استظهار ما يتعلمه الإنسان أو يحفظه أو يقرأه يعبّر عن قدرة في التفكير والتأمل، لأنّ ذلك كلّه لا يتعدى السطح، أما المطلوب فهو أن تفكّر في ماحفظته وقرأته لتعرف سره وعمقه لتعرف خطأه وصوابه، لأن الآخرين قد يعلمونك شيئاً يعتقدون صوابه وهو خطأ، ولذلك فإنَّ على الإنسان في كلّ دراسته أن يستحضر عقله وفكره، ليدرس ويفكّر فيما يدرسه، لأن التعلّم الساذج يجعلك تفهم الأمور في السطح، أما التفكير

١ـ شرح نهج البلاغة. ج٦. ب ٢٥٨. ص١٥٨.

٢ـ شرح نهج البلاغة. ج ١. ب ٣. ص٦٧.زز

٣ـ شرح نهج البلاغة. ج ٢. ب ٤٤. ص٥٨.

فيما تعلّمت فإنه يجعلك تفهمه بالعمق، ولذلك تفهّم مالم تكن تفهم، تعلّم ما لم تكن أخذته في العلم.

الفكر عبادة

من كلامه عليه السلام وهو يربط بين الفكر والطاعة لله: «الفكر في آلاء الله نِعمَ عبادة» لأن العبادة ليست شيئاً محصوراً في حركة الجسد، بالصلاة أو الصيام أو الحج وذلك لأن للفكر عبادته، ففكّر في آلاء الله ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1] في نعم الله وفي آلاء الله، لأنك وأنت تعيش هذا الفكر في كلّ هذه الجولة في آلاء الله وفي الكون، فإنك تتعبّد لله، وعندما تكتشف آلاء الله، فإنك تعرفه أكثر، وإذا عرفته أكثر فإنك تعبده أكثر، وتخضع له أكثر، وتعيش عبوديتك أكثر.

ولذلك يقول علي عليه السلام في هذا المعنى أيضاً: «الفِكْرُ في مَلَكوتِ السّماءِ والأرضِ عبادَةُ المُخْلِصين»[2] ويقول تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[3] لأنّ التفكير في خلق السماوات والأرض يجعلهم يشعرون في الذوبان في الله، وبالخوف منه، وبالتفكير في مسؤولياتهم، ولذلك هم يفكّرون ويفهمون ويخشعون، وتنطلق صرخات الابتهال إلى الله ﴿ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ويقول عليه السلام: «فِكْرُ ساعَةٍ قَصيرةٍ خَيْرٌ مِنْ عبادَةٍ طَويلةٍ» فإنك قد تفكّر ساعات قليلة، فتفكّر في ربك، وتفكّر في نفسك، وفي مسؤولياتك، وتفكّر فيما حمل التاريخ من قضايا الأمم، وتفكّر فتعي، وتعي لتؤمن، وتؤمن لتعمل، وتعمل لتحصل على رضا الله، لذلك فإنَّ الفكر في ساعات قليلة، ربما يرسم لك منهج الحياة إلى نهاية عمرك، أما العبادة الفارغة من الفكر فهي التي يصفها الحديث الشريف «من لم تنهه صلاته

١- الرحمن: ٧١. ٢- نهج البلاغة: ٣ـ آل عمران: ١٩١.

عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلاّ بعداً»[١]، وفي الحديث أيضاً «ليس لك من صلاتك إلاّ ما أقبلت عليه بقلبك»، وقد ورد أيضاً «تفكّر ساعة خير من قيام ليلة أو خير من عبادة سنة» لكنّ الفكر السليم والتفكير الصحيح هو سرّ الانطلاق فيقول عليه السلام: «من كثر فكره في المعاصي دعته إليه» فهناك كثير من الناس يعيشون تحت تأثير غرائزهم، فيفكّر عندما تتحرّك الغريزة في الشراب المحرّم وفي الأكل المحرّم وفي الشهوة المحرّمة وفي المال الحرام، إنه يفكر في ذلك كلّه في الليل والنهار وإذا كان كذلك فمن الطبيعي أنّ الإلحاح في هذا الفكر يقوّي الرغبة إليه، والرغبة في المعاصي لاتقود الإنسان إلى ممارسة المعاصي. وفي هذا المعنى يقول عليه السلام أيضاً: «من كثر فكره في اللذّات غلبت عليه» فعندما تفكّر في اللذات فإنها تغلب عليك، لأنها تأخذ كيانك كلّه، لأنّ الفكر في اللذات يجعل اللذة تسيطر على كيانك كلّه، لأنّ كثرة الفكر في المعصية واللذة تجعل الإنسان مستغرقاً في ذلك كلّه مما يدفعه إلى الوقوع في حبائل هذه اللذات والمعاصي. والإمام عليه السلام كأنه يشير إلى أنه قد يُبتلى الإنسان بالفكر السيىء، ولذلك ليشغل فكره، بمعنى أن يتشاغل ويحاول أن يبعد فكره إلى محطات أخرى، فقد يفكّر الشباب في المعاصي، وقد يفكّر هذا أو ذاك في الحصول على المال بسرعة أو الحصول على الجاه بسرعة فيستغرق في ذلك فيقع في المهالك، هنا الإمام عليه السلام يقول له: ابعد فكرك عن ذلك، حاول أن تشغل فكرك بما يبعدك عن ذلك تضمن لنفسك العصمة من الوقوع فيما حرّم الله. وفي نهاية المطاف في وصيته إلى الإمام الحسن عليه السلام يقرأ فيها الإمام عليه السلام التاريخ وكيف يعيشه بكلّ عمقه ويستخلص منه الفكرة، وهذا درس في طريقة دراسة التاريخ من ناحية علاقته بنا وفيما يبقى منه لحركة الحاضر والمستقبل، يقول عليه السلام «يابُنَيّ وإنْ لَمْ أكُنْ عمَّرتُ عَمْرَ مَنْ كان قَبْلي فقد

١ـ بحار الأنوار. ج ٣٤. ص ٢٣٤. ح ٢٣. ب ٣.

نَظَرْتُ في أعمالِهِمْ وفكّرْتُ في أَخْبارِهِمْ وسِرْتُ في آثارِهِمْ حتىّ عُدْتُ كأحَدِهِمْ»[١] كما لو كنت عشت حياتهم وتجربتهم كلّها، بل كأني لمّا انتهى إليَّ من أمورهم قد عمّرت مع أولهم وآخرهم. كأني عشت الزمن كلّه، لأن المسألة ليست أن تعيش الزمن كلّه بجسدك، بل أن تعيش تأريخه بفكرك وتتعمّق في ذلك التاريخ، وتعيشه في وجدانك، وتعيشه كما لو كنت أنت الذي مارسته وأنت الذي عشته. التاريخ ليس مجرد موروثات فيما نستقبله مما نسمعه أو نقرأه، ولكن التاريخ في معناه الذي يبقى للحياة هو صناعة الفكر الذي يحاول أن ينفذ إلى كلّ أحداث التاريخ، ليأخذ منها علماً، وذكرى وعملاً.

١ـ شرح نهج البلاغة. ج ١٨. ب ٢٠٩. ص ٣٥٨.

جولة في مصادر الفكر

نحاول أن نتابع الإمام عليه السلام في نصوص (نهج البلاغة) حول الإشارات الفكّرية في العناوين التي أراد للإنسان أن يفكّر بها، من خلال الطاقة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الإنسان.

من بين تلك النصوص يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خلق الإنسان: «**ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ**» يعني هذه الكتلة الطينية «**فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا**» بمعنى يحرّكها في جولات القضايا التي لابدّ للإنسان أن يتعقّلها كالمعقولات «**وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا**» يعني يستخدمها في مايريد «**وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا**» وهي الأعضاء «**وَمَعْرِفَةٍ**» تنتج من هذا الفكر ومن هذا الذهن «**يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ**» فيميّز الحقّ من الباطل «**وَالأَذْوَاقِ**» في الحس الذوقي «**وَالْمَشَامِّ**» في الحاسة الشامّة «**وَالأَلْوَانِ وَالأَجْنَاسِ**» في الباصرة «**مَعْجُوناً بِطِينَةِ الأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ وَالأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ**» في مايحيط بالإنسان من هذه العناصر، التي قد تكون عناصر الأضداد، التي ينافي بعضها البعض الآخر، أو الألوان التي تختلف، أو الأشياء التي تأتلف، «**وَالأَخْلاَطِ الْمُتَبَايِنَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْبَلَّةِ وَالْجُمُودِ وَاسْتَأْدَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَلاَئِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ فِي الإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ اسْجُدُوا لآدَمَ**»[1].

نلاحظ أنَّ في هذا النص وصفاً للإنسان بكلّ العناصر التي تمثّل منطقة الوعي الداخلي، أو العناصر التي تمثّل الحواس الخمس، كما تمثّل مايحيط بالإنسان من

١ـ شرح نهج البلاغة. ج ١. ب ١. ص ٩٩.

الأمور التي تتنوّع في مبايناتها أو في ائتلافها أو ما إلى ذلك. ولكننا نلاحظ أنَّ الإمام عليه السلام ركّز في البداية على الذهن الذي يتحوّل من أجل أن يستكشف القضايا في العالم، والفكر الذي يتصرّف بهذه الأشياء، والتي يقتبسها أو يكتشفها الذهن. فدور الذهن هو أن تكتشف وتجمّع، ودور الفكر هو أن تتأمّل هذه الأشياء المكتشفة، فكأنَّ الحواس أو الأذهان تحاول أن تجمع للفكر المفردات التي هي بمثابة المواد الخام، ثمّ يتصرف الفكر بها فيقرّب بعضها لبعض ويصنع منها المبادىء، ويقنّن فيها القوانين ويركّز فيها الأوضاع، تماماً كالمصنع في المواد الخام، وهذا هو الفكر. فكلمة «**ويتصرّف بها**» تعني أنَّ دور الفكر هو أن يتصرّف فيما يجمعه الذهن، وفيما تنتجه الحواس. وهي المسألة التي ركّز عليها الإسلام، فيما يحاوله الإنسان من تعقّل الأمور التي تجمعها كلّ حواسه الداخلية والخارجية، فيحاول أن يتصرّف بها من أجل صنع القضايا الفكرية، والمبادىء والأوضاع التي تحرّك بها الناس. فعلى الإنسان أن لا يعطّل فكره، فيحرّض الحواس على خدمة الفكر، وذلك بأن يدقّق في هذه الحواس، وينظّمها، ثمّ يحمل هذه الحواس إلى عقله، ليتصرّف الفكر بها، فيخلق إنتاجاً جديداً يسمى بالأفكار والعلوم وغيرها. وبذلك يمكنه التفريق بين الحق والباطل وبين ما تنتجه المشام والأذواق والأبصار والأسماع.

دور الفكر على المستوى الروحي

من كلام للإمام علي عليه السلام يركّز فيه على الجانب الروحي للإنسان، ودور الفكر في تنمية هذا الجانب فيقول «**فاتقوا عِبَادَ اللّهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبّ**» واللب هو العقل وقد قال تعالى ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾[1] «**شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ**» يقصد الشخص الذي لايجمّد عقله، ولا يعطيه إجازة، بل يظل عقله في كلّ الحالات يقظاً في حركيّة دائمة، فيحاول أن يجعل التفكّر شاغلاً للعقل، والقلب هو منطقة الوعي الداخلي التي تجمع العقل والحس والشعور. فإنّ الانطلاق بالتفكّر هو وحده الذي يعمّق التقوى فيما تنفتح عليه من الآفاق الواسعة، ولا يكفي في التقوى ممارسة العمل دون الوعي، بل لابدّ أن تعي القاعدة التي يرتكز عليها العمل، وأن تعي النتائج، وأن تعي العناصر التي تتجمّع في داخل العمل ثمّ تعمل. ولذلك ورد في القول المأثور «**ركعتان يصليهما العالم** ـ أي العارف بالله والواعي ـ **خير من عبادة سنة أو أقل أو أكثر يصليها العابد**»[2] لأنّ العابد وهو يعبد الله فإنه يعبده عبادة آلية، أما العالم فإنه يعبد الله عبادة تنطلق من العقل، ومن القلب والإخلاص والشعور. وقد قال تعالى ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[3] ويقول عليه السلام «**وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ**» فقد أتعب الخوف بدنه من خشية الله ومن تفكره فيه «**وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ**» فأصبح نومه قليلاً «**وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ**» الهواجر بمعنى الأجواء الحارة، «**وَظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ**» بمعنى منعها «**وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ**» أي أسرع، «**وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لأَمَانِهِ**» فأخذ الخوف من الله يدفعه إلى

١ـ الزمر: ٩.　　٢ـ بحار الأنوار. ج ٤٤. ب ٨٧. ص ٣٩. ج ٢.

٣ـ فاطر: ٢٨.

التقوى فيما يؤدي به إلى الأمان. وقد قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(١)، «وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ» أي تنكب الموانع التي تميل به عن الطريق «وَسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلاَتُ الْغُرُورِ وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ»(٢).

كل هذه الحركّية التي يعيشها التقيّ في عبادته واستقامته على الطريق، تنطلق من النقطة الأولى وهي أنه ذو لب شغل التفكّر قلبه، فأدّى به التفكّر إلى سلامة العمل، في كلّ مايقّربه إلى الله ويؤمّنه عنده. ثمّ يؤكّد الإمام عليه السلام أنّ الانسان عندما يفكّر فإنه يجب أن يفكّر في الأمور التي تنتهي به إلى نتيجة حاسمة ترتبط بسلامة المصير. وذلك في القضايا التي يملك الوسائل إليها، فبعض الناس ـ مثلاً ـ يحاول أن يفهم ذات الله، فيضيع ويتيه لأنَّ الذات الإلهية ليس تحت تجربتنا، ولا تحت سمعنا ولا بصرنا ولا حواسنا حتىّ نعرفه، فنحن ـ مثلاً ـ نستطيع أن نعرف الإنسان، بلحاظ أنّ الإنسان موجود أمامنا، ويمكن لنا أن نفحص عناصره ونعرف طبيعته وكلّ شيء يمكن أن نعرفه بشكلّ سريع أو قد يحتاج إلى مدة أو جهد، حتىّ نعرفه. أما ذات الله سبحانه وتعالى فلا طرق لنا لمعرفة ذاته. ولذلك كان النهي عن التفكّر في ذات الله، ومن هنا لابد أن نفكّر في خلق الله، أو في صفات الله، ونسأل لماذا خلقنا الله وما هو دورنا؟ وقد قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٣) وقد ورد «خلقت الخلق لكي أُعرف». فمسؤوليتنا هو معرفة دورنا في هذه الحياة. اما ماهي الأمور التي دعت الله لأن يخلق الإنسان فإنه ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(٤)، فالله هو المطلق ونحن المحدود، ولا يستطيع

١ـ الأحقاف: ١٣.

٢ـ نهج البلاغة. من خطبة له٧ وتسمى بالغراء وهي من الخطب العجيبة في صفة خلق الإنسان.

٣ـ الذاريات: ٥٦. ٤ـ الأنبياء: ٢٣.

المحدود أن يحيط بالمطلق أو بما عند المطلق، لذلك فإنّ كثيراً من الأشخاص يفكّرون في ما لا يملكون وسائله. وهناك أشياء لانملك وسائلها الآن وإن أمكن امتلاكها في المستقبل كما في الذين يفكّرون في الوصول إلى المريخ أو الكواكب الإخرى فهم يفكّرون في الوسائل التي توصلهم إلى هدفهم، حتىّ إذا وصلوا فإنّهم يمكن أن يفكّروا في الأشياء التي تقع تحت تجربتهم.

وهذا المعنى يشرف بنا على معنى آخر، وهو أنَّ على الإنسان أن يفكّر فيما يملك من الوسائل والآليات. ففي بعض الإحيان قد يفكّر الإنسان في أشياء تجريدية لاتتصل بالعقيدة أو بالعمل أو بأوضاعنا، ككثير من الأمور التي هي محل جدل، وليس لها علاقة بكلّ مسؤولياتنا، لا العقائدية ولا العلمية، وليس هناك ضرورة تدعو الإنسان أن يفكّر فيها، بل الضرورة هي أن يفكّر بالأشياء التي يدركها والتي يملك وسائلها، ويملك أن يحصل منها على نتيجة. أما التي لا يملك وسائلها ولا يدركها فَمَثَلُه كطواحين الهواء، فيقول عليه السلام: «فَلاَ تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ» مما لا يقع تحت نظرك، «وَلا تَتَغَلْغَلُ إِلَيهِ الْفِكَرُ»[1] أي لاينفذ إليه الفكر لأنّه ليس تحت تجربتك وليس تحت إمكاناتك.

ويقول عليه السلام في خطبة له في هذا المعنى: «الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتِ الأَوْهَامُ» أي الأذهان والأفكار، ويُقال ذهب إلى وهمه يعني فكره، «لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ» وإلى أين تصل قدرته، «حَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ وَتَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ» فحاول الفكر أن ينفذ إلى مواقع الغيب في مُلك الله مما لا يملك الوسائل إليه، «وَتَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ» فأقبلت وشغلت بذلك، «وَلِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ وَغَمَضَتْ مَدَاخِلُ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لاَ تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ رَدَعَهَا وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ الْغُيُوبِ مُتَخَلِّصَةً

١ـ شرح نهج البلاغة. ج ٦. ب ٨٦. ص ٣٧٣.

إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لاَ يُنَالُ» ويقول عليه السلام في مقطع آخر «وَإِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً وَلا فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً»[١] أي فلا يمكن ان تدخل في العقول حتىّ تصورك العقول وتكيّفك بحسب وسائل المعرفة لديه، لأنَّ العقول محدودة ولا تستطيع أن تحيط بك لتكيفّك، لأنَّها لا تستطيع أن تحيط بكلّ صفاتك بشكلّ دقيق، أو فيما يخطر على الأذهان ويجول في الفكر. فالنتيجة أنّنا لا نستطيع أن نعرفك في سرّ ذاتك، ولكننا نعرف ما يمكن للعقول أن تدركه من خلال ما أعطيت العقول من الوسائل، فيما خلقت أو في ما أودعته في فطرة الإنسان.

١ـ شرح نهج البلاغة. ج ٤. ب ٥٧. ص ٣١١.

الفكر والاعتبار

من كلام للإمام عليه السلام وهو يريد توجيه الفكر للاعتبار ولأخذ الدرس مما عاشه الإنسان ومما يعيشه «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ» فإنَّ الإنسان عندما يأخذ العبرة وهي الدرس، وتتضح الفكّرة عنده، عند ذلك تضيء له فيبصر. ويريد به البصر الداخلي، وليس الخارجي منه، فإنّه مثلما هناك عمى يصيب العينين، فهناك عمى يصيب القلوب، فقد قال الله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[1]، ويقول عليه السلام: «فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ» مما يرى زوال الدنيا، «وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ» لأنَّ الآخرة دار الخلود، «وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ» لأنَّ الدنيا معدودة وكلّ معدود له نهاية، «وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ» فما تتوقّعه مما تملك فكره فإنّه سوف يحدث، «وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ»[2] فإنّه قريب كلّما تقدم بك الزمن إليه. ويقول عليه السلام في هذا الصدد وهو يشير إلى الاعتبار والتعلّم من ذلك «ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ» فاعتقل لسانه، «وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ» يراهم «وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ» فيما يتحدّثون من حوله «عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ» فلا يزال يفكّر، فيما رأى ويفكّر فيما سمع «وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ» يعني من عقله إذ تتمثّل له في كلّ حياته «يُفَكِّرُ» وهو يتحرّك نحو الموت «فِيمَ أَفْنَى عُمُرَهُ» من خير أو شر وفيما يبقى أو فيما يفنى، «وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا» فينظر إلى رصيده بالدنيا، «أَغْمَضَ فِي

١ـ طه: ١٢٥ ـ ١٢٦. ٢ـ شرح نهج البلاغة. ج ٧. ب ١٠٢. ص ١٠٥.

مَطَالِبِهَا» يعني لم يركّز على حلالها أو حرامها، «**وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا**» من الأشياء الواضحة ومما اشتبه بالمال الحرام، «**قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا**» لأنَّ الإنسان إذا جمع المال من الحلال والحرام تلزمه المسؤوليات، فعليه أن يردَّ ما أخذه من حرام إلى أصحابه أو مصادره، «**وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا**» فاقترب من الموت، «**تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ**» ويبيّن عليه السلام هنا أنَّ الإنسان في هذا الوقت قد فرغ من كلّ مسؤولياته وماكان منشغلاً به فأخذ يفكّر في مسؤوليات مافعله في حياته كلّها، وأهله مشغولون بالحديث وغيره وهو يفكّر في مستقبل أمره، «**يَنْعَمُونَ فِيهَا وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا**»[1] فقد آلت الأموال إلى أولاده فيكون الهناء لغيره والعبء على ظهره، لأنه في يوم القيامة سيحاسب على كلّ قرش أخذه من الحرام، وعليه أن يبين كلّ ما أخذه من الشبهات، فهذه صورة يصوّر علي عليه السلام فيها الإنسان، وهو في حال الاحتضار، وهو يستحضر كلّ تلك الأمور، ليحرّكها في خطّ مسؤولياته التي سوف يتحمّلها سواءً في أعماله، أو في ماله الذي جمعه. وكأنَّ الإمام عليه السلام يريد من خلال هذه الصورة أن يقول للإنسان، إنّك عندما تفكّر في حال الاحتضار بكلّ مسؤولياتك مما لا تستطيع أن تتخلص منه، فلماذا لا تفكّر قبل ذلك لتنظّم أمورك، ولتتقي الله في كلّ ذلك، وتتوب عن ذنوبك، فيما أسلفت منها وتُرجِع إلى كلّ ذي حقٍّ حقه، وتخلّص مالك من الحرام حتىّ تصل إلى الله سالماً، وقد قال تعالى ﴿**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[2].

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام في مقام الموعظة أيضاً وفي بعض الأجواء التي تتصل بالفكر «**فلينتفع امرأ بنفسه**» فأنت الآن تملك نفسك من خلال ما يتمثّل من وجودك، الوجود الواعي من خلال العقل المتحرّك، ومن خلال الحواس التي

١ـ شرح نهج البلاغة. ج ٧. ب ١٠٨. ص ٢٠١.
٢ـ الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩.

تسهّل لك أمور حياتك، لأنك إنْ لم تراعِ نفسك لم تحاسب نفسك، ولم توجهّها في خط الاستقامة، فلا تنتفع بنفسك، لأنها عندئذٍ تتحركّ في نطاق الهلاك، «فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ» وليس الذي تدخل الكلّمة من أُذنه وتخرج من الأخرى، كما في قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾[1]، فيما قال تعالى ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[2] فهناك فرق بين من يسمعون ويستمعون، فقد تدخل الأصوات إلى ذهنه من دون أن يتأثّر بها أو ينتبه إليها، أمّا من يستمع فهو يوجّه أذنه وفكره لما يسمعه ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[3]، فهم يميزّون بين هذا القول وقول آخر، وعندما يختارون السماع ويتوجهون إلى الاستماع فيفكّرون فيه، ويميّزون بين الحسن والأحسن، والحسن والقبيح، فيتبّعونْ أحسنه عندما يميزون بين ذلك.

«وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ» فقد أعطاه النظر إلى الأشياء بصراً في عقله وقلبه بمعنى أخذ العبرة مما رأى لا كما وصف الله اعمياء القلوب ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾[4] كمن يرى وليس براءٍ، لأنَّ قيمة البصر في ما تؤدّي إليه عملية الإبصار، مما يتجاوز النظر. فقد ينظر الإنسان من دون أن يشعر بما حوله ومَنْ حوله، فتتحوّل عيناك إلى مجرّد مرآة وليست شيئاً تبصر بها الأشياء، «وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ» بالدروس التي يأخذها من التفكير ومن النظر، «ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً» والجدد بمعنى الطريق الواضحة، «يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي» بحيث لا يقع فيما يهوي به إلى الأسفل، «وَالضَّلاَلَ فِي الْمَغَاوِي» فيما يغويه، «وَلا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ

١ـ الأعراف: ١٧٩. ٢ـ الزمر: ١٧ ـ ١٨. ٣ـ الزمر: ١٨.

٤ـ الأعراف: ١٧٩.

«الْغُوَاةَ» فيكون واعياً للناس المحيطين به فلا ينجذب لهم، فيتبعهم على أن يغووه ويضلّوه، فلربما أَهْلكَ الأهلُ والأصدقاء والمقرَّبون الإنسانَ بفعل العاطفة، وهو يُعينهم على نفسه، «بِتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ» كما لو كانَ عليه حق ـ مثلاً ـ لبعض الناس أو كان هناك حقّ لابد أن يقف معه فيتعسف فيه، «أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ» مما لا يستقيم من الكلام، «أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ» فلا يخاف من أن يكون الصادق، وقد يخوّف الشيطانُ الإنسانَ من الصدق ليختار الكذب لمصلحة هنا أو هناك.

«فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ» فإنَّ هذه السكرة تمنع الإنسان من أن يفكّر، «وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ» لأنَّ الانسانَ إذا لم يفتح عقله على ما يمكن أن ينفتح به على الحق يكون غافلاً. «وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ» فلا تستعجل في الأمور، بل اجعل الأناة شعارك في سيرك أو في حياتك. لتعرف مواقع اقدامك، ولتعرف من أين تبدأ وأين تنتهي. «وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ص مِمَّا لاَ بُدَّ مِنْهُ وَلا مَحِيصَ عَنْهُ» فعندما يأتيك خبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله حاول أن تفكّر فيه حتىّ تملأ عقلك به، مادمت تؤمن بالنبي صلى الله عليه وآله فهو كما قال الله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾(١)، فكلامه كلامُ الله، وطاعته طاعة الله، ثمّ بعد ذلك فكّر كيف تحوِّل كلام النبي صلى الله عليه وآله إلى سلوك عملي في حياتك، «وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ» خالف الناس الذي يُعرِضون عن كلاّم النبي إلى غيره، «وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ» ودع من لاينفع الكلام معه(٢).

ثمّ يقول عليه السلام في الموعظة أيضاً وهو يتحدّث في العقل باعتبار أنّه السبيل إلى النجاة «فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ» فلا يعطي عقلَه إجازة لأنه لا ينبغي أن يغيب العقل وهو يريد أن يأخذ النتائج التي ينتفع أهله بها وإنما يصدق معهم عندما يتحرى

١ـ النجم: ٣ ـ ٤. ٢ـ شرح نهج البلاغة. ج ٩. ب ١٥٣. ص ١٥٨.

الأمور بشكلّ دقيق وموضوعي، ليميز فيه العقل بين ما ينتفعون بـه وبـين مـا لا ينتفعون به، «وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ» لأنك بدأت من الله وإليه ترجع، «وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ» أي يرجع ويعود، «فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ» الذي يـبصر بعين قلبه أي عقله، «الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ» فيتحركّ بحسب بصره فيما يسير فـيه مـن طريق، «يَكُونُ مُبْتَدَأُ عَمَلِهِ» أول مرحلة في المشروع، هو أن يعلم أنَّ عمله له أو عليه، فيجب على الإنسان أن يدرس كلّ مشروع يدخل فيه، وكلّ انتماء يـنتمي إليه، وفي كلّ ما يتعرّض له في حياته، ويريد أن يقوم بعمله، لأنه سيحصد نتائج عمله، وذلك هو قول الله سبحانه وتعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[(١)]، وقال تعالى ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[(٢)] فإذا كان خيراً فستحصل على خير الدنـيا والآخـرة، لأنَّ العـمل الجيد يُنتج عاقبة جيدة، في الدنيا والآخرة. اما إذا كان سيّئاً فإنه يُنتج عاقبة سيئة في الدنيا والآخرة. فإنَّ أول العمل التفكير والتخطيط، ومن دونهما فإنَّ مآل العمل إلى الخسران في الدنيا والآخرة. ويقول عليه السلام: «فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ»[(٣)] فهو يمشي دون عقل، دون تخطيط فلا ينتهي به الطريق إلى شيء، فهو أشبه بمن يسير بغير طريق، لأنه يتخبّط. ذلك أنّ تحديد الطريق هو جزء من العمل، ولذلك يقول الله تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[(٤)]، «فَلاَ يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إلاَّ بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ» لأنَّه سـوف يـبتعد بك عـن

١ـ الروم: ٤١. ٢ـ النحل: ١١٢.

٣ـ شرح نهج البلاغة. ج ٣٢. ب ٥٨٧. ص ١٢٦. ٤ـ الأنعام: ١٥٣.

هدفك، لأنَّك لاتعرف هل سيوصلك إلى الهدف أم لا؟! «وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ أَ سَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ»[1] فمن كان يسير على هدى العلم فهو يسير على الطريق الواضحة، ولكن لينظر الإنسان أهو سائر ويتقدّم أم لا؟ فلطالما يحسب الإنسان أنه يتقدّم ويسير إلى الأمام وهو ليس كذلك.

١ـ شرح نهج البلاغة. ج ١٨. ب ٢٣. ص ٢٤٨.

قيمة التجربة

إن الإمام علياًعليه السلام قد كرّس الحديث عن الفكر التأملي، وركّز على التجربة أيضاً باعتبارها أحد مصادر المعرفة.

فهناك مصدران للمعرفة: أحدهما، التأمل العقلي والثاني، التجربة، وقد تقدّم العلم الحديث من خلال التجربة، كما نلاحظ في كلّ المخترعات والمكتشفات التي دأب ولايزال يدأب عليها العلماء والمبدعون في أكثر من حقل وأكثر من ميدان في البر والبحر والفضاء، من خلال الملاحظة المستمرة والتجربة تلو التجربة، ولم يكن فشل تجربةٍ مّا سبباً للانتكاس بل كان ذلك سبباً للإصرار، ولكن للأسف نحن الشرقيين بدأنا نميل إلى الاستسلام والحكم على الأشياء بعدم الإمكان لمجرد فشل تجربة أو أخرى، في الوقت الذي نلاحظ فيه فلاسفة المسلمين يؤسّسون لما يتناقض مع هذا الفهم.

وهناك كلّمة لابن سينا يقول فيها: «**كلُّ ماقرع سمعك فذره في بقعة الإمكان حتى يذودك عنه واضح البرهان**» فالشيء الذي لا تثبت عندك استحالته فهو ممكن، وحاول أن تكرّر التجربة تلو التجربة حتىّ تقترب، ولذلك تعتبر التجربة أحد أهم المصادر المعرفية، وقد كان للتجربة حظ كبير في منهج المسلمين، في وقت كان فيه الغرب يعيش حالة الانحطاط والتخلّف المعرفي.

يقولعليه السلام في التأكيد على التجربة: «**ومن التوفيق حفظ التجربة**» في إشارة إلى حفظ التجربة الخاصة وتجربة الآخرين، واستحضارهما يُعدّ من علامات التوفيق والنجاح بلحاظ ماتؤدي إليه من خير أو شر، فيما يستفيد منه الإنسان في

مستقبل أمره.

بل إنَّ هناك عدداً من المعارف مما لا يتحقّق إلاّ بالتجربة، فقد قال علي عليه السلام «فِي تَقَلُّبِ الأَحْوَالِ عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ» أي أنَّ حقيقة الإنسان لا تُعرَف بالتجربة. وهذه التجربة وإن كانت في إطارها الاجتماعي إلاّ أن التأكيد على التجربة هنا وهناك، يكفي للتدليل على قيمة التجربة في النهج المعرفي الإسلامي.

وقال عليه السلام: «اخْبُرْ تَقْلِهِ» بمعنى أنه إذا أعجبك ظاهر شخص فاختبره، فربما وجدت فيه مالا يسرك فتبغضه، وفي ذلك إشارة إلى أن الناس لا يمكن أن تُعرَف إلا بالتجربة لأنها تنزل بك إلى العمق.

بل اعتبر الإمام عليه السلام أنَّ العزوف عن التجربة عجز، إذ يقول: «الطُّمَأْنِينَةُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ الاِخْتِبَارِ لَهُ عَجْزٌ»، وكما قلنا فإنَّ كلامه وإن كان في الإطار الاجتماعي إلاّ أنَّ ذلك لا يختص بهذا الميدان بل يعمّه إلى غيره من الحقول المعرفية والعلمية.

بل يتضح مراد الإمام عليه السلام بأكثر مايكون الوضوح إذ يقول في كتاب له إلى أبي موسى الأشعري: «فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجْرِبَةِ»، لأنَّ أحدهما يكمل الآخر. وفي كلام له عليه السلام يقول: «إِذَا كَانَ فِي رَجُلٍ خَلَّةٌ رَائِقَةٌ فَانْتَظِرُوا أَخَوَاتِهَا» بمعنى أنه لا ينبغي الاكتفاء بنظرة واحدة، فإذا أعجبتك صفة في شخص فلا تعجل بالحكم عليه بل انتظر سائر الصفات وهو ماتوفّره التجربة.

هذه هي كلّمات علي عليه السلام في العقل فيما ينفتح به على حقائق الأشياء، وعلى حرّكية الإنسان في حياته، وفي التجربة فيما تكشف له من غوامض الأشياء في الواقع.

هذا هو علي عليه السلام وهو الذي خطط لنا كيف نفكّر، وهذا هو علي عليه السلام الذي أراد

أن ننطلق بالعقل ننميه ولنعظّمه ولنفتحه على كلّ الأفـاق، وهـذا هـو عـلي عليه السلام المسؤولية، لذلك أعرفوا علياً بعقله وبفكّره وبروحه، فإنّه الإنسـان الذي انـطلق بفكّره فعرف الله معرفة قال فيها «**لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً**»[1]، وهـو الذي فكّر في مسؤوليته وفي علاقته بالله فباع نفسه لله، فإذا كنا نحب عـلياً عليه السلام فلابّد أن نعيش في عقله، لأنه العقل كلّه، وأن ندرس تـجربته وهـي مـن أغـنى التجارب، وندرس كيف حافظ على الوحدة الإسلامية في الدقت الذي سلبوا فيه حقّه الشرعي، وكيف حافظ على المسلمين وكان هو المظلوم فـيهم فـقال عليه السلام «**لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً**»[2] ولذا فإنّ من يحب علياً عليه السلام فإنه لا يسيء إلى الوحدة الإسلامية، ومن يحب علياً عليه السلام لا يشجع الفتنة في المجتمع، ومن يحب علياً عليه السلام لابد أن يحبّ حرّكة العقل في العلم، وحرّكة التجربة في القضايا الكبيرة والأهداف الكبيرة.

١ـ شرح نهج البلاغة. ج ٤. ب ٢٢. ص ٣٤٥.

٢ـ شرح نهج البلاغة. ج ٦. ب ٧٣. ص ١٦٦.

الخاتمة

حب علي عليه السلام وبغضه

حبّ عليّ عليه السلام وبغضه

لقد عاش الإمام علي عليه السلام واقعاً إشكالياً في مسألة الحبّ والبغض ومازال، فهناك من يحبّونه، وهناك من يبغضونه. فكيف يصوِّرَ علي عليه السلام الحبَّ والبغض في الخطوط المنحرفة لنفهم من خلال ذلك الخطّ المستقيم في الحُبّ؟ وكيف يحدّثنا علي عليه السلام عن الذين يحبّونه حتىّ لو عاشوا المعاناة بأصعب ماتكون المعاناة؟ وعن الذين يبغضونه حتىّ لو فتحت لهم الدنيا خزائنها ليحبّوه؟

يقول علي عليه السلام «لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ» والخيشوم أقصى الأنف «بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا» والجمات جمع جمة وهي مكان جمع الماء «عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي وَذَلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ص أَنَّهُ قَالَ يَا عَلِيُّ لاَ يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ وَلا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ»[1]. فلماذا قال النبي صلى الله عليه وآله هذه الكلمة؟ مع أنَّ قضية الحب والبغض تتصل بنبضات القلب، وهي عادة لاتعرف الخطوط المستقيمة، فربما ينبض قلبك بحب شخص يختلف معك، وربما ينبض قلبك ببغض شخص يتفق معك. فالقلب لا يملك قاعدة يستقر عليها. فلماذا لا يبغضه المؤمن ولا يحبه المنافق، ولعلي عليه السلام صفات في إنسانيته يمكن للمنافق ان يحبّه من خلالها؟ فهو الشجاع البطل، وهو العالم العادل، وهو الذي يتميّز بالكثير من الصفات الإنسانية التي يحب الناس بعضهم بعضاً على أساسها.

١ـ الكليني: بحار الأنوار. ج ٣٩. ب ٨٧. ص ٢٩٦. ج ٩٩. نقلاً عن نهج البلاغة للإمام علي بن ابي طالب عليه السلام.

فنحن عندما نعيش قصة الحب والبغض في الواقع، فإننا نجد أنها تتحرّك من دون أن ترتبط بالأيدلوجيا كما يقولون. فلماذا ذلك؟ لأن حبّ علي عليه السلام ليس مسألة تتصل بالقلب في سذاجة العاطفة، بل تتصل بالعقل في عمق الوعي لأنّ علياً عليه السلام كان إيماناً كلّه، وقد قال الله تعالى فيه ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾[1]. فقد باع نفسه كلّها لله تعالى، فلا مكان في شخصيته لأيّ شيء ذاتي، فعقله عقل الإيمان، وقلبه قلب الإيمان، وحركته حركة الإيمان، وشجاعته وزهده وعدله وعلمه، كلّ ذلك يتحرّك في دائرة الإيمان. لذلك فالمؤمن الذي يعيش إيمانه في عمق الإيمان وفي امتداده، لابدّ أن يحبّ علياً عليه السلام لأنه عندما مايحب الله الذي آمن به علي عليه السلام وعرفه وجاهد في سبيله، لابدّ أن يحبّ علياً عليه السلام. وإذا أحبّ رسول الله فلابدّ أن يحبّ علياً عليه السلام. وإذا أحبّ الإسلام فلابدّ أن يحبّ علياً عليه السلام فلا انفصال بين علي عليه السلام وبين الحق، فمن آمن بالحق لابدّ أن يؤمن به «لاَ يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ». لأنّ المؤمن عندما يعيش إيمانه فلابدّ أن يعيش الانفتاح والحبّ والولاية لكلّ من يجسّد الإيمان، وعلي عليه السلام كان التجسيد للإيمان كلّه.

أما المنافق الذي اختزن الكفر في قلبه، فلم يتعلّق من الإيمان بشيء، بل كان إظهاره للإيمان بلسانه وسيلة من وسائل تغطيه الخطط التي يخطّطها ليهدم الإيمان في عقيدته وفي شريعته وفي حياته، فكيف يمكن أن يحبّ علياً عليه السلام؟!

إنّ القصة لاتتصل بالسطح لتكون خاضعة للرغبة هنا والرهبة هناك، ولكنها تتصل بالعمق بمعنى الإيمان في نفس المؤمن. وكأنّ علياً عليه السلام يريد أن يقول: إنّ مسألتي في الواقع ليست مسألة شخص ينفتح على صفات معينة يحبّه الناس

١ـ البقرة: ٢٠٧.

لأجلها ويبغضونه لأجلها، ولكنها مسألة الإسلام كلّه والإيمان كلّه.

مشكلة الغلوّ:

ثمّ يقول عليه السلام: «**هَلَكَ فِيَّ رَجُلاَنِ مُحِبٌّ غَالٍ وَمُبْغِضٌ قَالٍ**»(١). فقد كان علي عليه السلام يحبّ الله تعالى، ولا يحبّ نفسه، ويحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يحبّ نفسه، ولذلكَّ فإن علياً عليه السلام كان يتواضع لله تعالى فلا يريد لأحد أن يقترب به من مقام الله عزّ وجل في أي مجال من المجالات، وهو ماعبّر عنه في (دعاء كميل) «**وأنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين**». إنه يعتزّ بعبوديته، ويرى أنّ عظمته في العبودية الخالصة، عبودية العقل لله، وعبودية القلب لله، وعبودية الحركة لله، هي سرّ عظمته، لأن الإنسان كلّما كان عبداً لله أكثر اقترب من الله أكثر، وكلّما اقترب منه أكثر عاش العظمة في آفاق العبوديّة لله أكثر.

فلا يحسب الذين يغالون في علي عليه السلام أو في أبناء علي عليه السلام أنهم يعيشون المحبّة لأهل البيت عليهم السلام لأنّ أهل البيت عليهم السلام عاشوا للإسلام، كلّه وذلك هو قولهم «**من كان وليّاً لله فهو لنا وليّ ومن كان عدوّاً لله فهو لنا عدوّ، والله ما تُنال ولا يُتنا إلاّ بالورع**». ولقد كرّرناها مراراً، أنّه ليس لأهل البيت عليهم السلام شيء سوى الإسلام، فليس لديهم شيء للذات. فلذلك علينا، عندما نريد أن نفتح عقولنا وقلوبنا لحبّهم، أن نحبّهم كما أرادوا لنا أن نحبّهم، كما ورد في كلمة الإمام علي بن الحسين عليه السلام «**أحبّونا حبّ الإسلام**». أي أن يكون الحبّ في الدائرة الإسلامية، وأن لا يبتعد عن العقيدة الإسلامية في خطوطها القرآنية والنبويّة، وبذلك فإنّ علينا أن ندقّق فيما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام في ذلك كلّه:

«**هَلَكَ فِيَّ رَجُلاَنِ مُحِبٌّ غَالٍ**». لأنه لم يقف على خط التوازن في الحب في

١ـ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ١٨. ب ١٣. ص ٢٨٢.

معنى الإسلام، «وَمُبْغِضٌ قَالٍ». وهو الذي يعيش العداوة لعلي عليه السلام وهو يعرف أنّ علياً عليه السلام كان الإسلام كلّه، فالعداوة لعلي عليه السلام عداوة للإسلام كلّه، فإنّ علياً عليه السلام في واقع الأمر هو تجسيد للإسلام.

إنّنا نؤكد ذلك من خلال كلام علي عليه السلام، لأنّ هناك تياراً بدأ يغلو ويزداد غلوّاً باسم الحب لعلي عليه السلام ولأهل البيت عليهم السلام ولا يقف في خط التوازن.

أتباع الإمام علي عليه السلام:

هذه نشأة عليّ عليه السلام وهذا هو روح علي عليه السلام. وهكذا أرادنا أن ننطلق معه، لا لنعيش عاطفة لا مجال لموقف فيها، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ»[1] فأنا لا أكلفكم ذلك، ولكن أيّها المسلمون، أيها المؤمنون، العونَ العونَ، لا على المستوى الخاص، ولكن على مستوى القضية، وعلى مستوى الإسلام، «وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»، هذه هي مسألته، إنه لا يتحدّث عن الخاص بل كان يحدّث الناس بالعام، لأنّ عقله مع الله وقلبه مع عباد الله وأولياء الله، وجسده مع كلّ حركة جهاد ومع كلّ انطلاقة حق.

أن تكون من اتباع عليٍّ وأن تكون من محبيه، فذلك شيء متعب جداً، لأنّ قصة أن تنتمي إلى شخص في هذا الحجم، فعلي هو يكلفك الكثير، تقوى وورعاً وعلماً وجهاداً واستقامة الإنسان في كلّ مكان يغترف من بحار فكره ومن آفاق روحانيته ومن صدق مواقفه، هذا الإنسان الذي أقبلت عليه الدنيا ولكنه كان يرفض أي دنيا تبتعد عن الله «قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لاَ حَرِيجَةَ لَهُ

١ـ نهج البلاغة، الإمام عليّ بن أبي طالب، الكتاب ٤٥. ص ٣١٢.

فِي الدِّينِ»(١) قضيّته أنه كان إنساناً ليس في شخصيته شيء من الباطل، ولقد قالها رسول الله صلى الله عليه وآله في الحديث المأثور «**عليٌّ مع الحقّ والحق مع عليّ**» فهل نكون مع عليّ إذا كنّا مع باطل الكلمة ومع باطل الموقف ومع باطل الشريعة ومع باطل السياسة والاجتماع؟!

أن تكون معه يعني أن تلتصق به وبالحق، لأنه ليس هناك مسافة بين الحق وبين عليّ بحيث يمكن للباطل أن ينفذ منها.

ومن هنا فإننا عندما نحتفل به، عندما نعيشه، عندما نتطلّع إلى آفاقه، علينا أن نعيش فكره، وأن نعيش روحه وصدقه ومحبته لله وأن نعيش محبته لرسول الله الذي قال عنه «**لأعطيّن الراية غداً (في خيبر) رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، كرّار** (من موقع إيمانه ومن موقع عضلاته) **غير فرّار، لا يرجع حتىّ يفتح الله على يديه**» وذاك هو عليّ، عليٌّ في سماوات الابداع والروحانية والعلم والتقوى، عليٌّ الذي كان يعيش أزمة مجتمعه «**إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً**»(٢)، «**سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَلأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ**» وينطلق شخص ليقول كم شعرة في رأسي، ويقول أحد المستشرقين: «لو كان عليّ موجوداً الآن لرأيت مسجد الكوفة ممتلأ بالقبعات الغربية».

احتفلوا به في كلّ لحظة فكر، وفي كلّ لحظة وعي تعيشون فيه وعي عليّ وحركته في الحياة، فعليّ هو الإنسان الذي مهما انطلقت معه ومهما عشته ومهما قرأت نهج بلاغته، فإنك تجد في كلّ يوم شيئاً جديداً، لأن علمه علم رسول الله ومن وحي الله «**علّمني** رسول الله **ألف باب من العلم يفتح لي من كلّ باب ألف**

١ـ نهج البلاغة. الإمام عليّ، الخطبة: ٤١. ص ٤٤.

٢ـ المصدر السابق نفسه، باب الحكم، ص ٤٣٤ طبعة المستشارية الثقافية الإيرانية ـ دمشق.

باب» وقالها رسول الله عن تلميذه هذا «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها**».

ذلك هو عليٌّ في كلماته، والذي يبقى لنا ومعنا، فهل نبقى معه ؟!

هذا هو السؤال الكبير الذي يفرض نفسه علينا في حركة الواقع.

وفي نهاية المطاف، نقرأ مع الشاعر المسيحي (بولس سلامة):

يـا سماءُ إخشـعي ويـا أَرضُ قـرّي   وأخْـضَعي إنّـني ذَكـرْتُ عـليّاً

والحمد لله ربّ العالمين

ملحق الأسئلة

أجوبة سماحة آية الله العظمى السيد

محمد حسين فضل الله (دام ظله)

على

الاسئلة التي تتعلق بالإمام علي عليه السلام

س: هل تتوقف ولاية المعصوم وإمامته على قناعة الناس بها أم أنها تتجاوز ذلك؟

ج: لو كانت المسألة تحتاج الى انتخابات لما نجح النبي عليه السلام في نبوته في أول عهد الدعوة الإسلامية، لأنه لم تكن له في ذلك الوقت الشعبية الكافية بل لقد رفضه أكثر الناس، فإذا كان المعنى أنَّ المعصوم ـ نبياً أو غير نبي ـ لا يصل الى مقامه إلاّ بقناعة الناس لما وصل إليها أحد.

فالمسألة هنا هي أنّ الله سبحانه هو الذي يصطفي ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ﴾[1]، فهو الذي يصطفي منهم رسلاً ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنْ المَلائِكَةِ رُسُلاً﴾[2].

ولذلك، فإنَّ النبي وولايته ودوره أمرٌ إلهي أراد الله سبحانه وتعالى للناس أن يطيعوه فيه.

س: كيف يمكن إقناع الآخر غير الإمامي بأنَّ آية إكمال الدين وإتمام النعمة دليل قرآني على بيعة النبي صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام؟

ج: إنَّ الآية الكريمة عامة، ولكننا عندما ندرس السُنَّة وكتب التفسير والجدل الذي دار في هذا الموضوع فإننا نستطيع أن نعرف من خلال السيرة النبوية الشريفة ومن خلال الكثير من الأحاديث أنَّ هذه الآية نزلت في يوم الغدير بعد أن بلّغ النبي صلى الله عليه وآله الرسالة.

فالقضية ليست قضية إمامي أو غير إمامي، بل قضيّة علمية لابد أن ننطلق فيها من دراسة النصوص الواردة في هذا الموضوع، ونحاول أن نقارن بين هذه النصوص والنصوص الإخرى التي تعارضها حتىّ نستطيع الوصول إلى نتيجة

١ـ آل عمران: ٣٣. ٢ـ الحج: ٧٥.

إيجابية كأي بحث علمي يراد من خلاله الوصول الى نتيجة حاسمة.

ونحن ندعو دائماً سواء على المستوى الإسلامي أو غير الإسلامي أن لا نبحث القضية من خلال أنَّ الشيعة يريدون أن يؤكدوا موقفهم، بل نبحث القضية كمسلمين يريدون أن يعرفوا ما هو رأي الإسلام في ذلك.

ومن الخطأ جداً أن ندخل الحوار على أساس أن هذا شيعي يريد أن يؤكد موقفه وأن هذا سنيّ يريد أن يؤكد موقفه بالعقلية الذاتية الفئوية، بل علينا أن نفتح عقولنا لله سبحانه وتعالى ونقرأ الآية ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أيها المسلمون وليس أيها الشيعة أو أيها السنة ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾(١) أي من خلال العقلية الإسلامية وفهم الإسلام، وأن نعذر إلى الله سبحانه وتعالى في الموقف الإسلامي، أما أن ندخل كعشائر كلّ يريد أن يؤكد نفسه وذاتيته فهذا خطأ لأنه يوجد عصبية تجعل الإنسان يفكر في الأشياء من دون أساس أو يفرض الأشياء من دون أساس.

وعلينا أن ننطلق بعقلية الباحث عن الحقيقة لا بعقلية الإنسان الذي يريد أن يؤكد رأيه، وقد رأينا كيف أنّ الله علّم رسوله في أسلوب الحوار أن يقول ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٢) فهل كان النبي صلى الله عليه وآله شاكاً في أنه على هدى وأنهم على باطل وهو ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾(٣)، لكن الله تعالى أراد في أسلوب الحوار أن توحي الى خصمك أو إلى الآخر الذي تختلف معه أنك تريد ان تبحث القضية معه كما لو كنت شاكاً، وأن يبحث القضية معك كما لو كان شاكاً، والنتيجة في نهاية المطاف هي أنكما تترافقان في رحلة البحث عن الحقيقة، لا أنك تريد أن تؤكد نفسك ويريد هو ان يؤكد نفسه، لأن العصبية تأتي من خلال هذا.

١ـ النساء: ٩. ٢ـ سبأ: ٢٤. ٣ـ الزمر: ٣٣.

س: هل لديكم (أنتم الشيعة) دليل على إمامة علي عليه السلام غير النصوص، فالبعض يذكر سيرته ونهجه، فهل هذا كافٍ لاثبات الإمامة؟

ج: عندما نتحدث عن الحكم الإسلامي وعن إسلامية أي موقف فمن الطبيعي أن تكون النصوص هي الأساس، فلدينا كتاب الله وسنة ورسوله، والله يقول **﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾**(١)، فليس هناك أي معنى لأن نبحث عن عنوان إسلامي أو خطّ إسلامي بعيداً عن النصوص.

هذا أولاً، وثانياً فإنّ ما ذكرناه مما يُعطي عمقاً للمعنى الذي تمثّله النصوص بحيث لا تكون مجرد نصوص انطلقت من دون واقع يفرضها. ونستحضر في هذا المجال كلمة (الخليل بن أحمد الفراهيدي) مخترع علم العروض وصاحب أول قاموس لغوي وهو (العين) عندما قيل له: لِمَ قدّمت علياً؟ قال: «**إحتياج الكل إليه واستغناؤه عن الكل دليل أنه إمام الكل**».

س: ماهو السرّ في الانجذاب السحري نحو شخصية الإمام علي عليه السلام عند بعض الناس، وما السرّ في البغض والنصب عن البعض الآخر لنفس الشخصية المقدسة لأمير المؤمنين عليه السلام؟

ج: أما كيف ينجذب الناس إيجاباً لعلي عليه السلام فلأنك لا تملك أمامَ علي إلاّ أن تنجذب إليه، لأنك لاتجد في عقله ولا في قلبه ولا في حياته إلاّ الإسلام والحق والعدل، حتىّ أُثِرَ عنه أنه قال: «**ما ترك لي الحق صديقاً**»(٢).

فأنت لا تستطيع ان تجد في علي عليه السلام نقطة ضعف ـ بغض النظر عن عصمته ـ بل لا تملك إلاّ أن تنحني إجلالاً لمواقفه، فإنه عندما ينظر الى نعله الذي يخصفه بيده يخاطب ابن عباس قائلاً: «**وَاللّهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلاَّ أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ**

١ـ الحشر: ٧. ٢ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٣، باب ٤٣، ص ٥٨.

أَدْفَعَ بَاطِلاً»[١]

وكان يقول: «لَوْ لاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[٢].

فكيف لا ننجذب لعلي الذي كان يقول بشأن كلّ الجدل الذي ثار حول الخلافة، وهو الذي يعتقد كما نعتقد أنه أحق بالخلافة، قال: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي وَوَاللَّهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً الْتِمَاساً لأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ»[٣]. فعندما تسمع علياً يقول: «يَا دُنْيَا إِلَيْكِ عَنِّي أَبِي تَعَرَّضْتِ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ لاَ حَانَ حِينُكِ هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي لاَ حَاجَةَ لِي فِيكِ قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاَثاً»[٤] ألاترى فيه إنساناً خرج من الدنيا بالمعنى المادي لها، بعقله وقلبه وروحه وحياته، وعند ذاك كيف لا تحبه؟

فأنت لا يمكن أن تحب علياًعليه السلام وأن تنجذب إليه وأن تدخل في عمق شخصيته، ما لم تفهمه.

أما الذين يبغضونه وينصبون العداوة له، فهم كمن يبغض الزهور ويحب الشوك، وكمن يبغض العطر ويحب النتانة، وكمن يبغض النور ويحب الظلمة، هؤلاء لا يعيشون معنى الإنسانية، لأنك لا يمكن أن تكون إنساناً وتبغض علياً، لا نقولها من موقع عاطفة بل من موقع عقل هادىء بارد يحسب حساب الأشياء بكل دقّة.

س: هل هناك أسباب استدعت إخفاء حديث الغدير؟

١ـ نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام: ص ٣٨، خ ٣٣.

٢ـ ن. م: ص ١٦، خ ٣. ٣ـ ن. م: ص ٦١، خ ٧.

٤ـ ن. م: ص ٣٦٣، قصار الحكم: ٧٧.

ج: كلّ الأسباب والعناصر القلقة التي كانت موجودة في الواقع الإسلامي هي من بين الأسباب التي أوجبت ذلك، فعندما نسمع قول الخليفة الثاني «**لو وليها علي لحملهم على المحجة البيضاء**». وعندما نسمع أن علياًعليه السلام لا يزال شاباً وأنه قد قتل صناديد قريش، وأن قريشاً لا تقبل بعليعليه السلام وما إلى ذلك، نفهم كيف أُخفي حديث الغدير، وكيف اختلطت الأوراق في هذا الموضوع.

ولعلنا نعرف سرّ إخفاء الغدير ـ عندما ندرس الواقع المعاصر الذي كانت فيه بعض القضايا واضحة كالشمس، ولكنها أُخفيت بطريقة قلقة دخل فيها الكثيرون على الخط.

ولقد فهمت مسألة الغدير، وكيف يمكن أن يتحوّل الحق باطلاً والباطل حقاً عند الكبار والصغار وذلك عندما عرفت أنه ليس هناك من يقرأ جيداً ويسمع جيداً أو يسأل جيداً.

فأنا أفهم سر إخفاء حديث الغدير جيداً، أفهم كيف يمكن أن تنقلب الأمور رأساً على عقب في أمر واضح كوضوح الشمس في رابعة النهار.

س: حديث الغدير هو البداية أم النهاية في سلسلة النصوص التي أكدّت كفاءة الإمام عليعليه السلام وتعيينه كوصي رسول اللهصلى الله عليه وآله؟

ج: كان الغدير النهاية، لأننا نتساءل: ما السبب الذي يدفع النبيصلى الله عليه وآله لان يتحدث عن عليعليه السلام بهذه الطريقة وخاصة في قضايا تمسّ المسؤولية، فلماذا يقول «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**» ونحن نعرف أن الواقع الإسلامي الأساس لابد فيه من كفاءة علمية بحيث يستطيع الإمام أن يعطي الإسلام لكل من يريده، وأن يجيب عن كلّ مسألة وأن يحل كلّ مشكلة ثقافية.

ولماذا يقولصلى الله عليه وآله «**علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار**» لأنَّ الحاكم في الإسلام لابد أن يكون حقاً كله، وعليعليه السلام هو القائل: «**ماترك لي الحق**

من صديق».

ولماذا يقول صلى الله عليه وآله «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي**» ونحن نعرف أن هارون كان وزيراً كما في القرآن ﴿وَٱجْعَلْ لِـي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي* كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً* وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾[1].

لماذا كان يتحدث بهذه الطريقة المعبّرة عن عمق المعرفة بعلي عليه السلام وخصائص علي عليه السلام وكما أكدنا فليست المسألة هي أن النبي صلى الله عليه وآله كان يعبرّ عن عاطفته تجاه علي عليه السلام، ولكنه كان يعبرّ عن مسؤوليته في تعميق الفكرة عن علي عليه السلام فيما يملكه من الخصائص التي تعينه ليقود المسيرة الإسلامية من بعده.

س: كان الشهيد الصدر(رض) يرى أنَّ أهمَّ وأشدَّ الأمراض التي ابتلي بها المسلمون في عصر الإمام علي عليه السلام هو مرض الشك، فلماذا نشأ وكيف نشأ، مع أن الإمام علياً عليه السلام يمثل أكمل مسلم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ؟

ج: يبقى الإنسان إنساناً، يأخذ من الإسلام ومن الإيمان بمقدار مختلف فقد يأخذ الإسلام كله وقد يأخذ ربعه أو نصفه أو ما إلى ذلك، وتنطلق المؤثرات لتؤثر فيه سلباً.

فالشك كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله حيث وقف (العباس بن مرداس) في (غزوة حنين) ورسول الله صلى الله عليه وآله يقسّم الغنائم بين المقاتلين، وكانت له حكمته في ذلك، فوقف العباس بن مرداس وهو يرى أنه يستحق أكثر من ذلك (قال: «**أعدِل**» **فقال: ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل**»؟[2].

وهكذا كنا نجد أنَّ المنافقين من خلال طبيعة التعقيدات الموجودة في الواقع الإسلامي كانوا يشكّون. وقد رأينا في أواخر حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعد رسول

١ـ سورة طه: ٢٩ ـ ٣٤.

٢ـ البحار المجلسي: ج ٣٣، باب ٢٢، ص ٣٢٦، رواية ٥٧٢.

الله ﷺ كيف انطلق الكثير من الناس في تعقيد الأمور بنحو زرعوا من خلاله الشك. فلقد كان حديث (الغدير) أوضح الكلمات، ولكن رأينا كيف انطلقت كلمات تثير الهواجس من هنا وشكوكاً من هنا، وتبعد المسألة من مدلولها هناك، حتى رأى النبي ﷺ انَّ الناس تبتعد عما بيّنه بوضوح لأنَّ الناس بدأوا يتحدّثون عنه بطريقة تبتعد عن الوضوح.

ولذلك قال: «أئتوني بدواة وكتف أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»[1] ومع ذلك قال بعض الناس: (إنَّ النبي ليهجر) حتىّ بذر الشك فيما يكتبه النبي ﷺ وهذا ماقاله النبي ﷺ عندما قيل بعد ذلك، كما تنقل الرواية: هل نأتيك بالدواة والكتف، قال: أو بَعدَ الذي قلتم؟ فيأتي شخص ليقول ان النبي ﷺ كان غائباً عن الوعي وكان يهجر.

وهكذا عاش المسلمون مشاكل كثيرة وتعقيدات حجبت وضوح الحقيقة عندهم، وهذا ما جعل الشك يثور في عهد علي عليه السلام أقوى مما ثار في عهد الرسول ﷺ فليست مسألة أن يشك إنسان أو لا يشك من خلال طبيعة الشخص الذي يعيش معه، ولكن من خلال التعقيدات الاجتماعية التي تخلط الأوراق وتبعد القضية عن وضوحها، وهذا ما نلاحظه في كثير من الأوضاع والأحكام والشكوك التي قد تثار حول الكثير من رجال الطليعة الإسلامية من خلال حقد هنا وحسد هناك ومخابرات هنا وما إلى ذلك، مما يفقد الحق معه وضوحه فيخيل للناس أنَّ الحق باطل وأنَّ الباطل حق، ويحاربون الحق باسم محاربتهم للباطل، ويدعمون الباطل باسم دعمهم للحق، وكم لهذه القضية من شواهد في عصرنا الحاضر؟

س: تستدلون على الإمامة الشرعية والسياسية بحديث الغدير الذي قاله رسول الله ﷺ هذا إذا كان قد صدر عن الرسول، وهذا الحديث على تقدير

١ـ المصدر نفسه: ج ١٦، باب ٦، ص ١٣٥، رواية ٧٥.

صحته لا يعطي هذا المعنى البعيد الذي تذهبون إليه؟

ج: حديث الغدير هو حديث مستفيض، بل متواتر عند السنة والشيعة، وإذا كان الشخص يناقش بالدلالة فالدلالة واضحة، لأن النبيﷺ رجع من حجة الوداع وكان معه مسلمون حتىّ وصلوا مفترق الطرق فجمع الناس في وقت الظهر ورفع يدّ علي عالياً حتىّ بان بياض ابطيهما للناس ثمّ قال: «**ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟** قالوا «**اللّهم بلى**» قال «**اللّهم اشهد**» ثمّ قال: «**من كنت مولاه فهذا علي مولاه**» هنا يقول بعض الناس من كنت محبَّه فعلي محبه لأن المولى يطلق على المحب ويطلق على الناس ويطلق على ولي الأمر.

وتعليقاً على ذلك نقول: أولاً عندما ندرس طبيعة الحادثة وكيف جمع النبيﷺ الناس في ذلك الوقت القائظ، هل لمجرد أن يقول لهم إنَّ الذي أحبه أنا يحبه علي أيضاً، إن هذا لا معنى له من خلال طبيعة الموضوع ثمّ ان قوله «**ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم**» يعطي معنى الولاية والحاكمية بقرينة تحديد كلمة المولى في أن المراد بها الأولى بالمؤمنين من أنفسهم يعني الولي، وهذا مايُستدَّل به على الإمامة من حديث الغدير.

س: أي ظهور هذا الذي تحدثتم عنه مع صراحة موقف الرسولﷺ من عليعليه السلام حيث نصب له خيمة ليسلّم عليه المسلمون بإمرة المؤمنين بعد نزول القرآن بشأنه، ألم يكن هناك وضوح قبل حديث الدواة والكتف؟

ج: لقد قلنا بأن هناك فرقاً بين وضوح الظهور، ونحن نعرف كيف تأوّل الكثيرون من الناس كلمة المولى وكيف تأوّلوا الموقف، فنحن لا نقول ان ما تأولوه حق فإن كلام رسول اللهﷺ وفعله ظاهر، ولكن عندما أراد أن يكتب الكتاب في هذا وفي غيره أراد أن لا يفسح المجال حتىّ للاحتمال بنسبة عشرة بالمائة.

ونحن نقول بأن الظهور صراحة، ولكن النصّ الذي لا يحتمل التأويل هو أكثر

صراحة. فنحن نقرأ بالنسبة الى إبراهيمعليه السلام في طبيعة الوضوح ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾(١)، فهناك ما هو أكثر وضوحاً وهو الشيء الذي يرتبط بالحسّ وإن كان العقل قريباً من الحسّ.

س: إن تواتر الأخبار عن يوم الغدير يقطع الشك ويعطي اليقين بهذا العيد الإسلامي الكبير، ولكن يتحدث البعض عن عدم استخدام الإمام هذا الحدث في المطالبة بحقه في الخلافة بشكل واضح فما هو رأيكم؟

ج: يقول عليعليه السلام «أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلاَنٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ»(٢) مما تبيّن أنه تحدث عن ذلك بطريقة الرمز، هذا من جانب. ومن جانب آخر ينقل التاريخ الموثق أن علياًعليه السلام دعا الصحابة الذي سمعوا حديث رسول اللهصلى الله عليه وآله في يوم الغدير أن يشهدوا له وشهد الكثيرون بذلك وكان أحد الصحابة قد تلجلج أو لم يشهد فأدركه البرص وكان يقول أدركتني دعوة العبد الصالح، لأنّ الإمام دعا على من يمتنع عن الشهادة أن يُصاب بالبرص، فلقد تحدث الإمام في أكثر من موقع بطريق الرمز تارة وبطريق الإشارة تارة وبطريق الصراحة تارة أخرى، لأنه كان يواجه القضايا بالحكمة وبما فيه المصلحة للإسلام والمسلمين.

س: البعض يرى أن بيعة الغدير انتهت عندما بايع عليعليه السلام الخليفة الأول، ومن هنا يرون عدم وجود ضرورة حتىّ لإحياء هذه المناسبة نظراً لانتفاء الموضوع؟

ج: عندما ندرس الإمام علياًعليه السلام في الخطبة الشقشقية نجد أنه ـ حتىّ مرحلة حكمه ـ يرى أنّ حقه هو الحقّ، وأنّ الظروف التي أحاطت به لم تجعله يتراجع عن

١ـ البقرة: ٢٦٠. ٢ـ نهج البلاغة: خ ٣.

حقّه، لأنَّ مثل هذه القضية التي كانت الولاية فيها من الله بتنفيذ من الرسولصلى الله عليه وآله حريٌّ أن لا يتنازل عنها، إذ لا معنى للتنازل.

وكما قلنا ونحن نستحضر هذه الذكرى لنأخذ منها القيمة، وهي أنَّ الذي يلي أمور المسلمين لابّد أن يكون تجسيداً للإسلام. إنَّها مسألة الاختيار الأفضل، والقصة هي قصة خطّ عليّ الفكري والمنهجي والروحي والجهادي وهو معنى حركتنا في خط الولاية.

س: لقد ورد في حديث الغدير أنَّ رسول اللهصلى الله عليه وآله قد حشد الآلاف من المسلمين عندما ولّى علياً، والسؤال أين كان هذا الحشد بعد وفاة رسول الله من المبايعة لعلي؟

ج: لقد أُحيط الواقع الذي أعقب واقعة الغدير بأسلوب نفسي جعل الجميع يغفلون عن القضية تماماً، وإذا كان البعض يتحدّث عن المسألة وكيف جرت الرياح بهذا الإتجاه، فإنَّ عندنا في الواقع الذي عشناه في تأريخنا في بيعة الناس للحسينعليه السلام مثلاً آخر، فلقد كانت قلوبهم معه وسيوفهم عليه، كما نجد في تاريخنا المعاصر القيادة التي التفّ حولها المسلمون كيف لم تجد ناصراً واحداً أو صوتاً واحداً عندما اضطهدت بطريقة وبأخرى؟!

س: تحدث أحد الخطباء عن الفتنة التي حدثت في خلافة الإمام عليعليه السلام فقال إنه رجل فقيه وشجاع وذو علم ولكن تنقصه السياسة، ولذلك قامت الحروب في زمنه، فهل هذا صحيح؟

ج: إنَّ بعض الناس لا يفهم السياسة جيداً ولا يفهم الرسالة بعمق: أولاً قد لا يكون الإمام عليعليه السلام سياسياً بمعنى السياسي الذي يحافظ على حكمه، وأن يتشبّث بالحكم كيفما كان، كمثل من يريد أن يصبح حاكماً ولو بالتعامل مع

الشيطان ومع الأمريكان ومع القوة الصهيونية. وتراه ـ إذا حكم ـ يظلم الناس ويفسد في الأرض ويعمل كلّ شيء حتىّ يبقى في الحكم. في حين أنَّ عظمة الإمام عليعليه السلام هي أنه اعتبر انَّ دوره هو أن يعطي للرسالة واقعيتها، وأن يثبت أن هناك حاكماً يريد أن يطبّق الإسلام حتىّ لو كان ذلك على حساب بقائه في الحكم كما كان يقول: «قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لاَ حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ»[١].

وكان يقول ردّاً على من كان يقول في ذلك الوقت إنَّ معاوية أدهى من علي «وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ وَلَوْ لاَ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ»[٢]. فالإمام عليعليه السلام يريد للسياسية أن تتحرّك من أجل ان تعمّق للناس القضايا الكبرى، ولا يريد للسياسة أن تتحرّك من أجل أن تزوّر روحيّة الناس، وأن تقودهم الى أن يجعلوا السياسة لعبة للذات ولمصلحة الذات. فالإمام كان يقول «وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لأَنْفُسِكُمْ»[٣]. ولعلكم سمعتم مني أكثر من مرة أسأل لماذا الخلافة لعلي؟ نحن نعتقد أن الخلافة لعليعليه السلام لأنه هو المسلم الوحيد الذي عاش الإسلام كله وعرف الإسلام كله وانفتح على روحانية الإسلام كلها وعاش مع النبيصلى الله عليه وآله الذي لم يستطع بفعل الحروب والأوضاع والمشاكل أن يكمل مشروعه في تركيز القيم الإسلامية في نفوس الناس، فكان يحتاج الى شخص هو نفس رسول اللهصلى الله عليه وآله وبأمرٍ من الله لإكمال الشوط، وليس هناك إلاّ عليعليه السلام ولذلك كانت الخلافة هي الحق الطبيعي لعليعليه السلام بشكل طبيعي.

وكان دورهعليه السلام هو أن يحمي الإسلام، وهذا هو الذي يفسّر أنه تعاون مع

١ـ المجلسي، البحار: ج ٧٥، ب ٧٢، ج ١١، ص ٢٧٨.

٢ـ نفسه: ج ٣٣، ب ١٧، ر ٤٨٣، ص ١٩٧.

٣ـ نفسه: ج ٣٢، ب ١، ر ١٩، ص ٣٣.

الخلفاء الذين سبقوه مع أنهم أبعدوه عن حقه، ويعتبر نفسه مسؤولاً خارج الخلافة وداخلها، فدور الإمامة هنا هو دور النبوة بدون نبوة «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي**»[1]. فدور الإمام علي عليه السلام هو أن يؤكد الحّق ويعطي الناس فكرة عن الحكم الإسلامي وكيف يؤصّل القيم الإسلامية في تجربته على حساب الكثير من السلبيّات التي تجندّت ضدّ مشروعه.

س: ينقل عنكم أنكم ذكرتم في مقابلة صحفية مع جريدة (الحياة) أن ولاية علي عليه السلام لا تصل الى حدّ القطع؟

ج: يكذبون في ذلك، فنحن نقول إنَّه ثبت لدينا بالقطع انَّ النبي صلى الله عليه وآله ولّى علياً عليه السلام بنصّ من الله سبحانه وتعالى في يوم الغدير وفي غير يوم الغدير. ولكننا كنّا نتحدث عن أن هذه المسألة هي من المسائل النظرية التي هي محل خلاف بين السنة والشيعة، فالشيعة يقطعون بذلك والسنة لا يقطعون بها، ولذلك وُضعت موضع الجدل. وثمة فرق بين من يقول إنَّها من القضايا البديهية التي لا يمكن لأحد أن يناقش فيها وبين من يقول إنَّها من القضايا النظرية. فكل العلماء يقولون إنّها من القضايا النظرية التي لابد من تقديم البرهان عليها من قبل علمائنا وأن يقدّم علماء السنة البرهان النافي والسلبي لها. أما الشيعة فإنهم يقطعون بذلك.

س: ماهو دور الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الـ(٢٥) سنة من معاصرة الخلفاء؟

ج: كان دوره أعظم دور، لأنَّ الامام يعتبر نفسه أنه أمير المؤمنين خارج الخلافة كما هو أمير المؤمنين داخل الخلافة، وأنه مسؤول عن الإسلام كله سواء كان هو على رأس المسؤولية أو لم يكن.

١ـ المجلسي، البحار: ج ٥، ب ١، ر ١، ص ٦٩.

ولذلك وقف الإمام علي عليه السلام مع الذين أبعدوه عن الخلافة وغصبوا حقه، وقف أمامهم ليعطيهم المشورة كلّها والنصيحة كلّها وليحلّ لهم المشاكل التي تواجههم من دون أية عقدة، لأنّ الفرق بين الإمام علي عليه السلام وبين الآخرين هو أنّ علياً كان إسلامياً كله وكانت مسئوليته عن الإسلام كمسؤوليته الرسول صلى الله عليه وآله من دون نبوّة ولذلك قال «وَوَاللَّهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إلاّ عَلَيَّ خَاصَّةً». ولهذا نجد أنه نصح كلّ الخلفاء الذين تقدّموه في سيرته. ويُنقل أنه دافع عن عثمان وأرسل ولديه للدفاع عنه، وليس معنى ذلك أنه ترك أو تنازل عن حقه ولكنه كان يراعي مصلحة الإسلام العليا. وعلينا أن نتعلم من علي عليه السلام سعة الأفق بحيث نفكّر بالإسلام وبرحابة الصدر واستقامة الخط، لأنّ علياً علّمنا ذلك قبل خلافته وبعد خلافته.

س: ماهي الأسباب التي دعت علياً عليه السلام الى نقل مقرّ الخلافة الى الكوفة رغم ما للمدينة في نفس الإمام من مكانة؟

ج: باعتبار أن الإمام عليه السلام عندما رجع من البصرة رأى أن الظروف المحيطة به تدعو الى اختيار الكوفة ليحقق سيطرة أكبر على الواقع في عمل الخلافة.

س: تقول نظرية الشيعة في الإمامة: إن الإمامة هي تكليف من الله عزّ وجل باعتبارها امتداداً للنبوة. إذن كيف ترك الإمام علي عليه السلام حقه في الخلافة في الوقت الذي لا يسمح للنبي ترك دعوته، أليسَ هذا مثل ذاك؟

ج: إنّ الإمام عليه السلام لم يلغ حقه ولم يتنازل عنه. ولكنه جمّد المطالبة به لأنه لم يكن هناك من خلال طبيعة الأعوان والأنصار فرصة لأن يأخذ حقّه، ولذلك جمّد الإمام حقّه على هذا الأساس، وهو يبين السبب في ذلك عندما يقول «**حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلاَمِ يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دَيْنِ مُحَمَّدٍ** صلى الله عليه وآله **فَخَشِيتُ إِنْ**

لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلاَمَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلاَيَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلاَئِلَ» فحتى الأنبياءعليهم السلام عندما يواجهون التحديات والصعوبات التي تمنعهم من أداء التكليف يقفون ـ لا اختياراً ـ بل لأن الظروف لم تسمح لهم بذلك.

س: هل يعتبر (حديث الغدير) نصّاً من السماء أو هو مجرد إعداد وترشيح كان على المسلمين إمضاؤه؟

ج: لا ليس ترشيحاً بل هو تعيين ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[1]. ففي القضية جانب إلزامي وتعيين. ثمّ قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[2]. فالإمام عليعليه السلام متعيّن في نفسه ومن قبل الله تعالى ومن قبل رسول اللهصلى الله عليه وآله ومن قبل الحق والحقيقة، صلوات الله وسلامه عليه ورزقنا الله ولايته وشفاعته.

س: من أسباب إنكار بعض الباحثين لكون (نهج البلاغة) من كلمات الإمام عليعليه السلام هو هذا العلم الجم في مختلف المجالات سواء في العلوم أم في المعنويات، حيث يقول هذا البعض إن هذا العلم لم يجمعه أي صحابي فكيف جمعه الإمام عليعليه السلام ويعتبرون ذلك دليلاً على أن (نهج البلاغة) وضع في فترة متأخرة عن عصر الإمام؟

ج: إنَّ الذين يتحدّثون بهذه الطريقة لا يفهمون علياً لأنهم يتحدّثون عن عليعليه السلام كما يتحدّثون عن أي صحابي وعليّ ليس كذلك، لأن علياًعليه السلام كان رسولَ اللهصلى الله عليه وآله في علمه، وقد ورد الحديث عن رسول اللهصلى الله عليه وآله «أنا مدينة

١ـ المائدة: ٦٧. ٢ـ المائدة: ٣.

العلم وعلي بابها» وقد حدّثنا عن هذا العلم في كلمته المشهورة «**علمني رسول الله ألف باب من العلم**» وكلمة ألف باب لاتعني ألف حكم بل ألف باب من العلم، والباب يمثّل المنطقة التي تشتمل على خطوط العلم الواسعة في هذا المجال «**علّمني رسول الله ألف باب من العلم يُفتح لي من كلّ باب ألف باب**» إنَّ الإمام لم يكن يتلقى العلم فحسب، بل كان يُنتجه عندما كان يتعلّم من رسول الله ﷺ كلّ ما أعطاه، فإنه كان يُنتج من ذلك علماً جديداً «**يفتح لي من كلّ باب ألف باب**» ونحن نعرف أنَّ علياً كان تلميذ القرآن كما هو تلميذ رسول الله ﷺ، وقد وعى القرآنَ في نزوله كما لم يعه أحد إلاّ رسول الله ﷺ الذي قال له: «**إنك ترى ما أرى وتسمع ما أسمع ولكنك لستَ بنبي**» وكان مع رسول الله ﷺ ليله ونهاره، وكان يقول «**أنا أعرف كلّ آية أين نزلت وفيمن نزلت**» وما الى ذلك.

فنحن نعرف انَّ القرآن الكريم يمثّل الكتاب الذي لا يزال الناس، مع كلّ هذه القرون، ينفتحون عليه ويستلهمونه ويستوحونه ويفهمونه كما لو كان كتاباً نزل الآن، فهو يتجدد ويجري مجرى الليل والنهار والشمس والقمر، فكل جيل من الأجيال يرى أنَّ القرآن يتحدّث عن قضاياه كلها، كما لو كان نزل عليه، وكان يقول في أواخر أيامه «**سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ**» وعلي عليه السلام هو الذي قال، وهو يتحدث عن معرفته بالله «**لو كشف لي الغطاء ما ازددتُ يقيناً**» فعلي عليه السلام شيء آخر غير هؤلاء الناس مع احترامنا لكل الناس، وهو بشر وليس بنبي «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي**» ولكن رسول الله ﷺ أعطاه كلَّه، ونحن نعرف أن رسول الله ﷺ عاش الغيب والقرآن وكل ألطاف الله من وحي الله. هذا عندما نتحدث عن علي عليه السلام في الحالة الطبيعية، وأما عن الفيوضات التي أفاضها الله على علي عليه السلام فهناك آفاق وامتدادات أخرى لا يعرفها الناس. لذلك أن يتحدث علي عليه السلام عن المستقبل وعمّا لا يألفه الناس من المعنويات ومن القضايا الأخرى، فهذا أمر لا غرابة فيه

لأن الناس كانوا لا يعرفون الكثير، وفيما قاله علي عليه السلام نرى أنَّه يعرف الجمّ الكثير، حتىّ أن بعض المفسرين لنهج البلاغة يتحدثون عن أن علياً خطّط لكثير من العلوم والخطوط التي تحرّك الناس فيها بعد ذلك.

س: تحاورت مع أخ لي حول موضوع خلافة الإمام علي عليه السلام من بعده، وقال لي إن كلّ ما ورد في خلافة علي عليه السلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله غير صحيح لأنه يناقض القرآن، فالقرآن يقول ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ وهناك أشياء قالها الرسول في حياته وذكر أنها ستتحقق في المستقبل وقد تحققت فعلاً بعد وفاته، لكن خلافة الإمام علي بعد الرسول لم تتحقق مما يدل على ان الرسول لم يقل شيئاً من هذا القبيل فلو قاله لتحقق؟

ج: هذا الرجل لا يفهم المسألة كما ينبغي، لأن أكثر ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله في حق علي عليه السلام متواتر بين السنة والشيعة (وحديث الغدير) أيضاً تواتر عن السنة والشيعة من خلال من رواه من الصحابة والتابعين، لكنّ هناك نقاشاً في دلالته من قبل أهل السنة وليس في أصل صدوره، فهو صدر يقيناً في كلمات النبي صلى الله عليه وآله لا سيما في يوم الغدير. أما قوله ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ فهو يؤكد على أن النبي صلى الله عليه وآله نطق بخلافة علي عليه السلام من جهة التكليف الإلهي لا من جهة أنه ابن عمه. أما انّه تحقق أو لم ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] فلم يتحقّق الإسلام كله ولم يؤمن كل الناس بالنبي صلى الله عليه وآله هذا فضلاً عن ان النبي صلى الله عليه وآله لم يطرح الروايات في حق الإمام علي عليه السلام على نحو النبوءات لنقول إنها تحققت أم لم تتحقق، بل كان يثبت حقاً لصاحب حق ومن موقع الأهلية والكفاءة والأرجحية، فعلى صاحبك أن يعيد النظر في ثقافته وفهمه للأشياء.

١ـ الكهف: ٢٩.

س: يحاول بعض الباحثين فهم النصوص الواردة حول إمامة علي عليه السلام بأنها لا تعني الإمامة السياسية وإنما تعني الإمامة الفكرية، فما هو تعليقكم على ذلك؟

ج: إنَّ الإمامة الفكرية تعني أن الإمام علي عليه السلام هو مجرد مفكر، ومجرّد عالم، في الوقت الذي نعرف انَّ إمامته إمامة سياسية، والدليل على ذلك هو (حديث الغدير) الذي بدأه رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله «**ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم**» وهذه الكلمة هي دليل حاكمية النبي صلى الله عليه وآله فبا عتباره أولى بالمؤمنين من أنفسهم فإنه يستطيع أنْ يتصرّف في أنفسهم بما لا يملكونه هم.

فهذا دليل على انَّ للنبي في قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[1]، شخصية الداعية وشخصية الرسول وشخصية المبشّر ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً* وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾[2] الشخصية السياسية للنبي صلى الله عليه وآله والتي تتجلى في قوله تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[3] في كلّ المجالات ولذلك قال صلى الله عليه وآله أولست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا «**اللّهم اشهد**» ثمّ قال «**من كنت مولاه**» أي من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه «**اللّهم والِ من والاه**» وهذه الكلمات وردت في روايات نقلها الخاصة والعامة ومن طرق عديدة كثيرة. وللآخرين أن يناقشوا في ذلك لكنّ هذا هو ما نعتقده، ولقد جاء في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[4] حيث جاء التفسير أنها منطلقة من ولاية علي عليه السلام وبعد أن عيّن النبي صلى الله عليه وآله علياً إماماً من الله نزلت الآية الكريمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[5].

١ـ الغاشية: ٢١. ٢ـ الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦. ٣ـ الجمعة: ٢.
٤ـ المائدة: ٦٧. ٥ـ المائدة: ٣.

إذاً فالإمامة التي نعتقد بها هي إمامة فكرية وروحية وسياسية وفي كلّ المجالات، لأنَّ عصمتهعليه السلام تعني أنَّ فكره حق، وأن حكمه هو الحق وهو القائل «ما ترك لي الحق من صديق» وقال فيه النبيصلى الله عليه وآله: «علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار».

س: هل أن تعيين الإمام عليعليه السلام للخلافة من قبل النبي في (غدير خم) كان أمراً متغيراً أو ثابتاً، أي هل أن تعيين الإمام قام على أمر ثابت أو كان يمكن أن تكون الخلافة لأي شخص آخر كأمر متغير؟

ج: عندما يثبت لدينا أنَّ علياًعليه السلام نصبه النبيصلى الله عليه وآله بأمر من الله في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو أمر ثابت فليس هناك أي متغير، لأن القضية ليست قضية اختيار النبيصلى الله عليه وآله فهي بحسب ما عندنا من أدلة اختيار الله له. وليس ذلك إلاّ من جهة أن الله قد رأى الكفاءة لذلك، وأراد للنبي أنّ يؤكدّ ذلك. فالمسألة هي من المسائل الثابتة بحسب طبيعتها وفي الدليل عليها. لكن المسلمين عندما اختلفوا في ذلك أصبحت المسألة مثار جدل. ولكنها عندنا ثابتة بثبات الحق.

س: من المعروف ان النبيصلى الله عليه وآله لا يقرأ ولا يكتب، والمعروف كذلك أنَّ الإمام عليعليه السلام تربّى ونشأ في حجر النبي فكيف نرى الإمام علي يقرأ ويكتب والنبي لا يكتب، فعند من تعلّم عليعليه السلام ؟

ج: بالنسبة الى النبيصلى الله عليه وآله فإن عظمته في أنه جاء برسالة أعجز بها كلّ القارئين والكاتبين ولم يكن يقرأ، وقال له الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو

مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لارْتَابَ المُبْطِلُونَ ﴾[١].

ولذلك فمعجزة النبي ﷺ أنه جاء بالشريعة الشاملة التي تشمل على عمق الفكر وعلى امتداد الرسالة، وعلى تنوّع التشريعات وما الى ذلك، وهو لا يقرأ ولا يكتب كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلا الإيمَانُ﴾[٢]. فهو الذي علمّك ما لم تكن تعلم.

أما الإمام علي عليه السلام فالنبي ﷺ هو استاذه ولم يُنقل أنَّ علياً تعلّم القراءة والكتابة عند أحد، أما كيف تعلّمها فالله أعلم، والله يمكن أن يهب علياً ذلك «علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كلّ باب ألف باب»فالنبي هو «مدينة العلم وعلي بابها» فصاحب المدينة هو رسول الله وعلي واقف على الباب يعطي لمن يريد الدخول الى المدينة.

س: في إطار علم علي عليه السلام نرى أنّه تحرّك في خطين طرح علماً لعامة الناس وأُولي الخاصة من أصحابه كـ(عمار) و (أبي ذر) و (كميل) وغيرهم آخر، حول النقطة الثانية ما هي توجيهاتكم حول التربية الخاصة؟

ج: من الطبيعي بأن كلّ عالم يعطي بحسب ما يحتاج الجوّ العام في خطوطه العامة وفي الخطوط التفصيلية التي يتحملها المستوى الثقافي العام للناس، وهناك أشخاص بلغوا مستوى جيداً من العلم والثقافة، فلا بدّ أن يكون عطاؤه لهم أكثر، وأعمق وأدق من عطائه لأولئك، كمعلم الثانوية الذيُ يعطي غير ما يعطيه معلم جامعة وهذا شيء طبيعي، لأنّ هؤلاء لهم مستوى وأولئك لهم مستوى آخر.

س: لقد سمعت بعض الخطباء يقولون (لولا علي لما خُلق رسول الله) أليسَ هذا كفراً؟

١ـ العنكبوت: ٤٨. ٢ـ الشورى: ٥٢.

ج: هذا كلام غير مفهوم، عليٌعليه السلام كما نعلم هو تلميذ رسول الله، وعليٌعليه السلام تربية رسول الله، وهو سيد ولد آدم بما فيهم عليعليه السلام، لذلك فبعض الناس يغالون في أحاديثهم، وعليٌعليه السلام يرفض ذلك كله، اقرأوا (نهج البلاغة) وسوف تعرفون كيف يعظّم علي رسول الله، اقرأوا كيف كان علي يتحدّث عن شجاعة رسول الله «**كنّا إذا اشتدّ البأس لذنا برسول الله ولم يكن أحد أقرب من العدو منه**»مشكلة الكثيرين أنهم لا يعرفون عظمة رسول الله.

إنَّ رسول اللهصلى الله عليه وآله هو الأصل وهو القاعدة وهو المنطلق وهو الأستاذ وهو المربي، ومن عظمته أنه ربّى علياً فكانت شخصيته من صنع رسول الله، وكل ما عند عليّ من روح ومن فكر وعلم هو من رسول الله «**علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كلّ باب ألف باب**» «**كان يضمني الى صدره ويشمني عرفه، وكان يلي إليّ في كلّ يوم من علمه خلقاً**» وما الى ذلك.

س: يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.ويقال في تفسير هذه الآية أنَّها تهديد لرسول الله من ربه لكي يبلّغ الناس أن الإمام علياًعليه السلام هو الخليفة من بعده، ولربما يسمع انسان هذا التفسير فتحدّثه نفسه أنّ الرسول قد أمر بهذا التبليغ من قبل، ولكنه هو نفسه قد سكت عن هذا التبليغ وهذا ينافي قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى﴾؟

ج: هذا ليس تهديداً، ولكنّ الله أراد أن يبيّن بأنَّ هذه المسألة تبلغ من الأهمية بحيث أنها لو لم تحصل لسقطت الرسالة، لأنَّ عملية القيادة مرتبطة بحركة الرسالة بالاتجاه الصحيح. فهي ليست خطاباً موجّهاً الى النبي بمعنى أنه لم يبلّغ الرسالة، بل إنَّ الله يريد أنْ يقول له بلّغ ما أنزل إليك من ربك في هذه المسألة التي تمثّل العنصر الحيويّ الأساس الذي لولاه لضاعت الرسالة، لأنَّ الرسالة تحتاج الى من يتعّقبها ويرعاها في هذا الاتجاه.

س: الاستدلال بحديث الغدير على ولاية ابن أبي طالب عليه السلام يتوقّف على صحّة الحديث سنداً والاجماع عليه، فهل يتفق أهل السنّة على ذلك؟ وهل هناك تشكيك من أحد في سنده؟

ج: عندما ندرس كتب الحديث فإنّنا نجد أنّ هناك إجماعاً من الشيعة وشهرة لدى السنّة حول حديث الغدير، بل إنّ بعضهم قد يعدّه متواتراً، لهذا فانّ سند حديث الغدير ثابت لا شكّ فيه. وإذا كان هناك بعض المناقشة فهو في بعض الكلمات مثل «**اللّهم اخذل من خذله وانصر من نصره**». حيث يقول بها بعض الرواة فيما يصحّحها رواة آخرون. ومن المضحك المبكي أنّ كثيراً من الناس ينسبون إليّ أنّني أشكّك في سند الغدير لانهم قرأوا بعض كلماتي في كتاب (الندوة) بأحقادهم ولم يقرأوابتقواهم، فلقد كنت أقول إنّ السنّة لم يشكّكوا في السند، وينبغي أن ندرس ذلك أيضاً، وكنت أقصد في ذلك هو هذا السؤال الذي وجّه إليّ في ندوتكم هذه، إذ كان السائل يتساءل: كيف تقولون إن هناك ١٢٠ ألف شخص شهدوا الغدير ثمّ أصبحوا أربعة أو خمسة، فقلت إنّ حديث الغدير لا إشكال فيه وينبغي أن تدرس هذه الشبهة، إذ كيف أصبح الـ(١٢٠) أربعة أو خمسة، ولكنهم أرجعوا اسم الاشارة الى السند، ولم يرجعوه إلى موضوع البحث، ولم يقرأوا نفس الكتاب حتىّ أنّ بعض الكبار من العلماء الذين قدّمت اليهم الأسئلة لم يكلّفوا أنفسهم بان يقرأوا الكتاب أو يسألوني في هذا المقام، وإنما اطلقوا فتواهم الضالة المضلّة انطلاقاً من عدم التثّبت. أليس هذا من المضحك المبكي؟! ومهما يكن من أمر فإنّ الغدير لم يختلف في مشهور رجال الحديث من المسلمين.

س: في أحد كتبكم ذكرتم أن الإمام علياً عليه السلام هو شخص مثلنا، وهو يمكن أن يخطيء، فماذا تريدون بذلك؟

ج: لم أقل ذلك، ولكنني ذكرت أن الإمامعليه السلام قال في بعض خطبه: «**فلا تكفّوا عن مشورة بحق أو مقالة بعدل، فإني لست بفوق أن أخطيء الا أن يكفي الله مني ذلك**»[١]. وهذا وارد في (نهج البلاغة). وقلت معقّباً على قولهعليه السلام: وهو فوق أن يخطيء لأنه معصوم كما نعتقد، ولكنّه أراد أن يشجّع الناس على أن يتابعوا تجربته في الحكم، وهي التجربة التي لا خطأ فيها، حتىّ يتعلّموا نقد مَنْ يأتي من بعده ممن لا يكون معصوماً. والاّ فنحن نعتقد أن علي بن ابي طالبعليه السلام معصوماً بكلّه.

س: قلتم إنّ الذين يلتزمون علياًعليه السلام في خط الولاية لم يتعلّموا من عليعليه السلام؟

ج: كنت أتحدث عن الذين ينبغي أن يتعلّموا من عليعليه السلام في حجم الآفاق التي كان يعيشها عليعليه السلام ولم يتعلّموا ذلك منه، لأن المشكلة هي أنّك ترى الآفاق الضيقّة التي يعيشها بعض الناس الذين يتحرّكون من خلال العصبيات والعقد النفسية والاجتماعية وما الى ذلك. في حين أنّ علي بن ابي طالبعليه السلام كان يناقش الذين كانوا يتحدّثون بالضلال الواقعي. فلقد ناقش الخوارج وناقش طلحة والزبير. فالإمامعليه السلام عندما كان يختلف مع أحد بفكرةٍ ما، وكان يعرف أن الفكرة باطلة، فإنه يقف ليناقشه ويحاول أن يقنع الناس في هذه القضايا، فليس من حقك لمجرد أنك تختلف مع شخص حول فكرةٍ ما تزندقه وتكفّره وتضلّله، فهذا هو شأن الضعفاء والمعقدين والمتعصبين. وإلاّ فأيٌّ منا حدثت معه مشكلة مثل مشكلة الخوارج؟ وأيٌّ كانت له مشكلة مثل مشكلة علي بن ابي طالبعليه السلام مع عمر وأبي بكر وعثمان وطلحة والزبير ومع معاوية ومع ذلك فانك تجد علياًعليه السلام واسع العقل منفتح الآفاق يحاور بهدوء ويتكلّم بعقلانية وموضوعية. فكم عندنا من أمثال عليعليه السلام؟ ألا ترون أننا لمجرد أنّ أحداً يختلف معنا ببعض المسائل نُخرجه من

١ـ نفسه. ج ٢٧. ب ١٣. ص ٢٥٣. ح ١٤.

الإسلام؟! فالمقصود من الكلام هو أنْ نتعلّم من علي عليه السلام في رحابته وسعته.

س: قولُ النبي صلى الله عليه وآله: «لايحبك الاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق». هل هو خاصّ بعلي عليه السلام أم ينسحب على الرسول صلى الله عليه وآله وباقي الأنبياء والأئمة عليهم السلام أيضاً؟

ج: علي عليه السلام هو رمز الإسلام، وعندما يكون القول موجّهاً اليه «**لا يحبّك إلاّ مؤمن**» ـ بلحاظ عنوانه الرمزي للاسلام ـ فباعتبار أنّ المؤمن يتحرّك ليحبّ بعقله وقلبه وحياته من يجسّد الايمان خير وأروع وأكمل تجسيد، فكلّ من يجسّد الايمان يكون هذا الحب متعلّقاً به.

س: نرى أنّ الإمام علياً عليه السلام يتعرّض للسلطة بأسلوبين: أسلوب يرى فيه أنّ السلطة أهون من نعله البالي، وأسلوب يتحسّر فيه على فوات السلطة، وأنّ محلّه منها محلّ القطب من الرحى ينحدر عنه السيل ولا يرقى اليه الطير، فما هو تفسيركم لهذين الأسلوبين؟

ج: هو أسلوب واحد ذو شقين، ففي الاول يخاطب ابن عباس بقوله «يابن عباس أترى لهذه النعل ـ وكان يخصفها لأنها بالية ـ وَاللّهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إلاَّ أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلاً». وقال ايضاً: «لَوْ لاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[1]. فهي ـ أي السلطة ـ كالنعل البالي عندما تكون ذاتاً، وهي كالقطب من الرحى عندما تكون حقاً.

س: يناقش المؤرخون جدلية الثورة والدولة في انطباقها على مرحلة ما بعد

١ـ ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة للامام أمير المؤمنين عليه السلام. ج ١. ب ٣. ص ٢٠٢.

رسول الله صلى الله عليه وآله وبأنّ علياً عليه السلام ما كان له أن ينجح في إدارة الدولة وذلك باعترافه ان يكون وزيراً خير من أن يكون أميراً، فما هو رأيكم بذلك؟ وهل أراد الرسول صلى الله عليه وآله مجرد إدانة بعض الصحابة باثبات ولاية علي عليه السلام أو أنّه أراد أن يضع آلية للفرز المستقبلي للمخلص منهم ليبقى القلائل فقط مع علي عليه السلام؟

ج: نحن نناقش هؤلاء في مسألة جدلية الثورة والدولة، فعندما ندرس فكر الإمام علي عليه السلام واخلاصه، وندرس كيف أنّ شخصيته مطابقة لشخصية رسول الله صلى الله عليه وآله بمعنى أنَّ علياً عليه السلام لو استمر في مواصلة التجربة لأستمرّ أسلوب رسول الله صلى الله عليه وآله في إدارة الدولة واستمرت أخلاقية رسول الله صلى الله عليه وآله في التعامل، واستمر وعي الإسلام تماماً كما كان الأمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثمّ أننا عندما ندرس الذهنية الادارية التي كان الإمام علي عليه السلام يتمتع بها من خلال عهده لـ(مالك الاشتر) وندرس طريقته في محاسبة عمّاله، نعرف أن علياً عليه السلام لو تسلّم الخلافة لنجح نجاحاً باهراً، ولوضع الأمة على المحجّة البيضاء، لأنّه لم تكن هناك أية مشاكل على مستوى الواقع الإسلاميّ، فلن نجد أنّ أحداً من المسلمين على مستوى الرأي العام الإسلامي انذاك، ناقش مسألة ولاية علي عليه السلام. فالذين ناقشوا ذلك هم بعض الصحابة الذين ذكرهم التأريخ، والذين كانت لهم مصلحة في مناقشتها، فلم يُسمع أي صوت يرفض ولاية علي عليه السلام.

ولذلك نرى في مسيرة الزهراء عليها السلام أنّها عندما تحدّثت مع نساء المهاجرين والانصار اللاتي جئن يعدنها في مرضها، وتحدّثت عن حقّ علي عليه السلام قال الرجال بعد أن نقلت النساء إليهم غضب فاطمة عليها السلام بقولها «**أصبحت عائفة لدنياكنّ قالية لرجالكنّ**». «**لو أن علياً تقدم إلينا قبل أن نبايع لكنّا بايعناه**». الأمر الذي يعني أنه لم تكن هناك مشكلة في بيعة علي عليه السلام. فالنبي صلى الله عليه وآله لم يكن يريد إدانة بعض الصحابة، بل أراد أن يركّز الولاية في امتدادها في الواقع الإسلامي.

س: كيف نوفق بين موقف الزهراء عليها السلام حيث رحلت وهي غاضبة على الشيخين ومنزعجة منهما، وبين موقف علي عليه السلام حيث بايعهما، وأنها غضبت لذاتها وأن موقف عليّ عليه السلام كان عقلانياً؟

ج: إنّ موقف الزهراء عليها السلام هو موقف علي عليه السلام. لقد وقف عليّ موقفاً سلبياً رافضاً، كما وقفت الزهراء عليها السلام موقفاً سلبياً رافضاً، ثمّ لماذا وقفت الزهراء موقفاً عاطفياً؟ هل أن عاطفتها استجاشت على الخلافة لعليّ أكثر من عاطفة عليّ على نفسه؟ لقد غضبت الزهراء للحق لا للذات، ووقفت للدفاع عن الحق كما وقف علي عليه السلام للدفاع عن الحق بكل عزيمة وقوة. ولهذا عندما نقرأ «نهج البلاغة»، نجد قوله عليه السلام: «**أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلاَنٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ**»[1]. كان هذا الكلام يمثل الاحتجاج من علي عليه السلام والرفض لما حصل. نعم، بعد ذلك رأى علي عليه السلام أن مصلحة الإسلام في الصبر «**فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا**»[2]، وقد صدرت عنه كلمة رائعة تفسّر لنا صبره عليه السلام ومراعاته للجو رغم رفضه لشرعيته، وذلك في رسالته إلى أهل مصر، وهي موجودة في «نهج البلاغة»، وإني لأحب أن يقرأها كلّ مسلم شيعي حتىّ يعرف خطّ علي عليه السلام في الواقع الإسلامي عندما تتحرك الفتنة والخلافات والمشاكل، فيقول عليّ عليه السلام: «**فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلاَنٍ يُبَايِعُونَهُ فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلاَمِ يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دَيْنِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلاَمَ وَأَهْلَهُ** ـ يعني إن بقيت على الموقف السلبي.. الموقف الرافض.. الموقف غير المتعاون.. ـ **أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ** ـ لاحظوا كلمة «المصيبة»، فإنها تعبّر عن مدى إحساسه عليه السلام بمسؤوليته عن الإسلام ـ **أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلاَيَتِكُمُ**

١ـ نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية. ٢ـ م. ن.

الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلاَئِلَ يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهْنَهَ»[١]، أي ارتاح، وكان يقول: «وَوَاللَّهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً»[٢].

وعندما رآه ابن عباس وهو يخصف نعله وهو أمير المؤمنين، اعترض عليه، لأن ذلك لا يناسب مقامه كخليفة، قال ابن عباس: فقال لي عليه السلام: «مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ فَقُلْتُ لاَ قِيمَةَ لَهَا فَقَالَ عليه السلام وَاللَّهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلاَّ أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلاً»[٣]، إن إمرتكم تحمّلني عبئاً، فلا تتصوروا أني أعتز بالإمرة بأني صرت خليفة للمسلمين، فهذه النعل تفيدني أكثر من إمرتكم، فهي تقيني من الحرّ والبرد «إِلاَّ أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلاً» لذلك فإنَّ الإمام علياً عليه السلام كان يتحرّك حيث تتحرك مصالح المسلمين، وحيث تكون سلامة المسلمين، فنرجو أن نفكر بمستوى الإمام علي عليه السلام، فإن علاقتنا به عليه السلام ليست السيف الذي ضرب به (عمرو بن عبد ود) أو الذي قسم به (مرحب) قسمين، إنَّ علي بن أبي طالب عليه السلام موقف وفكر وحركة ومنهج، وعلينا أن نقرأه، أن نقرأ سيرته، فكره، علمه، أن لانكون مثل الذين قال لهم «سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي» فيقول له أحدهم: كم شعرة في رأسي. إن بعضنا غير مستعد ليقرأ «نهج البلاغة»، وغير مستعد أن يقبل أي موقف من مواقف علي عليه السلام إذا كان يتنافى مع عصبيته.. إنَّ الإسلام ليس عصبية، إنه فكر وموقف، وعلينا أن نعيش هذا الموقف، وأن نتزوّد بهذا الفكر.

س: في الغدير يحتفل المسلمون الشيعة، بينما نجد المسلمين السنّة، لا يحتفلون به بل لا يلمّحون حتىّ إلى الواقعة، ونحن نرى أنّ الشيعة يحبّون (الإمامة) وأهل السنّة يحبون (الخلافة) وهذا الموضوع يمتد إلى أكثر من ألف

١ـ نهج البلاغة، الكتاب ٦٢. ٢ـ م. ن، الخطبة: ٧٤. ٣ـ م. ن، الخطبة: ٣٣.

واربعمائة سنة، ولم نجد أي فريق يقترب من الاخر بسبب ذلك. فكيف تستطيع المذاهب المتفرقة أن تتوحد ليعيش المسلمون بحيث يحب بعضهم بعضاً، خاصة وأنّ المشكل الأكبر اليوم هو أن لا الخلافة للسنّة ولا الامامة للشيعة، فعلام نتحدّث عن الغدير ولا نتحدث عن الوحدة؟

ج: منذ (٥٠) سنة ونحن ندعو للوحدة الإسلامية انقياداً واتباعاً لنصوص القرآن واحاديث الرسول والأئمة عليهم السلام، ولكن المشكلة هي أنّ الوحدة الإسلامية لا تنطلق من قاعدة إسلامية ثابتة، بمعنى أنَّ المسلمين في خلافاتهم يبحثون المسألة في اطارها العاطفي البعيد عن الموضوعية، أي لابد من أن تتحرك مسألة الوحدة من ذهنية علمية موضوعية، لأنّ بقاء هذه العناصر التي تثير الخلافات بين المسلمين كما الدمامل ربما يجعلها تتفجر في اكثر من موقع. لذلك فعلى العلماء والمثقفين أنْ يدرسوا هذه المسألة دراسة علمية، لأننا لا نشجّع الخلاف بالطريقة الغوغائية، أو بالطريقة العصبية، أو بالطريقة الشعبية غير العلمية لأنّ الناس لا يستطيعون أن يبحثوا هذه الأمور كما أراد الله ورسوله ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[١]. ولكن في الوقت نفسه عندما نختلف في بعض القضايا وندعو المسلمين في خط الوحدة ـ الى الحوار، نقول إنّ هناك قضايا أساسية لابدّ أن نلتقي عليها، فنحن مثلاً لا نختلف في توحيد الله ولا في نبوّة رسول الله صلى الله عليه وآله ولا في كتاب الله عزّ وجل، ولا في اليوم الآخر، ولا في أركان الإسلام العبادية ولا في أكثر المفاهيم الإسلامية، بل ولا نختلف في المصلحة الإسلامية العليا على المستوى السياسي والاقتصادي، فلماذا ندخل هذه المسألة بنحو تكون حاجزاً بيننا وبينهم؟ لقد جرّب المسلمون الوحدة في الاختلاف والتنوّع، فالسّنة ليسوا

١ـ النساء: ٥٩.

فرقةً واحدة، فالمعتزلة سنّة، والاشاعرة سنّة، والحنفية سنّة، والشافعية والحنبلية والظاهرية كلّها فرق سنّية، ومع ذلك لا نجد هذا الحقد في هذا التعدّد. والشيعة كذلك مختلفون، فبالا مكان ـ والحال هذه ـ أن نرتفع إلى درجة الوعي بأن ننفتح على القضايا الكبرى معاً، لأنّ الاستكبار العالمي لا يريد رأس السُنّة ولا رأس الشيعة وحدهم بل يريد رأس الإسلام كلّه. وفي قبال ذلك قد نجد أنّ بعض الشخصيات الدينية الكبرى من غير المسلمين والتي تعمل على انتاج الروح الدينية الذي تلتزمه من دين، نجدها تنفتح على اليهود أكثر من انفتاحها على المسلمين، وان كان لمراعاة الشكليات الدبلوماسية دخل في تصريح هذه الشخصية أو تلك من رموز الاديان كالمسيحية. فمشكلة بعض المسلمين أنهم عاطفيون ترفعهم كلمة وتهبط بهم كلمة.

الملحق الشعري

في مدح ورثاء أمير المؤمنين عليه السلام

لسماحة آية الله العظمى السيد

محمد حسين فضل الله (دام ظله)

- ذكرى الوصي
- في ذكرى الميلاد
- مصرع الفجر

ذكرى الوَصي*

ذِكرى: وَهَلْ يَنْفَعُ الأَحْدَاثُ والذِّكَرُ إن لمْ يَكُنْ لِلْوَرَى فـي طَـيّها عِـبَرُ
ذكرىً: وَمَا ذِكَرُ الماضي سوى صُوَرٍ بَـيْضَاءَ، يَكْـمُنُ فـيها الثَّأرُ والحَـذَرُ
تـبدو لِـتَبْعَثَ مِـنْ تـارِيخَنا عِـظَةً يَســمو بِـهَا غَـدُنا الآتـيْ ويَـزدَهِرُ
وتُــلهِمُ الجِـيْلَ مِـنْ آيـاتِهَا سُـوَرَاً تَشِــعُّ فــيها لَــنَا الآراءُ والفِكَــرُ

***

والذِّكْرَيَاتُ: مَـثَارُ الوَعْـيِ.. تُـلهِمُنَا مِــنْ هَــدْيِهَا مـابِهِ نسمو وَنَـفْتَخِرُ
وَقَــبْسَةُ الحَـقِّ فـي شَـعْبٍ تـقاسَمَهُ حُكّــامُهُ: وأضَــلَّتْ عَــقْلَهُ النُّــذُرُ
وَيَــقْظَةُ الرُّوْح فــي دُنـيا مسـاومةٍ يَسُودُ فيها عَـلَيْنَا الخَـائِنُ الأشِـرُ(١)
وَوَثْـبَةُ العَـدْل والتـحريرِ، فـي بَـلَدٍ طَغَى بِـهِ الجَـوْرُ حَـتَّى كَـادَ يَـنْفَجِرُ
صُونوا بِهَا (غَدَكُمْ) كَـيْمَا تَـرَوْنَ بِـهِ جــيْلاً يَـرِفُّ عـليهِ البَأسُ والظَّـفَرُ
فَــمَا (غَــدٌ) غَـيْرُ زَرْعٍ قَـدْ تَـعَهَّدَهُ (ماضٍ) فَأزْهَـرَ فـيهِ الخَـيْرُ والثَّـمَرُ

***

---

*ـ أُلقيت في الحفلة الكبرى التي أقامها سدنة الروضة الحيدرية في الصحن العلوي الشريف في ليلة ١٣ رجب ١٣٧٢هـ ق بمناسبة ذكرى مولد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

١ـ الأشر: الشرير.

ذكرى الوَصيّ: وَكَمْ قُمْنَا نُنشِيدُ بِهَا دَهْراً تَوَالَتْ بِهِ الأَحْدَاثُ والغِيَرُ
وَكَمْ سَبَكْنَا القَوَافيْ في مَآثِرِهَا مَدْحاً تَفيضُ على أوزانِهِ الدُّرَرُ
كَأنَّما هِيَ مَلْهَاةٌ، نُسَخِّرُهَا لَلّهْوِ إِمَّا دَعَانا اللَّهْوُ والسَّمَرُ
وَنَحْنُ والجَوْرُ والطغيان يُحرِقُنا بنارِهِ، ولهيبُ الظُّلْمِ يَسْتَعِرُ
نمرُّ فيها سراعاً.. لا تُحَرِّكُنا أحداثُها، أو تقوّي عَزْمَنَا الذِّكَرُ
نُزجي لها النَغَمَ المذبوحَ مُرْتَجِفاً يذوبُ منهُ على أنّاتِهِ الوَتَرُ
ما قيمةُ الشّعرِ إنْ لم يَبْنِ مجتمعاً حُرّاً تسيرُ على منهاجِهِ العُصُرُ

***

سرُّ الولادةِ.. دنياً في جَوَانِبِهَا يسمو الخيالُ، ويغفو الظلُّ والثَّمَرُ
دنياً، يصوّرُهَا التاريخُ معجزةً تهوي على جانبيها الأنْجُمُ الزُّهُرُ
ويُبصِرُ الفكرُ فيها مِنْ دقائقِهِ ماليس يُدْرِكُهُ في نُورِه البَصَرُ
إشعاعةً من وراءِ الغيبِ يَسكبُها وحيٌ تشِعُّ به الدنيا وَتَزْدَهِرُ
تحوطُها هالةٌ قدسيَّةٌ رَفَعَتْ غشاوةً عن وليدٍ سوفَ ينتصِرُ
وشامَ فيهِ (عَليّاً) في تألّقِهِ رمزاً مِنَ العدلِ تُجْلى عِندَهُ الصُّوَرُ(١)

***

سرُّ الولادةِ دنياً رفَّ في غَدِها هُدَى الكتابِ، فلا خوفٌ ولا حَذَرُ
دنياً مِنَ الحقّ مَرْساةٌ قواعِدُهَا يحَوطُها الأبلجانِ العِزُّ والظَّفَرُ(٢)
تَمَحَّضَتْ عنْ حَيَاةٍ حُرَّةٍ بَعَثَتْ رُوْحَ الجِهَادِ، فلا ضعفٌ ولا خَوَرُ

١ـ شام: استل . ٢ـ الابلجان: المضيان، المشرقان .

تَسيرُ والدّينُ والقُرآنُ يَغمُرُها بِوحْيِهِ: وَجيوشُ الشّرْكِ تَنّدحِرُ
وَحَيْدرٌ يَتلقّاها، وفي يَدِهِ سَيْفٌ مِنَ الحَقِّ يَطغى عندَهُ الخَطَرُ
يرميْ فَيَحْصِدُ أرْوَاحاً ملوَّثَةً بالموبِقَاتِ فَلا يُبْقي ولا يَذَرُ
وَهكذا سَارَ ركْبُ الدِّينَ، في دَعَةٍ[1] رُوحِيَّةٍ، ليس يَغْشَى صَفْوَهَا كَدَرُ
والوحيُ يَبْعَثُ من قُرآنِهِ نُظُماً للكون، يَعْجَزُ عن إدْرَاكِهَا البَشَرُ
قُرآنُ حقٍّ، وكم مِنْ حِكْمَةٍ ظَهَرَتْ فيهِ، وكمْ في مَجَالي[2] آيِهِ عِبَرُ
يُمَهّدُ الدربَ للأجيالِ، يغرِسُهُ زهراً،تموج بهِ النُّعْمَى وتَنْهَمِرُ
والدّينُ أنشودةُ الأرواح مَاجَ بِهَا سَمْعُ الحَيَاة، وَشَعَّتْ عندَها الفِكَرُ
يُلقيْ بأعماقِنَا مِنْ وحيِها صوراً للحادِثَاتِ، ليَبْقَى بَعْدَهَا الأثَرُ
و(أحْمَدٌ) (وَعَليٌّ) يبعثانِ بها مِنْ ثورةِ الحَقِّ ما يعلو ويشتهرُ
هَدىً دَعامتُهُ حَقٌّ وتَضْحِيَةٌ وَدَعْوَةٌ يَتَهَاوى عِنْدَهَا القَدَرُ

***

يا سيّدي، يَا إمامَ العَدْلِ مَعْذِرةً فَقَد تَبَدَّلَ مِنَّا الرَّأيُ والنَّظَرُ
بَعَثْتَهُ مَثَلاً أعلى يُنيرُ لنا طُرْقَ الهدايةِ إمّا خَاننا البَصَرُ
وقلتَ هذا سبيلُ العَدْلِ مُنبلِجٌ أمَامَكُمْ، ومَعِينُ الحقّ مُنْهَمِرُ
حَتَّى مضى الفَجْرُ لم نَحْفَلَ بطلعَتِهِ ولمْ يَقُم في مَجَالي أفْقِهِ نُذُرُ
وأصبْبَحَ الدّينُ في أفواهِنَا كَلِماً نقولُها: ثُمَّ تمضيْ وَهْيَ تَسْتَعِرُ
يَمُدُّنا الغربُ بالنَّجْوى، فَنَتْبَعُهُ عُمْيَ البَصَائِرِ، لا رأيٌ ولا فِكَرُ

١ـ الدَّعة: السكينة والراحة.

٢ـ الواحد مجلى، وهو موضع الجلا، ما يرى من الوجه إأستقبل الوجه.

ويــــبعثُ الرأيَ مســـموماً فَـــتَلْقَفَهُ أرواحُـــنا بـــخشوعٍ وَهْــيَ تُـحتَضَرُ
كأنَّـــنا لمْ تَـــقُمْ فـــي أفْـــقِنا فِكَـــرٌ تَهْديْالصَّوَابَ، ولمْ تُنْصَبْ لنا سُـرُرُ
وَلَـــمْ نُشَـــيّدْ مِـنَ الإيـمانِ مَـمْلَكَةً يـهويْ لهـا المُـلْكُ إعـظاماً ويَـنْدَثِرُ
مَاضٍ لمسنا بِهِ أقـصى السَّـمَاءِ عُـلاً مَضَى، ولم يَـبْقَ إلا الحُـزْنُ والذِّكَـرُ
فَـــبْعَثُ لنـا قَـبَسَ الإيـمانِ مُـؤتَلِقاً عسى يـعودُ لنـا المـاضي فَـنَزدَهِرُ

النجف ١٢ / ٧ / ١٣٧٢ هـ.ق

في ذكرى الميلاد*

لا.. لَنْ يموتَ على الشّفاه نِدَاءُ ... ما دامَ يُخْصِبُ وَحْيَهُ الشُّهَدَاءُ
مَا دامَ يَقْتَحِمُ المجَاهِلَ ناهضٌ ... حُرٌّ بفكرتِهِ الحياةُ تُضَاءُ
يَتَرصَّدُ الفَجْرَ الطَّليقَ.. وفي الذُّرَى ... مِنْ روحِهِ، أنَّى يَسيرُ ضِيَاءُ
مَا دُمْتَ أنْتَ وفي انْطِلاقِكَ لِلهُدى ... نَهجٌ، رَعَتْهُ الشِّرْعَةُ السَّمْحَاءُ
وَعَلَى هُدَى ذكْرَاكَ مَوْلِدُ دَعْوَةٍ ... بُعِثَتْ لِيَنْعُمَ عِنْدَهَا البُؤَسَاءُ
وَلِدَتْ على شَفَةِ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ ... فَتلقَّفَتْهَا رُوحُكَ البَيْضَاءُ
وَوَعَيْتَ ثَوْرَتَهَا نِضَالَ حَقيقةٍ ... تَسْمو لِيَعْلوَ لِلْحَيَاةِ نِدَاءُ
وَحَضَنْتَ فِكْرَتَهَا، بِوَعْيٍ يَلْتَقي ... في روحِهِ الإيمانُ، والإيحَاءُ
وَمَضَيْتَ تَقْتَادُ الصُّفُوفَ لِيَقْظَةٍ ... ألوحْيُ في أعْمَاقِهَا وَضَّاءُ
فَتَلاقَتِ الأصداءُ وامْتَدَّ السُّرى ... وَتَلَفَّتَتْ لِلْمَوكِبِ الصَّحْرَاءُ
فَإِذا النَّبِيُّ وأنْتَ رَائِدُ فَجْرِهِ ... تَرْتَاعُ مِنْ لفَتَاتِهِ الظَّلْمَاءُ
وَعَقِيْدَةُ القُرآنِ تُمْرِعُ بالإخا ... دُنْيَا تُظَلِّلُ أفْقَهَا البَيْضَاءُ

***

لا.. لَنْ يَمُوتَ وَكُلُّ ذِكْرَى دَعْوَةٌ ... لِلحَقِّ، إنْ جُنَّتْ بِنَا الأهْوَاءُ
مَا قِيْمَةُ الذّكرى إذا لَمْ يَسْتَبِنْ ... هَدَفٌ، وَلَمْ يُثِرِ الحَيَاةَ نِدَاءُ

---

*ـ قصيدة في ذكرى ميلاد الإمام علي عليه السلام.

وَحَقِيقَةٌ بَيْضَاءُ يَفْضَحُ وَعْيُهَا ... مَا الفَّقَتْهُ الفَتْرَةُ السَّوْدَاءُ
ذِكْرَاكَ ذِكْرَى العَبْقَرِيَّةِ حُرَّةً ... تُعطي الحَياةَ لِيَنْعَمَ الأَحْيَاءُ
وَتَفِيضُ لا لِيُقَالَ، فَاضَتْ نَبْعَةٌ ... لَكِنْ لِتَخْصِبَ قَفْرَةٌ جَرْدَاءُ
ذِكرى العَدَالةِ، حينَ تَصْرَعُ قُوَّةً ... يَشْقَى بِسَوْطِ عَذَابِهَا الضُّعَفَاءُ
مَا المَجْدُ مَا الجَاهُ المُزَيَّنُ مَا الغِنَى ... فَالخَلْقُ عِنْدكَ فِي الحُقُوقِ سَوَاءُ
أَوْضَحْتَ مَنْهَجَهَا وَصُنْتَ حَيَاتَهَا ... مِنْ أَنْ يُدَنِّسَ طُهْرَهَا الأُجَرَاءُ
أَوْ يَشْفَعَ المُتَمَلِّقونَ لِغَاصِبٍ ... يَجْنِي لِتَحْمِيَ مَجْدَهُ الآبَاءُ
رافَقْتَ أَهْلَ البُؤْسِ فِي بَأْسَائِهِمْ ... فَمَضَيْتَ تَشْمَخُ بِاسْمِكَ البَأْسَاءُ

***

لَمْ تَرْضَ أَنْ رَفَعَتْكَ كَفُّ مُحَمَّدٍ ... عَلَمَاً تَسِيرُ بِهَدْيِهِ العَلْيَاءُ
حتَّى انْطَلَقْتَ، فَلَمْ يَطِبْ لكَ مَوْرِدٌ ... هَيْهَاتَ تُروى والقُلُوبُ ظِمَاءُ
أَوْ يَغْتَمِضْ جَفْنٌ وتَسْكُنْ أَنَّةٌ ... مَادَامَ يَلْتَحِفُ الدُّجَى الفُقَرَاءُ
فَرَضِيْتَ أَنْ تحيا وَيَخْشُنَ مَلْبَسٌ ... وَأَبَيْتَ - رُوْحَاً - أَنْ يَطِيبَ غِذاءُ
مادامَ - فِي أَرْضِ اليَمَامِةِ - جَائِعٌ ... أَوْ مُعْدِمٌ حَفَّتْ بِهِ الأَرْزَاءُ
أَطْلَقْتَهُ مَثَلاً لِيَبْقَى مَنْهَجاً ... لِلْعَدْلِ يَتْبَعُ هَدْيَهُ الأُمَنَاءُ

***

ذِكْرى الصَّرَاحَةِ في العقيدةِ لَمْ يَشُبْ[1] ... أَقْدَاسَهَا - عبرَ النِّضَالِ - رِيَاءُ
تَجْرِي بِها فِي النُّورِ لا مُتَلَمِّسَاً ... دَرْبَاً، يَحُوطُ ظِلالَهُ الإِغْرَاءُ

١- شابَ شوباً الشيء: خلطه، لا تشوبه شائبة أي لا عيب فيه، لا يُدنّسه شيء.

تَـرْعى مَكَـاسِبَهَا، فَـإِنْ مُـدَّتْ يَـدٌ سَـوْدَاءُ تَـدْفَعُهَا المُـنَى العَـمْيَاءُ
فَـالعَدْلُ يَـقْطَعُهَا، لِـيَبْعَثَ عَـالماً حُـرّاً تُـواكِبُ فَـجْرَهُ الأُمَـنَاءُ
ذِكْـرَاكِ نَـحْنُ هُـنَا نَـعيشُ حَـيَاتَهَا لِـيُطِلَّ مِـنْ خَـلْفِ السِّـنين جِـدَاءُ
فَـالدِّينُ عَـادَ، كَـمَا يَـلوحُ بِأُفْـقِنَا شَـبَحاً، فَـلا لَـحْنٌ ولا أَصْـدَاءُ
طَـوَتِ المَـطَامِعُ رُوْحَـهُ وتَـلَوَّنَتْ فِـي أُفْـقِهِ الأَشْكَـالُ والأَسْـمَاءُ
وإذا بِـنَا والتِّـيهُ يَـصْفَعُ خَـطْوَنَا نَـجْرِيْ فَـتَحْطِمُ زَهْـوَنَا الرَّمْـضَاءُ
والفِكْـرُ يَـعْثَرُهُ التِـوَاءُ رُعَـاتِهِ فَـتَلَقَّفَتْهُ تَـقَافَةٌ جَـوْفَاءُ
وَمَشَتْ بِـهِ سَـطْحِيَّةٌ عَـاشَتْ عـلى آفَـاقِهَا أَيَّـامُنَا السَّـوْدَاءُ
أَيَّـامَ كَـانَ الظُّـلْمُ يُـلْهِبُ سَوْطَهُ إِنْ رَفَّ بِـالفِكْرِ الصُّـرَاحِ لِـوَاءُ
والدِّيـنُ تَـحْكُمُهُ خِـلافَةُ مُـدَّعٍ يَـقْتَادُهُ الأَشْـرَارُ والدُّخَـلاءُ
وَأَتَـى الدَّخِـيلُ فَشَـاقَهُ أَنَّ الذي يَـحْمي العَـرينَ يَـلُفُّهُ الإِعْـيَاءُ
فَـمَضَى يَـمُدُّ شِـبَاكَـهُ فَـحَضَارَةٌ بَـرَّاقَـةٌ وَثَـقَافَةٌ هَـوْجَاءُ
وَمَـوَاكِبٌ قَـالوا: بِأَنَّ حَـيَاتَهَا لِـلْعِلْمِ فَـهْيَ طَـلِيْعَةٌ غَـرَّاءُ
تَـهْدي وتـدعو للـصَّبَاحِ فَـحَسْبُهَا مِـنكم ومِـنَّا الطَّـاعَةُ العَـمْيَاءُ
وكـما رَأَيْتَ فَـقَدْ جَـرَيْنَا حَـوْلَهَا وعلى العيونِ مِنَ الضَّبَابِ غِشَاءُ
وإذا بِـنا واللـصُّ يَسْـرِقُ وَحْـيَنَا الهَـادي، لِـيَعْبَثَ فِـيهِ كَـيْفَ يَشَـاءُ
وَيَـدُسُّ فِـيهِ سُـمُومَهُ لِـيُعِيْدَهُ نَـبْعَاً تُـعَكِّرُ صَـفْوَهُ الأَقْـذَاءُ
حَـتَّى انـتَهيْنا مِـثْلما شَـاءَتْ لنـا كَـفُّ الدَّخِـيلِ، كَأَنَّـنَا أَشْـلاءُ
وَكَأَنَّ تَـارِيخاً بَـنَاهُ مُـحَمَّدٌ وَحَـضَارَةً خَـضَعَتْ لهـا الأَرْجَـاءُ
أَقْـصُوصَةٌ تُـرْوى لِـيَسْمُرَ سَـامِرٌ لا ثَـوْرَةٌ وَعَـقِيْدَةٌ وإِبَـاءُ

***

أَرَأَيْتَ كَـيفَ الكُـفْرُ شَـلَّ حَـيَاتَنَا حَـتَّى طَـوَتْنَا الفِكْـرَةُ الشَّـلاءُ

مَـــا زالَ يَـــنْفثُ سُـــمَّهُ مُـــتَلَوِّناً فِـــيْنَا كَـــمَا تَـــتَلَوَّنُ الحِـــرْبَاءُ
حَتَّى اطْـمَأنَّ بـهِ المـصيرُ فأُهْـدِرتْ قِـيَمٌ وَجَـفَّ عـلى الهـجيرِ رَوَاءُ[1]
وَإذا النِّـــهَايَةُ أنْ تَـــعُودَ بِـلادُنَا لِـــلكُفْرِ وَهْـــيَ القَـلْعَةُ الشَّـمَّاءُ
وَكَـمَا عَـلِمْتَ.. فَـقَد بَـدَأنَا وَعْـيَنَا فَـــتَحَضَّنَتْهُ الدَّعْـــوَةُ الغَـــرَّاءُ
وانْدَاحَ لَيلُ الجَهْلِ وانْـدَفَعَ الضُّحَى يَـــرْوِي لنـــا: أنَّ الحَـــيَاةَ بِـنَاءُ

***

والدِّيـــنُ مَـاذا.. هَـلْ وَعَـيْنَا وَحْـيَهُ هَـــلْ شَـــوَّهَتْ قُـــرْآنَهُ الأهْـــواءُ
مَـــاذا يَـرُومُ الحَــاقِدُونَ فَــدِيْنُنَا ديْـــنُ الحَـــيَاةِ ونَـــهْجُهَا الوَضَّـــاءُ
الدِّينُ، لَـيْس الدِّيْـنُ، مَـهْمَا شَـوَّهُوا وِرداً تـصَاعَدَ فـي هُـداهُ دُعـاءُ[2]
أو نَـزْعَةٌ صُـوفِيَّةٌ تَـئِدُ الضُّـحَى فـــي روحِـــهَا لِـتَلُفَّهَا الظَّـلْمَاءُ
أوْ فِكْـــرَةً عـــاشَتْ لِـــتَخْدُمَ طُـغْمَةً تـــحيا لِـــيَشْقَى بِـــاسْمِهَا البُـــؤَسَاءُ
ومُـــخدِّراً يَـــعِظُ الضَّـــحَايا مُـــعْلِنْاً أنَّ السَّـــماءَ تَسُـــودُهَا الكُـــبَرَاءُ[3]

***

الدِّيـــنُ لَـــوْ وَعَتِ الحَـــيَاةَ مَـعَاشِرٌ فِكْـــــرٌ تُـــــحَرِّرُ بِـــاسْمِهِ الآراءُ
يدعو لِتَحريرِ الشُّعُوبِ فـليسَ مِـنْ قَـــانونِهِ أنْ يُـــقْهَرَ الضُّـــعَفَاءُ
أو يَـنْحَنْي شَـعْبٌ لِسَـطْوَةِ غَـاصِبٍ أوْيَـــنْتَشي ذِئْبٌ لِـــتُنْحَرَ شَـــاءُ
وَنِـــظَامُ حَــقٍّ ـ تَـلتقي بِكِـيَانِهِ وَبِـــروحِهِ رُوْحِـــيَّةٌ وَإخَـــاءُ
وَمَـــحَبَّةٌ تســـمو لِـتُنْقِذَ عَـالَماً مِـــنْ أنْ يُـــحَطِّمَ جَـانِحَيْهِ فَـنَاءُ

١ـ الرَّواء: الماء الكثير، المروي، الماء العذب.
٢ـ الورد: عبادة، قراءة القرآن.
٣ـ الكبراء: جمع كبير، المعلم أو الرئيس.

وَعَـدَالةٌ تأبـى طَـبيعةُ وَحْـيِهَا إلا بِأنْ يَـتَصَاغَرَ الإثْـرَاءُ
سَـارَتْ وقـانونُ الحَـيَاةِ يَـمُدُّهَا وَيَشُـدُّ سَـاعِدَهَا لَـدَيْهِ رَخَـاءُ
تَـخْتَطُّ لِـلثَّرَوَاتِ حَـدّاً إنْ طَغَتْ فـيها المُـيُولُ وَجُـنَّتِ الأسْـوَاءُ
وَتَشُـقُّ دَرْبَاً لاحِـبَاً[1]، لا ثَـرْوَةٌ يَشْـقَى بِـهَا شَـعْبٌ ولا بَأسَـاءُ
وَتَـلَفَّتَتْ لِـتُهِيْبَ فـي قُـرْآنِهَا أنَّ الخَـلائِقَ فـي الحُقُوقِ سَـوَاءُ
فَـلِكُلِّ شَـعْبٍ أفْـقُهُ..لَكِـنَّمَا لِـلْمُتَّقِينَ الرَّايَـةُ البَـيْضَاءُ
هـذا هـو الإسْـلامُ.. نَـهْجٌ وَاضِـحٌ لِـلْمُهْتَدِيْنَ وَدَعْـوةٌ سَـمْحَاءُ
تَـثِبُ الحَـضَارَةُ مِـنْ حـنايا رُوْحِـهِ طُـهْراً كَـمَا تَـتَوَاثَبُ الأضْـوَاءُ
مَشَتِ الحَـيَاةُ بِـهِ قُـروناً وَهْـوَ فـي زَهْـوِ الشُّـرُوقِ نَـضَارةٌ وَنَـقَاء
وَتَـحَضَّنَتْهُ يَـدُ الخُـلُودِ وَلَـمْ يَـزَلْ لِـلْخُلْدِ ـ مِـنْ آيـاتِهِ ـ إيْـحَاءُ
فَـتَمَسَّكُوا بِـهُدَاهُ تَـلْقَوْا هَـدْيَهُ فَـغَدَاً سَـتَبْلَى[2] هـذِهِ الأزْيَـاءُ

***

رَبَّـاهُ: نَـحْنُ هُـنَا التِـفَاتٌ ضَـارِعٌ مِـلءَ العُـيُونِ وَفـي الشِّـفَاهِ نِـداءُ
رَبَّـاهُ: نَـحْنُ هُـنَا وفـي أعْـمَاقِنَا أمَـلٌ وفـي نَـجْوَى الضَّـمِيرِ رَجَـاءُ
رَبَّـاهُ: ثَـبِّتْنَا عـلى إيـمَانِنَا لِـنَسيرَ نَـحْوَكَ والقُـلُوبُ وِضَـاءُ
وَارْفِـقْ بِـنَا وَأنِـرْ لنـا سُـبُلَ الهُـدَى إنْ بَـعْثَرَتْ أقْـدَامَـنَا الأخْـطَاءُ
وابْعَثْ لنا ذِكْـرَى الوَصِـيِّ فَـحَسْبُنَا إمَّـا أطَـلَّت.. هَـذِهِ الأَجْـوَاءُ

النجف الأشرف ١٣٧٩ هـ.ق

الأضواء س ١ عدد ١٣ ـ ١٤

١ـ اللاحب: الطريق الواضح.

٢- تبْلى: بلي بلى وبلاءً الثوب: رثَّ وصار بالياً.

مصرع الفجر*

أشْـرَقَ الفَـجْرُ.. مُـثْخَناً بـالجِراحِ   راعِشَاً: تـحتَ مِـخْلبِ السَّـفَاحِ
يـالَهُولِ الصَّـبَاحِ: مـا ائْـتَلَقَ النُّـو   رُ بِـأُفقٍ، إلاّ انـطَوَى لِـلنُّوَاحِ
وَتَـغَشَّاهُ مِـنْ ظَـلامِ ليـاليـ   ـهِ ضَبَابٌ يَسْتَلُّ زَهْوَ الصَّبَاحِ
كُـلَّما أَوْمَأَتْ يَـدَاهُ.. لِـتَنْبعِ   يَبْعَثُ الخِصْبَ فـي الرُّبـى والبِطَاحِ
واطْـمَأَنَّتْ بِـهِ الحَـيَاةُ.. تُـدِيْرُ الـ   ـكْأسَ مَـلآى بِـنُورِهِ الوَضَّـاحِ
أوَمَأَ اللَّـيلُ لِـلرِّمَالِ لِـتَجْتَا   حَ صَفَاءَ السَّنا ولُطْفَ المِرَاحِ[1]
هكـذا يَـبْدأ الصَّـبَاحُ ويَـهْوي الـ   ـنَّسْرُ، مِـنْ وَكْـرِهِ مَـهِيضَ الجَـنَاحِ
حَـامِلاً رَوْعَـةَ السَّـماءِ، وَعَـيْنَا   هُ الِـتفَاتٌ إلى رَبِـيعِ الكِـفَاحِ

***

أيُّ نَسْرٍ.. هذا الذي اسْتَقْبَلَ الصَّحْـ   ـراءَ.. بـالنُّورِ والهُدى والسَّمَاحِ
وَجَـرَى يَسْـتَحِثُّ قَـافِلَةَ الرَّكْـ   ـبِ إلى رَوْنَـقِ الضُّحَى اللَّـمَّاحِ[2]
وَنَشيدُ الإيـمان يَـنْسَابُ مِـنْ نَـجْـ   ـواهُ.. كـالحُلْمِ فـي جُفُونِ المِـلاحِ
يُـلهِبُ الشَّـوطَ كُـلَّما ازْورَّ[3] عَـنْهُ   سَـابِقٌ خشْـيَةَ اللَّـظَى والصِّفَاحِ
إنَّـهُ الفَـاتِحُ الذي يَـبْعَثُ الرَّحْـ   ـمَةَ.. فـي كُلِّ خَـافِقٍ مُـلْتَاحِ[4]
هَـمُّهُ: أنْ يَـمُدَّ أروِقَـةَ النُّـوْ   رِ سَـلاماً: عـلى الحِمَى المُسْتَبَاحِ
وَيَـزُفَّ الإسـلامَ لِـلْمَوْكِبِ الآ   تـي نِـظَاماً يَـمُوجُ بـالإصْلاحِ

---

*ـ في ذكرى إستشهاد الإمام علي عليه السلام.   ١ـ المراح: النشاط والفرح.
٢ـ اللمّاح: اللامع، الشديد البياض.   ٣ـ أزورّ: انجرف ومال.
٤ـ ملتاح: المتغير من السفر وغيره.

أيُّ نَسْرٍ.. هـذا الذي اقْـتَحَمَ القِـمَّةَ.. فـي غَـمْرَةِ الجِـهَادِ الصُّـرَاحِ[١]
واسْتَثَارَ اليَـنْبُوعَ مـنها لِـيَنْهَلَّ رَبـيعـاً عـلى الرِّحَـابِ الفِسَـاحِ
والشَّـبَابُ الطَّـليقُ مِـلءُ جَـنَاحَيْـهِ يُـحَيِّيْ طَـلائِعَ الإصْـبَاحِ
وعـلى ثَـغْرِهِ نِـدَاءُ حَـيَاةٍ تَـتَهَادى فـي عَـالَمٍ فَـيَّاحِ[٢]
يَـمْلأُ الحُبُّ رُوْحَـهَا ويـطوفُ الـفِكْرُ فـي أفْـقِهَا طَـليقَ الجَـنَاحِ
حَـيْثُ لا البَـغْيُ يَـحْشِدُ الهَـوْلَ فـي الأرْضِ، ولا الظُّلْمُ يَزْدَهِي بِـالسِّلاحِ

***

يـا أمـيرَ الإسـلامِ: نَـهْجُكَ حَـيٌّ خَـالِدٌ فـي قَـرَارَةِ الأرْوَاحِ
أنْتَ أطْـلَقْتَ فَـنَّهُ فِـي رِحَـابِ الـحَقِّ: أنْشُـودَةً لِكُـلِّ صَـبَاحِ
وتَـلَقَّتَ نَـحْونا.. مِـنْ وراءِ الدَّهْـرِ.. تَـخْتَطُّ صَـفْحَةَ الإصـلاحِ
لِـتُعِيدَ الحَـيَاةَ فـينا.. كِـياناً ثَـائِراً فـي عَـزِيمةٍ وطِـمَاحِ
يَـتَخَطَّى الطَّـرِيقَ فـي زَحْـمَةِ الهَـوْلِ.. وفـي كَـفِّهِ لِوَاءُ النَّـجاحِ
ونِـظَاماً لِـلْحُكْمِ يَـصْفَعُ بِـالنُّوْرِ.. قِـنَاعَ المُـهَرِّجِ السَّـفَاحِ
يَـتَهَادى لِـيَفْرُشَ الدَّرْبَ بِـالوَرْدِ أمَـامَ المُـنَاضِلِ الطَّـمَّاحِ
فَـيُرِيْنَا أنَّ التَّـعَاوُنَ فـي العَـيْشِ سـلاحٌ يُـزرِي بِكُـلِّ سِـلاحِ
كُـلُّ فَـرْدٍ مِـنَّا أمَـامَ الضَّـميرِ الـحُرِّ، راعٍ لِشَـعْبِهِ المِسْـمَاحِ[٣]
ونَـذِيرٌ: إنْ قَـنَّعَ البَـغْيُ وَجْـهَ الـحَقِّ، واخْـتَالَ بـالفُجورِ إبَـاحِيْ
هكذا كُنْتَ دَفْـقَةً مِـنْ شُـعَاعِ اللهِ فَـاضَتْ عـلى نَشـيدِ الفَـلاحِ
فَـإذا أنْتَ والسَّـفِينَةُ فـي البَـحْـرِ.. تَـمُدُّ الجِـبَاهَ لِلْمَلاحِ
يـا أمـيرِ الإسـلامِ عَـادَتْ لياليـنا سُكـارى بِـخَمْرةِ الأقْـداحِ

١ـ الصُّراح: الخاص من كلّ شيء. ٢ـ فيّاح: فياض. ٣ـ المسماح: الجواد.

الشُّـــعَاعُ الذي سَكَـــبْتَ بـدنيا ... هـا تَـلاشى فـي عَـاصفاتِ الرِّيَـاحِ
والحـياةُ التـي أثَـرْتَ جَـنَاحَيْـ ... ـها بِـيَنْبوعِ رُوْحِكَ النَّـضَّاحِ
عَــثَرَتْ فـي السُّـرى[1] بِأحـلامِ ... ماضيها.. فَحَنَّتْ إلى كُؤوسِ الرَّاحِ
واسْتَدَارَتْ إلى سَرَابٍ يَطُوفُ الـ ... وهْـمُ فـي بَـرْقِهِ رَقـيقَ الوِشَـاحِ
وَتَـنَاسَتْ عَـهْدَاً تَـهُلُّ حـواشيـ ... ـهِ، بِـعِطْرِ النُّـبُوَّةِ الفَـوَّاحِ
حَـيْثَ كَـانتْ عَـقيدةٌ تَـدَعُ الصَّـفَّ ... ـجَحيماً مُـرَوَّعاً فـي السَّـاحِ
وَقُـرَيشٌ فـي غَـمْرَةِ الحَـرْبِ تـرنو ... فـي ذُهُـولٍ إلى نَـذِيرِ الكِـفَاحِ
وإذا بـالسَّمَاءِ تَـنْفَحُ بَـدْراً ... بِـوِسَامِ مِـنْ آيِـهَا النَّـفَّاحِ
وإذا أنْتَ تَـخْتمُ الفَـتْحَ بـالتَّكْـ ... ـبيرِ.. رَمْـزاً لِـرَوْعةِ الإصْـبَاحِ

***

يـا أمِـيْرَ الإسْـلامِ عَـادَ لنـا التَّـا ... رِيـخُ.. يَـرْوِي حَكَـايةَ الإِصْـلاحِ
فَـإذا «المُـصْلِحُونَ» بَـيْنَ فَـريقٍ ... يُتْرِعُ الكَأسَ مِنْ دِمَاءَ الأضَاحي[2]
وَفَـرِيقٍ يَـخْتَطُّ خَـلْفَ مَـبَادِيـ ... ـهِ طَـرِيْقَ النَّـجَاةِ لِـلأرْبَاحِ
وَكَـمَا تَـعْهَدُ الحَـيَاةَ جـرى الـ ... ـدَّهْرُ.. عَـلينا بِبُؤْسِهِ المُجْتَاحِ
فَـإذا نَـحْنُ فـي مَتَاهٍ مِـنَ العَيْـ ... شِ، نُـغَذِّيْ كِـيَانَنَا بـالصِّيَاحِ
بَـيْنَ فَـقْرٍ يَسْتَنْزِفُ الدمَ فِـي العِرْ ... قِ.. وَجَهْلٍ يَـمْتَصُّ حُـمْرَ الجِـرَاحِ
ونُـفُوسٍ ضَـعِيفَةٍ تَـتَلَوَّى ... فِـيْ خُـنُوعٍ عـلى سَعِيرِ النُـوَاحِ
وَكِـيانٍ ضَـحْلٍ يَـعُبُّ مِـنَ المـا ... ضِـيْ بَـقَايَا ثُـمَالَةِ[3] الأقْـدَاحِ
وَخَـيَالٍ تَـثَاءَبَتْ فـي مَـجَالِيْـ ... ـهِ طُـيُوفُ الأتْـرَاحِ والأفْـرَاحِ
وَوَقَـفْنَا عـلى الطَّـريقِ حَـيَارى ... نَـتَمَلَّى تَـوَاثُبَ الأشْـبَاحِ
وَنُنَاجي الطُّلولَ فـي وَحْشَـةِ الليْـ ... ـلِ بِألْـحَانِ شَـاعِرٍ صَـدَّاحِ

١ـ السُّرى: سير الليل. ٢ـ يُترع: يملأ. ٣ـ ثمالة الأقداح: ما بقي منها.

ثُمَّ جاءَ الغَريبُ في غَفْوةِ الما ضي.. وَصَمْتِ العُقُولِ والأرْواحِ
وَرَآنا كَمَا يَرومُ ـ شِيَاهاً تَتَرَامى على يَدِ الذَّبَّاحِ
لَيْسَ فِيْنَا مَنْ يَحْمِلُ العُمْرَ فـ ـي كَفَّيْهِ.. قُرْبَى لِنَهْضَةٍ وَصَلاحِ
فَمَضَى يَحْرُثُ العقِيدةَ في اللَّيـ ـلِ بِفِكْرٍ مُدَنَّسٍ فَضَّاحِ
وَيُرِينَا أنَّا نَعِيشُ بِأفْيُو نٍ يَشُلُّ الحَيَاةَ في الفَلاَّحِ
وَبِأنَّ الأدْيَانَ لَمْ تَأتِ إلاَّ لِزَمَانٍ مَضَى دَجِيِّ النَّوَاحي
وَكَمَا تَعْهَدُ السُّرَى هَرَعَ القَو مُ.. فَكَانوا فَرَاشَةَ المِصْبَاحِ
وَأفَاقُوا مِنْ سَكْرَةِ الوَهَمِ يَرْتَا دُوْنَ مَرْعَاهُ في النَّهَارِ الضَّاحِي
فَإذا هُمْ في قَفْرَةٍ تَخْنُقُ الرُّوْ حَ بِحُمَّى هَجِيرِها اللَّقَّاحِ
وَحَيَاةٍ لَمْ تَحْتَضِنْ غَيْرَ شَوْكٍ يَنْشُدُ الرِّيَّ مِنْ دِمَاءِ الأقَاحِ(١)
وَيُميتُ النَّشيدَ إنْ بَدَأ الطَّيْـ ـرُ يَزُفُّ الصباحَ لِلأدْوَاحِ
هكَذا نَحْنُ في الحياةِ.. مَجَالٌ لِسِبَاقٍ.. وَمَوْرِدٌ لِرَبَاحِ
فَاطَّلِعْ في رِحَابِنا شُعْلَةً تَضْـ ـرَى وَعَزْماً يُثيرُ سُمْرَ الصِّفَاحِ
وَتَألَّقْ بِأفْقِنَا أمَلاً يَبْـ ـدو رقِيقاً كالكوكَبِ اللَّمَّاحِ
فَعَسَى أنْ نعودَ في مَطْلَعِ الفَجْـ ـرِ إلى فَجْرِكَ الأغَرِّ الضَّاحي*

النجف ٦ / ٩/ ١٣٧٤ هـ.ق

١ـ الأقاح: مفردها إقحوانه، نوع من النبات الجميل.

*ـ نشرت في العدد السابع من مجلة العرفان، المجلد الثالث والأربعين ١٩٥٦م ـ ١٣٧٥هـ.ق.

مصادر الكتاب

- تفسير من وحي القرآن.
- كتاب قضايانا على ضوء الإسلام.
- كتاب في رحاب أهل البيت عليهم السلام ج١.
- كتاب اسلوب الدعوة في القرآن.
- كتاب الندوة (بأجزائه التسعة).
- ديوان قصائد للإسلام والحياة.

الفهرس

المقدمة ٥

المدخل

كيف نقرأ التاريخ ١٣
ملاحظات أولية ١٥
سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام ١٧
رسالة الأئمة عليهم السلام ١٨
الينبوع الصّافي ٢٠
أسباب التزوير ٢١
جلاء المفاهيم ٢٣
مواجهة جديدة ٢٤
تنقية التراث ٢٥
مقاييس تنقية التراث ٢٧
قبسات قرآنية في معنى الحق ٢٩
معاني المفردات ٢٩
والوزن يومئذٍ الحق ٢٩
أنزل الكتاب بالحق والميزان ٣٠
ميزان فض المنازعات في الإسلام ٣١
الأكثرية لا تمثل خطّ الهدى ٣٣
الحق يدفع الباطل ٣٦

الفَصلُ الأوّلُ

النشأة ٤٣
حديث الإمام علي عليه السلام عن طفولته ٤٣
في مدرسة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ٤٧
تعهّده طفلاً ٤٧
إبنُ الإيمان ٤٧
الإعداد المتعدّد الجوانب ٤٩
تلميذ الرسول صلى الله عليه وآله ٤٩
الإمام علي عليه السلام والهجرة النبوية ٥١
فلسفة الهجرة في الإسلام ٥٤
الإمام علي عليه السلام وبيت الزوجية ٥٧
عاشا عليهما السلام للإسلام ٥٨
تقاسم مسؤولية البيت ٥٩
قصة خطبة علي عليه السلام ابنة أبي جهل ٦١
الفَيْصَل في الحروب ٦٥
مع علي عليه السلام في غزوة بدر الكبرى ٦٥
مبررات الحرب ٦٦
علي عليه السلام في معركة الأحزاب ٦٩
مع سير المعركة ٦٩
خطة المسلمين ٧٠
مقتل رأس الشرك ٧٢
حوار «علي» عليه السلام و «عمرو» ٧٣

علي الإيمان كلّه ٧٥
المدد الإلهيّ ٧٦
علي عليه السلام عند وداع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ٧٧

الفصل الثاني

حادثة الغدير ٨٣
قصة الغدير ٨٤
علي عليه السلام المرجع الوحيد ٨٩
حديث النبي صلى الله عليه وآله عن علي عليه السلام ٨٩
المحبوبُ لشخصه ٩٠
احتياجُ الكلّ إليه ٩١
الولاية للإمام علي عليه السلام من خلال القرآن ٩٥
مناسبة النزول ٩٥
خط الولاية الذي يجب التزامه ٩٦
ولاية الإمام عليّ عليه السلام من خلال الآية ٩٧
لمحة خاطفة عن المناقشات حول الفكرة ٩٩
الغدير حقيقة خالدة ١٠١
الانكفاء عن خط الولاية ١٠٢
الدراسة التحليلية النقدية للتأريخ ١٠٤
مناقشة أطروحات الخلافة ١٠٥
من أين نأخذ المنهج ؟! ١٠٧
درس الغدير ١٠٨

الفصل الثالث

الإمام علي عليه السلام وقيادة الأمة ١١٥
علي عليه السلام وفراق فاطمة عليها السلام ١١٩
المسؤولية الرسالية في حياة الإمام علي عليه السلام ١٢١
مشورة الإمام علي عليه السلام لعمر بن الخطاب ١٢٢
اسلوب الحكم عند الإمام علي عليه السلام ١٢٥
خطاب الافتتاح ١٢٥
حرمة المسلم ١٢٧
كتاب الإمام علي عليه السلام إلى عماله على الخراج ١٣٢
الافتتاح بالموعظة ١٣٣
إنصاف الناس ١٣٥
خطاب الإمام علي عليه السلام لقادة الجيوش ١٣٧
كتاب الإمام علي عليه السلام إلى الحارث الهمداني ١٤١
التمسّك بالقرآن ١٤١
التصديق بالحقّ ١٤٣
الإعتبار بالماضي ١٤٣
تعظيم لفظ الجلالة ١٤٤
الإكثار من ذكر الموت ١٤٥
إجعل نفسك ميزاناً ١٤٧
حاذر من الأعمال المخجلة ١٤٧
صن عرضك ١٤٨

لا تحدّث بكل ما تسمع ١٤٨
تكذيب كلّ المسموعات جهل ١٤٨
كظم الغيظ ١٤٩
التجاوز عند المقدرة ١٤٩
الحلم عند الغضب ١٤٩
الصفح من موقع السلطة ١٥٠
استصلاح النعم ١٥٠
العناية بالأهل ١٥١
تقديم المال ١٥٢
إعرفوا أهل البيت عليهم السلام ١٥٣
مواصفات الصحبة الصالحة ١٥٥
أي المساكن أفضل ؟ ١٥٥
لا تتدخل في شؤون الآخرين ١٥٦
التحذير من الجلوس في الأسواق ١٥٧
انظر إلى من فضّلت عليه ١٥٧
اشهد الجمعة ١٥٨
طاعة الله في كلّ شيء ١٥٨
المخادعة في العبادة ١٥٩
النهي عن مصاحبة الفسّاق ١٦٠
إحذر الغضب ١٦٠
كتاب الإمام علي عليه السلام إلى أهل مصر ١٦١
سيف الله ١٦٣
إدارة الخلافة في خطّ المعارضة ١٦٥

كتاب الإمام علي عليه السلام إلى طلحة والزبير ١٦٧
كتاب الإمام علي عليه السلام إلى أهل الكوفة ١٦٩
الإمام علي عليه السلام الروح السمحاء ١٧١
الإمام علي عليه السلام والخوارج ١٧٣
الاحتجاج على من شهد صفين ١٧٦
تحكيم القرآن ١٧٩
الردّ إلى الرسول صلى الله عليه وآله ١٨٠
تأجيل التحكيم ١٨٠
أفضل الناس ١٨١
الاحتجاج على تجاوزات الخوارج ١٨٣
الموقف من علي عليه السلام ١٨٥
شكوى علي عليه السلام المريرة ١٨٧
مناقشة (لا حكم إلاّ الله) ١٨٨
وعي الشعار ١٩٠
الدقّة في التشخيص ١٩١
الشهادة والوصية الخالدة ١٩٣
المبدأ الأول ١٩٣
المبدأ الثاني ١٩٤
المبدأ الثالث ١٩٥
المبدأ الرابع ١٩٦
المبدأ الخامس ١٩٧
نحن والإمام علي عليه السلام ١٩٨
الإنتماء للإمام علي عليه السلام مسؤولية ٢٠٠

الفصل الرابع

الهدف من الحياة ٢٠٧
كتابه عليه السلام في معنى الزهد ٢٠٧
هدف الحياة ٢٠٩
كتابه عليه السلام في التحذير من الدنيا ٢١١
اشاعة المحبة والأُلفة ٢١٣
دروس في المخالطة ٢١٦
الإمام علي عليه السلام منهج الحياة ٢٢٣
التوازن الإجتماعي ٢٢٥
الغدر في الاحاديث الشريفة ٢٢٦
الوفاء بالعهد ٢٢٨
لا يجوز الغدر حتىّ بغير المسلمين ٢٣٠
إفشاء السر غدر ٢٣١
الإمام علي عليه السلام وكراهة الغدر ٢٣٢
الغدر في موضعه وفاء ٢٣٥
إجتناب الغدر في الحياة الاجتماعية ٢٣٥
وضوح الرؤية ٢٣٧
الموقف في الفتنة ٢٣٨
ما هي الفتنة ٢٣٩
نصرة المظلومين ٢٤٢
ليعلِّم المسؤول نفسه أولاً ٢٤٤
الأنبياء والأوصياء مثل عليا ٢٤٥

افضل أسلوب للمخالطة ٢٤٦
إكتساب الاخوان والتفريط بهم ٢٤٩
المعرفة حجّة ٢٤٩
استنطاق الإمام علي عليه السلام ٢٥٠
حقيقة التطوّر ٢٥١
مفهوم التطوّر عند الإمام عليّ عليه السلام ٢٥٣
الانتفاع من التجارب ٢٥٥
التلوّن في الدين ٢٥٧
درس الإمام علي عليه السلام ٢٥٩
خصال أهل الإيمان وأهل الضلال ٢٦١
خصال أهل الإيمان ٢٦١
أحباء الله ٢٦٣
مصباح الهدى ٢٦٥
التذكير بالنعم الإلهية ٢٦٨
الصبر على تحمّل المشقات ٢٧٠
همّ الآخرة أولاً ٢٧١
الدليل إلى الهدى ٢٧٣
المؤمن مصباح الدنيا ٢٧٥
خصال أهل الضلال ٢٧٨
مقتضيات الوثاقة ٢٧٨
تجنيد الدّين للابتزاز ٢٨٠
المظاهر الزائفة ٢٨٢
الأئمّة عليهم السلام اعلام الدّين ٢٨٤

الأئمة عليهم السلام أحياءُ ما بقي الزمن ٢٨٥
كشف الحساب ٢٨٧
القرآن في حياة الإمام علي عليه السلام ٢٩١
حديث القرآن ٢٩١
اطلب النصيحة من الله ٢٩٦
التواضع لله ٢٩٧
قراءة القرآن في الحياة ٢٩٧
أدعية الإمام علي عليه السلام ٢٩٩
في دعائه لنفسه عليه السلام ٣٠٠
في ثنائه على ربّه ٣٠٢
في دعائه للنبي صلى الله عليه وآله ٣٠٣
دعاؤه في الحرب ٣٠٥
الدعاء في حالي النصر والانكسار ٣٠٦
الاستنهاض للجهاد ٣٠٧
من دعائه في لقاء العدو ٣٠٨
المطالبة بالحكم ٣٠٩
مسؤولية الانتماء للإمام علي عليه السلام ٣١١

الفصل الخامس

التفكير مفتاح المعرفة ٣١٧
التاريخ مصدر فكر ٣٢١
مع الإمام علي عليه السلام في رحابة علمه ٣٢٣

الفكر عبادة ٣٢٧
جولة في مصادر الفكر ٣٣١
دور الفكر على المستوى الروحي ٣٣٣
الفكر والاعتبار ٣٣٧
قيمة التجربة ٣٤٣

الخاتمة

حبّ علي عليه السلام وبغضه ٣٤٩
مشكلة الغلوّ ٣٥١
أتباع الإمام علي عليه السلام ٣٥٢

ملحق الأسئلة ٣٥٥
الملحق الشعري ٣٨٥
ذكرى الوصي ٣٨٧
في ذكرى الميلاد ٣٩١
مصرع الفجر ٣٩٧
مصادر الكتاب ٤٠١
الفهرس ٤٠٣

❍ عندما نريد أن نتمثّل خطّ علي عليه السلام في الواقع ، تكفينا كلمة (**علي مع الحق والحق مع علي**) لنعرف منها أنه ليست هناك مسافة تفصل بين علي عليه السلام والحق ، فهو يمثّل التجسيد الواقعي للحق ، كما يمثل الحق التجسيد الواقعي لكل منطلقات الإمام علي عليه السلام ولكل واقعهِ في كل مجالات الحياة .

❍ كُن شيعياً أو سنياً أو مسيحياً ، كُن أيّ شيء فإنك لا تملك إذا تطلّعت إلى علي عليه السلام في جميع آفاقه الروحية وإخلاصه وجهاده وعلمه إلاّ أن تخشع أمام هذه الشخصية التي من الصعب أن تجد شخصية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تملك ذلك كله.

المرجع الديني
السيد محمد حسين فضل الله (دام ظله)